الصخب والعنف

وليم فوكنر
الحائز على جائزة نوبل للآداب

ترجمه وقدم له

جبرا إبراهيم جبرا

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ٨٠٧٩٠١ ،
برقياً موكيالي بيروت . ص . ب ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الثالثة ١٩٨٣

الصخب والعنف

دراسة بقلم جبرا ابراهيم جبرا

« غداً ، وغداً ، وغداً ،
وكل غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة يوماً إثر يوم
حتى المقطع الأخير من الزمن المكتوب ،
وإذا كل أماسنا قد أنارت للحمقى المساكين
الطريق إلى الموت والتراب . الا انطفئي ، يا شمعة وجيزة !
ما الحياة إلا ظل يمشي ، ممثل مسكين
يتبختر ويستشيط ساعته على المسرح ،
ثم لا يسمعه أحد : إنها حكاية
يحكيها معتوه ، ملؤها الصخب والعنف ،
ولا تعني أيّ شيء . »

(مكبث لشكسبير)

١

عندما منح الكاتب الامريكي وليم فوكنر جائزة

نوبل للأدب عام ١٩٥٠ . كان عمره ثلاثاً وخمسين سنة » . وكان قد قضى أكثر من ربع قرن بكتابة الروايات ، وأنجز منها عدداً كبيراً .

وهي ليست بالكتب اليسيرة القراءة . بل ان أكثر القراء كانوا يجدون بادئ الأمر في أسلوب فوكنر الطويل الجمل ، المركب الصور ، المعقد المبنى ، المليء بالكلمات المزدوجة الصياغة ، اشارة إلى ضرب من الفوضى الذهنية والعاطفية في المؤلف ، وعائقاً لهم عن تذوق فنه . ولكن فوكنر ظل منزوياً في بلدة صغيرة في احدى الولايات الجنوبية (اكسفورد ، مسيسبي) ، منصرفاً عن المعارك الأدبية إلى كتابته واسلوبه . وقد خلق اسطورة بعيدة الأصول ، منتشرة الفروع ، تضيف اليها كل رواية يكتبها تفصيلاً جديداً واتساعاً جديداً . وكان رائده في ايجاد هذه الأسطورة الخلاقة ان يصور ما يدعوه الامريكيون « الجنوب » : وهو يتألف من الولايات التي انتعشت على زراعة القطن واستخدمت الزنوج رقيقاً إلى ان اندلعت نيران الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب ، فخسر الجنوب الحرب ، وألغي الرق ، وغزا الشمال الجنوب بوسائل شتى وتغيرت معالم الحياة فيه .

وهذا التغير ، بما فيه من انحطاط أو سمو ، من شهامة أو حقارة ، وبما سبقه وتلاه من جرائم وصراع وهتك عرض ، هو موضوع فوكنر . و « الشرف والاباء » كلمتان تترددان في أكثر كتبه . الشرف والاباء والحب والشجاعة ، وقد أحاطت بها قوى الفساد والجريمة والمادية والجشع والخسة . فإن فوكنر يرى في قصة الجنوب مصغراً لما حلّ بالعالم من فوضى خلقية وانحلال اجتماعي ، ويرى في ذلك مأساة كونية . وقد قيل ان فوكنر لا ينتقي من المواضيع إلا ما كان قبيحاً أو مرعباً ، كأنه بذلك يغذي الغرائز الدنيا في القراء . وهذا في الواقع عكس ما يرمي اليه . لقد أراد ان يجابه مشكلة الشر ، ويتفحصها من كل جانب ،

(*) توفي فوكنر في ٦ تموز ١٩٦٢ وهو في الخامسة والستين من عمره .

لكي يرى فعلها في حياة الانسان . وهو لذلك لم يترك رذيلة أو جريمة لم يجد لها مكاناً في كتبه : كصور الاغتصاب والسلب والزنا بذوي الرحم ، والقتل والانتحار ، وقتل الأخوة ، وادمان المخدرات والمسكرات ، وسلب القبور ، وتزاوج البيض والسود ، ومضاجعة الموتى ، والفحشاء والبغاء ، وقتل الجماهير للشخص ، والخيانة والأنانية ونكران الجميل . فهي كلها تصور مأساة « الجنوب » ، وبالتالي مأساة الانسان . وتنطلق كلها من قلم المؤلف عنيفة عاتية ، تعبر عن غضبه واشمئزازه . ولكنه يضع ازاءها الفضائل التي يراها آخذة في الزوال : الشهامة ، الشجاعة ، الحب ، الشرف ، الاباء ، الشفقة .

وقد وضع فوكنر لأسطورته حدوداً جغرافية ، وأرقاماً للمساحة وعدد السكان ، وأوجد للمقاطعة عاصمة وقرى ، كلها من خلقه . وجعل هذه المقاطعة الخيّالية في ولاية مسيسبي ، واسمها « يوكناباتوفا » ، وعاصمتها « جفرسن » ، (وهذه تشبه كثيراً بلدة اكسفورد ، حيث يقطن المؤلف) . وأكثر السكان — عدا أصحاب الحوانيت والحرف — مزارعون أو حطابون ، وحاصلاتهم هي على الأغلب بالات القطن التي يشحنونها إلى مدينة ممفيس (وهذه حقيقية ، ويجعلها فوكنر مركزاً لكل ما يعتلج في المدن من فسق) . والبعض منهم يقيم في بيوت ضخمة ، هي بقايا عصر انقضى ، والبعض الآخر في منازل خشبية لا بأس بها . أما الأكثرية فمستأجرون ، وليست منازلهم بأفضل من منازل العبيد أيام ما قبل الحرب الأهلية .

ولكي يحسن القارئ فهم أي رواية من روايات فوكنر ، يجب ان يطلع مقدماً على موجز للاسطورة التي تجعل من الروايات أجزاء متواشجة . وفحواها ان « الجنوب القصي » **Deep South** كان يأهله قوم من الارستقراطيين ، كعشيرة سارتوريس ، وجماعة من النازحين الجدد ، أمثال الكولونيل ستبن . وكلتا الجماعتين عازمة على انشاء نظام اجتماعي

دائم على الأراضي التي اغتصبوها من الهنود الحمر ، وذلك بتخليف نسل يحافظ على التقاليد الأوروبية ، وهي تقاليد الشرف والفروسية . على انه كانت في صلب خطتهم خطيئة لازمة ، وهي الرق (إذ استحضروا الزنوج من أفريقيا بمئات الآلاف لهذا الغرض) . فوضع الرق لعنة على الأرض ، وسبب الحرب الأهلية ، فلما خسروها ، أرادوا استعادة خطتهم بطرق أخرى . فلم يصيبوا الا نجاحاً جزئياً . وبمرور الزمن اكتشفوا ان بين ظهرانيهم اعداء جنوبيين وهم الطبقة الاستغلالية الجديدة ، أحفاد البيض الذين كانوا أيام الرق بلا أملاك أو أراض . وتتمثل هذه الطبقة في آل سنوبس ، وهي طبقة لا ضمير لها ولا وازع ، ولا غاية لها سوى الكسب المادي . واذ نشأ الصراع بين آل سارتوريس (الارستقراطيين) وآل سنوبس ، كانت الهزيمة قد كتبت على آل سارتوريس مقدماً ، بسبب تقاليدها التي تجعلها تترفع عن استعمال سلاح العدو المشين . ودفعاً لثمن هذا النصر ، كان على آل سنوبس أنفسهم ان يخدموا مدنية الشمال الآلية ، وهي مدنية — كما يراها فوكنر — واهيــة أخلاقيــاً ، وهي التي أفسدت في النهاية أهل الجنوب [١] .

فالوضع في روايات فوكنر مبني على ان الشمال مادي وآلي ، يعتمد على المدن الكبيرة التي تعيش فيها الملايين التي لا وجه لها ولا شخصية ، وان الجنوب زراعي يعتز شعبه بالشرف . وتيار الشمال الارعن يهدد بالقضاء على تقاليد الجنوب العريقة ، ولكنها تقاليد فيها كثير من البلى والوهم ، وتفوح منها رائحة الموت[٢] .

---

١ — انا مدين في هذا الملخص لمالكم كاولي في مقدمته الممتازة لكتاب **The Portable Faulkner** .

٢ — ويرمز فوكنر الى ذلك في الرواية التي شهرته فجأة ، وان تكن اقل قيمة من معظم كتبه الاخرى : « الحرم » **Sanctuary** . ففيها يغتصب رجل من الشمال فتاة عذراء من أهل الجنوب ، ولكنه عنين (ويرمز بذلك الى الشلل في نفس الشمال) فيقضي وطره منها باستعمال عرنوس الذرة . ولكن الفتاة بعد ذلك تلتهب شبقاً ، فكأنها بذلك تمثل انهيار القيم في الجنوب .

٢

« الصخب والعنف » ، أول رواية نشرها فوكنر عن قصة الجنوب هذه . وكان قد كتب قبلها رواية « سارتوريس » ، ولكنه نشرها فيما بعد . وقبل هذين الكتابين أمل المؤلف أن يحظى بالشهرة في روايتين أخريين ، ولكن دون جدوى ، لأنهما كانتا عاديتين . أما أول ما نشر من كتب فهو ديوان من الشعر عنوانه « الظبي المرمري » ، شديد التأثر بالشعر الرومانسي ، لم يلتفت اليه آنئذ أحد . وهذا يدل على ان فوكنر (ككثير من الروائيين ومن جملتهم بلزاك) بدأ حياته الأدبية شاعراً . ولما تحول إلى النثر بقيت الروح الشاعرية في كل ما يكتب . فنثره مشحون بالصور الشعرية والالفاظ غير المتوقعة ، مذكراً القارئ أحياناً بثروة شكسبير اللفظية .

« فالصخب والعنف » كتاب فوكنر الخامس . وقد شغل به زهاء ثلاث سنوات ، وكان عمره عند نشره (١٩٢٩) اثنتين وثلاثين سنة . وفي الحال التفت النقاد اليه ، ورأوا في كتابه رواية رائعة البناء والاسلوب ، سماها البعض « رواية الروائيين » . غير أن القارئ يحتاج في تذوقها وتخطي صعوباتها إلى حساسية فنية مرهفة ، وأناة شديدة . فكان الكتاب نصراً أدبياً لصاحبه ، وإن لم يكن نصراً مادياً[١] .

والآن وقد كتب فوكنر حوالي الثلاثين كتاباً ، واتضحت خطته فيها ، نجد ان « الصخب والعنف » ما زال أحسن ما كتب[٢] . وقد يضع البعض رواية « نور في آب » **Light in August** (١٩٣١) في المرتبة العليا ليسر تناولها ووضوحها ، غير ان التركيب الفني في « الصخب والعنف » ما زال في جماله وبراعته معجزة من معجزات الخيال .

---

١ — ولكن اختلفت الحال مع فوكنر في النهاية ، فبيع في السنوات الاخيرة من رواياته الكثيرة عشرات الملايين من النسخ .

٢ — سئل فوكنر قبيل وفاته عن أحب كتبه الى نفسه ، فقال : « الصخب والعنف » .

والكتاب ، من نواح كثيرة ، تبدو فيه الاتجاهات الاسلوبية والشكلية التي شاعت بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ . وهي فترة من أهم الفترات وأخصبها في تاريخ الرواية ، لا لظهور عدد من الروائيين الكبار فيها فحسب ، بل لكثرة التجارب ، ونجاح الكثير منها ، في فن القصة . فهي الفترة التي لمع فيها شعراء مثل ت. س. اليوت وإزرا باوند ، وكلاهما يجمع بين الشعر والنقد ، وكلاهما واسع العلم ، عقلاني ، وكلاهما اثّر في تغيير أشكال الادب لا في الشعر فقط بل في النثر أيضاً . وهي الفترة التي غدت فيها نظريات فرويد ويونغ في اللاوعي حافزاً على معالجة مشاكل النفس الخفيّة ، بحيث يتغلغل المؤلف نُزُلاً في طوايا الشخصية ويكتشف طبقات الوعي السفلى ، إلى ان يبلغ القرارة التي ترسبت فيها تجارب الحياة وذكرياتها وأحلامها . وهي الفترة التي ظهرت فيها السريالية ، مستمدة قوتها من نظريات اللاوعي ومن « الكتابة السحرية » لشعراء كان لهم تأثير عظيم ، أمثال رامبو ولافورغ وغيّوم ابو لينير (الذي نحت كلمة « السرياليزم ») . وإلى هذا وذاك ، ظهرت روايتان مهمتان في هذه الفترة أثرتا في معظم ما كتب فيما بعد ، وهما : « البحث عن الزّمن الضائع » لمارسل بروست ، و « يوليسيز » لجيمس جويس . وكلتا الروايتين تعتمد استثارة الذكرى والتداعي ، ولكن لكل اسلوبها . فبينما تعتمد الأولى السرد المسهب الدقيق ، تعتمد الثانية استخراج ما في النفس من تجمعات الحوادث والخواطر لا سرداً بل دفقاً ، عن طريق المونولوج الداخلي . والمونولوج الداخلي يعتمد على التداعي ، والرموز المتواترة ، والصور المترددة . وانتشرت بين الادباء عادة ، من الصعب ردها إلى أصلها ، وهي ان يبني الكاتب قصيدته أو قصته على اسطورة قديمة في لباس حديث ، أو ان يدخل في كتاباته حوادث تعود في الواقع إلى مراسيم بدائية كمراسيم الخصب ودفن الموتى (كنتيجة لانتشار النظريات الانثروبولوجية التي فصلها السر جيمس فريزر في كتابه « الغصن الذهبي »)

أو أن يبني الحوادث على عبارة في كتاب لأرسطو أو مقطوعة لشكسبير ، أو ان يجمع كل ذلك معاً في كتاب واحد ، كما فعل جيمس جويس في « يوليسيز » . ولم يستخدم هذه الاساليب الكتّاب العقلانيون فحسب، أمثال ت. س. اليوت (مثلاً : قصيدته « الأرض اليباب ») وجيمس جويس ، بل استخدمها أيضاً السرياليون : أمثال كوكتو وغيره .

ويبدو ان فوكنر الشاب ، وقد سئم الدراسة الجامعية (فتركها دون الحصول على شهادة) ، وحاول نظم الشعر ، وتسكع ما شاء له التسكع في نيو اورلينز ، والحي اللاتيني في باريس ، وبلدته الصغيرة اكسفورد (مسيسبي) ، كان يتشرّب هذه التأثيرات على مهل . ويروي المحدثون كيف كان يتمشى في شوارع اكسفورد في تلك الأيام مفلساً ، حافياً ، غير حليق الذقن ، يجلس القرفصاء في مدخل أحد الدكاكين حاملاً المجلات ويقرأ ، أو يستمع إلى حديث الناس وثرثرة الزنوج ، واسطورة الجنوب تتبلور في ذهنه .

ولما جعل يكتب « الصخب والعنف » كان قد هضم تأثيرات فترته ، بحيث استطاع ان يجعل منها عُدّة لكتابة عجيبة . فالكتاب يعتمد على المونولوج الداخلي ، وتأثير جيمس جويس واضح ، ولكنه تأثير خلاّق لا محطّم ، والقصة في خطوطها العريضة توسيع وتمثيل لعبارة مشهورة من مأساة « مكبث » ، وكل شخص من أشخاصها الثلاثة المهمين (وهم اخوة) يعبّر عن احدى الشخصيات اللاواعية التي اسماها فرويد : الهو **id** ، الأنا **ego** ، والأنا الأعلى **super-ego** ، والاخت وابنتها تمثلان الليبيدو **Libido** — أي الطاقة الجنسية .

هذه عدة فوكنر . ولكنها وسيلة لا غاية . وسوف يتوقف نجاحه على مقدار ما أصاب من غايته . وغايته هي ان يصوّر انحلال اسرة آل كمبسن[1] **Compson** ، ضمن اطار الانحلال العام في « الجنوب » .

---

١ — مؤسس الاسرة هو الكولونيل ستبن وهي أيضاً عريقة التقاليد مثل اسرته .

وعليه ان يجعل من ذلك شيئاً فنياً ، مؤثراً . وهذا بالضبط ما نجح في انجازه .

٣

حين يبدأ الكتاب نجد ان معظم الحوادث قد حدثت . ولن يعود اليها المؤلف إلا مستذكراً هنا وهناك ، كأن القارئ يعرفها ، وما على المؤلف إلا أن يرى اثرها ووقوعها في نفس احد الابطال ، ملقياً عليها كل مرة ضوءاً جديداً . بل إن الحوادث نفسها تكاد تكون لا خطورة لها إذا قيست بما يحيط بها من ظروف وما تخلّف من وقع . والصعوبة في قراءة الكتاب تبدو في عدم معرفة القارئ للحوادث التي يشير اليها المؤلف كأنها معلومة لدى القارئ . وهو في الواقع لن يستوفي معرفتها إلا حين ينهي الكتاب . وعليه حينئذ ان يعيد قراءة الرواية من جديد ليستمتع بها المتعة الكاملة . ولعل هذا هو السبب في ان فوكنر ، بعد نشره الرواية بستة عشر عاماً كتب لها ملحقاً — يوضع في الطبعات الحديثة كمقدمة كما فعلنا في ترجمتنا هذه — يشرح فيه الحوادث المهمة في الكتاب بايجاز ، ويصف أفراد آل كمبسن واحداً واحداً (راجعاً بتاريخهم حوالي مئتي سنة إلى الوراء) ويوضح مكانهم في القصة . وإذ بهذا الملحق قطعة رائعة جديدة هي ولا شك من صلب الكتاب ، وتلقي عليه نوراً جديداً ، فهو يستمر في تاريخ أفراد القصة حتى سنة ١٩٤٥ — بينما ينتهي الكتاب يوم ٨ نيسان ١٩٢٨ . فكأن أشخاص الكتاب فعلاً أحياء يرزقون .

الرواية قصة اخوة ثلاثة هم كونتن **Quentin** ، وجاسن **Jason** ، وبنجامين (أو بنجي) **Benjy** ، واختهم كاندس (أو كادي) **Candace** ، وابنتها كونتن (وسميت باسم خالها بعد انتحاره) .

وقد كتبت على شكل سمفونية في اربعة أقسام ، كل قسم من الأقسام

الثلاثة الاولى يرويه احد الاخوة بالدور ، كل على طريقته، والقسم الاخير يرويه المؤلف ، فيأتي الترتيب هكذا :

١ — بنجي : بتاريخ ٧ نيسان ١٩٢٨ .
٢ — كونتن : « ٢ حزيران ١٩١٠ .
٣ — جاسن : « ٦ نيسان ١٩٢٨ .
٤ — المؤلف : « ٨ نيسان ١٩٢٨ .

انها سمفونية مروّعة بجمالها ومأساتها، تتكرر فيها الاشارة الى الحوادث نفسها ، كأن كل حادثة « موتيف » في السمفونية تعزفها كل مرة آلة مختلفة . ومن بدئها حتى النهاية يتردد فيها بكاء بنجي المعتوه ، كأنه نوح على الحياة وهي تتدهور، كأنه « صوت كل بؤس لا صوت له » يرتفع فوق الصخب والعنف .

وكل قسم يختلف كل الاختلاف عن الاقسام الاخرى ، للاختلاف الشديد بين الاخوة : فبنجي معتوه يسمع ولكن لا ينطق ولا يستطيع الا الصراخ والعويل . وهو حين يروي الحوادث لا يستطيع ان يرتبها ترتيباً زمنياً . وما حدث قبل عشرين سنة ، وما حدث اليوم ، كلاهما متساوي الاهمية في سرده ، متساوي الوضوح . وكل شيء يذكره يبدو كأنه يراه لاول مرة ، بكل ما فيه من جدّة وبراءة . انها حكاية يقصها معتوه ..

وكونتن — في ١٩١٠ ، لا في ١٩٢٨ كما في المقطع السابق — طالب في هارفرد ، مفرط الحساسية ، شديد التعلق بشرف الاسرة .

وجاسن — ونعود الى ١٩٢٨ — فظّ ، شرس ، سادي ، اناني ، يبغي من الحياة النجاح وتجميع الثروة ، عن أي طريق .

وكل منهم يشير الى الحوادث نفسها على الاغلب ، ناظراً اليها من زاويته . وخلاصة هذه الحوادث هي :

ان اسرة كمبسن (المقيمة في دار كبيرة في مدينة جفرسن ، وفي

خدمتها عدد من الزنوج، أهمهم الخادمة دلزي) تحاول التمسك بالتقاليد الارستقراطية عبثاً . فالاب ، وهو بليغ الكلام ، يعتكف على مطالعة الكتب الكلاسيكيـــة ومعاقرة الويسكي ، ينشد فيهـــما نسيان تيار الحياة الجديدة ؛ والام « سيدة » شديدة الكبرياء والترفع ، ولكنها دائمـــة المرض تقضي أكثر أوقاتها في الفراش مصرة على منزلتها الاجتماعيـة ، ولا تثق الا بابنها جاسن،وهو الذي يسلب مالها دون وعي منها لاغراضه الشخصية . تبيـــع الاسرة قطعة ثمينـــة من أراضيها لارسال كونتن الى هارفرد ، وهو يحب اخته كاندس حباً شديداً ، ولكنه يتألم جداً عندما يعلم انها عشقت رجلاً غريباً وضاجعته . فلا يستطيع ان يتحمل فكـرة فقدانها العفاف ، وما في ذلك من وصم لشرف آل كمبسن ، فيدعي امام ابيه انه هو الذي ضاجعها ! ثم تتزوج اخته وهو في هارفرد،وبعد ذلك بمـــدة قصيرة ، حال انتهاء السنة الدراسية الاولى ، ينتحر غرقاً في نهر تشارلز في كمـــبردج ، ماساشوستس ، وذلك يوم ٢ حزيران سنة ١٩١٠ . اما اخته كاندس ، فيكتشف زوجها انها حامل من رجل آخر ، فيطلقها . وتضع بنتاً تسميها « كونتن » احياء لذكرى اخيها، وتهجر اهلها وتنتقل من رجـل الى آخر وتسوء سمعتهـــا (وقد اخذت الاسرة ابنتها كونتن لتربيتها)، الى ان نسمع أخيراً انها في سنة ١٩٤٣ عشيقة لجنرال الماني في باريس .

وفي هذه الاثناء كانت كاندس ترسل اول كل شهر مقـــداراً من النقود ليصرف على ابنتها،ولكن جاسن — وقد كان يكرهها ويشاكسها، يكره ويشاكس ابنتها أيضاً — يتسلم المال ، ويخفيه عن الفتـــاة كونتن عدا عشرة دولارات كل شهر) ، ويجمعه في صندوق مخبأ في غرفته. فتنشأ الفتاة تحت اضطهاد مستمر منه . وفي ليلة ٨ نيسان ١٩٢٨ تتسلق شجرة الاجاص التي تمس فروعها نافذة غرفة جاسن وتكسر الزجاج ، وتقتحم الغرفة ، وتسرق المال (حوالي ٧ آلاف دولار) وتهرب به

مع عشيق لها من الممثلين في « السيرك » .

وطوال هذه السنين كان بنجي موضع عناية الخدم الزنوج مع عطف شديد من دلزي. ولكن كاندس هي التي علق بها المعتوه المسكين على طريقته ، فقد كانت تلاعبه وتحنو عليه . وبعد ان اختفت كان كلما سمع اسمها يبكي وينوح ، وكلما اشتم رائحة اوراق الشجر في المطر يتذكرها لأنها كرائحة اخته . ويهاجم مرة فتاة دون نجاح ، فيطلب جاسن الى أبيه ان يخصيه دون جدوى ، الى ان يموت الاب فيخصي بنجي ، ثم تموت الام ، فيضع جاسن اخاه في مستشفى المجانين (١٩٣٣) ويسرح الخادمة دلزي (وكان يكرهها) وأولادها ، ويبيع الدار لرجل يحولها الى نزل ، ولا يبقى من الاسرة شيء .

٤

هـــذه هي الحوادث الرئيسية ، ويحسن بالمرء ان يعرفها مقدماً قبل الشروع في الكتاب ، ولا سيما المقطع الأول منه .

فهذا الجزء ، الذي يقصه بنجي المعتوه ، متقطع ، قصير الجمل ، غير بادي الارتباط ، فجائي الانتقال بين فترات الزمن كأنها كلهـــا موجودة آنياً معاً . والحوادث هنا أشبه بلعبة الـ **jigsaw** ، يضع القارىء اجزاءها في امكنتهـــا ببطء الى ان يفرغ من الجزء فتكتمل الصورة . والقصة هنا لا تنمو بقدر مـــا تدور على نفسها او تتحرك في خطوط متوازية . فنرى كاندس في صباها ، ونرى ابنتها الصبيـــة ايضاً ، في نفس الصفحة . ولكن كاندس تحنو على بنجي ، في حين ان ابنتهـــا شرسة تقسو عليه . ونرى جاسن رجلاً كامـلاً ، ونراه ولداً ، وهو في كلتا الحالتين شكس مكروه .

بنجي هو الانسان الاول . هو « الهو » في سيكولوجية فرويد . فيه البدائية وفيه البراءة المطلقة . وهو لا يفهم ماذا يجري حوله . انه مجموعة

أحاسيس فقط : بل ان حواس الشم والسمع واللمس قوية جداً هنـــا . فهو « يسمع السطح » (لان المطر يسقط عليــه) ، ويشمّ الليل ، ويريد لمس النار لانه يحب نور اللهب . يقول فوكنر : « مـــا أحب بنجي الا اشياء ثلاثــة : المرعى الذي بيع لارسال كونتن الى هارفرد ودفع نفقات زواج كاندس ، واخته كاندس ، ووهج النار . » وكلما ناح او صرخ ، اعطاه الولد الزنجي زهرة ليحملها فيسكت .

هذه هي الحركة الاولى من السمفونية : قصيرة النغمات ، متقطعة ، تدور وتلتف على نفسها . ولكن جوها مفعم بأصوات الطبيعة وروائحها ، بخفق المطر وتراقص اللهب وبكاء بنجي ، والتجاذب والتناحر بين افراد عائلة تحوّم فوقها اشباح الموت .

فاذا جئنا الى الحركة الثانية ، تغيّر الاسلوب ، وتغيّر الجو ، وتغيّرت صفة الزمن . فالقاص هنـا كونتن يوم ٢ حزيران ١٩١٠ . ويبدأ من ساعة نهوضه بُعَيد السابعة في غرفته بجامعة هارفرد ، ويستمر حتى الثامنة مساء عندما يلقي بنفسه منتحراً في مياه نهر تشارلز . والجمل هنا تبـدأ طويلة متداخلة متواصلة ، بعكس المقطع السابق . وكونتن ، وقد عزم على الانتحار ، يشعر بعبث الزمن ، وعبث الساعات التي تدق ثانية ثانية ، دون معنى . ولعل فوكنر هنا يفصّل قول مكبث :

« ... وكل غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة يوماً اثر يوم .
حتى المقطع الأخير من الزمن المكتوب ،
واذا كل آماسِينا قد أنارت للحمقى المساكين الطريق الى الموت والتراب » .

واول ما يذكر كونتن هو عن وعيه بآلة الزمن :

« عندما سقط ظل عارضة الشباك على الستائر ، كانت الساعة بين السابعة والثامنة ، فقد افقت اذن في الوقت المطلوب ثانية ، وأنا أسمع الساعة . كانت تلك ساعـة جدي ، وعندمـا أهداني اياها أبي قال : كونتن ، اني أعطيك ضريح الآمال والرغبات كلها . وانه لمن المناسب

ان تستخدمها حتى الالم لتكسب النهاية المنطقية الحمقاء لاختبارات الانسان جميعها ، وهي التي لن تنسجم وحاجاتك الشخصية أكثر مما انسجمت وحاجات جدك أو أبيه . اني اعطيك اياها لا لكي تذكر الزمن ، بل لكي تنساه بين آونة وأخرى ، فلا تنفق كل ما لك من نفَس محاولاً ان تقهر الزمن . لأن ما من معركة ربحها أحد ، قال أبي . لا بل ما من معركة حارب فيها أحد . فالميدان لا يكشف للمرء الا عن حماقته ويأسه، وما النصر الا وهم من أوهام الفلاسفة والمجانين.»

ثم يقوم ويكسر عقربي الساعة ، ولكنها تستمر في التكتكة : تحصي الزمن ولا تشير اليه ، في آن واحد . ويضعها في جيبه .

وهذا المقطع ، من أوله إلى نهايته ، يتحرك تحت ظل الساعة . فبينما كان الزمن في مقطع بنجي موجوداً كله آنياً لا ترتيب فيه ، هنا يسمع كونتن دقات ساعات المدينة ربعاً ربعاً ، وتظل ساعته المكسورة العقربين تدقدق في جيبه — وقد بطل كل ما فيها من معنى .

والفكرة الملحاح في نفس كونتن هي كيف ضيعت اخته كاندس بكارتها مع رجل يحتقره ، وكيف انها قبل شهرين تزوجت من رجل آخر غني يكرهه . فيتمنى لو استطاع هو ان يضاجعها لكي يحفظها لنفسه ، فيحفظ الأسرة من التفكك وفساد الدم . وهذا ما يقوله فوكنر في « الملحق » ، ملخصاً بعبارة رائعة شخصية كونتن المأسوية :

« ما عشق جسد أخته ، بل عشق فكرة ما عن شرف آل كمبسن ، وهو الشرف المحمول مقلقلاً ومؤقتاً على غشاء بكارتها النحيف الدقيق ، كمن يريد ان يوازن مصغراً للكرة الأرضية الشاسعة على أنف فقمة مدربة . وما عشق فكرة الزنا بالأخت ، وذلك ما لن يقترفه، بل فكرة دينية عن العقاب الأبدي لخطيئة كتلك . وبذلك يستطيع هو ، عوضاً عن الله ، ان يقحم نفسه واخته في الجحيم ، فيحرسها هناك الى الأبد، ويبقيها سليمة الى الأبد وسط النيران الأزلية . ولكنه عشق الموت اكثر

من أي شيء آخر، ولم يعشق الا الموت . فعشق وعاش متقصداً ومتوقعاً الموت ، كمن يعشق جسد حبيبته الطري الموالي المستسلم ولكنه يحجم عنه متقصداً ، الى ان يعجز عن تحمل المنع لا الاحجام ، فيلقـــي ويقذف بنفسه ، هاجراً كل شيء ، غارقاً في النهر ... »

ويخرج كونتن من غرفته ويذهب في سيارة نحو بوسطن ، بمحاذاة النهر مدة ، وهو يستذكر ما حدث له ولاخته . والمعجزة الكتابية هنا هي في الطريقة التي يعرض فيها المؤلف أحياناً ثلاث طبقات من الوعي معاً ، ويحمل القارىء ، زمنياً ، جيئة وارتداداً بينها ، ويبقيه دومـــاً على أكثر من مستوى زمني واحـــد ، في طفرات تجعل للحدث الآني متوازيات من الاماسي الماضيات تتواشج به عن مغزى أو عبث . فكونتن اذ يتمشى يلقى فتاة ايطالية صغيرة لا تتكلم الانكليزية ، فيشتري لهـــا خبزاً وكعكاً ، ويساعدها في البحث عن بيتها . وفي النهاية يهاجمه أخوها متهماً اياه بمحاولة اختطافها . ولكننا في الوقت عينه نجد أنفسنا داخـل ذهن كونتن وهو يتذكر كَلَفه باخته وغضبه على فسقها بتفصيل مترع بالاحاسيس . وخلال هذه الذكرى نطلع على مشهد آخر عنيف له وهو يحاول معانقة فتاة اسمها ناتالي في الطين والمطر ينهمر . لست أعتقد ان في الادب المعاصر قطعة من « سيل الوعي » كتبت بهذه البراعة وهذا السحر . ولا ريب ان بين هذه الاجزاء الثلاثة ارتباطات خفية من الرغبة والسخرية . اذ يقترن غضبه على اخته وتعلقه بها بشهوته لناتالي، مع كل ما في الطين من رمز الى المصاعب والقذارة . وما يكاد يساعـــد فتاة صغيرة مساعدة بريئة ، حتى ينصب على رأسه غضب اخيها وقد أخطأ القصد ، بينما لم يخطىء هو القصد في غضبه على عشيق اخته .

وفي خلال هذا المقطع يتبدى لنا رمز قوي آخر هو زهر العسل ، الذي لا يستطيع كونتن ان ينساه (كما لا يستطيع ان ينسى الساعة) ، لانه رمز لكل ما يشتهيه ويكرهه في كاندس . فهناك مشهد يتذكره عن

عن محاولته واخته الانتحار معاً ، واقلاعهما عن ذلك ، ثم محاولته الفاشلة لقتل عشيقها (وتختلط هذه الذكرى ، فيما بعد، بمحاولته ضرب صديق له يلقاه بعد حادثة الفتاة الايطالية) . والجو مشحون بشذا زهر العسل، ومن اليسير ان نرى انه اضحى رمزاً لكاندس نفسها [1] :

« عندها جعلتُ ابكي ولمستني يدها ثانية وجعلت ابكي ووجهي على قميصها الرطب ثم استلقت على ظهرها وانطلقت نظراتها بمحاذاة رأسي نحو السماء فرأيت مداراً من البياض تحت بؤبؤ عينيها وفتحت سكيني .

أتذكرين يوم ماتت جدتي وجلست انت في الماء بسروالك .

نعم .

ووضعتُ رأس سكيني على حنجرتها .

لن تستغرق إلا ثانية ثانية فقط ثم اطعن حنجرتي ، اطعن حنجرتي بعدها .

لا بأس أتستطيع ان تطعن حنجرتك بنفسك .

نعم فالشفرة طويلة لا بد ان بنجي قد نام الآن .

نعم .

لن تستغرق إلا ثانية وسأحاول ألا اؤلمك .

حسناً .

أغمضي عينيك .

لا اذا وضعتها هكذا عليك ان تضغط بعزم أشد .

المسيها بيدك .

واكنها لم تتحرك وكانت عيناهــا مفتوحتين باتساع تنظران بمحاذاة رأسي الى السماء .

كاندس أتذكرين كيف جعلت دلزي تصيح بك لأن ثيابك السفلى

---

[1] — من عادة المؤلف ان يهمل في سرد الذكريات ليوحي بسيولتها وتداخلها بعضهـا في بعض ، وهي ظاهرة اسلوبية بارزة في هذه الرواية .

اتسخت بالطين .

لا تبك .

لست ابكي يا كاندس .

ادفعها الا تريد ان تدفعها .

أتريدينني ان ادفعها .

نعم ادفعها .

ألمسيها بيدك

لا تبك مسكين كونتن .

ولكنني لم استطع الكف عن البكاء فأمسكت برأسي عند صدرها الصلب الرطب وجعلت اسمع قلبها ينبض بثبات وبطء وما عاد يضرب كالمطرقة والماء يثرثر بين اشجار الصفصاف في الظلام والتوت ذراعي وكتفي تحتي .

ما هذا ما هذا الذي تفعله .

واجتمعت عضلاتها فجلست منتصباً .

سكيني لقد اسقطتها » .

ويستمر تذكره كيف قاما وحاول ان يمنعها عن الذهاب لمقابلة عشيقها وهي تطلب اليه ان يعود الى البيت :

« وتساقط زهر العسل في رذاذ إثر رذاذ واستطعت ان اسمع الزيزان ترقبنا في دائرة حولنا .. »

واخيراً يعود في اتجاه البيت بين الشجر وهو يسمع الزيزان والضفادع ولا يستطيع نسيان زهر العسل :

« وركضت على الحشيش الاغبر بين الزيزان ورائحة زهر العسل تشتد وتشتد وكذلك رائحة الماء ثم جعلت ارى الماء في لون زهر العسل الاغبر وارتميت على الضفة ووجهي لصق الارض لكي لا اشم زهر العسل فلم أشمه ثم بقيت ملقى هناك اشعر بالارض تخترق ثيابي واصغي

الى الماء ... » .

وبعد ان يفرغ من هذه الذكريات ، وهو ما زال يتمشى عودةً نحو الجامعة ، ندرك ان زهر العسل والماء قد أضحيا عنده شيئاً واحداً . ولذلك حالما يرى النهر ثانية يقول :

« هنا رأيت النهر لآخر مرة هذا الصباح ... وجعلت اشعر بوجود مياه وراء الاصيل ، ورائحة . عندما كانت الازهار تتفتح في الربيع ويهمي المطر ينتشر الشذا في كل مكان ... فاذا ما أمطرت السماء بدأت الرائحة بالتسرب الى الدار عند الاصيل، وعند الاصيل اما ان يشتد المطر او ان في وهج الاصيل شيئاً يجعل الشذا حينئذ أقوى رائحة الى ان أجدني مستلقياً على فراشي وانا اقول متى ستكفّ ، متى ستكفّ . واذا دخل الهواء من الباب حمل رائحة الماء كنفَس رطب مستمر . وكنت احياناً انوّم نفسي وانا اعيد واكرر ذلك الى ان اختلط زهر العسل به وأمسى كل ذلك يرمز الى الليل والقلق ... »

وهكذا يختلط زهر العسل والماء وكاندس، فيرمز الواحد الى الآخر . واذ انتحر غرقاً فكانه انتحر بالشذا وبتلك الخطيئة المريعة التي يتصو انه اقترفها . واذ اقترن كل ذلك بغضبه على تزعزع الاسرة وتلوي شرفها ، اضحى انتحاره نهاية محتومة ، لانها تعبّر عن تلك النزعات كلها معاً . والى هذا وذاك تبقى الساعة تهذر بالثواني ، ولا تدل على الزمن ، وقد أضحى الزمن عبثاً مؤلماً لم يأت إلا بالموت والانحلال.

٥

وما نكاد نطفر زمنياً الى ٦ نيسان ١٩٢٨ ، لنبدأ المقطع الثالث من السمفونية ، حتى يجابهنا جاسن بقوله رأساً : « عاهرة يوماً ، عاهرة كل يوم . هذا ما اقوله انا . » فنعلم اننا مع رجل هو نقيض اخيه كونتن . فاذا كان كونتن هو « الانا الاعلى » الذي تتمثل فيه تقاليد

الاسرة ، فان جاسن هو « الانا » – بأقبح مظاهره . ففيـه الغطرسة النامية عن حقد ، وهو الرجل المتكالب على النجاح المادي مهما تطلب ذلك من خسّة . فهو يختلس مال امه الواثقة به ، ويسرق النقود التي ترسلها كاندس شهرياً لتربيـة ابنتها كونتن سبعة عشر عاماً متوالياً . ومجمل ما يتصف به من اخلاق تقليدية هو نقمته عـلى غراميات الفتاة الناشئة كونتن (وهي التي يعنيها بقوله : عاهرة يوماً ...) ، فيراقبها سراً ويلاحقها « من اجل امي » كما كان يراقب في صباه امها كاندس . ومع هذا فان عشيقتـه مومس في ممفيس . ويتصف جاسن بكل الرياء المعروف عن الذين يخشون على مكانتهم الاجتماعية من « كلام الناس » ، فيرفض مقابلة اخته كاندس في دكانه علناً ، لأن سيرتها قد ساءت ، ولكنه يقاضيها مئة دولار ليريها ابنتها الصغيرة دقيقة واحـدة ! وهو ساديّ ، يصرّ على خصي اخيه المعتوه (لان المسكين تطاول على فتاة دون وعي بما يفعـل) ، الى ان يخصيه فعـلاً ثم يضعه في مستشفى للمجانين ، رغم انه لا يؤذي أحداً ويجد سلوى بمرافقة الخدم الزنوج . ويطلب جاسن الى امه بأن تأذن له بجلد الفتاة كونتن . وللحقارة التي في نفسه يحقد على الخدم الزنوج الابرياء . وقد حصل مرة على تذكرتين للسيرك الذي قدم الى بلدة جفرسن ، ولكنه لم يستطع الذهاب . وكان الخادم الصبي « لَستر » طيلة اليوم يترجى هذا وذاك للحصول على ثمن تذكرة للذهاب الى السيرك . ولكن جاسن يحـرق أمام الصبي كلتا التذكرتين واحدة واحدة ، ولا يعطيه احداهما رغم توسلاته ...

فجاسن يمثل قوى التصدع الناشئة عن الاسرة العريقـة نفسها . كما تمثلها كاندس في شكل آخر بانطلاقها الجنسي ، وكما يمثلها الاب بتهربه من الواقع ، وكونتن بعشقه للموت . ولكن ليس من الصعب ان نحكم من هو الذي قد بلغ الحضيض بالفعل !

والزمن عنصر هام من عناصر هذا المقطع أيضاً . ولكنه هو الآخر

يختلف عن الزمن عند كونتن أو عند بنجي . فالزمن عند جاسن هو زمن التقويم (الرزنامة) : هو تواريخ الدفع والقبض،ولا تدق الساعة الا لتدل على أوقات الاكل ، وفتح الدكان او اغلاقها . فالزمن عنده هو الزمن كما يعرفه التاجر ، ولا مغزى آخر له البتة . بل ان كل شيء عند جاسن لا قيمة له الا من ناحية الربح او الخسارة . فهو مغضب على انتحار كونتن لأنه انتحر بعد ان بيعت قطعة الأرض لدفع نفقات تعليمه في هارفرد ، وبالتالي لم يستطع هو (جاسن) ان يدرس في جامعة . وعندما يموت ابوه ويدفن يلاحظ ان اخته (وقد جاءت لتحضر دفن أبيها محجبة لئلا يتبينّها أهل البلدة) قد احضرت كمية كبيرة من الزهور ، وللحال ، يقول « انها تساوي خمسين دولاراً».

ولذلك فمن المناسب ان تكون الحادثة المركزية التي تتفرع عنها الحوادث الاخرى والذكريات (وأغلبها يشير الى الحوادث التي عرفناها) ، هي الاختلاس : كيف يتسلم جاسن صكاً من كاندس ، بمبلغ مئتي دولار لينفقها على الفتاة كونتن ، وكيف جاءته كونتن الى الدكان تطالبه بشيء من النقود ، فيدّعي انه لم يتسلم من امها إلا عشرة دولارات يعطيها اياها، فتشتمه لأنها لا تصدقه . ثم يراها بعد الظهر مع احد ممثلي السيرك في سيارة، فيلحق بها في سيارته ولكنه يفقد أثرها . وبعد سحب الفلوس يزوّر صكاً بنفس المبلغ ويأخذه الى امه ، وهذه — وهي السيدة الشريفة التي تتألم لسوء سيرة ابنتها كاندس — ترفض ان تصرف على حفيدتها اجور الفحشاء ، ويتظاهر جاسن بالموافقة (كما يفعل كل شهر) ويحضر لها معولاً تحرق فيه الصك المزوّر ارضاء لضميرها ! وينتهي المقطع في الليل بدخول جاسن غرفته التي يقفل بابها بحيطة شديدة ، ويخرج الصندوق المخبأ الذي يجمع فيه الدولارات المسروقة ، فيعدّها ثانية ، ثم يعيدها الى مكانها ، وهو يردد « عاهرة يوماً ، عاهرة كل يوم » ويمنّي نفسه بأنه سيبز يهود نيويورك كلهم في الحصافة المالية .

ويتبدّل الاسلوب في الحال حين تبدأ الحركة الرابعة من الكتاب بصباح اليوم الثامن من نيسان – فكل مقطع يبدأ صباحاً وينتهي مساء – ويقصها المؤلف ، فنسمع صوته لأول مرة : « طلع الفجر قاحلاً قارس البرد ... » ويصف لنا طلوعه على الخادمة الزنجية دلزي ، وهي التي نشاهدها في المقاطع السابقة تعمل باستمرار على راحة كل فرد في الاسرة، تعرفهم جميعاً خيراً مما يعرف بعضهم بعضاً وتحنو عليهم بعطف رؤوم – ولا سيما المستضعفين منهم .

وفي الفقرات الاولى يصفها المؤلف : يصف وقفتها وثيابها وهي تفتح الباب ، ثم يأتي الى جسمها فيجعل منها ما يشبه القديسة في هذا الوصف الذي يجمع بين الدقة والشاعرية :

« كانت امرأة ضخمة فيما مضى ، ولكن هيكلها الآن ينتصب ، يكسوه إهاب واسع غير محشو ، يشتد ثانية عند بطنها ... كأن العضل ولفائف اللحم كانت يوماً شجاعة او جَلَداً اتت عليها الايام والسنون، حتى لم يبق إلا الهيكل العظمي الذي لا يقهر ، منتصباً كالخرائب او المعالم فوق الاحشاء الوسنانة التي لا تشق ، ويعلو جميعَ ذلك وجهٌ متداع يوحي للرائي بأن عظامه خارج اللحم ، يرتفع امام النهار المندفع بتعبير في القسمات قَدَري . »

فدلزي تختلف عن الآخرين لأنها مثال التحمل والصبر والعطف، وإذا كانت الاسرة في طريقها الى الانحلال والاضمحلال فإن الزنوج – وهم ليسوا إلا خداماً – هم الذين يبقون و«يجالدون» . ما أشد الفرق بين دلزي وبين سيدتها « مسز كمبسن » – تلك السيدة العليلة ابداً، المصرة ابداً على انها من كرام القوم ، وقطعة القماش المخضلة بالكافور دوماً على جبينها تلطّف عنها الالم .

لعل هذا المقطع ما وجد إلا من اجل دلزي . الا ان الحادثة المهمة هنا هي اكتشاف جاسن ان الفتاة كونتن قد تسلقت شجرة الاجاص

ودخلت منها الى غرفته بعد ان كسرت زجاج النافذة ، وسرقت (أو استردت) مالهـــا ، وهربت مع ممثل السيرك . فيجن جاسن ، ويخرج للبحث عن كونتن ويبدو انه سيقتلها اذا وجدها . ولكنه لا يعثر لها على اثر (ولا نعرف شيئاً عنها بعد ذلك) ، بل انه لحنقه يتعدّى على جزار بريء اثناء البحث، فيكاد هذا يقتله لو لم ينقذه بعض الواقفين هناك.

اما دلزي فانها في الصباح الباكر ، قبل الذهاب الى الكنيسة، تقبع في المطبخ وقد سمعت ضوضاء جاسن عندما اكتشف امر كونـــتن . واذا المؤلف يذكرنا بالزمن مرة أخرى :

« وراحت الساعة تدق ، تك تك ، تك تاك ، في وقار وعمق ، كأن ذلك نبض البيت المتداعي نفسه ... فأخذ بنجي يئن ... »

وبعد ذلك تذهب الى كنيسة الزنوج وتأخذ معها ابنها وبنجي، لتسمع الموعظة ، واليوم هو أحد العيد الكبير ، يوم بعث المسيح . وهناك ، وقد هزت مشاعرها كلماتُ الواعظ الرهيبة عن الموت والقيامة، «تدحرجت دمعتان على خديها المهدّمين، وهما تدخلان وتخرجان من ملايين التجاعيد، تجاعيد التضحية ونكران الذات والزمن...».

ويفرغ الواعظ من خطبته ، وتخرج دلزي من الكنيسة برفقة بنجي وابنها « فروني » :

« لم تنبس دلزي بشيء ، ولم يرتعش وجهها والدموع تجـــري في مجاريها الهابطة الملتوية ، ومشت مرفوعـــة الرأس دون ان تحاول مسح دموعها .

فقال فروني : « لماذا لا تكفين عن ذلك يا اماه ، وهؤلاء الناس يرقبوننا ؟ وبعد لحظات سنمر بالقوم البيض . »

فقالت دلزي : « لقد رأيت البداية والنهاية . لا عليك . »

ـــ اية بداية -واية نهاية ؟

فقالت دلزي : « لا عليك . لقد رأيت البدايـــة ، وها انا الآن

اری النهاية . »

واذ يصرخ بنجي وينوح من جديد حين يبلغون البيت ، تحض دلزي ابنها على أخذه في عربة الى المقبرة ليشاهد قبر اخيه المنتحر . فيفعل ابنها ذلك ويعطيه زهرة ليحملها فيهدأ . ولكن جاسن يرى العربة في ميدان المدينة — وقد عاد خائباً من بحثه عن الفتاة الآبقة — فيستشيط غضباً ، ويوقف العربة ، ويصفع الصبي ويلطم بنجي ، ويأمرهما بالعودة الى البيت ، فيعودان وبنجي ينوح والزهرة مبتورة الساق في يده من لطمة اخيه .

ويتردد في الذهن صدى كلمات دلزي بعد الذي شاهدته من صخب وعنف في بيت آل كمبسن ، وكأنها كلمات الكورس في المآسي الاغريقية :

« لقد رأيت البداية والنهاية . »

جبرا ابراهيم جبرا

ملاحظتان

١

لما كان اهم ما يشغل فوكنر في هذه الرواية ، من حيث الطريقة، هو سرد الاحداث على عدة مستويات من الزمن والوعي ، فقد لجأ الى بضع وسائل طباعية تسعفه في أدائه المعقّد . ونود هنا ان نلفت النظر الى اثنتين منها ، لكي نيسر على القارىء الدخول في جو الكتاب .

أما الوسيلة الاولى ، وهي بارزة جداً ، فهي استعمال الحرف المائل (italics) باللغة الانجليزية ، كلما تحول السرد فجأة ، ولو كان ذلك في وسط الجملة ، من الحاضر الى الماضي،او من الماضي الى ما قبله ، او من القول الواعي الى القول اللاواعي ، او من الحدث الجاري الى الحدث المتذكّر . وفي الترجمة جعلنا الحرف الاسود يقوم مقام الحرف المائل في الاصل .

ويستخدم هذا الحرف ايضاً كفاصل بين الفكرة والفكرة اثناء التداعي، ولا سيما في المقطع الاول ، حيث تتوالى الحوادث والافكار والاقوال وتتراكم بما يشبه حبات العقد المنثور ، على غير نظام ظاهر . ولكن الذي ينظمها كلها اخيراً هو سيطرة المؤلف على طريقته في تصوير الزمن

وانصياع الكيان الانساني له .

أما الوسيلة الثانية ، فهي استعمال الترقيم او اهماله ، وفق حاجة المؤلف . فكلما انتقل الفعل من الحدث المباشر في سير القصة الى الحدث المستذكر الذي اصبح انسياباً ذهنياً (بعد ان كان تسلسلاً جسدياً) ، انعدم الترقيم ، لان الترقيم يوحي بالفواصل المنطقية، وفي الذكرى – كما يريدها المؤلف هنا – تتداخل الافعال والاقوال دونما فاصل او ناظم منطقي . ورغم ان المترجم لا يود فضح البواطن كلها التي في هذه الرواية ، لكي يتيح للقارىء لذة الخوض فيها واستكشافها على طريقته، فانه يود بوجه خاص ان يلفت النظر الى الحوار المستذكر ، في أواخر المقطع الثاني ، بين كونتن وابيه وطريقة المؤلف في عرضه باستعمال ما يشبه الملاحظات التي قد يدونها المرء في دفتر مذكراته : هو : ..... ، انا : ..... ، ولكن دون ترقيم ومع اضافة مستمرة لحرف العطف توكيداً على الانسياب الذهني :

وهو .... وأنا .... وهلم جرّا .

٢

قد تلتبس اسماء افراد اسرة كمبسن على القارىء العربي . ولذا فاننا ندرجها فيما يلي ايضاحاً لما قد يبدو فيها من تعقيد الاصل الذي حافظنا عليه في الترجمة .

جاسن (او السيد كمبسن) :	الاب . وكذلك الابن الثاني
كونتن :	الابن الاكبر . وكذلك ابنة اخته . وقد سميت باسمه لانها ولدت بُعَيد انتحاره .
كانديس (او كادي) :	اخت كونتن، لا يسميها باسمها الكامل الا امها . اما الآخرون

فيسمونها بمصغّر التحبب من اسمها : كادي .

بنجامين : سميّ في الاصل «موري» ، باسم خاله ، غير أنه دعي بـ «بنجامين» عندما ادركوا انه معتوه . لا تسميه باسمه هذا الا امّه . أما الآخرون فاما ان يسمّوه بمصغّر التحبب : بنجي (وكل الذين يعطفون عليه يدعونه كذلك) ، أو بمصغّر آخر هو اقتضاب بنجامين : « بن » . وأخوه جاسن والمؤلف يدعوانه بهذا الاسم المقتضب .

كارولاين : الأم. وهي بالطبع المسز كمبسن. وقد آثرنا ابقاء الاسم الاخير على صيغته الاصلية عوضاً عن ترجمته الى « السيدة كمبسن » .

ج . ا . ج

ملحق

كمبسن

١٦٩٩ ـ ١٩٤٥

ايكيموتب : ملك امريكي مسلوب ، سماه أخوه بالتبني ، احد فرسان فرنسا ، « لوم » **l'Homme** (ويدعى احياناً « دي لوم ») ، ولو لم يولد متأخراً لكان من ألمع تلك الكوكبة اللألاءة من الاوغاد الفوارس الذين كانوا قادة جيوش نابوليون ، وقد ترجم اللقب من لغة الشيكاسو * ، ومعناه « الرجل » ، وهذه الترجمة خطا بها ايكيموتب ، وهو نفسه من ذوي النكتة والخيال والحنكة في الحكم على الخلق الشخصي بما ذلك خلقه هو ، فجعلها بالانجليزية « دوم » **Doom** (القضاء المحتوم) . وقد وهب من اراضيه الفسيحة السليبة ميلاً مربعاً كاملاً من تربة شمال المسسبي العذراء ، زواياه كزوايا مائدة القمار (وكانت آنئذ مشجّرة اذ كانت تلك ايام ما قبل ١٨٣٣ حين تهاوت النجوم ، وجفرسن مسسبي لا تعدو كونها بناء طويلاً واحداً من الاحطاب يمتد

* احدى قبائل الهنود الحمر . (المترجم)

دونما خطة بطابقه الأوحد وجدرانه المرقعة الصدوع بالطين يسكن فيها الوكيل الشيكاسو وبها مخزنه التجاري البسيط) وهبه حفيدَ احد اللاجئين الاسكوتلنديين ، وكان هذا اللاجيء قد فقد ميراثه لمؤازرته ملكاً كان هو بدوره قد خُلع وسُلب . وهذا لقاء بعض الحق في المسير بأمان ، بالوسيلة التي يرتأيها هو وقومه ، مترجلين او راكبين شريطة ان تكون الخيول من الشيكاسو ، نحو الفلوات الغربيــة التي ستدعى بعد ذلك اوكلاهوما : دون ان يعلم احد حينئذ شيئاً عن النفط .

جاكسن : من كبار الآباء البيض ، يتقلد سيفاً . (مبارز قديم ، ضرغام، شرس،أشعث، قديد،كثير الشجار، طويل البقاء ، لا يفنى ،وضع مصلحة الأمة فوق البيت الأبيض وجعل صالح حزبه الجديد فوق كليهما، وجعل فوقها جميعاً ، لا شرف زوجته ، بل مبدأ ضرورة الدفاع عن الشرف سواء أَتمّ الدفاع عنه او لم يتم ، لان الدفاع عنه تمّ سواء اكان ام لم يكن .) وقد دوّن الهبة وختمها ووقعها بيده في خيمته الذهبية في « واسي تاون » ، دون ان يعلم شيئاً عن النفط ايضاً : لكي يظهر المشرّدون من احفاد هذا المسلوب يوماً راكبين ، وقد استلقوا على ظهورهم من السكر في روعة من البحران ، فوق مثوى عظامهم الترابي، في عربات جنائزية وسيارات اطفائية حمراء اللون صنعت خصيصاً .

هؤلاء كانوا من آل كمبسن :

كونتن َمكْلاخنَ : ابن طبّاع من اهل غلاسجو ، تيتّم فربّاه اهل أمه في جبال بيرث . هرب من « كَلُودن مور » الى « كارولاينا » وهو لا يملك الا سيفاً وعباءة اسكوتلندية يرتديها في النهار ويلتحفها في الليل . في الثمانين من عمره ، وبعد ان حارب مرة ملكاً انجليزياً وخرج من الحرب خاسراً ، رفض ان يلدغ من ُجحر مرتين فهرب ثانية في احدى ليالي عام ١٧٧٩ حاملاً معه حفيده الطفل وعباءته (اما السيف فكان قد اختفى كما اختفى معه ابنه – أبو حفيده – من احد فيالق تارلتون

في احدى ساحات القتال في جورجيا قبل ذلك بسنة) لاجئاً الى كنتاكي، حيث كان جار له يدعى « بون » قد انشأ مستعمرة .

شارل ستيوارت : أُهدر دمه وحجزت املاكه اسماً ورتبةً في فيلقه البريطاني . وفي احد مستنقعات جورجيا هجره جيشه المتراجع ظناً منه بأنه قد مات ، وهجره كذلك الجيش الامريكي الزاحف ، وكان كلا الجيشين مخطئاً . فقد كان لما يزل يحمل سيفه الاسكوتلندي حتى عندما راح يسير على ساقه الخشبية التي صنعها بنفسه الى ان لحق بأبيه وابنه بعد ذلك باربع سنوات في هرودسبرغ ، كنتاكي ، وسرعان ما دفن اباه وبدأ عهداً من حياته كان فيه شخصية مفصومة وهو يحـاول ان يكون المعلّم الذي حسب انه يريد ان يكونه ، الى ان تخلّى عن التعليم في النهاية وأصبح المقامر الذي كانه في الواقع ، والذي كانه كل فرد من آل كمبسن دون ان يعوا ، شريطة ان تكون فاتحة اللعب رهيبة وامكانية الخسران كبيرة . أفلح اخيراً في المجازفة لا بحياته فحسب بل بضمان عائلته وكرامة الاسم الذي سيخلّفه لأحفاده ، بانخراطه في الاتحاد الذي رئسه رجل من معارفه يدعى ولكنسن (الذي امتاز بالكثير من الموهبة والنفوذ والعقل والسطوة) والذي اعد مؤامرة لفصل وادي المسسبي برمته عن الولايات المتحدة لربطه باسبانيا . فر عندما انفجرت الفقاعة (التي كان الكل يعلم انها ستنفجر فيما عدا معلما من آل كمبسن) ، وكان فريداً في كونه المتآمر الوحيد الذي اضطر الى الفرار من بلده : وذلك لا هرباً من انتقام وقصاص الحكومة التي حاول تمزيقها ، بل هرباً من الاشمئزاز العنيف الذي اعترى رفاقه الاتحاديين الذين جُنّوا في طلب السلامة . وهو لم يُطرد من الولايات المتحدة ، بل ما جرّده من الوطن الا لسانه ، فلم يكن طرده نتيجة للخيانة بل لكثرة ما تشدّق بشأنها ، حارقاً وراءه كل جسر كلاماً قبل ان يبلغ مكاناً يبني فيه جسره التالي : ولذا لم يكن الحاكم العسكري او حتى السلطة المدنية ، بل شركاؤه في المؤامرة

هم الذين شرعوا بحركة للقذف به من كنتاكي والولايات المتحدة ، بل والعالم كله ، هذا لو هم افلحوا في إلقاء القبض عليه . وقد هرب ليلاً ، طبقاً للتقليد العائلي ، وهو يحمل ابنه وسيفه القديم وعباءته الاسكوتلندية.

جاسن ليكورغس : هو الذي مضى مندفعاً ــ ربما ــ باسمه الرنّان الذي اطلقه عليه ابوه الجريء الساخر المتمرمر الخشبي الساق والذي قد يكون ما زال يعتقد في دخيلته ان ما ينشده هو ان يكون معلماً للكلاسيكيّات ، قاصداً « ناتشز تريس » في احد ايام ۱۸۱۱ بزوج من المسدسات الجميلة وخُرجٍ ضامر على فرس نحيلة الخصر ولكنها متينة الكواحل استطاعت ان تقطع اول شوطين (۱) في اقل من نصف دقيقة ولم تقل سرعتها عن ذلك كثيراً في الشوطين الثانيين ، وهذا كل ما هنالك . غير انه كان كافياً . وهو الذي بلغ وكالة الشيكاسو في اوكاتوبا (وكانت عام ۱۸٦۰ ما تزال تدعى « جفرسن القديمة ») ولم يتخطّ ذلك . وفي مدى ستة اشهر غدا كاتباً لدى صاحب الوكالة ، وفي مدى اثني عشر شهراً غدا شريكاً له ، فكان هو الكاتب رسمياً الا انه في الواقع صاحب نصف ما اضحى دكاناً كبيراً مزدهراً بارباح الفرس في سباقاتها مع خيل فتيان ايكيموتب التي كان سليل كمبسن يعنى بجعلها لا تتعدى ربع ميل او ثلاثة اشواط على الاكثر ؛ وفي العام التالي كان ايكيموتب هو صاحب الفرس الصغيرة وغدا جاسن كمبسن صاحب الميل المربع الكامل من الارض التي يقدر لها ان تحتل يوماً القلب من مدينة جفرسن ، وكانت آنئذ مشجرة كما بقيت مشجرة بعد ذلك بعشرين سنة وان تكن قد تحولت فغدت بستاناً اكثر منها غابة ، بما فيها من مساكن العبيد والاسطبلات وحدائق المطابخ والمروج الصغيرة المهندسة والمماشي والسقائف التي خططها ذلك المعماري نفسه الذي بنى البيت بمدخله المعمّد وأثاثه

---

۱ ــ الشوط هنا ۱/۸ ميل . (المترجم)

الذي جُلب بالمركب البخاري من فرنسا ونيو اورلينز ، والميل المربع غير المنقوص عام ١٨٤٠ وقد اخذت تحيط به لا القرية البيضاء الصغيرة المسماة جفرسن فحسب بل ناحية بيضاء بكاملها، اذ ان احفاد ايكيموتب وقومه كانوا في مدى بضع سنوات قد زالوا ، وما عاد من تبقى منهم يعيش على الحرب والصيد بل طفقوا يعيشون كالقوم البيض — مزارعين كسالى او متسكعين ، هنا وهناك ، ومالكين لما جعلوا هم ايضاً يسمونه بالمزارع يملكون فيها عبيداً كسالى ، ويزيدون على البيض بعض الشيء قذارة وكسلا وقسوة — حتى كاد الدم الأهوج نفسه يتلاشى في النهاية ، فلا يُرى الا نادراً في شكل أنف لوجه زنجي يركب عربة قطن ، او وجه عامل ابيض من عمال مناشر الحطب ، او صياد ، او موقد نار في قاطرة) ، وقد كان اذ ذاك يعرف بـ « مُلك آل كمبسن » ، اذ اضحى مكاناً لائقاً لنسل الامراء والساسة والقادة العسكريين والأساقفة ، انتقاماً لآل كمبسن الذين فقـــدوا كل ما كانوا يملكون في كلودن وكارولاينا وكنتاكي ، ثم عرف بعد ذلك بدار الحاكم ، لانه مع مرور الزمن انسل حاكماً بالفعل — دعي ايضاً باسم جده النازح من كاودن كونتن مكلاخن — وبقي يعرف بقصر الحاكم القديم حتى بعد ان أنسل (عام ١٨٦١) جنرالاً — (وقد سماه بذلك كل من في البلدة والناحية باتفاق مسبق ، كأنهم كانوا يعلمون مسبقاً ان الحاكم القديم هو آخر رجل من سلالة كمبسن لن يخفق في شيء ينشده سوي طول العمر او الانتحار) — هو البريغادير جاسن ليكورغس الثاني ، الذي اخفق في شيلوح عام ٦٢ ، واخفق ثانية بصورة اخف في رساكا عام ٦٤ ، والذي رهن الميل المربع ، الذي ما زال غير منقوص ، لاول مرة لدى تاجر متجـــول من « نيو انجلند » عام ٦٦ ، بعد ان احرق الجنرال الاتحادي سميث البلدة القديمة واقيمت البلدة الجديدة ، التي سيعمرها على مر الزمن اغلبية من احفاد سنوبس لا كمبسن ، تفتتت عليها ثم تقضم

المزيد من اجزائها اذ قضى البريغادير الفاشل السنين الاربعين التالية وهو يبيع اجزاء منها ليُبقي الرهن على ما تبقى منها . الى ان جاء يوم في عـــام ١٩٠٠ توفاه الله وهو في سرير عسكري في مخيم للقنص وصيد الاسماك عند أسافل نهر تالاهاتشي حيث امضى معظم ايامه الاخيرة .

والآن غدا كل شيء — حتى الحاكم القديم — منسيا ؛ وما تبقى من الميل المربع القديم صار يعرف «مكان كمبسن» لا غير — حيث اختنقت بالاعشاب آثار المروج والمماشي المتهافتة ، وحالت ألوان البيت من زمن بعيد واخذت أعمدة مدخله تتفلّع وتتقشّر حيث كان جاسن الثالث (الذي هُيِّىء للمحاماة وكان له بالفعل مكتب في الطابق العلوي يطلّ على « الميدان » وقد دفنت في اضابيره المغبرّة عدة من اقدم اسماء الناحية — هولستن وسُتِبْنْ ، وغرينيير وبوشام وكولدفيلد — وهي تحول سنة بعد اخرى في متاهات لا قرار لها من الاوراق والوثائق : ومن يدري اي حلم كان يساور قلب ابيه الازلي ، وقد اكمل ثالث تجسّداته الثلاثة — اولهـــا تجسّده ابنا لسياسي شهم لامع ، وثانيها تجسّده قائد معركة لفئة من كرام الشجعان ، وثالثها تجسّده رجلاً محظوظاً اشبه بمزيج من دانيال بون وروبنصن كروزو ، رجلاً لم يعد الى مراهقته لانه في الواقع ما تخطاها قط — من ان مكتب المحاماة ذاك قد يصبح ثانية غرفة الانتظار المؤدية الى قصر الحاكم والأبهة القديمة) يجلس طوال النهار وبين يديه زجاجة وسكي ونثار من كتب هوراس ولفي وكتلّس بصفحاتها المطوية الزوايا ، ويؤلّف (فيما زعموا) مدائح ستيرية لاذعة عن الاموات والاحياء من بني بلدته ، وهو الذي باع البقية الاخيرة من ارضه ، فيما عدا القطعة التي حوت البيت والحديقة الخلفية والاسطبلات المتداعية وبيت خدم واحداً تقيم فيه عائلة دلزي ، لنادٍ للغولف لقاء مبلغ دُفع نقداً لكي يهيء زفافاً جميلاً لابنته كاندس في شهر نيسان وييسّر لابنـــه كونتن اتمام سنة واحدة في جامعة هارفرد ينتحر بعدها في حزيران

اللاحق عام ١٩١٠ ؛ وصار يعرف باسم مكان كمبسن القديم وآل كمبسن ما زالوا مقيمين فيه حتى عشية ذلك اليوم من ربيع عام ١٩٢٨ عندما قامت حفيدة حفيد حفيد الحاكم القديم ، وهي فتاة ضالة ذات مصير محتوم في السابعة عشرة من عمرها بسلب آخر من آخر قريب ذكر عاقل تبقى لها (عمها جاسن الرابع) ، إذ سرقت خزينته السرية وانزلقت نازلة على احد مزاريب البيت لتهرب مع عامـــل في سيرك متنقل ، وظلّ المكان يعرف باسم مكان كمبسن القديم بعد ان اختفت عنه آخر آثار آل كمبسن كلية بمدة طويلة : بعد ان ماتت الأم المترملة واودع جاسن الرابع ، اذ ما عاد يخشى دلزي ، اخاه المعتوه بنجامين في مستشفى مجاذيب الولاية في جاكسن وباع البيت لقرويّ حوّله الى نُزُل يؤمّه المحلّفون وباعة الخيل والبغال ، وبقي يعرف باسم مكان كمبسن القديم حتى بعد ان تلاشى النزل (وتلاه ملعب الغولف ايضاً) وعاد الميل المربع القديم كاملاً غير منقوص ثانية حين تحول الى صف تلو صف من منازل صغيرة قميئة نصف مدنية هزيلة البناء مكتظة بمن فيها لكل منها مالك خاصّ .

وهؤلاء :

كونتن الثالث : الذي ما عشق جسد اخته ، بل عشق فكرةً ما عن شرف آل كمبسن وهو الشرف المحمول (وما أعامه بذلك !) مقلقلاً ومؤقتا على غشاء بكارتها النحيف الدقيق ، كمن يريد ان يوازن مصغراً للكرة الارضية الشاسعة على أنف فقمة مدربة . وهو الذي ما عشق فكرة الزنى بالأخت ، فذلك امر لا يقترفه ابدا ، بل تعشق فكرة « برسبتيرية » عن العقاب الأبدي لخطيئة كتلك . وبذلك يستطيع هو ، عوضاً عن الله ، ان يقحم نفسه وأخته في الجحيم ، فيحرسها هنالك الى الأبد ، ويبقيها سليمة الى الابد وسط النيران الازلية . ولكنه عشق الموت ولم يعشق الا الموت اكثر من اي شيء آخر ، فعشق وعاش متقصداً

ومتوقعاً الموت ، كمن يعشق جسد حبيبته الطري الموالي المستسلم ولكن يحجم عنه متقصداً ، الى ان يعجز عن تحمل المنع لا الإحجام ، فيلقي بنفسه ، هاجراً كل شيء ، غارقاً في النهر . لقد انتحر في كمبردج ماساشوستس ، في حزيران ١٩١٠ ، بعد زفاف اخته بشهرين ، منتظراً اولاً اتمام سنته الدراسية لكي يكون قد جنى كامل قيمة ما دفع مقدماً من رسوم لا لأنه كان يحمل طيّ إهابه اجداده القدامى الذين عاشوا في كالودن وكارولاينا وكنتاكي ، بل لأن القطعة المتبقية من ميل كمبسن القديم التي بيعت لسداد نفقات زفاف اخته ودراسته سنة في هارفرد كانت الشيء الوحيد الذي كان له ، باستثناء اخته تلك ومشهد النار في موقد عريض كان اخوه الأصغر المعتوه منذ الولادة يحبه .

كانداس (كادي) : مصيرها محتوم وهي تعلم ذلك ، وقد قبلت بقضائها المحتوم دون أن تبحث عنه او تفر منه . أحبت أخاها رغماً عنه ، ولم تحبه لشخصه فحسب ، بل أحبت فيه ذلك النبيّ المرير والحَكَم الذي لا تثنيه قوة أو رشوة عن حكمه على ما كان يعتبره شرف الأسرة وقضاءها المحتوم ، إذ حسب انه يحب فيها — وهو في الواقع يمقت — ما يعده وعاءً واهياً مقضيّاً عليه بحمل كبرياء الاسرة واداة تلوث ستجلب عليها العار . وليس هذا فحسب ، فقد أحبته لا بالرغم من عجزه عن الحب بل بدافع ذلك العجز ، مقتنعة بأنه يقدّر فوق كل شيء لا جسدها بل البكارة التي جُعِلت في عهدتها والتي لم تعلّق هي عليها اية قيمة : تلك الشُّناجة اللحمية الواهية التي لم تكن في نظرها اكثر قيمة من زائدة معدنية علقت بمسار . كانت تعلم ان أخاها أحب الموت اكثر من اي شيء آخر ولم تَغَرْ ، بل ما كانت لتعبأ لو هي ناولته السم الرمزي (ولعلها بقصدها واصرارها على الزواج انما فعلت ذلك) . كانت حاملاً لشهرين من رجل آخر ، وسمت الجنين ذكراً كان ام انثى ، «كونتن» باسم أخيها الذي كانت تعلم (مثلما يعلم هو) بأنه لا يفترق عن

الميت بشيء، عندما تزوجت (١٩١٠) شاباً مقبولاً جداً من اهل انديانا التقت مع أمها به في عطلة لها صيف العام السابق في « فرنش ليك ». طلقهـا ١٩١١ . تزوجت ١٩٢٠ من منتج سينمائي صغير ، هوليوود كاليفورنيا . طلقا باتفاق بينهما في المكسيك ١٩٢٥ . اختفت في باريس ايام الاحتلال الالماني ١٩٤٠ ، وهي ما زالت جميلة ، ولعلها كانت ثرية ايضاً ، اذ كانت تبدو أصغر من عمرهـا الحقيقي ، وهو الثامن والأربعون ، بخمس عشرة سنة ، ولم يسمع أحد عنها شيئاً بعد ذلك . ولكن كانت ثمة امرأة في جفرسن ، أمينة مكتبة الناحية ، وهي امرأة في حجم الفأر ولونه لم تتزوج قط، درست في مدارس البلدة في الصف نفسه الذي درست فيه كاندس كمبسن ثم قضت بقية حياتها وهي تحاول ان تمنع كتباً مثل « عنبر الى الأبد » بتجسداته المتلاحقة الرتيبة و«جيرغن» و « طوم جونز » من الوقوع في أيدي تلاميذ المدارس الثانويـة الذين كانوا يطالونها دون عناء من رفوفها الخلفيـة حيث كانت هي مضطرة الى الصعود على صندوق لكي تخفيها عنهم . في أحد أيام ١٩٤٣ ، بعد اسبوع من الخبال يقـارب التفتت والانهيار كان الناس فيه كلما دخلوا المكتبة يرونها دائماً وهي تسرع في اغلاق درجها ثم تدير المفتاح فيـه (حتى باتت ربات الأسر من زوجات المصرفيين والاطباء والمحامين ، وقد درس بعضهن في صفها أيام الدراسة الثانوية ، فكن يجئن ويذهبن عصر كل يوم ومعهن نسخ من « عنـبر الى الابد » وكتب « ثورن سميث » ملفوفة بحذر في جرائد ممفيس وجاكسن لئلا يراها أحد، يعتقدن أنها على شفا المرض وربما فقدان العقل). اغلقت باب المكتبة وأقفلته في منتصف العصر ، وقد شدت على حقيبة يدها تحت إبطها وفي خديها ، العديمي اللون عادة ، بقعتان محمومتان من التصميم ، وذهبت إلى دكان تجهيزات المزارعين حيث كان جاسن الرابع قـد بدأ كاتباً وهو الآن صاحب المحل بصفته تاجراً للقطن ، واستمرت في خطوهـا خلال ذلك

الكهف العتِم الذي لا يدخله إلا الرجـال ـ وهو كهف تزدحم على أرضه وجدرانه وتتدلى من سقفه المحاريث والأقراص وأطواق السلاسل والمذاري واللحم المقدد والأرسان والأحذية الرخيصة والدقيق والدبس ، وهو عتِم لأن ما يحتويه من بضائع لم يكن يعرض بل يحجب ، لأن الذين يجهزون فلاحي المسيسبي ، او الزنوج منهم على الأقل ، لقاء سهم في الغلال كانوا يرفضون ، الى ان يحين وقت جمع الغلال وتقدير قيمتها ، أن يُروهم ما قد يذكرهم بحاجاتهم ، فيجهزونهم لقاء الطلب المعين بما لا بد لهم من احتياجه ـ وقد اخذت أمينة المكتبة طريقها إلى مملكة جاسن الخاصة به في المؤخرة: وهي حظيرة مسيجة مكتظة بالرفوف والفتحات المرقمة المليئـة بايصالات الحاج ودفاتر الحساب، ونماذج القطن المكسوّة بالغبار والندف والخيوط تفوح منها رائحةٌ هي مزيجٌ من الجبن والنفط ودهان عدة الخيل والموقد الحديدي الضخم الذي ظل لمئة سنـة خولت هدفاً لتافلي التبغ الممضوغ. وتقدمت من الحاجز العالي المنحدر الذي يقف وراءه جاسن ، وبغير أن تنظر ثانيـة الى الرجال المرتدين ثياب العمل الذين توقفوا بهدوء عن الكلام بل حتى عن المضغ عند دخولها ، وفي شيء من إغماءة اليأس فتحت حقيبتها وأخرجت منها شيئاً وضعته منشوراً عـلى الحاجز ووقفت راجفة لاهثة . اذ راح جاسن يحدّق به ـ صورة ، صورة فوتوغرافية ملونة يظهر أنها قُصت من مجلة سيارة ـ صورة تفيض ترفاً وثراءً وضياء شمس ـ في خلفيتها مشهد كانبيريّ من الجبال والنخيل والسرو والبحر ، وسيارة رياضية مكشوفـة قوية ثمينة تتلألأ بالكُروم، ووجه المرأة الحاسرة الرأس مؤطر بإيشارب ثمين ومعطف من جلد الفقمة ، وجه جميل لا يُعرف له عمر ، قرير رخيّ كتبت عليه اللعنة ؛ وبجانبها رجل ضامر وسيم في سن الكهولة في زي جنرال ألماني بشاراته وشرائطه ـ والعانس الفأرية الحجم واللون راجفة راعبـة لجرأتها ، تحملق عبر الصورة في وجه ذلك العازب العقيم الذي انتهت

به تلك السلالة الطويلة من الرجال الذين ما خلوا يوماً من الكرامة والشمم حتى بعد أن جعلوا يفشلون بالمروءة وغدا الشمم فيهم في اكثره غروراً وشفقة على الذات : من ذلك المهاجر الذي اضطر إلى الفرار من مسقط رأسه وهو يكاد لا يحمل شيئاً سوى حياته، والذي أبى رغماً عن ذلك ، الرضا بالهزيمة ، إلى الرجل الذي قامر بحياته وطيب سمعته مرتين وخسر مرتين ورفض القبول بذلك أيضاً ، وذلك الرجل الذي لم يكن لديه من عدة سوى ربع حصان صغير بارع ولكنه انتقم به لأبيه وجده السليبين وربح امارة ، وذلك الحاكم الشهم الألمعي والقائد العسكري الذي غامر، على الرغم من اخفاقه في قيادة فئة من كرام الشجعان في المعركة بحياته أيضاً في ما اخفق فيه ، الى ذلك المثقف المخمور الذي باع آخر ما تبقى من ميراثه لا ليشتري خمراً بل ليهب واحداً من أبنائه على الأقل فرصة في الحياة هي ، في رأيه ، خير الفرص .

قالت أمينة المكتبة همساً : « انها كادي ! يجب ان ننقذها ! »

فقال جاسن : « اي والله ، انها كادي . » ثم جعل يضحك . ووقف في مكانه يضحك فوق الصورة ، فوق الوجه الجميل القرير الذي تجعد وانثنى بسبب اقامته اسبوعاً في درج المنضدة وحقيبة اليد . وأدركت أمينة المكتبة سبب ضحكه، وهو الذي ما خاطبته الا بـ« السيد كمبسن » لاثنتين وثلاثين سنة، منذ ذلك اليوم من عام ١٩١١ عندما أتت كاندس، وقد لفظها زوجها ، بابنتها الطفلة الى البيت وتركتها هناك ورحلت في القطار التالي وما عادت قط ثانية ، وحدست الطاهية الزنجية دلزي ، وكذلك أمينة المكتبة ، غريزياً بأن جاسن كان على نحوٍ ما يستغل حياة الطفلة وعدم شرعيتها لاكراه الأم، لا على البقاء بعيدة عن جفرسن بقية حياتها وحسب، بل على تعيينه القوّام الوحيد بلا منازع على النقود التي ترسلها لإعالة ابنتها ، وابت ان تكلمه ابداً منذ ذلك اليوم عام ١٩٢٨ عندما زلقت الابنة على المزراب ونزلت عليه وهربت مع عامل السيرك.

وصرخت : « جاسن ! يجب ان ننقذها ! جاسن ! جاسن ! »
وظلت في صراخها حتى عندما التقط الصورة بين الابهام والسبابة ورمى بها عبر الحاجز في اتجاهها .
قال : « أهذه كاندس ؟ لا تضحكيني ! هذه العاهرة لم تبلغ الثلاثين بعد . والاخرى الآن في الخمسين . »
وكانت المكتبة ما تزال مقفلة طوال النهار التالي ايضاً حين ذهبت الامينة في الساعة الثالثة بعد الظهر ، خائرة القوى مجرّحة القدم ولكن شديدة العزم وهي لما تزل تشد حقيبة اليد تحت ابطها ، وولجت فناءً صغيراً منظماً في حي الزنوج من ممفيس ، وصعدت درج البيت الصغير المنظم وقرعت الجرس وفُتح الباب وظهرت امرأة سوداء في مثل عمرها تنظر اليها بهدوء . « ألستِ فروني ؟ » قالت امينة المكتبة : « ألا تذكرينني ؟ — مليسه ميك ، من جفرسن — »
قالت الزنجية : « نعم . تفضلي وادخلي . تريدين ان تري امي . »
ودخلت الغرفة ، وهي غرفة نوم زنجية عجوز مرتبة ولكن مزدحمة ، تفوح منها رائحة الشيوخ والعجائز والزنوج الهرمين ، حيث كانت الام قد اقتعدت كرسياً هزازاً قرب الموقد وفيه ، رغم حزيران ، نار تتقد — امرأة كانت ضخمة فيما مضى ، في خامٍ نظيف حائل اللون وعمامة ناصعة حول رأسها فوق عينين عمشاوين تكادان ، فيما يبدو ، لا تبصران — ووضعت القصاصة المتثنّية الحواف في اليدين السوداوين اللتين كانتا ، كأيدي النساء المتحدرات من عرقها ، ما تزالان مرنتين رهيفتي الشكل كما كانتا وهي في الثلاثين او العشرين او حتى السابعة عشرة من عمرها .
قالت امينة المكتبة : « انها كادي ! انها هي ! دلزي ، دلزي ! »
فقالت الزنجية : « ماذا قال هو ؟ » وعلمت امينة المكتبة من الذي تعنيه بـ « هو » ، ولم تعجب لمعرفة الزنجية العجوز بأنها (اعني امينة

المكتبة) ستعرف من الذي تعنيه بـ « هو » ، كما لم تعجب لمعرفة الزنجية العجوز في الحال بأنها قد ابتدأت بعرض الصورة على جاسن .

وصاحت : « ألا تعلمين ماذا قال ؟ عندما أدرك انها في خطر ، قال انها هي ، وكان حرياً بأن يقولها حتى لو لم تكن لديّ صورة اريه اياها . ولكنه حالما أدرك ان أحداً ما ، كائناً من يكون ، وليكن أنا ، يريد انقاذها ، يحاول انقاذها ، قال انها ليست هي . ولكنها هي بعينها ! انظري اليها ! »

« انظري الى عينيّ ، » قالت الزنجية . « كيف لي ان أرى هذه الصورة ؟ »

فصاحت الامينة : « نادي فروني ! فستتعرف عليها ! » غير ان العجوز كانت قد بدأت بطيّ القصاصة الى تجعيداتها القديمة ، ثم ناولتها اياها .

وقالت : « لم يبق في عينيّ خير . لا استطيع رؤيتها . »

وهذا كل ما هناك . في السادسة كانت أمينة المكتبة تصارع في شق طريقها خلال محطة الباص المزدحمة ، والحقيبة مشدودة تحت احد ابطيها والنصف الخاص بالإياب من تذكرة الذهاب والإياب في اليد الاخرى ، وانجرفت الى الرصيف الهادر على ذلك المدّ اليومي من بعض المدنيين الكهول والعديد من الجنود والبحارة الذاهبين في سبيلهم الى الاجازة او الموت،ورفيقاتهم من الفتيات الشريدات اللواتي كن لسنتين خلتا يعشن من يوم الى يوم في عربات سكك الحديد والفنادق ان كن محظوظات ، وفي الحافلات والباصات والمحطات والمداخل الكبرى وغرف الاستراحة العامة ان لم يكنّ محظوظات ، لا يتوقفن الا لإسقاط مواليدهن في مستوصفات الاحسان او مراكز الشرطة ثم يستأنفن السير مرة أخرى . وصارعت الامينة في شق طريقها الى داخل الباص ، وهي أضأل مَنْ هناك بحيث لم تكن قدمها تمس ارض السيارة الا فيما ندر، حتى نهض

أحدهم (رجل يلبس الخاكي لم تستطع ان تراه لانها كانت قد شرعت بالبكاء) والتقطها جسدياً ووضعها على مقعد قرب النافذة ، حيث كان بوسعها وهي بعد مترعة العينين بالدموع ان تسرح النظر الى المدينة الهاربة وهي تمر بها خطوطاً خطوطاً ثم تحتجب وراءها فتبلغ بيتها عما قريب ، آمنةً في جفرسن حيث الحياة تضطرم بكل ما يستعصي على الفهم من عاطفة وهياج وحزن وعنف ويأس ، اما هنا فانك في الساعة السادسة تستطيع ان تغلق عليها الغلافين فتتمكن حتى يد طفل لا وزن لها من وضعها ثانية بين قومها العديمي الملامح على الرفوف الازلية الهاجعة وتدير المفتاح في القفل عليها طوال الليل الخالي من الأحلام . وفكرت وهي تبكي بهدوء : **اجل هذا هو الواقع،لم ترد ان تراها لتعلم ما اذا كانت كادي ام غيرها ، لانها تعلم ان كادي لا تريد ان تنقذ ، وليس لديها بعدُ اي شيء يستحق الانقاذ ، ولا شيء لديها يستحق الضياع تستطيع اضاعته .**

جاسن الرابع : اول عاقل من آل كمبسن منذ ما قبل كلودن ولذا فانه (وقد ظل اعزب فلم ينجب) ، آخرهم . منطقي عقلاني متمالك النفس بل وفيلسوف من الضرب الرواقيّ القديم : لا يعير الله اي تفكير مطلقاً ولا يحسب حساباً الا للشرطة،ولذا فانه لا يخشى ولا يهاب الا تلك المرأة الزنجية ، عدوته اللدود منذ الولادة وعدوته المميتة منذ ذلك اليوم عام ١٩١١ عندما حدست ، بعلمها بالغيب ، بأنه على نحوٍ ما يستغل عدم شرعية ابنة اخته الطفلة لابتزاز المال من امها ، وهي الزنجية التي كانت تطبخ ما يأكله من طعام . دفع عن نفسه وافلح مع افراد آل كمبسن ، وليس ذلك فحسب بل افلح ايضاً في منافسته آل سنوبس الذين سيطروا على البلدة الصغيرة في اوائل القرن حين جعل آل كمبسن وآل سرتوريس واشباههم يتلاشون منها (لم يكن واحداً من آل سنوبس

بل هو جاسن كمبسن نفسه الذي قام حالما توفيت امه — وكانت ابنة اخته قد سبق وانزلقت على المزراب واختفت فلم يبق لدلزي اي من العَصَوَيْن تلوّح بها فوق رأسه — بتسليم اخيه الأصغر المعتوه لرعاية الدولة مخلياً البيت القديم بعد ان جزّأ الغرف الفسيحة الرائعة الى ما دعاه بالشقق، وباع المكان كله لريفي فأنشا فيه نُزُلاً)، ولم يكن ذلك بالأمر العسير لأنه كان يرى ان بقية آهل البلدة والدنيا، بل والجنس البشري كله باستثناء نفسه، ما هم الا افراد من آل كمبسن ، يعجز المرء عن فهمهم ولكنه لا يعجز عن التنبؤ بأنهم ليسوا في حال من الأحوال اهلاً للثقة . وهو الذي ، بعد ان أنفقت النقود كلها التي حصلت من بيع المرعى على زفاف اخته ودراسة اخيه في هارفرد ، استخدم مدخراته الشحيحة من اجوره الزهيدة ككاتب في مخزن ، في الحاق نفسه بمدرسة في ممفيس حيث تعلم تصنيف القطن ، وبهذا انشأ له عملاً تولى به ، عقب موت ابيه المخمور ، شؤون العائلة المتهافتة في البيت المتهافت ، متعهداً اخاه المعتوه من اجل امها، مضحياً بالملذات التي هي لاعزب في الثلاثين حق عادل بل حاجة لازمة ، كيما تستطيع امه المضي في الحياة التي ألفتها فيما مضى ؛ يفعل ذلك لا لأنه كان يحب امه بل لأنه (وهو الرجل العاقل ابداً) كان يخشى الطاهية الزنجية التي عجز عن اكراهها على ترك البيت حتى بعد ان توقف عن دفع اجورها الاسبوعية . وهو الذي، رغم هذا كله ، تمكن من توفير ما يقرب ثلاثة آلاف دولار (٢٨٤٠ دولاراً و ٥٠ سنتاً كما صرح ليلة سَرَقَتْها ابنة اخته) جمّعها فلساً شحيحاً على فلس، ودرهماً أليماً على درهم ، ولم يحفظ ذخره ذاك في مصرف ما لأن المصرفي في نظره ليس الا فرداً آخر من آل كمبسن ، بل خبأه في درج مقفول بمنضدة في غرفة نومه حيث كان يرتّب ويغيّر فراشه بنفسه اذ كان يُبقي باب غرفة نومه مقفولاً الا اذا عبر منه . وهو الذي ، بعد محاولة عشواء مخفقة من اخيه المعتوه على طفلة عابرة ، نصب نفسه وصياً على المعتوه دون ان يطلع امه على

ذلك ، وهكذا استطاع ان يخصي المسكين حتى قبل ان تدرك الأم انه قد خرج من البيت ، وعقب موتها عام ١٩٣٣ استطاع ان يحرر نفسه الى الأبد لا من اخيه المعتوه وبيته فحسب بل من المرأة الزنجية ايضاً ، وانتقل الى مكتبٍ ذي غرفتين في اعلى السلّم فوق دكان التجهيز ، كان يحوي دفاتر حسابِ القطن ونماذجه ، حوّله الى غرفة نوم ومطبخ وحمام وفي آخر الأسبوع كانت تُرى داخلةً خارجةً امرأةٌ بدينة عادية دمثة لطيفة الوجه نحاسية الشعر فارقت الشباب ، ترتدي قبعات كبيرة ومعطف فرو مزيف (ابّان الموسم) ، ويراهما الناس معاً ، صاحبنا تاجر القطن الكهل والمرأة التي يسمونها ، ببساطة ، صديقته من ممفيس ، في دار السينما المحلية عشية السبت وصباح الاحد ويرونهما يصعدان درج الشقة حاملين أكياس الورق من لدن البقال وقد حوت الأرغفة والبيض والبرتقال وعلب الحساء ، اشبه بمن يعيش حياة زوجية عائلية أليفة ، الى ان يُقلّها باص ساعة المغرب عائدة الى ممفيس . لقد انعتق الآن واصبح حراً . فكان يقول : « في عام ١٨٦٥ حرر ابراهام لنكولن الزنوج من آل كمبسن . وفي عام ١٩٣٣ حرر جاسن كمبسن آل كمبسن من الزنوج . »

بنجامين : سُمّي لدى ولادته « موري » ، باسم خاله الوحيد الذي كان شاباً عزباً وسيماً شديد الخيلاء والبخترة بغير عمل ، يكاد يستدين المال من كل من يلقاه ، حتى من دلزي نفسها ، رغم أنها زنجية ، معللاً ذلك لها وهو يسحب يده من جيبه بأنها في نظره لا تفترق عن فرد من افراد عائلة أخته ، وليس ذلك فحسب بل انها لتعتبر في نظر اي انسان في أي مكان سيدةً ذات حسب ونسب . عندما ادركت أمه في النهاية حقيقة امره أصرت وهي تذرف الدمع على تغيير اسمه ، فسماه أخوه كونتن من جديد بنجامين (« بنيامين ، أصغر ابنائنا ، باعوه في مصر »).

وهو الذي ما أحب قط الا أشياء ثلاثة : المرعى الذي بيع لدفع نفقات زفاف كاندس وارسال كونتن الى هارفرد ، وأخته كاندس ، ووهج النار . ولم يفقد اياً منها لأنه ما استطاع ان يتذكر اخته فما تذكر الا فقدانها ؛ اما وهج النار فكان له شيئاً متلألئاً كالاستغراق في النوم ؛ وكان المرعى بعد ان بيع أفضل له منه قبل البيع لأنه يستطيع الآن مع « تي بي » ان يتتبع بمحاذاة السياج الى ما لا نهايــة الحركات التي لا يعنيه انهـا أناس يضربون بعصي الغولف ، ويقتادهم « تي بي » الى مجاميع من الحشيش او الاعشاب حيث تـبرز فجأة في يد « تي بي » كريات بيضاء تنافس بل وتقهر مـا لم يكن يعلم انه الجاذبية والقوانين الثابتـة كلها عندما تطلق من اليد نحو الأرضية الخشبية أو جدار بيت الدخان او الممشى الكنكريتي . خُصي ١٩١٣ . اودع في مستشفى مجانين الولاية في جاكسن ١٩٣٣ . ومرة اخرى لم يفقد شيئاً لأنـه ، كما هو شأنه مع اخته ، لم يتذكر المرعى بل تذكر فقدانه فقط ، وبقي وهج النار لديه في لألاء النوم .

كونتن : الأخيرة . ابنة كاندس . حرمت الأب قبل ميلادها بتسعة أشهر ، وحرمت الاسم عند ميلادها وقد كتب عليها الا تتزوج لحظـة قررت البويضة المنشقة جنسها . وهي التي تعلقت يوم كانت في السابعة عشرة من عمرها ، وفي الذكرى الخامسة والتسعين بعد الألف والثمانمئة لليوم السابق لقيام سيدنا المسيح ، تعلقت بمزراب خارجة من نافذة الغرفة التي كان خالها قد حبسها فيها ظهراً ، مندفعة نحو النافذة المقفلة لغرفة نومه الخالية المقفلة وكسرت لوحاً من الزجاج واقتحمت النافذة ، وبمحراك خالها كسرت قفل درج المنضدة وفتحته وأخذت النقود (ولم تكن ٢٨٤٠ دولاراً و ٥٠ سنتاً فقط ، بل كانت حوالي سبعة آلاف دولار ، وهذا هو سر حنق جاسن ، ذلك الغضب الأحمر الذي لا يطاق ، الذي حدا

به الى الظن في تلك الليلة وفي فترات أخرى (اذ جعل يعاوده عنيفاً دون هوادة لخمس سنوات طوال) انه سيحطمه بغتة ، سيقتله فوراً كأنه رصاصة او صاعقة : وأنه ، رغم انه لم يسلب ثلاثة آلاف دولار حقيرة فحسب بل حوالي سبعة آلاف ، لا يستطيع أن يفصح عن ذلك لأحد ، ولأنه قد سلب سبعة آلاف دولار بدلاً من ثلاثة آلاف فقط لم يكن قط ليتاح له أن يلقى تأييداً وتبريراً — فهو لا يريد عطفاً — من آخرين ساء حظهم فابتلوا بأخت عاهرة وابنة اخت عاهرة أيضاً ، ولم يكن زيادة على ذلك بمستطيع اللجوء حتى الى الشرطة ؛ ولأنه فقد اربعة آلاف دولار لم تكن مُلكه جميعاً لم يكن بوسعه أن يستعيد الآلاف الثلاثة التي كانت مُلكاً خالصاً له اذ كانت الأربعة آلاف دولار الأولى ملكاً مشروعاً لابنة اخته بصفتها جزءاً من النقود التي كانت ترسلها امها للعناية بها واعالتها طوال السنوات الست عشرة الماضية ، وليس ذلك فحسب، بل ان النقود لم تكن موجودة رسمياً ، لأنه سجلها رسمياً كمبالغ مصروفة ومستهلكة في التقارير السنوية التي كان يقدمها لحاكم المقاطعة بصفته وصيّها والقوام الشرعي عليها : فهو اذن لم يسلب سرقاته وحسب بل مدخراته أيضاً ، وما سلبته اياها الا ضحيته ؛ لقد سلب الأربعة آلاف دولار التي جازف بالسجن من أجل تجميعها ، وكذلك الآلاف الثلاثة التي جمعها بالحرمان والتضحية ، درهماً على درهم ، طوال مدة تقارب العشرين عاماً : وسالبته لم تكن ضحيته فقط بل كانت أيضاً طفلة ارتكبت فعلتها بضربة واحدة ، دون سابق تصميم او خطة ، دون ان تعلم ، أو يعنيها ان تعلم ، مقدار ما سوف تجد عندما تكسر القفل وتفتح الدرج ؛ ولا يستطيع الى هذا كله أن يلجأ الى الشرطة طلباً للعون : وهو الذي كان يحترم الشرطة دائماً ، فلا يسبب لهم ازعاجاً ، ويدفع لسنين طويلة ما يستحق عليه من ضرائب تسمح لهم بأن يعيشوا في خمول ساديّ طفيلي ؛ وليس ذلك فحسب ، بل انه لم يجرؤ على مطاردة الفتاة

بنفسه لأنه قد يمسك بها فتفضحه ، بحيث لم تبق له وسيلة يلجأ اليهـا الا حلماً باطلاً جعل يؤرقه ويقلبه في عرقه في الليالي لسنتين وثـلاث بل وأربع بعد هذا الحادث ، حين كان ينبغي له ان ينسى : وهو أن يمسك بها على حين غرة ، مفاجئاً اياها في الظلام، قبل أن تنفق النقود كلها ، فيقتلها قبل ان يتاح لها ان تفتح فاها). وانزلقت على المزراب نفسه في عتمة الغسق وهربت برفقة عـامل السيرك الذي كان مداناً فيما سبق لزواجه من اثنتين . وهكذا اختفت ؛ فمهما تكن الحرفـة التي قد ادركتها فانها لم تكن لتأتي في سيارة « مرسيديس » مطلية بالكروميوم؛ ومهما التقط لها من صور فانها لن تحوي جنرالاً من اركان الجيش .

وهذا كل ما هنالك. أما هؤلاء الآخرون فلم يكونوا من آل كمبسن. لقد كانوا سوداً :

« **تي بـي** »: هو الذي كان في شارع بيل في ممفيس يلبس الثياب الجميلة الزاهية الرخيصة الجاسية التي خاطها خصيصاً له اصحاب المتاجر التي ما انصفت يوماً عاملاً في شيكاغو ونيويورك .

فروني : هي التي تزوجت احد حمّالي الدرجة الأولى من سكة الحديد وذهبت الى مدينة سانت لويس للعيش فيها ثم عادت الى ممفيس لتفتح بيتاً لأمها لان دلزي رفضت ان تذهب الى ما هو ابعد من ذلك .

لستر : رجل ، عمره ١٤ سنة . لم يستطع ان يعنى عناية تامة بمعتوه في ضعف عمره وثلاثة اضعاف حجمه ويقيه الأذى فحسب،بل استطاع ان يسلّيه ايضاً طول الوقت .

دلزي :
لقد تحمّلوا وبقوا .

نيسان

٧

١٩٢٨

من خلال السياج ، بين فسحات الزهور المتثنّية ، كنت أراهم يضربون . كانوا يقتربون من العَلَم ومشيتُ انا بمحاذاة السياج . كان لستَر يبحث في العشب قرب شجرة الورد . رفعوا العلم من مكانه ، وراحوا يضربون . ثم اعـــادوا العلم الى مكانه وذهبوا الى المستوى ، فضرب احدُهم ، ثم ضرب الآخر . ثم ابتعدوا ، ومشيت بمحاذاة السياج . وجاء لستَر من شجرة الورد ومشينا بمحاذاة السياج ، فتوقفوا وتوقفنا ونظرت من خلال السياج بينما راح لستَر يبحث في العشب .

« هات يا كادي * . » وضرب . وابتعدوا عبر المرعى . فتمسكت بالسياج وجعلت ارقبهم وهم يبتعدون .

وقال لستَر : « اسمعوه يا عالم . اليس عجيباً انك في الثالثة والثلاثين

* الـ « كادي » هو الولد الذي يحمل عصي الغولف للاعبين . اما لبنجي فالكلمة اسم اخته التي يحبها ولا يستطيع الكف عن حنينه اليها وبالتالي بكائه عليها . (المترجم)

من عمرك ، وتستمر على هذا النحو . بعد ان ذهبتُ طيلة الطريق الى البلدة واشتريت لك كعكة . كفــاك انيناً . الا تريد ان تساعدني في البحث عن ربع الدولار ذلك لكي استطيع الذهاب الى السيرك هذه الليلة .»

كانوا يضربون قليلاً ، عبر المرعى . مشيت بمحاذاة السياج الى حيث كان العلم يرفرف على الحشيش البرّاق والاشجار .

وقال لستر : « هيّا . لقد بحثنا هناك . لن يأتوا الآن ثانية . فلننزل الى الغدير لنبحث عن الربع قبل ان يلقاه الزنوج . »

كان احمر يرفرف على المرعى . وكان عصفور يميل ويترنح عليه . فضرب لستر . ورفرف العلم على الحشيش البراق والاشجار . وتمسكت انا بالسياج .

قال لستر : « كفاك انينــاً ، هل استطيع ان اجبرهم على المجيء اذا ما رفضوا ؟ اذا لم تسكت لن تقيم لك ماما حفلةً لعيد ميلادك أتعلم ما الذي سأفعله اذا لم تسكت ؟ سآكـــل تلك الكعكة كلها . وآكل الشموع ايضاً . نعم ، آكل الثلاثة والثلاثين شمعة كلها . هيا ، لننزل الى الغدير . لا بد ان اجد ربعي . وقد نجد بعض تلك الكرات . أترى . ها هم هناك . هناك بعيداً . اترى . » جاء الى السياج واشار بذراعه . « اتراهم انهم لن يعودوا الى هنا هيّا . »

مشينا بمحاذاة السياج وبلغنا سياج الحديقة ، حيث كان ظلاّنا . كان ظلّي أعــلى من ظل لستر على السياج . ذهبنا الى المكان المكسور ودخلنا منه .

قال لستر : « انتظر لحظة . عايقَتْ ثيابك بذلك المسمار مرة اخرى . الا تستطيع ان تزحف خلال هذه الفتحة دون ان تعلق ثيابك بالمسمار . »

تركتني كادي وزحفنا خلال الفتحة . قال خالي موري يجب الا يرانا احد ، اذن علينا ان ننحني جداً ، قالت كادي . انحنِ يا بنجي . هكذا ، اترى . فانحنينا جداً وقطعنا الحديقة ، حيث كانت الزهور

تصرّ وتخشخش اذ تمسنا . كانت الأرض صلبة . تسلّقنا السياج ، حيث كانت الخنازير تشخر وتنخر . فقالت كادي ، يخيّل اليّ انها حزينة لأن واحـــداً منها قد ذُبح اليوم . كانت الأرض صلبة ، مخضوضة ءقداء .

قالت كادي ، أبق يديك في جيبك ، وإلا فانهما تتجمدان . اتريد ان تتجمد يداك يوم عيد الميلاد .

قال فيرش : « البرد قارس في الخارج . يجب ألاّ تخرج الى العراء . »

فقالت امي : « ما الأمر الآن »

قال فيرش : « يريد ان يخرج الى العراء . »

فقال خالي موري : « دعه يخرج . »

قالت أمي : « البرد قارس . خير له ان يبقى في الداخل . بنجامين كفّ عن ذلك . »

قال خالي موري : « لن يؤذيه الخروج . »

وقالت امي : « اسمع يا بنجامين . اذا لم تكن عاقلاً ، ارسلتك الى المطبخ . »

فقال فيرش : « ماما تقول لا تجعلوه يدخل المطبخ اليوم . اذ عليها ان تنهي طبخها الكثير . »

قال خالي موري : « دعيه يذهب يا كارولاين . ستمرضين قلقاً عليه . »

فقالت امي : « اعرف ذلك . اني لأتساءل احياناً . اهو حكم الله علي » .

فقال خالي موري : « أعرف ، أعرف . يجب ان تحـــافظي على قوتك . سأهيّء لك كأساً من « التودي » . »

قالت امي : « لن يزيد الا من اضطرابي . الا تعرف ذلك . »

قال خالي موري : « بل انه يحسّن حالك . لفلفه جيداً ، يا ولد، وأخرجه لمدة ما . »

ثم ذهب خالي موري . وذهب فيرش .

قالت امي : « بالله اسكت . ها نحن نحاول ان نخرجك باسرع ما نستطيع . لا اريدك ان تمرض . »

ألبسني فيرش نعلاً اضافياً فوق حذائي ومعطفاً وأخذنا قبعتي وخرجنا. وكان خالي موري يضع الزجاجة مكانها في البوفيه في غرفة الطعام .

قال خالي موري : « أخرجه لنصف ساعة ، يا ولد ، وأبقِه في صحن الدار . »

فقال فيرش : « نعم يا سيدي . نحن لا نسمح له ابداً بالابتعاد عن المكان . »

خرجنا . وكانت الشمس باردة وبرّاقة .

قال فيرش : « الى اين انت متوجه ، اتظن انك ذاهب الى البلدة ؟ »

مشينا خلال الاوراق المخشخشة . وكانت البوابة باردة . فقال فيرش : « خير لك ان تبقي يديك في جيبك . ما الذي ستفعله اذا تجمدتا على الباب ، لماذا لم تنتظرهم في البيت . » أدخل يديّ في جيبيّ . وسمعته يخشخش بين الاوراق . شممت البرد . وكانت البوابة باردة .

هذا بندق . واه . انظر الى اعلى تلك الشجرة . انظر الى هذا السنجاب ، بنجي . »

لم استطع ان احسّ البوابة قط ، ولكنني استطعت ان اشمّ البرد البراق .

« خير لك ان تضع يديك في جيبيك . »

كانت كادي تمشي . ثم جعلت تركض وحقيبة كتبها تقفز وتتأرجح وراءها .

وقالت كادي : « هالو ، بنجي . » وفتحت البوابة ودخلت

وانحنت عليّ . كانت رائحة كادي كرائحة اوراق الشجر . وقالت : « اجئت لتستقبلني . اجئت لتستقبل كادي . لماذا تركتَه يعرّض يديه لهذا البرد يا فيرش . »

فقال فيرش : « قلت له ان يبقيهما في جيبيه . ولكنـــه يصر على التمسك بهذه البوابة . »

« اجئت تستقبل كادي » قالت وهي تفرك يديّ . « ماذا لديك ؟ ما الذي تريد ان تقوله لكادي . » كانت رائحة كادي كرائحة الشجر وكرائحتها حين تقول إننا نائمان .

قال لستر ، ما الذي تبكيه ؟ نستطيع ان نتفرج عليهم ثانية عندما نعود الى الغدير . هاك . هاك . زهرة « جِمْسُن » . اعطاني الزهرة . مشينا خلال السياج ، الى قطعة الأرض .

قالت كادي : « ماذا لديك . ما الذي تريد ان تقوله لكادي . هل هم الذين اخرجوه يا فيرش . »

فقال فيرش : « لقد عجزوا عن ابقائه في البيت . وبقي مصرّاً حتى سمحوا له بالخروج فجاء رأساً الى هنا ، ليتطلع من خلال البوابة . »

وقالت كادي : « ما الأمر . هل ظننت ان عيد الميـــلاد يكون حين اعود الى البيت من المدرسة . اهذا ما ظننته . عيد الميلاد يقع بعد غد . سانتا كاوز ، بنجي ، سانتا كاوز . هيّا ، انركض الى البيت وندفأ . » واخذت بيدي وركضنا خلال الاوراق البراقة المهسهسة. وصعدنا الدرج راكضين من البرد البراق الى البرد المعتم . وكان خالي موري يعيد الزجاجة الى مكانها في البوفيه ، ونادى كادي . فقالت كادي :

« خذه الى قرب النار يا فيرش . اذهب مع فيرش ، وسآتي بعد دقيقة . »

فقصدنا المدفأة . وقالت امي :

« ايشعر ببرد يا فيرش . »

« لا . » قال فيرش .

فقالت امي : « انزع عنه المعطف والنعل الاضافي . كم مرة قلت لك الا تدخله البيت قبل ان ينزع نعله الاضافي . »

قال فيرش : « نعم ، سيدتي . هس ، لا تتحرك . » ونزع نعليّ وفك ازرار معطفي . فقالت كادي :

« انتظر يا فيرش . أماه ، الا تسمحين له بالخروج ثانية . اريد له ان يرافقني . »

قال خالي موري : « الافضل ان تتركيه هنا . حسبه خروجا اليوم . »

قالت امي . « اعتقد ان الافضل لكليكما ألاّ تخرجا . فدلزي تقول ان البرد في ازدياد . »

قالت كادي : « اوه ، ماما »

وقال موري : « كلام فارغ . لقد قضت اليوم كله في المدرسة . انها بحاجة الى الهواء النقي . هيّا اركضي يا كاندس . »

فقالت كادي : « دعيه يأتي ، يا اماه ارجوك . وإلاّ بكى كما تعلمين . »

فقالت امي : « اذن لماذا ذكرت الموضوع امامه . لماذا دخلت هنا . لتعطيه عذرا لاقلاقي من جديد . كفاك خروجاً اليوم . اعتقـــد ان من الافضل ان تجلسي هنا وتلاعبيه . »

قال خالي موري : « دعيهما يخرجان ، يا كارولاين . لن يؤذيهما القليل من البرد . وتذكري ، ان عليك ان تحافظي على قوتك . »

فقالت امي : « أعرف . ما من احد يدري كم اخشى عيد الميلاد . ما من احد يدري . فأنا لست من اولئك النسوة اللواتي يستطعن تحمّل الاشياء . لشد ما أتمنى ، من اجل جاسن والاطفال ، لو كنت اقوى مما انا . »

« عليك ان تفعلي ما بوسعك ولا تسمحي لهم باقلاقك . » قال خالي موري ذلك واردف : « والآن ، انصرفا كلاكما . ولكن لا تتأخرا في الخارج . والا قلقت ماما عليكما . »

فقالت كادي : « نعم ، خالي . هيّا ، بنجي . سنخرج مرة اخرى . » ثم زررت معطفي ومشينا نحو الباب.

فقالت امي : « استأخذين هذا الطفل دون نعليه الاضافيّين . اتريدين ان تُمرِضيه وبيتنا مليء بالضيوف . »

فقالت كادي : « لقد نسيت . حسبته لابساً نعليه . »

وعدنا . وقالت امي : « يجب ان تفكّري . » وقال فيرش : « والآن ، **لا تتحرك .** » والبسني النعلين الاضافيين . «سأموت يوماً ما ، وعليك حينئذ ان تفكّري عنه . » وقال فيرش، « والآن ، **اخبط برجلك الأرض**». « تعال قبّل ماما يا بنجامين . »

اخذتني كادي الى كرسيّ امي ، فأخذت امي وجهي بين يديها ثم ضمتني اليها .

وقالت : « طفلي المسكين . » ثم خلّتني . « اعتني به يا محبوبتي ، انتِ وفيرش . »

قالت كادي « نعم » وخرجنا ، فقالت :

« لا حاجة بك الى الذهاب يا فيرش . سأبقيه معي قليلاً . »

فقال فيرش : « لا بأس . فانا لن اخرج في هذا البرد للمتعة . » ثم ذهب ، ووقفنا في المدخل وركعت كادي واحتوتني بذراعيها والصقت وجهها البارد البرّاق بوجهي وكانت رائحتها كرائحة الاشجار.

« انت لست طفلاً مسكيناً . لا . فلديك كادي . أليست كادي عندك . »

قال لستر ، ألن تكف عن هذا الأنين والنشيج . الا تخجل من نفسك ، اذ تصدر عنك هذه الاصوات . ومررنا ببيت العربة ، حيث رأينا العربة . وكانت لها عجلة جديدة .

« ادخل ، ادخل ، واجلس بلا حركة حتى تأتي امك . » قالت دلزي ذلك . ودفعتني إلى داخل العربة . وأمسك تي بـي بالعنان. وقالت دلزي : « والله لا أدري لماذا لا يشتري جاسن عربة جديدة . فهـذه العربة ستغدو حطاماً تحتكم يوماً من الأيام . انظروا الى هذه العجلات.»

وخرجت أمي وقد اسدلت نقابها على وجهها . ومعها زهور .

قالت : « اين رسكوس . »

فقالت دلزي : « لِيُرِحْ رسكوس ذراعيه اليوم. بوسع تي بـي أن يسوق ، ولا بأس بسياقته . »

قالت امي: «أخاف . أوَ لا تستطيعون كلكم أن تهيئوا لي سائقاً للعربة مرة واحدة في الاسبوع ؟ يعلم الله أنني لا أطلب الكثير . »

قالت دلزي : « انت تعلمين كما أعلم انا ان الروماتيزم اثقل وطأة على رسكوس من أن يفعل اكثر ممـا ينبغي يا سيدة كارولاين . فهيا تعالي واصعدي الآن . تي بـي لا يقل عن رسكوس مهارة في السياقة.»

قالت امي : « أخاف أن اصعد ، ومعي الطفل . »

فارتفعت دلزي الدرجات وقالت : « اتسمين هذا طفلاً .» وأخذت بذراع أمي . « انه رجل بحجم تي بـي . هيّـا اصعدي ، ان كنت ذاهبة . »

قالت امي : « أخاف . » ونزلنا الدرج ودلزي تساعد أمي. فقالت امي : « لعل هذا هو الافضل لنا كلنا . »

قالت دلزي : « عيب والله ان تقولي ذلك . الا تعلمين أن الذي قد يجعل « كويني » تسرع في ركضها يجب ان يكون اكثر من مجرد زنجي في الثامنة عشرة من عمره . وهي اكبر سناً منه ومن بنجي معاً . وانت يا تي بـي ، افتح اذنيك واسمعني . إياك أن تحـاول ان تتسابق بكويني . فاذا لم تسق وفق مشيئة السيدة كارولاين فسأسلط رسكوس عليك . وهو ليس مشغولاً جداً بحيث يرفض ذلك . »

قال تي بـي : « نعم . »
« أنا أعرف ان امرأ ما سيقع . » قالت امي . « كفى يا بنجامين. »
« أعطه زهرة يحملهـا . هذا ما يريد . » قالت دلزي ذلك ، ومدت يدها .

فقالت امي : « لا ، لا . ستبعثرينها كلها . »
قالت دلزي : « امسكي به . سأخرج له واحـدة . » وناولتـني زهرة ثم ارتدت يدها عني .
قالت دلزي : « اذهبي ، هيا، قبل ان تراك كونتن فتريد الذهاب أيضاً . »

قالت امي : « اين هي . »
— « ذهبت الى المنزل لتلعب مع لستر . هيا يا تي بـي . سق العربة كما قال لك رسكوس . »
فقال تي بـي : « نعم ، حاضر . تحركي يا كويني . »
وقالت أمي : « كونتن . لا تدعيها تخرج »
قالت دلزي : « طبعاً طبعاً . »
راحت العربة ترتج وتقضقض على الطريق الخاصة . وقالت أمي « أخشى ان أذهب وأترك كونتن . الأفضل الا أذهب يا تي بـي . »
عبرنا البوابة فما عادت العربة ترتج . وضرب تي بي كويني بالسوط .
قالت امي : « انت يا تي بـي . »
فقال تي بـي : « عـليّ ان أحركها . سأنشطها الى ان نعود الى العنبر . »
قالت امي : « استدر وعُد . أنا أخشى ان اذهب واترك كونتن . »
قال تي بـي : « لا أستطيع الاستدارة هنا . » ثم اتسع الطريق .
قالت امي : « الا تستطيع الاستدارة هنا . »
قال تي بـي : « طيب . » وبدأنا نستدير .

فقالت امي وهي تمسك بـي : « أنت يا تي بـي . »
« لا بد من ان أستدير على شكل ما . هاي ، كويني . »ووقفنا.
قالت امي : « ستقلبنا . »
قال تي بـي : « ما الذي تريدين ان تفعلي اذن . »
قالت أمي : « انت تخيفني عندما تحاول ان تستدير . »
قال تي بـي : « تزحزحي يا كويني . » وسرنا .
وقالت امي : « انا أعرف ان دلزي ستجعل امرأ ما يقع لكونتن وانا غائبة . يجب ان نسرع في العودة . »
قال تي بـي : « تحركي يا كويني . » وضرب كويني بالسوط .
« انت يا تي بـي . » قالت امي وهي تمسك بـي . كنت أسمع حوافر كويني ، وراحت الأشكال البراقة تنزلق ناعمة نظيمة من على الجانبين وظلالها تنساب على ظهر كويني . واستمرت كذلك أشبه بأعالي العجلات البراقة . ثم توقفت تلك التي على احد الجانبين عند العمود الابيض الطويل حيث وقف الجندي . اما على الجانب الآخر فقد استمرت في انزلاقها ناعمة نظيمة ، ولكن بسرعة اقل .
قال جاسن : « ماذا تريدين . » وكانت يداه في جيبيه ووراء اذنه قلم .
قالت امي : « اننا ذاهبون الى المقبرة . »
فقال جاسن : « لا بأس . هل حاولت أن أمنعكم . أهذا كل ما أردتـه مني ، ان تخبريني بذلك . »
قالت امي : « ادري بأنك لن تأتي معنا . ولكن لو اتيت لازددت اطمئناناً . »
قال جاسن : « وممَّ انت خائفة . لن يؤذيك ابـي او كونتن . »
فوضعت امي منديلها تحت نقابها، وقال جاسن : « كفاك يا اماه . اتريدين ان تجعلي هذا الأبله الكريه يشرع بالعياط وسط الميدان . سُق

يا تي بي . »

قال تي بي : « تحركي يا كويني . »

وقالت امي : « هذا حكم الله عليّ . ولكنني راحلة انا ايضاً عما قريب . »

قال جاسن : « اسمعي . »

فقال تي بي : « هاي . »

قال جاسن : « يريد خالي موري ان يسحب خمسين دولاراً على حسابك . ما الذي تنوين ان تفعلي بخصوص ذلك . »

قالت امي : « ولماذا تسألني . كلمتي غير مسموعة ، ولذا فإنني احاول الا ازعجك انت أو دلزي . سأرحل عن هذه الدنيا عما قريب . ثم يأتي دورك . »

قال جاسن : « امش يا تي بي . »

فقال تي بي : « تحركي يا كويني . » وراحت الأشكال تسيل : وبدت تلك التي على الجانب الآخر من جديد ، براقةً سريعة ناعمة ، شبيهة باللحظة التي تقول فيها كادي اننا سننام .

قال لستر : تبكي كالطفل الصغير . الا تخجل . دخلنا العنبر ، وكانت الحظائر كلها مفتوحة . وقال لستر : لا مهرة منقّطة لديك للركوب . كانت الارض يابسة متربّة . وكان السقف يتساقط . والثقوب المائلة ملأى بصفرة دوّارة . لماذا تريد الذهاب من هناك . اتريد ان تطيح برأسك احدى تلك الكرات .

قالت كادي : « أبقِ يديك في جيبيك . والا تجمدتا . أتريد ان تجمد يداك يوم عيد الميلاد ؟ »

مشينا حول العنبر . وكانت البقرة الكبيرة والبقرة الصغيرة واقفتين بالباب ، وكنا نستطيع ان نسمع برنْس وكويني وفانسي تخبط الأرض داخل العنبر . وقالت كادي : « لو لم يكن البرد قارساً لركبنا فانسي .

ولكننا لن نستطيع ان نبقى على ظهرها في هذا البرد . »ثم رأينا الغدير حيث كان الدخان يُنفث . فقالت كادي : « ذلك هو المكان حيث يذبحون الخنزير . نستطيع ان نمرّ به عند عودتنا ونراهم .» ونزلنا التل.

قالت كادي : « أتريد ان تحمل الرسالة ؟ هاكها . » وأخرجت الرسالة من جيبها ووضعتها في جيبي . « انها هدية لعيد الميلاد ، يريد خالي موري أن يفاجىء بها المسز باترسن . وعلينا ان نسلمها إياها دون ان ندع احداً يرانا . والآن ، لا تخرج يديك من جيبيك . » ثم بلغنا الغدير .

قالت كادي : « لقد تجمد كل شيء . انظر . » وكسرت أعلى الماء وأمسكت بقطعة منه امام وجهي . « جليد . وهذا دليل على شدة البرد . » أعانتني على العبور وصعدنا التل . « يجب الا نخبر حتى ماما وبابا . اتدري ما اظن بها ؟ اخالها تحمل مفاجأة لماما وبابا والسيد باترسن جميعاً،لأن السيد باترسن ارسل اليك بعض الحلوى . اتذكر يوم ارسل اليك السيد باترسن بعض الحلوى في الصيف الماضي . »

كان ثمة سياج . وكانت الدالية يابسة والريح تخشخش فيها .

قالت كادي : « لست أرى لماذا لم يرسل خالي موري ، فيرش . إن فيرش كتوم . » وكانت المسز باترسن تنظر من الشباك . فقالت كادي : « انتظر هنا . انتظر هنا ولا تتقدم . سأرجع بعد دقيقة . اعطني الرسالة . » واخرجتُ الرسالة من جيبي . « أبقِ يديك في جيبيك . » ثم تسلقت السياج والرسالة في يدها ومشت بين الزهور البنّية المخشخشة . وجاءت المسز باترسن الى الباب وفتحته ووقفت هناك.

كان السيد باترسن يكسّر حطباً وسط الزهور الخضراء . توقف عن التكسير ونظر إلي . وجاءت المسز باترسن عبر الحديقة راكضة . فلما رأيت عينيها جعلت ابكي . وقالت : يا معتوه ، قلت له الا يرسلك بمفردك أبداً ثانية . اعطني إياها بسرعة . وهرول السيد باترسن وفي

يده المعزقة ، واتكأت المسز باترسن على السياج وقد مدت يدها عالياً . كانت تحاول تسلق السياج . وقالت اعطني اياها ، اعطني اياها .وتسلق السيد باترسن السياج ، وأخذ الرسالة . وعلق ثوب المسز باترسن بالسياج. ورأيت عينيها ثانية ونزلت التل راكضاً .

قال لستر : « ليس هناك إلا بيوت نحن في سبيلنا إلى الغدير . »

كانوا في الغدير يغسلون الثياب . وكانت امرأة منهم تغني . جعلت اشم الثياب المرفرفة ، والدخان يهب فوق الغدير .

قال لستر : « إبقَ هنا . لا شأن لك معهم هناك . هؤلاء القوم قد ضربوك ، لا شك . »

— « ماذا يريد أن يفعل . »

فقال لستر : « لا يعرف ماذا يريد ان يفعل . فهو يظن أنه يريد ان يذهب هنــاك حيث هم يضربون تلك الكرة . اقعد مكانك والعب بزهرة الجمسن . وإذا كان لا بد لك من ان تنظر الى شيء ، فانظُ الى اولئك الأطفــال الذين يلعبون في الغدير . عجيب . لماذا لا تحسن التصرف كبقية القوم . » فجلست على الضفــة ، حيث كانوا يغسلون الثياب ، والدخان يتصاعد أزرق اللون .

قال لستر : « أرأيتم رُبعاً هنا يا جماعة . »

— « أي ربع . »

قال لستر : « الربع الذي كان معي هذا الصباح ، فقدته في مكان ما . لقد سقط من هذا الثقب في جيبي . واذا انا لم أجده تعذّر عليّ الذهاب الى السيرك هذه الليلة . »

— « من أين حصّلت ربعاً ، يا ولد . اوجدته في جيب أحد القوم البيض اذ غافلتهم . »

فقال لستر : « حصّلته حيث يكون التحصيل . وفي المكان الذي جاءت منــه أرباع كثــيرة . ولكن يجب ان اجد هذا الربع .

أما وجدتموه بعد ؟ »

ـــ « انا لن أبحث عن ربع لأحد . فلدي شغلي الشاغل . »

قال لستر : « هيا بربك . ساعدني في البحث عنه . »

ـــ « اتظن انه يعرف الربع لو رآه . »

قال لستر : « ولكنه يستطيع ان يساعدني في البحث . كلكم ذاهبون الى السيرك هذه الليلة . »

ـــ « لا تحدثني عن السيرك . فحالما افرغ من هذا الطشت سأكون مرهقة بحيث لا استطيع رفع يدي لأفعل أي شيء . »

قال لستر : « اراهن انك ستكونين هنـــاك . واراهن انك ذهبت هنـــاك ليلة البارحة . واراهن انكم جميعاً ستكونون هناك حالما تفتتح تلك الخيمة . »

ـــ « سيكون هناك ما يكفي من الزنوج دون ان أذهب انا . كما حدث البارحة . »

ـــ « نقود الزنوج لا تختلف عن نقود البيض ، ها . »

ـــ « يعطي البيض الزنجي نقـــوداً لانهم يعرفون أنهم سيسترجعونها حـــالما يطرق المكان رجل أبيض ومعه فرقة موسيقية ، فيعود الزنجي ويشتغل من جديد . »

ـــ « اليس هناك من أحد يدفعك الى حضور هذا السيرك . »

ـــ « لا حتى الآن . لم افكر في الأمر ، في الواقع . »

ـــ « ماذا لديك ضد القوم البيض . »

ـــ « لا شيء لدي ضدهم.فانا اذهب في سبيلي وأدع البيض يذهبون في سبيلهم . هذا ولا يهمني هذا السيرك . »

ـــ « في السيرك رجل يستطيع ان يعزف نغماً على منشار . انه يعزف عايه كما لو كان بانجو . »

قال لستر : « لقد ذهبت انت البارحة ، أما انا فسأذهب اليوم ،

اذا استطعت ان اجد اين اضعت ذلك الربع . »

ــ « ستأخذه معك ، أليس كذلك . »

فقال لستر : « انا . اتظن انه يجب ان يكون معي اينما ذهبت . لقد حان له ان يشرع في العياط . »

ــ « وماذا تفعل عندما يشرع في العياط . »

قال لستر : « اجلده . » ثم قعد ورفع ثيابه . وراحوا يلعبون في الغدير .

قال لستر : « أوجدتم اية كرات يا جماعة . »

ــ « كلامك كبير جداً . والله خيرٌ لك ألا تسمعك جدتك وانت تتكلم على هذا النحو . »

توغل لستر في الغدير حيث كانوا يلعبون . ثم اخذ يبحث في الماء، بمحاذاة الضفة .

« كان الربع معي حين اتيت هنا هذا الصباح . » قال لستر .

ــ « اين فقدته . »

ــ « من هذا الثقب هنا في جيبي . » واستمروا يبحثون في الغدير. ثم انتصبوا كلهم فجأة وتوقفوا ، وبعد ذلك اخذوا يتراشقون بالماء ويتعاركون في الغدير . وقد التقطها لستر ، فجلسوا القرفصاء في الماء وهم يصعّدون عيونهم في التل من بين الشجيرات .

قال لستر : « اين هم . »

ــ « لا نستطيع ان نراهم بعد . »

وضعها لستر في جيبه . ونزلوا التل .

ــ « هل اتتكم كرة هنا . »

ــ « لا بد انها سقطت في الماء . ألم يرها احد منكم او يسمعها تسقط يا اولاد . »

فقال لستر : « لم اسمع شيئاً يسقط هنا . ولكني سمعت شيئاً يضرب

تلك الشجرة في المرتفع هناك . ولا ادري في اي اتجاه ذهبت . »

انعموا النظر في الغدير .

— « عجيب . انظروا بمحاذاة الغـــدير . لقد سقطت هنا . ولقد رأيتها . »

فنظروا بمحاذاة الغدير . ثم عادوا فصعدوا التل .

قال الولد : « هل اخذت تلك الكرة . »

قال لستر : « وماذا اريد بها . انا لم أر اية كرة . »

دخل الولد الماء . وخاض فيه . ثم التفت ونظـــر الى لستر ثانية . واستمر نُزلاً في الغدير .

وقال الرجل وهو في اعلى التـل : « يا كادي » . فخـــرج الولد من الماء وصعد التل .

وقال لستر : « والآن ، اسمعوه يا عالم . بالله اسكت . »

— « وما الذي يبكيه . »

فقال لستر : « الله اعلم . من عادته ان يشرع فيـــه فجأة . منذ الصباح وهو على هذه الحال . لعل ذلك سببه ان اليوم عيد ميلاده . »

— « وما عمره . »

قال لستر : « ثـلاث وثلاثون سنة . لقـــد اكمل الثلاث والثلاثين هذا الصباح . »

— « تقصد ان عمره ظل ثلاث سنوات مدة ثلاثين سنة . »

قال لستر : « هذا ما تقوله امي . انا لا ادري . ولكننا على كل حال سنجعل في الكعكة ثلاثاً وثلاثين شمعة . وهي كعكـة صغيرة تكاد لا تتسع للشموع . كفى بكاء . عد الى هنا . »ثم اتى وامسك بذراعي، وقال : « يا معتوه . أتريد لي ان اجلدك . »

— « اراهن انك ستفعلها . »

— « لقد فعلتها . اسكت . ألم اقل لك يجب الا تصعد الى هناك .

سيطيرون رأسك باحدى تلك الكرات . هيا . » وسحبني الى الخلف .
« اقعد . » فقعدت ونزع لستر حـذائي وشمّر عن ساقي . « والآن ،
ادخل في هذا الماء والعب وحاول ان تكف عن هذا النشيج والأنين . »
فسكتُ ودخلت الماء وجاء رسكوس وقال تعالوا الى العشاء وقالت
كادي :
لم يحن وقت العشاء بعد . لن أجيء .
كانت مبللة . كنا نلعب في الغدير فقرفصت كادي وتبلّل ثوبها
وقال فيرش :
« ستجلدك امك لانك بللت ثيابك . »
فقالت كادي : « لن تفعل شيئاً من ذلك القبيل . »
فقال كونتن : « وكيف عرفت ذلك . »
قالت كادي : « لا يهمك كيف عرفت . كيف عرفت انت . »
قال كونتن : « هي قالت . وفضلاً عن ذلك ، فأنا اكبر منك. »
قالت كادي : « عمري سبع سنوات . أنا اعرف . »
قال كونتن : « انا اكبر من ذلك . فأنا اذهب الى المدرسة. اليس
كذلك يا فيرش . »
فقالت كادي : « سأذهب الى المدرسة في العام المقبل،عندما يحين
موعدها . اليس كذلك يا فيرش . »
فقال فيرش : « تعرفين انها تجلدك كلما بللت ثوبك . »
فقالت كادي: «ثوبي ليس مبللاً . » ووقفت في الماء ونظرت الى
ثوبها ، ثم قالت : « سأنزعه ، فينشف . »
قال كونتن : « لن تجرؤي . »
قالت كادي : « سأجرؤ . »
قال كونتن : « افضل لك ألا تنزعيه . »
فاتجهت كادي نحوي ونحو فيرش وادارت ظهرها ، وقالت :

« فك الأزرار . »

قال كونتن : « إياك يا فيرش . »

قال فيرش : « إنه ليس ثوبي . »

فقالت كادي : « فك الازرار يا فيرش ، وإلا أخبرت دلزي بما فعلته أمس . » ففك فيرش الأزرار .

قال كونتن : « ويل لك لو نزعت ثوبك . » اما كادي فانها نزعت ثوبها وألقت به الى الضفة . وعندها لم يبق عليها إلا قميصها الداخلي وسروالها ، وصفعها كونتن فزلقت وسقطت في الماء . وعندما نهضت أخذت ترشق كونتن بالماء ، وكونتن يراشقها به . وقد تراشق بعضه عليّ وعلى فيرش والتقطني فيرش ووضعني على الضفة . وقال إنه سوف يشي بكادي وكونتن ، فأخذ كونتن وكادي يرشقان فيرش بالماء فتوارى خلف شجيرة .

وقال فيرش : « سأخبر ماما بما فعلتما . »

فتسلق كونتن الضفة وحاول الإمساك بفيرش ، غير ان فيرش هرب راكضاً ولم يستطع كونتن . وعندما عاد كونتن توقف فيرش وصاح بأنه سيشي بهما . فأجابته كادي بأنهما سيسمحان له بالعودة اذا لم يش بهما . فوافق فيرش وسمحا له بالعودة .

قال كونتن : « أراضية انت الآن . قد تجلدنا ماما كلينا الآن. »

قالت كادي : « لا يهمني ذلك فسأهرب . »

قال كونتن : « اجل ستهربين . »

قالت كادي : « سأهرب ولن اعود ابداً . » فجعلتُ ابكي . فاستدارت كادي نحوي وقالت : « هس . » فسكتُّ . ثم راحا يلعبان في الغدير . وكان جاسن يلعب ايضاً . كان يلعب وحده على مسافة منّا في الغدير . ودار فيرش حول الشجيرة وجاءني وحملني الى الماء ثانية . كانت مؤخرة كادي مبتلّة مطيّنة ، وجعلت ابكي وجاءت

وقرفصت في الماء .

وقالت : « **هس ، هس** . لن اهرب . » فسكتُ . وكانت رائحة كادي كرائحة الأشجار في المطر .

قال لستر ، ما بك . الا تستطيع ان تكف عن هذا الانين وتلعب في الغدير مثل الناس .

لماذا لا تأخذه الى البيت . الم يوصوك بألا تخرجه من المكان .

فقال لستر ، ما زال يظن ان هذا المرعى ملك لهم . لا أحد يستطيع ان يرى هذا المكان من البيت ، على كل حال .

نحن نستطيع .والناس لا يروق لهم النظر الى معتوه . انه يجلب الشؤم.

جاء رسكوس وقـــال تعالوا إلى العشاء وقالت كادي لم يحن وقت العشاء .

قال رسكوس : « بل حان . دلزي تقول لـكم جميعاً تعـــالوا الى البيت . جيء بهم يا فيرش . » ثم صعد التل حيث كانت البقرة تخور

قال كونتن : « ربما جفت ثيابنا في طريقنا الى البيت . »

فقالت كادي : «كانها غلطتك . ارجو ان تجلدنا ماما . » ولبست ثوبها وزرّره لها فيرش .

قال فيرش : « لن يعلموا انكما تبللتما. لا يبدو ذلك عليكما . إلا اذا وشينا بكما أنا وجاسن . »

قالت كادي : « أتشي يا جاسن . »

قال جاسن : « أشي ؟ بمن ؟ »

قال كونتن : « لن يشي . اليس كذلك يا جاسن . »

قالت كادي : « اراهنك انه سيشي بنا . سيخبر ماما . »

قال كونتن : « لن يستطيع . فإنهـــا مريضة . واذا ابطأنا السير اظلمت الدنيا فلا يروننا . »

قالت كادي : « رؤيتهم ايانا او عدمهـــا لا تهمني . وسأخبرهم

بنفسي . إحمله الى رأس التل يا فيرش . »

قال كونتن : « لن يشي بنا جاسن . اتذكر القوس والسهم اللذين صنعتهما لك ، يا جاسن . »

قال جاسن : « انكسرا . »

قالت كادي : « ليقل ما يشاء . لن يهمني . إحمل موري الى رأس التل يا فيرش . » فقرفص فيرش وركبت على ظهره .

قال لستر ،سأراكم جميعاً في السيرك هذه الليلة. هيا يا جماعة . لا بد من ان نجد ذلك الربع .

قال كونتن : « اذا ابطأنا السير ، فستكون الدنيا قد اظلمت حين نصل البيت . »

قالت كادي: « لن أبطيء السير . » وصعدنا التل ، إلا ان كونتن لم يجيء . وكان لا يزال في الغدير عندما بلغنا الموضع الذي نستطيع منه ان نشم رائحة الخنازير . لقد كانت تشخر وتشمشم في الجرن الذي في الزاوية . ولحق بنا جاسن ويداه في جيبيه . وكان رسكوس يحلب البقرة في مدخل العنبر .

وخرجت البقرات من العنبر وهي تقفز .

قال تي بي : « هيا . صِحْ ثانية . سوف اصيح انا ايضاً . هووي . » وركل كونتن تي بي مرة اخرى . لقد ركله موقعاً اياه في الجرن حيث تأكل الخنازير وبقي تي بي هناك ، وهو يقول : « يا الله . كاد يقتلني . أرأيت ذلك الرجل الأبيض كيف ركلني في تلك المرة . هووي . »

لم اكن ابكي ، ولكنني عجزت عن التوقف . لم اكن ابكي ولكن الأرض لم تكن ثابتة ، وعندها جعلت ابكي . وظلت الأرض تنحدر والبقرات تصعد التل . وحاول تي بي النهوض . فوقع ثانية واخذت البقرات تنزل التل . وامسك كونتن بذراعي ومشينا نحو العنبر . ثم لم

يكن العنبر هناك وكان علينا ان ننتظـــر الى ان عاد . ولم اره يعود .
عاد من خلفنا ووضعني كونتن في الجرن حيث كانت البقرات تأكل .
فتشبثت به ، واذا به هو ايضاً يبتعد فتشبثت به . ونزلت البقرات التل
مرة اخرى عبر الباب . وعجزت عن التوقف . وصعد كونتن وتي بـي
التل وهما يتشاجران . كان تي بـي يتدحرج على التل وجرّه كونتن الى
اعلى التل . وضرب كونتن تي بـي . وعجزت عن التوقف .

قال كونتن : « انتصب . ابق هنا . لا تتزحزح من هنا حتى اعود . »

قال تي بـي : « انا وبنجي سنعود الى العُرس . هووي . »

فضرب كونتن تي بـي مرة اخرى . ثم جعل يخبط تي بـي بالحائط ،
وتي بـي يضحك . وكلما خبطه كونتن بالحائط حاول ان يقول «هووي» ،
فلا يستطيع ان يقولها لشدة ضحكه . وكففتُ عن البكاء ولكنني عجزت
عن التوقف . وسقط تي بـي عليّ وابتعد باب العنبر عنا ، ونزل التل
واخذ تي بـي يتشاجـر وحـده وسقط ثانيـــة . وكان لا يزال يضحك
وعجزت عن التوقف ، وحاولت الوقوف فوقعت ، وعجزت عن التوقف .
وقال فيرش :

« لقد فعلتها والله . اي والله فعلتها . كف عن ذلك العياط .

كان تي بـي لا يزال يقهقه . وهوى على الباب وهو يقهقه . وقال
« هووي . انا وبنجي سنعود الى العُرس . »

قال فيرش : « هس . اين حصلت عليه . »

قال تي بـي : « من القبو . هووي . »

قال فيرش : « هس ، هس . في اي مكان من القبو . »

قال تي بـي : « ايما شئت . » وضحك ثانية . « اكثر من مئـــة
زجاجة هناك . اكثر من مليون . انتبه ايها الزنجي ، سأصيح . »

قال كونتن : « ارفعه . »

فرفعني فيرش .

قال كونتن : « اشرب هذا يا بنجـــي » . كان الكوب حاراً

« اسكت ، واشربه . »

فقال تي بـي : « دعني اشربه أنا ، يا سيد كونتن . »

قال فيرش : « سدّ فمك انت . وإلا مزق بدنك السيد كونتن. »

قال كونتن : « امسك به يا فيرش . »

فأمسكوا بـي واذا بشيء حار يجري على ذقني وقميصي. وقال كونتن « اشرب » . وأمسكوا برأسي . كان جوفي حاراً ، وبدأت من جديد. كانت بطني تصيح ، وكان شيء ما يعتمل في جوفي وبكيت اكثر ، وامسكوا بـي الى أن انقطع ذلك الشيء . ثم سكتُّ . ولكنه كان ما يزال يدور ويدور ، ثم بدأت الأشكال . « افتح الحظيرة يا فيرش. » تباطأوا . « افرش تلك الأكياس الفارغة على الأرض . » اخذوا يسرعون. « والآن ، ارفع قدميه . » وساروا ، ناعمين يتوهجون . وسمعت تي بـي يقهقه . وذهبت بصحبتهم صاعداً التل .

في أعلى التل وضعني فيرش على الارض . وصاح وهـو ينظر الى اسفل التل « تعال هنا يا كونتن . » اما كونتن فكان ما يزال واقفاً هناك قرب الغدير . ثم عبر الظلال حيث الغدير .

وقالت كادي : « ليبق البوّال هنـاك . » واخذت بيدي ومررنا بالعنبر وعبرنا البوابة . وعلى الممشى القرميدي رأينا ضفـدعاً اقعت في الوسط . وخطت كادي فوقها وسحبتني وراءها . وقالت :

« هيا ، يا موري . »

وبقيتْ مقعية هناك الى ان نخسها جاسن بأصبع رجله .

فقال فيرش : « ستسبب لك خالاً على جسمك . » ثم قفـزت الضفدع وابتعدت .

قالت كادي : « هيا ، يا موري . »

قال فيرش : « لديهم ضيوف الليلة . »

قالت كادي : « وكيف عرفت . »

قال فيرش : « لأن تلك الأنوار مضاءة كلها . في كل نافذة نور .»
قالت كادي : « بوسعنا ان نضيء الأنوار كلها ان شئنا دون ان يكون ثمة ضيوف . »
قال فيرش : « اراهنك على انهم ضيوف . فخير لكم كلكم ان تدخلوا من الخلف وتصعدوا الدرج تسللاً . »
قالت كادي: «لا ابالي . سأدخل رأساً الى الصالون حيث يجلسون. »
قال فيرش : « اراهنك على ان اباك سيجلدك لو انت فعلت ذلك.»
قالت كادي : « لا ابالي . سأدخل الصالون . وسأتوجه رأساً الى غرفة الطعام واتناول عشائي . »
قال فيرش : « واين ستجلسين . »
قالت كادي : « سأجلس في كرسي ماما، انها تأكل في فراشها .»
وقال جاسن : « انا جوعان . » وسبقنا وراح يركض في الممشى وكانت يداه في جيبيه ووقع . فذهب اليه فيرش وانهضه . وقال : « لو ابقيت يديك خارج جيبيك لبقيت واقفاً على قدميك . فأنت لن تستطيع ان تخرجها بسرعة لتمنع نفسك من السقوط ، لأنك سمين
كان ابي واقفاً قرب درج المطبخ .
قال : « اين كونتن . »
فقال فيرش : « انه قادم في الممشى . » وكان كونتن قادماً ببطء، وقميصه لطخة بيضاء .
قال ابي : « آه . » وسقط ضوء السلم عليه .
وقال جاسن : « تراشق كادي وكونتن بالماء . »
وانتظرنا .
فقال أبي : « صحيح ؟ » ولما جاء كونتن قال ابي : « لكم ان تتناولوا العشاء في المطبخ هذه الليلة.» وكف عن الكلام ورفعني، ووقع نور السلم علي انا ايضاً ، وارسلت بصري نزلاً الى كادي وجاسن

وكونتن وفيرش . ثم اتجه ابـي نحو السلم وقال: « ولكن عليكم بالهدوء .»

قالت كادي : « لمَ الهدوء يا أبـي ،اعندنا ضيوف . »

قال ابـي : « نعم . »

فقال فيرش : « الم اقل لك ان هناك ضيوفاً . »

قالت كادي : « ابداً . انا الذي قلت لدينا ضيوف . »

قال ابي : « صه . » فسكتوا ، وفتح ابـي الباب وعبرنا الشرفة الخلفية ودخلنا المطبخ حيث وجدنا دلزي . ووضعني ابـي في الكرسي ودفعني الى المائدة ، وعليها العشاء ، وقد تصاعد البخار منه .

قال ابـي : « والآن ، اطيعوا دلزي . ويا دلزي ، لا تدعيهـم يضجّون اكثر مما ينبغي . »

قالت دلزي : « حسناً يا سيدي . » وابتعد ابـي . ثم قال وهو خلفنا : « اطيعوا دلزي ، أفهمتم . »

وانحنيت بوجهي فوق طعام العشاء ، فانتشر بخاره على وجهي .

وقالت كادي : « ابـي ، ليطيعوني انا هذه الليلة . »

فقال جاسن : « لن اطيعك . بل سأطيع دلزي . »

قالت كادي : « بل عليك باطاعـتي ، اذا أمر بابا بذلك . ابـي دعهم يطيعوني . »

قال جاسن : « ابداً . لن اسمع لك كلاماً . »

فقال ابـي : « صه . اذن استمعوا لكادي ، كلكم . ويا دلزي، دعيهم عندما يفرغون يصعدون السلّم الخلفي . »

قالت دلزي : « نعم ، سيدي . »

وقالت كادي : « ارأيت . عليك ان تستمع لما اقوله الآن . »

قالت دلزي : « اسكتوا . عليكم بالهدوء هذه الليلة . »

فهمست كادي : « ولماذا الهدوء هذه الليلة . »

قالت دلزي : « لا عليك . ستعلمين عندما يشاء ربك . »احضرت

قصعتي ، فارتفع منها البخار ودغدغ وجهي . وقالت دلزي : تعال هنا يا فيرش . »

قالت كادي : « ومتى سيشاء ربي . »

فقال كونتن : « اليوم هو الأحد . الا تعلمين شيئاً . »

فقالت دلزي : « ش ش ش . الم يأمركم السيد جاسن بالهدوء . هيا ، كلوا عشاءكم . وانت يا فيرش . احضر له ملعقته . » ودخلت يد فيرش بالملعقة في القصعة . وجاءت الملعقة الى فمي . ودغدغ البخار باطن فمي . ثم توقفنا عن الأكل وجعل بعضنا ينظر الى بعض ، وعندها سمعناها ثانية ، وجعلت ابكي .

« ماذا كان ذلك . » قالت كادي . ووضعت يدها على يدي .

قال كونتن : « تلك كانت امي . » وارتفعت الملعقة واكلت ، ثم بكيت من جديد .

قالت كادي : « صه . »غير انني لم اسكت وجاءت ولفّت ذراعها حولي . وذهبت دلزي واغلقت كلا البابين فما عدنا نسمعها .

وقالت كادي : « صه ، صه . » فسكتُّ واكلت . لم يكن كونتن يأكل ، اما جاسن فكان يأكل .

قال كونتن : « تلك كانت امي . » ونهض .

فقالت دلزي : « اجلس مكانك . عندهم ضيوف ، وانت في هذه الثياب الموحّلة . وانت يا كادي . اجلسي مكانك وانهي اكلك . »

قال كونتن : « لقد كانت تبكي . »

قالت كادي : « بل كان احدهم يغني . أليس كذلك ، يا دلزي . »

قالت دلزي : « انصرفوا الى طعامكم ، كما امركم ابوكم . ستعلمون عندما يشاء ربكم . » فعادت كادي الى كرسيها . وقالت :

« اما قلت لكم إنها حفلة . »

وقال فيرش : « لقد أكل كل ذلك »

فقالت دلزي : « ناولني قصعته . » وابتعدت القصعة عني .

قالت كادي : « يا دلزي . كونتن لا يأكل عشاءه . أليس عليه ان يستمع لكلامي ؟ »

قالت دلزي : « كل عشاءك ، يا كونتن . عليكم كلكم ان تنتهوا وتخرجوا من مطبخي . »

قال كونتن : « لا اريد مزيداً . »

قالت كادي : « يجب ان تأكله عندما آمرك بذلك . أليس كذلك يا دلزي . »

تصاعد بخار القصعة الى وجهي ، وغمست يد فيرش فيها الملعقة ودغدغ البخار باطن فمي .

قال كونتن : « لا اريد عشاء بعد . كيف يستطيعون ان يقيموا حفلة وأمي مريضة . »

قالت كادي : « سيقيمون الحفلة في الطابق الأسفل . وبوسعك ان تنزل الى صحن السلم وتتفرج عليها . وهذا ما سأفعله انا عندما ألبس منامتي . »

قال كونتن : « كانت امي تبكي . الم تكن تبكي ، يا دلزي . »

فقالت دلزي : « دوّختني والله يا ولد بالاسئلة . وعليّ ان اهيّىء العشاء لهؤلاء المدعوّين كلهم حالما تنتهون من أكلكم . »

وبعد قليل انتهى حتى جاسن من أكله ، وأخذ يبكي .

فقالت دلزي : « والآن ، عليك ان تهجع . »

قالت كادي : « انه يبكي كل ليلة منذ ان مرضت امي وما عاد ينام معها . طفل بكّاء . »

قال جاسن : « سأشي بكم . »

واستمرّ في بكائه . فقالت كادي : « لقد وشيت بنا وانتهيت .

ولم يبق لديك شيء تقوله عنا . »

وقالت دلزي : « عليكم كلكم ان تذهبوا الى فراشكم . » وجاءت ورفعتني عن الكرسي ثم انزلتني ومسحت وجهي ويديّ بخرقة دافئة . « فيرش ، اتستطيع ان تصعد بهم السلم الخلفي بهدوء . وانت يا جاسن . كفاك بكاءً . »

قالت كادي — « لم يحن الوقت للنوم بعد . » « فنحن لا نأوي لفراشنا في مثل هذا الوقت المبكّر ابداً . »

فقالت دلزي : « ولكنكم ستأوون لفراشكم مبكّرين هذه الليلة . لقد قال ابوك اصعدوا وناموا حالما تنتهون من العشاء . ألم تسمعيه . »

قالت كادي : « ولكنه قال عليكم ان تستمعوا لكلامي . »

قال جاسن : « لن استمع لكلامك انا . »

قالت كادي : « بل يجب عليك ان تستمع . هيا . عليك ان تصدع بما آمر به »

فقالت دلزي : « فيرش ، اسكتهم . ستلزمون الهدوء كلكم ، أليس كذلك . »

وقالت كادي : « ولماذا نلزم الهدوء هذه الليلة . »

قالت دلزي : « أمكِ متوعكة . والآن ، اذهبوا كلكم مع فيرش . »

وقال كونتن : « قلت لكم ان امي تبكي . » ثم حملني فيرش وفتح الباب المؤدّي الى الشرفة الخلفية . فخرجنا وأغلق فيرش الباب . وجعلت اتشمّم فيرش وأحسّه . « الزموا الهدوء ، كلكم . لن نصعد الدرج بعد . لقد امر السيد جاسن ان نصعد رأساً ، وأمر بأن تطيعوني . لن استمع كلامك . قال عليكم كلكم ان تسمعوا مني . ألم يقل ذلك يا كونتن . » كنت أحسّ رأس فيرش ، وأسمعنا . « ألم يقل ذلك

يا فيرش . نعم ، صحيح . اذن فانا اقول لنخرج الى العراء قليلاً . هيا بنا . » وفتح فيرش الباب وخرجنا .

ونزلنا الدرج .

قالت كادي : « اعتقد ان الافضل لنا ان ننزل الى بيت فيرش ، فنلزم الهدوء . » وانزلني فيرش من على صدره وأخذت كادي بيدي ومشينا في الممشى القرميدي .

قالت كادي : « هيـــا بنا . لقد راح ذلك الضفدع . طفر الى الحديقة . ربما رأينا ضفدعاً آخر . » وجاء رسكوس بدلاء الحليب . ومرّ بنا . اما كونتن فلم يرافقنا . لقد جلس على درجات المطبخ . ونزلنا الى بيت فيرش . وطاب لي ان اشمّ بيت فيرش . كانت فيه نار وقد جلس تي بي القرفصاء في قميصه امامها يحرّكها فتلتهب وتتوهج .

ثم نهضتُ وألبسني تي بي وذهبنا الى المطبخ وأكلنا . كانت دلزي تغني فشرعتُ بالبكاء فكفّت . وقالت :

« أبقوه بعيداً عن البيت . »

فقال تي بي : « لا نستطيع ان نذهب في هذه الطريق . »

ولعبنا في الغدير .

وقال تي بي : « لا نستطيع ان نذهب هناك . الا تعلم ان ماما قالت ذلك . »

كانت دلزي تغني في المطبخ فشرعت بالبكاء .

فقال تي بي : « هس . هيا بنا . لنذهب الى العنبر . »

كان رسكوس في العنبر يحلب البقرات . كان يحلب باحدى يديه ويئن . وجلست بعض العصافير على عتبة العنـــبر ترنو إليه . وهبط احدها ليأكل مع البقرات . وجعلت ارقب رسكوس بينما راح تي بي يعلف كويني وبرنس . وكان العجل في زريبة الخنازير يحك ببوزه السلك ، ويخور .

قال رسكوس : « يا تي بـي . » فقال تي بـي نعم ، وهو في العنبر . ورفعت فانسي رأسها فوق الباب لأن تي بـي لم يكن قد علفها بعد . وقال رسكوس : « أسرع وأنجز شغلك هناك . فعليك ان تحلب هذه البقرات . ما عدت اقوى على استعمال يدي اليمنى . »

فجاء تي بـي وطفق يحلب . وقال :

« لماذا لا تراجع الطبيب . »

— « لا يستطيع الطبيب ان يفعل شيئاً ، في هذا المكان . » قال رسكوس .

قال تي بـي : « واي عاة في هذا المكان . »

قال رسكوس : « هذا المكان مشؤوم . عُدْ بذلك العجل الى مكانه حالما تنتهي . »

هذا المكان مشؤوم ، قالها رسكوس ، كانت النار تعلو وتهبط خلفه وخلف فيرش ، وتنزلق على وجهه ووجه فيرش . وانتهت دلزي من وضعي في الفراش . وكانت رائحة الفراش كرائحة تي بـي فطابت لي .

قالت دلزي : « ماذا تعرف عن ذلك . اي رؤيا رأيت . »

قال رسكوس : « لست بحاجة الى رؤيا . أليس علامةً ذلك هذا النائمُ في الفراش . الم تكن العلامة قائمة هنا ليراها الناس جميعاً طوال السنين الخمس عشرة هذه . »

فقالت دلزي : « افرض ان ذلك صحيح . هل كان في ذلك اذى لك او لعائلتك . فهذا فيرش يشتغل ، وفروني تزوجت فما عادت عالة عليك ، وتي بـي قد كبر ليأخذ مكانك عندما يكون الروماتيزم قد نال منك . »

قال رسكوس : « اثنان لبيّا نداء ربهما حتى الآن . وسيلحق بهما واحد آخر . لقد رأيت العلامة ، ورأيتها انت ايضاً . »

فقال تي بـي : « سمعت بوماً ينعب تلك الليلة . ورفض دان ان

يأتي ليتعشى ايضاً . رفض ان يتخطى العنبر . وأخذ يعيط حالما هبط الظلام . وقد سمعه فيرش . »

قالت دلزي : « سيلحق بهما أكثر من واحد آخر . ولكن أرني انساناً لن يموت . تَبارَكَ يسوع . »

فقال رسكوس : « ليس الموت كل ما هناك . »

قالت دلزي : « أعرف ما الذي يدور في ذهنك . ولن يكون في ذكرك ذلك الاسم الا الشؤم ، الا اذا كنت ستساهره كلما انخرط في البكاء . »

قال رسكوس . « هذا المكان مشؤوم . وقد أدركت ذلك أول الأمر ، وعندما غيّروا اسمه لم يبق لدي أي شك . »

قالت دلزي : « كفاك لغواً . » ومدّت عليّ الأغطية . وكانت رائحتها كرائحة تي بي . « اسكتوا كلكم الى ان ينام . »

قال رسكوس : « لقد رأيت العلامة . »

قالت دلزي : « علامةَ قيام تي بي بكل أعمالك عنك . » .

خذه يا تي بي وكونتن الى البيت وليلعبوا مع لستر حيث تستطيع فروني ان تُعنى بهما ، ثم اذهب وساعد اباك .

انتهينا من الأكل . فحمل تي بي كونتن ونزلنا الى بيت تي بي . فرأينا لستر يلعب بالتراب . فوضع تي بي كونتن على الأرض وجعلت هي أيضاً تلعب بالتراب . وكان لدى لستر بعض البكرات فتعارك هو وكونتن وأخذت كونتن البكرات . فبكى لستر وجاءت فروني وأعطت لستر علبة من الصفيح ليلعب بها ، ثم أخذت أنا البكرات فعاركتني كونتن وبكيت .

قالت فروني : « هس ، ألا تخجل من نفسك ، فتأخذ لُعبة طفلة . » وأخذت البكرات مني وأعادتها إلى كونتن . وقالت : « هس . هس . اسكت . »

وقالت فروني : « هس . أتريد من يجلدك ؟ أهـذا ما تريده ؟ »
ثم حملت لستر وكونتن . « تعال هنا . » وذهبنا الى العنبر . ورأينـا
تي بـي يحلب البقرة . ورسكوس جالس على الصندوق .

قال رسكوس : « ما به الآن . »

قالت فروني : « يجب ان تبقيه هنا . لقد عاد الى مشاجرة هذين
الطفلين ثانية ، آخـذاً اللُّعَب منهما . إبقَ هنا مع تي بـي ، ها ، وحاول
ان تسكت قليلاً . »

وقال رسكوس : « نظّف ضرعها جيداً لقد حلبتَ تلك البقرة
الفتيّة الى أن جفّت في الشتاء المـاضي . فاذا حلبت هذه أيضاً حتى
الجفاف لم يتبق لنا من حليب . »

كانت دلزي تغني .

قال تي بـي : « هنـاك ، لا . ألا تعلم ان ماما قالت لا تذهبوا
هناك . »

كانوا يغنون .

قال تي بـي : « هيّا بنا . لنذهب ونلعب مع كونتن ولستر.هيّا.»

كان كونتن ولستر يلعبان في التراب أمام بيت تي بي . وفي البيت
نار تعلو وتهبط ، ورسكوس بسواده جالسٌ إزاءها .

قال رسكوس : « وهذه هي الثالثة ، والحمد لله . قلت لكِ منذ
سنتين ، هذا المكان مشؤوم . »

قالت دلزي وهي تنزع ثيابي : « لماذا لا تنزاح عنه اذن ؟
عيّرتَ هـذا المكان بالشؤم حتى جعل فيرش يفكر بممفيس . ألا
يكفيك ذلك . »

قال رسكوس : « هذا إن كان ذلك هو كل مـا سيراه فيرش
من شؤم . »

ودخلت فروني فسألتها دلزي :

« هل فرغتم . »

قالت فروني : « تي بي سينتهي بعد لحظـــة . والسيدة كارولاين تريدكِ ان تضعي كونتن في فراشها »

قالت دلزي : « سآتي بأسرع ما استطيع أما آن لها ان تعلم أن ليست لي اجنحة . »

قال رسكوس : « هـــذا ما أقوله لك . مشؤوم هو المكان الذي تمتنعون فيه عن التلفظ باسم إحدى بناتهم . »

قالت دلزي : « هس . أتريد له ان يبدأ . »

قال رسكوس : « ويربون طفلة دون ان يُعلموها باسم امها . »

قالت دلزي : « لا تقلق نفسك بها . لقد ربيتُهم جميعاً ، وأظنني استطيع ان اربي واحدة أخرى . فاسكت الآن . ودعه ينام ان كان سينام . »

قالت فروني : « لقد تلفظ باسم . انه لا يعرف اسم أحد . »

قالت دلزي : « اذكريه تَرَي إن كان يعرف ام لا . اذكريه وهو نائم أراهن انه يسمعك . »

قال رسكوس : « انه يعرف أكثر مما يحسب الناس بكثير . لقـد عرف أن ساعتهم قد دنت . ولو كان مستطيعاً ان يتكلم لأخـبرك متى تأتي ساعته . او ساعتك . او ساعتي . »

فقالت فروني : « ماما ، أخرجي لستر من ذاك الفراش . فهـــذا الولد يسحره . »

قالت دلزي : « اسكتي . أليس ثمة عقل في رأسك . لماذا تصغين الى رسكوس . هيا يا بنجي ، الى فراشك . »

دفعتني دلزي واضطجعت في الفراش وكان لستر قد سبقني إليه ، وغرق في النوم . ثم أخذت دلزي قطعة طويلة من الخشب ووضعتهـــا بيني وبين لستر ، وقالت : « نم على جنبك . لستر صغير وانت لا تريد

أن تؤذيه . »

قال تي بي ، لا تستطيع الذهاب الآن . انتظر .

ونظرنا إلى الناحية الاخرى من ركن البيت وجعلنا نرقب العربات وهي تبتعد .

قال تي بي : « والآن هيا » . وحمل كونتن وركضنا إلى زاوية السياج وتفرجنا عليهم وهم يمرون . قال تي بي : « ها هو يضرب . اترى تلك التي فيها زجاج . انظر إليه . انه يقترب من الهدف اتراه . »

قال لستر ، تعال ، سآخذ هذه الكرة الى البيت ولن أضيعها . العفو ، مولانا ، لن تأخذها انت . فلو رآها هؤلاء الرجال اذا رأوها معك لقالوا بانك سرقتها . اسكت ، أف . لن تأخذها . وما شأنك بها . اتستطيع ان تلعب بالكرة .

كان تي بي وفروني يلعبان في التراب قرب الباب ، وقد وضع تي بي بعض اليراعات في زجاجة .

قالت فروني : « كيف خرجتم كلكم من الخلف . »

قالت كادي : « عندنا ضيوف . وقد قال أبي ان على البقية هذه الليلة ان يطيعوني اذن عليكما أنت وتي بي أيضاً ان تطيعاني . »

قال جاسن : « أنا لن أطيعك . وليس ضرورياً ان يطيعك تي بي وفروني بالتالي . »

قالت كادي : « سيطيعان لو أنا أمرتهما . ولكن قد لا آمرهما . »

قالت فروني : « تي بي لا يطيع أحداً . هل بدأوا الجنازة . »

قال جاسن : « أية جنازة ؟ »

قال فيرش : « ألم تطلب اليك ماما ألاّ تخبريهم . »

قالت فروني : « حيث ينوحون . لقد ناحوا يومين كاملين على مسس بيولا كلاي . »

كانوا ينوحون في بيت دلزي . وكانت دلزي تنوح . وكلما ناجت

دلزي قال لستر ، هس ، فنسكت ، وعندها شرعتُ انا بالبكاء وصاح الكلب « بلو » من تحت سلّم المطبخ . ثم كفّت دلزي عن النواح وكففنا .

قالت كادي : « اوه ، هؤلاء زنوج سود . أمـا الأناس البيض فلا يقيمون الجنائز . »

قال فيرش : « أوصتنا ماما بألاّ نخبرهم يا فروني . »

قالت كادي : « تخبرونهم بماذا . »

ناحت دلزي ، واذ بلغتْ المكان جعلت ابكي وصاح « بلو » من تحت السلم . وقالت فروني من النافذة يا لستر خذهم الى العنبر . لا استطيع ان انجز الطبخ مع كل هذا الضجيـج . وذلك الكلب ايضاً . اخرجهم من هنا .

فقال لستر ، لن اذهب هناك . قد ألقى ابي هناك . لقد رأيتـه ليلة البارحة في منامي ، وهو يلوّح بذراعيه في العنبر .

قالت فروني : « ولم لا بربك . فالبيض أيضاً يموتون . أو ليست جدتك ميّتة كأي زنجي ميت . »

قالت كادي : « الكلاب ميّتة . وعندما سقطت نانسي في الخندق رماها رسكوس بالرصاص وحطّت عليها الصقور وعرّتها . »

برزت العظام مستديرة الى ضوء القمر من جوف الخندق ، والدوالي الداكنة في الخندق الأسود ، كأنمـا بعض الأشكال قـد توقفت . ثم توقفوا كلهم وأظلمت الدنيا ، وعندما توقفتُ لأبدأ من جديـد سمعت امي وأقداماً تهرول مبتعدة عني ، وشممت رائحتها . ثم جاءت الغرفة ، ولكن عينيّ أغمضتا ، ولم أتوقف . وشممت رائحتهـا . وهيأ تي بي ثياب النوم .

وقال : « ش ش ش . »

غير انني كنت أشم رائحتها . ورفعني تي بي وألبسني ثيابي على

عجـــل .

قال : « اسكت يا بنجي . اننا ذاهبون إلى بيتنا . وانت تريـــد الذهاب الى بيتنا ، حيث نجد فروني ، ها . ش ش ش . »

شدّ سير حذائي وألبسني قبعتي وخرجنا . وكان في المدخل ضوء ، وعبر المدخل سمعنا صوت أمي .

قال تي بـي : « هس ، بنجي . سنخرج بعد لحظة . »

ثم انفتح باب واشتدت رائحتها في أنفـي ، وبرز رأس . لم يكن رأس أبـي ، فقد كان أبـي مريضاً .

— « أبوسعك ان تخرج به من البيت .»

قال تي بـي . « هذا ما سأفعله . » وصعدت دلزي الدرج .

وقالت : « هس . خـــذه إلى بيتنا يا تي بـي . ستهيىء له فروني فراشاً . واعتنوا به جميعكم . اهدأ يا بنجي . واذهب مع تي بـي . »

وراحت الى حيث كنا نستطيع ان نسمع صوت امي .

« الأفضل ان تبقوه هناك . »لم يكن المتكلم أبـي . وأغلق الباب ، ولكنني كنت ما أزال أشم رائحتها .

ونزلنا السلّم . وكان السلّم ينحدر الى الظلام ،وأخذ تي بـي بيدي ، وخرجنا من الباب ، من الظلام . ووجدنا دان جالساً في الحَوْش الخلفي وهو يولول .

قال تي بـي : « لقد اشتمّ رائحتها . أهكذا اكتشفت أمرها . »

ونزلنا السلم ، حيث وجدنا ظلالنا .

وقال تي بي : « نسيت معطفك . كان ينبغي أن تلبسه . ولكنني لن أعود . »

وعاط دان .

فقال تي بـي : « اسكت . » وتحركت ظلالنا ، الا ان ظل دان لم يتحرك الا ليولول كلما تحرك .

قال تي بي : « لا يمكنني ان آخذك الى البيت وأنت تولول على هذا النحو . كان صوتك قبيحاً بما فيه الكفاية قبل ان يغدو كصوت الضفدع . هيّا . »

مشينا الممشى القرميدي بطوله ، بصحبة ظلالنا . وكانت رائحة زريبة الخنازير كرائحة الخنازير نفسها . ووقفت البقرة في الحقل تنظر الينا وهي تجتر . ودان يولول .

قال تي بي : « ستوقظ المدينة كلها . ألن تسكت . »

ورأينا فانسي تأكل قرب الغدير . ولما بلغنا هناك سطع القمر على الماء .

قال تي بي : « لا ، لا ، مولانا . هذا المكان قريب جداً . لا نستطيع التريث هنا . هيّا بنا . والآن ، انظر الى حالك . لقد بللت ساقك كلها . هيّا ، هيّا . » وكان دان يعيط .

وطلع الخندق من بين العشب الأغن . وبرزت العظام من بين الدوالي السوداء .

وقال تي بي : « والآن ، ولول واصرخ الى ان تزهق روحك . امامك الليل بطوله ومرعى بعشرين فداناً تولول فيها . »

اضطجع تي بي في الخندق ، وجلست أنا ارقب العظام حيث راحت الصقور تأكل نانسي ، وهي ترفرف منطلقة من الخندق سوداء بطيئة ثقيلة .

قال لستر ، كانت معي عندما جئنا هنا من قبل . وأريتك اياها . ألم تَرها . اخرجتها من جيبي هنا وأريتك اياها .

قالت كادي : « اتعتقد ان الصقور ستعرّي جدتي ؟ انت مجنون. »

قال جاسن : « انتِ بوّالة . » وشرع يبكي .

قالت كادي : « انت جحش . » وبكى جاسن، ويداه في جيبيه .

قال فيرش : « جاسن سيصبح غنياً . انه لا يني عن ادخار نقوده. » وبكى جاسن .

قالت كادي : « أترى . لقد أبكيتَهُ .هس ،جاسن . كيف تستطيع الصقور الدخول الى حيث توجد جدتي . سيمنعها عنهـــا بابا . أتسمح أنت لصقر بتعريتك . اسكت . »

فسكت جاسن ، وقال : « قالت فروني ان تلك جنازة . »

فقالت كادي : « كذب . انها حفلة . فروني لا تعرف شيئاً عن ذلك . يا تي بـي ، انه يريد يراعاتك فدعه يمسك بالزجاجة قليلاً . »

وناولني تي بي زجاجة الفراشات .

قالت كادي : « اراهنكم اننا لو ذهبنا الى نافذة الصالون لرأينا شيئاً ما . وحينئذ تصدقونني . »

قالت فروني : « اعرف ما الذي هناك . لا حاجة بـي الى أن أراه.»

قال فيرش : « خير لك أن تخرسي ، يا فروني . ستجلدك ماما .»

قالت كادي : « ما الأمر . »

قالت فروني : « الذي أعرفه أعرفه . »

قالت كادي : « هيّا بنا لنذهب الى مقدمة البيت . »

وبدأنا بالاتجاه نحوه .

وقالت فروني : « تي بـي يريد يراعاته . »

فقالت كادي : « دعه يمسك بهـــا فترة أخرى ، يا تي بـي سنعيدها اليك . »

قالت فروني : « لم يمسكها أحد منكم . »

فقالت كادي : « لو قلت ان بوسعكما انت وتي بـي المجيء معنا ، فهل تسمحان بابقائها معه ؟ »

قالت فروني : « وهل قال أحد ان علينا ، أنا وتي بـي ، ان نطيعك . »

قالت كادي : « واذا قلت انكما في حِلٍّ من ذلك، فهل تسمحان بابقائها معه ؟ »

قالت فروني : « حسناً . اتركها معه يا تي بـي . ودعينا نذهب لنراهم يندبون . »

قالت كادي : « انهم لا يندبون . قلت لك انها حفلة . يا فيرش، فكيف يندبون . »

قال فيرش : « ما دمنا واقفين هنا ، فلن نعرف الحقيقة . »

قالت كادي : « هيا بنا . فروني وتي بـي في حِلٍّ من ان يطيعاني أما الباقون فلا . الأفضل ان تحمله يا فيرش . لقد بدأت الدنيا تُظلم. »

فحملني فيرش وانعطفنا حول المطبخ .

عندما انعطفنا عند الزاوية رأينا الاضواء تصعد الطريق . وعاد تي بـي الى باب القبو وفتحه .

قال تي بـي : اتعرف ما الذي هناك ، ماء الصودا . لقـد رأيت السيد جاسن يصعد من هنا وكلتا يديه مليئةٌ بها . انتظر هنا لحظة .

وذهب تي بـي وتطلـع من باب المطبـخ . فقالت دلزي ، ما الذي تتلصص عليه . اين بنجي .

فقال : انه في الخارج ، هنا .

قالت دلزي : اذهب واعتنِ به . وابقِـهِ خارج المنزل .

فقال تي بـي : نعم ، ماما . هل بـدأوا .

فقالت دلزي : اذهب وأبعد ذلك الولد عن الانظار . حسبي ما لديَّ من شغل .

زحفت أفعى خارجة من تحت البيت . وقال جاسن انـه لا يخاف الأفاعي وقالت كادي بل يخافها أما هي فلا تخافهـا وقال فيرش انهما كليهما يخافان الأفاعي فقالت كادي ان لا تحدثوا ضجيجاً كما قال ابـي.

قال تي بـي لا حاجة بك الى الشروع بالولولة .

اتريد شيئاً من هذا الشراب .

دغدغ الشراب انفي وعينيَّ .

وقال تي بي ، ان كنت لا تشربه ، فعليّ به . حسناً هاكه . لنأخذ زجاجة اخرى ما دام احد ما لا يزعجنا . ولكن ، اهدأ يا بنجي .

وقفنا تحت الشجرة قرب نافذة الصالون . وأنزلني فيرش عنه واضعاً اياي على العشب البليل . وكان الطقس بارداً . والنوافذ تشع أضواء .

وقالت كادي : «ان امي في تلك الغرفة وهي أبداً طريحة الفراش . وعندما تشفى سنذهب في سفرة معاً . »

قالت فروني : « ما أعرفه أعرفه . »

كانت الأشجار غنّاء ، وكذلك كان العشب .

قالت كادي : «والغرفة التالية هي الغرفة التي نمكث فيها اذ نمرض بالحصبة   اين تحصّبان انتِ وتي بي ، يا فروني . »

قالت فروني : « نحصّب حيثما نكون . »

قالت كادي : « لم يبدأوا بعد . »

قال تي بي ، انهم يتهيأون للبدء . قف هنا ولا تتزحزح الى ان احضر ذلك الصندوق لكي نستطيع به ان نطال النافذة . لحظة . لنكمل شرب هذا الشراب انه يجعلني اشعر في داخلي كبوم الشقوق .

شربنا الشراب ودفع تي بي بالزجاجة من خلال المشبّك إلى ما تحت البيت ، وذهب . كنت أسمعهم في الصالون وتشبّثت بالحائط بأصابعي المفتوحة . وجرّ تي بي الصندوق ، ووقع ، فأخذ يضحك . وبقي مُلقىً هناك يضحك ووجهه في العشب . ثم نهض وجرّ الصندوق إلى ما تحت النافذة ، محاولاً ألاّ يضحك .

قال تي بي : « أخشى ان اصيح . اصعدي انت وانظري ان كانوا قد بدأوا . »

قالت كادي : « لم يبدأوا لأن الفرقة الموسيقية لم تأتِ بعد . »

قالت فروني : « ولكنهم لم يأتوا بفرقة موسيقية . »
قالت كادي : « وكيف عرفت . »
قالت فروني : « ما أعرفه أعرفه . »
قالت كادي : « انت لا تعرفين شيئاً .» وذهبت الى الشجرة وقالت: « ارفعني يا فيرش . »
قالت فروني : « ألم يقل لك أبوك ان تبتعدي عن هذه الشجرة .»
قالت كادي : «كان ذلك من زمان . ولا بد انه قد نسي الموضوع. وفضلاً عن ذلك ، لقد أمركم والدي باطاعتي الليلة . ألم يقل ان عليكم ان تطيعوني الليلة . »
قال جاسن : « لن اطيعك أنا . ولن يستمع اليك فروني وتي بي أيضاً . »
قالت كادي : « ارفعني يا فيرش . »
قال فيرش : « حسناً انت التي ستُجلَدين ، لا أنا . » وذهب ورفع كادي بين اوراق الشجرة ، الى أول فرع فيها. ونظرنا الى مؤخر سروالها الملوث بالطين ثم لم نعد نستطيع رؤيتها . وسمعنا الشجرة تهسهس وهي تعلو وتنخفض .
وقال فيرش : « أنذرك السيد جاسن بأنه سيجلدك اذا ما كسرت تلك الشجرة . »
فقال جاسن : « وسوف أشي بها أيضاً . »
ثم توقفت الشجرة عن الهسهسة والحركة . فنظرنا الى الاغصان الساكنة .
وهمست فروني : « ما الذي ترين . »
رأيتهم . ثم رأيت كادي ، والزهور في شعرها ، في نقاب طويل كريح ساطعة . كادي كادي .
قال تي بي :« هس، سيسمعونك . انزل بسرعة . » وسحبني . كادي.

وتشبثتُ بالحائط بأصابعي المفتوحة . كادي . وسحبني تي بـي .

وقال :« هس . هس . تعال هنا بسرعة ». وجرّني معه . كادي . صه ، يا بنجي . أتريدهم أن يسمعوك . هيّا بنا . لنشرب المزيد من ذلك الشراب، ثم نعود الى هنا لو انت سكتّ . لنذهب ونأخذ زجاجة أخرى ، والا عطنا كلانا . بأمكاننا ان نقول ان دان هو الذي شربها. السيد كونتن يتباهى دائماً بشطارة كلبه ، وبامكاننا ان نقول انه كلب شراب أيضاً . »

هبط ضوء القمر على درجات القبو . وشربنا المزيد من الشراب .

قال تي بـي : « اتعرف ما الذي أتمناه ؟ أتمنى لو يدخل دب باب القبو هذا . أتعرف ما انا فاعل حينذاك ؟ سأذهب اليـه وأقابله وأبصق في عينه . ناولني تلك الزجاجة لأسد فمي قبل ان اعيط . »

وسقط تي بـي ، وأخـــذ يضحك ، وقفز باب القبو وضوء القمر مبتعدين عني وضربني شيء ما .

قال تي بـي محاولاً ألا يضحك: « اسكت . يا الله ، سيسمعوننـا . انهض . انهض يا بنجي . أسرع . » وراح يخبط ويقهقـه وحاولت ان أنهض . وصعدت الدرجاتُ التل ركضاً في ضوء القمر، وسقط تيَ بـي على التل ، في وسط ضوء القمر ، وجريت ازاء السياج وجرى تي بـي ورائي وهو يقول : « اسكت اسكت . » ثم سقط بين الزهور مقهقهاً وركضتُ وارتطمتُ بالصندوق . ولكن عندما حاولتُ التسلّق عليه تقلقل من تحـتي فوقعت واصيب رأسي من الخلف واحدثت حنجرتي صوتاً . ثم احدثت الصوت ثانية واقلعت عن محاولة النهوض ، واحدثت الصوت مرة اخرى فشرعتُ بالبكاء . غير ان حنجرتي ظلت تحدث الصوت وما عدت أعرف أأنا أبكي ام لا ، وسقط تي بـي عليّ ، مقهقهاً، وظلت حنجرتي تحدث الصوت وركل كونتن تي بـي وضمتني كادي بذراعيها ونقابها الساطع ، وما عدت اشمّ الاشجار ، وشرعت بالبكاء .

قالت كادي ، بنجي بنجي . وضمتني بذراعيها من جديد ولكنني ابتعدت عنها . وقالت : « ما بك يا بنجي . أهي هذه القبعــة التي تزعجك . » ونزعت قبعتها وجاءت الي ثانية ، وابتعدتُ عنها .

وقالت : « بنجي . ما الأمر . ما الذي فعلته كادي . »

قال جاسن : « انه لا يحب فستانك هذا الذي تتغاوين به . تحسبين انك قد كبرت ، أليس كذلك . وتحسبين انك أفضل الناس جميعاً ، أليس كذلك . متغاوية . »

قالت كادي : « سُدَّ فمك ، ايها الوحش الصغير القذر. بنجي . »

قال جاسن: « ألأنك الآن في الرابعة عشرة تحسبين انك قد كبرت، أليس كذلك . تحسبين نفسك شيئاً . أليس كذلك . »

قالت كادي : « هس ، يا بنجي . ستزعج امي . »

غير اني لم اسكت ، وعندما ذهبت عني تبعتُها ، ووقفتْ عــلى الدرج وانتظرت ، فوقفت انا أيضاً .

فقالت كادي : « ما الأمر ، يا بنجي . قل لكادي ماذا تريد ، فتفعله . حاول . »

وقالت امي : « كاندس . »

قالت كادي : « نعم ، ماما . »

قالت أمي : « لماذا تشاكسينه . أحضريه الى هنا . »

وذهبنا الى غرفة امي ، حيث وجدناها تستلقي والمرض على فراش واحد وقد وضعت خرقة على رأسها .

قالت امي : « ماذا بك يا بنجامين . »

قالت كادي : « بنجي . » وجاءت مرة اخرى،ولكنني ابتعدت .

فقالت امي : « لا بد انكِ أصبتِه بأذى . لماذا لا تتركينه وشأنه، فأنعم بشيء من الراحة . اعطيه الصندوق ثم ارجوك ان تذهبي وتتركيه وشأنه . »

وجلبت كادي الصندوق ووضعته علـى الأرض وفتحته . واذا هو مليء بالنجوم . اذا سكنْتُ سكنَتْ ،واذا تحركتُ لمعتْ وشعشعتْ . وسكتّ .

ثم سمعتُ كادي تمشي ، فبدأتُ من جديد .

فقالت امي : « بنجامين . تعال هنا . » ولكنني مشيت نحو الباب. فقالت امي : « انت يا بنجامين . »

قال ابـي : « والآن ، ما الامر . اين ذاهب انت . »

قالت امي : « خذه الى اسفل واعهد الى احـد بالاعتناء به ، يا جاسن . ألا تعلم انني مريضة . ومع ذلك فانك .. »

واغلق ابـي الباب وراءنا .

نادى ابـي : « تي بـي »

فرد تي بـي من اسفل الدرج : « سيدي . »

قال ابـي : « سيأتي بنجي اليك . اذهب مع تي بـي . »

وذهبت الى باب الحمام . وسمعت الماء .

صاح تي بـي من اسفل الدرج : « بنجي »

سمعت الماء ، فجعلت اصغي اليه .

صاح تي بـي من اسفل الدرج : « بنجي »

واصغيت الى الماء .

ولم استطع سماع الماء ، وفتحت كادي الباب .

وقالت : « يا بنجي . » ونظرتْ اليّ ومشيت وضمتني بذراعيها . وقالت : « أوجدتَ كادي ثانية . أظننت ان كادي قد هربت ؟ » وكانت رائحة كادي كالشجر .

ذهبنا الى غرفة كادي ، وجلست هي امام المرآة . ثم أوقفت يديها ونظرت اليّ .

وقالت : « ما الـذي دهاك يا بنجي . بالله لا تبكِ . لن تذهب

كادي . انظر الى هذه . » ورفعت الزجاجة وفتحت سدادتها وأدنتهـــا من أنفي . « طيّبة . شُم . زكية .»

ابتعدت عنها ولم اكف ، وامسكت الزجاجة بيدها وهي تنظر إليّ .

ثم وضعت الزجاجة وجاءت إليّ وضمتني بذراعيها وقالت : « آه . اهذا اذن ما تريـــد . كنت تحاول أن تقولها لكادي ، ولم تستطع ان تقولها . اردت ان تقولها ، ولكنك لم تستطع ، أليس كذلك . طبعـاً لن تفعلها كادي . طبعاً لن تفعلها كادي. انتظر ريثما أرتدي ملابسي .»

وارتدت كادي ملابسها وأخذت الزجاجة ونزلنا معاً إلى المطبخ .

قالت كادي : « دلزي . لقد جاءك بنجي بهدية.» وانحنت ووضعت الزجاجة في يدي . « ناولها لدلزي . » وأمسكت كادي بيدي ومدّتهـا وأخذت دلزي الزجاجة .

وقالت دلزي : « بارك الله فيك ، يا طفلي المحبوب . اتعطي دلزي زجاجة عطر . انظر يا رسكوس ، انظر . »

كانت رائحة كادي كالشجر .

قالت دلزي : « بس ، بس . لقد كبرت ، ولا يليق بك أن تنام مع الآخرين . انت ولد كبـــير الآن . عمرك ثلاث عشرة سنة . ففي سنك يجب ان تنام وحدك في غرفة خالك موري . »

كان خالي موري مريضاً . عينه مريضة ، وفمه . وكان فيرش يحمل اليه عشاءه على طبق .

قال ابـي « يقول موري انه سيرمي هذا النذل بالرصاص . وقلت له من الافضل الا يذكر الامر لباترسن مقدماً . » وراح يشرب .

قالت أمي : « جاسن . »

قال كونتن : « يرمي من ، يا أبـي ، ولماذا يرميه خـالي موري بالرصاص . »

قال ابـي : « لأنه لم يستطع ان يتحمل نكتة صغيرة . »

قالت أمي : « جاسن . كيف يهون عليك ذلك . انك والله لتستطيع ان تجلس في كرسيك وترى موري وهم يقتلونه بالرصاص في كمين ، وتضحك . »

قال ابـي : « اذن ، خير لموري ان يبتعد عن الكمين . »

قال كونتن : « يرمي من،بابا . من هو الذي يريد خالي ان يرميه .»

قال ابـي : « لا أحد . فأنا لا مسدس لدي . »

وأخذت أمي تبكي : « اذا كنت تستكثر على موري طعامك الذي يأكله ، فلم لا تبدي رجولتك وتذكر له ذلك وجهاً لوجـــه . أمّا أن تسخر منه أمام الاطفال ، ووراء ظهره . »

قال ابـي : « انا لا أسخر منه ، طبعاً . إني معجب بموري،وهو عزيز عليّ من حيث حسّي بالسمو العنصري . وما كنت لاستبدل موري بثوريّ حراثة . أو تعلم لماذا يا كونتن . »

قال كونتن : « لا يا أبـي . »

قال أبـي : « **Et ego in arcadia**، لقد نسيت اللفظة اللاتينية بمعنى « تبن » . لا ، لا . إنـي امزح . »وجرع ، ثم وضع الكأس وذهب ووضع يده على كتف امي .

قالت امي : « ليس في الامر نكتـة . فأهلي لا يقلّون عن اهلك محتداً وشرفَ نسب . ولكن ، لمجرد أن موري عليل الجسم . »

فقال أبـي : « بالطبع . ان السقم هو السبب الأول للحياة . يخلقها المرض ، في العفن والفساد ، ليدفع بها الى التفسخ والانحلال . فيرش. »

قال فيرش من وراء مقعدي : « سيدي » .

— « خذ القارورة واملأها . »

قالت أمي : « وقل لدلزي ان تعالي واصعدي بنجامين الى فراشه. »

قالت دلزي : « انت ولد كبير . ولقد سئمت كادي النوم معك .

والآن ، اسكت ، لكي تنام . » ابتعدت الغرفة ، ولكنني لم اسكت ، وعادت الغرفة وأتت دلزي وجلست على الفراش وهي تنظر إليّ .

قالت دلزي : « الن تكون ولداً عاقلاً فتسكت ، هـا . لا ، لن تكون . إذن أتستطيع ان تنتظر لحظة . »

وذهبت . لم يكن في الباب شيء . واذا فيه كادي .

قالت كادي : « صه . ها قد جئت . »

فسكتُّ وقلبت دلزي غطاء الفراش واندسّت كادي بين الغطاء والبطّانية ولم تنزع عنها « الروب » .

وقالت : « والآن ، ها انذا هنا . » وجاءت دلزي ببطانيـة نشرتها عليها وأدخلت حوافها تحت الفراش .

قالت دلزي : « سينام في لحظة . لن اطفىء النور في غرفتك . »

قالت كادي : « حسناً . » ووضعت رأسها لصق رأسي على المخدة .

ثم قالت : « تصبحين على خير ، يا دلزي . »

قالت دلزي : « تصبحين على خير ،يا حبيبتي . » واسودّت الغرفة.

وكانت رائحة كادي كالشجر .

رفعنا أنظارنا الى الشجرة حيث كانت كادي .

فهمست فروني : « ما الذي تراه ، يا فيرش . »

قالت كادي وهي على الشجرة ش ش ش وقالت دلزي :

« تعالوا هنا . » وجاءت من حول منعطف البيت . «لماذا لم تصعدوا الى فوق ، كما قال أبوكم،بدلاً من التسلل الى الخارج من وراء ظهري. اين كادي وكونتن . »

قال جاسن : « قلت لها ألاّ تتسلق تلك الشجرة . سأشي بها والله .»

قالت دلزي : « مَن على الشجرة . اية شجرة . » وجاءت ورفعت بصرها الى الشجرة ، ونادت : « كادي . » فجعلت أغصان الشجـرة تضطرب من جديد .

قالت دلزي : « انتِ يا شيطانة . انزلي من هناك . »
قالت كادي : « هس ، ألا تعلمين ان أبي أمرنا بالهدوء . »
وتدلّت ساقاها أمام أعيننا ورفعت دلزي يديها وحملتها من على الشجرة .
قالت دلزي : « أما عندك عقل ، فتسمح لهم بالمجيء هنا . »
ورد فيرش : « ما قدرتُ عليها . »
قالت دلزي : « ما الذي تفعلونه هنا . من طلب منكم ان تأتوا الى البيت . »
قالت فروني : « هي التي طلبت الينا . »
قالت دلزي : « ومن قال ان عليكم ان تطيعوها . هيا بكم ، الى البيت . » فذهب فروني وتي بي . وعجزنا عن رؤيتهما وهما يبتعدان .
قالت دلزي : « أهنا في هذا العراء وفي منتصف الليل . » وحملتني وذهبنا الى المطبخ .
قالت دلزي : « تتسللون من وراء ظهري ، وانتم تعلمون ان اوان نومكم قد فات . »
قالت كادي : « ش ش ش يا دلزي . لا ترفعي صوتك . علينا بالهدوء . »
قالت دلزي : « اذن سدي فمك انتِ واهدأي . اين كونتن . »
قالت كادي : « لقد غضب كونتن لان طاعتي قد فرضت عليه فرضاً هذه الليلة . وهو لم يُرجع بعد زجاجة البراعات الى تي بي . »
قالت دلزي : « أتصور ان تي بي يستطيع الحياة بدونها . فيرش، اذهب وابحث عن كونتن . لقد قال رسكوس انه رآه ذاهباً في اتجاه العنبر . » وذهب فيرش ، ولم نعد نراه .
قالت كادي : « انهم لا يفعلون شيئاً هناك . مجرد جلوس على الكراسي ينظرون ، لا أكثر ولا أقل . »

قالت دلزي : « وهم ليسوا بحاجة الى معونة منكم ليفعلوا ذلك . » ومشينا حول المطبخ .

قال لستر ، اين تريد الذهاب . اتريد ان تعود لتتفرج عليهم وهم يضربون الكرة مرة اخرى . لقد انتهينا من البحث عنها هنا . اسمع . انتظر دقيقة . انتظر هنا ريثما اعود واجلب تلك الكرة . لقد خطرت ببالي فكرة .

كان المطبخ مظلماً . وكانت الأشجار سوداء على السماء . وجاء دان يخبط خبطاً من تحت الدرج وجعل يمضغ كاحلي . ومشيت حول المطبخ، حيث كان القمر . وجاء دان وهو يخبط ودخل في القمر .

وقال تي بـي في المنزل : « بنجي . »

لم تكن شجرة الورد قرب نافذة الصالون مظلمة ، غير ان الاشجار الكثيفة كانت مظلمة . وكان العشب يئزّ في ضوء القمر حيث راح ظلي يمشي على العشب .

قال تي بـي في المنزل : « انت يا بنجي . اين اختفيت . تريد التسلّل . أنا عارف . »

عاد لستر وقال ، انتظر . اسمع . لا تذهب هناك . الآنسة كونتن وحبيبها هناك في الأرجوحة . تعال وامشِ من هذه الناحية . تعال هنا، يا بنجي .

كان ما تحت الاشجار مظلماً . ورفض دان المجيء ، وبقي في ضوء القمر . ثم رأيت الارجوحة وشرعت بالبكاء .

قال لستر ، لا تقترب من هناك ، يا بنجي . الا تعلم ان الآنسة كونتن ستغضب عليك .

كان في الأرجوحة اثنان ، ثم واحد . وجاءت كادي تهـرول ، بيضاءَ في الظلام .

وقالت : « كيف خرجتَ خفيةً . اين فيرش . »

واحاطتني بذراعيها وسكتُّ وتشبثتُ بفستانها وحاولت ان اسحبها بعيداً .

قالت كادي : « ما الذي تريده يا بنجي . » ثم صاحت : « تي بي . »

فنهض الشخص الذي في الأرجوحة وتقدّم منا . وبكيت وشددت ثوب كادي .

قالت كادي : « بنجي . ما هذا إلا شارلي . ألا تعرف شارلي .»

قال شارلي : « اين عَبْدهُ الاسود . لماذا يدعونه يسرح طليقاً . »

قالت كادي : « صه، بنجي . انصرف يا شارلي . انه لا يحبك . »

وانصرف شارلي وسكتّ . وسحبت فستان كادي .

قالت كادي : « بنجي ، يا بنجي . ألن تدعني أبقى هنا فترة للتحدث الى شارلي . »

قال شارلي : « نادي ذلك العبد الاسود . »

ثم عاد . فاشتد بكائي وسحبت فستان كادي .

قالت كادي : « انصرف يا شارلي . » فجاء شارلي ووضع يديه على كادي . فزاد بكائي ، وجعلت أعيط .

قالت كادي : « لا ، لا ، لا ، لا . »

قال شارلي : « انه لا يستطيع الكلام يا كادي . »

قالت كادي : « أجُننت ».وأخذت تتنفس بسرعة. «ولكنه يبصر . لا ، لا ، لا . » وجعلت كادي تكافح . وكلاهما يتنفسان بسرعة . « أرجوك ، أرجوك » همست كادي .

قال شارلي : « اصرفيه . »

قالت كادي : « سأصرفه . خلّني . »

قال شارلي : « ألن تصرفيه . »

قالت كادي : « بلى . خلّني . » وذهب شارلي . وقالت كادي :

« كفى . لقــد ذهب . » فسكتّ . وصار بوسعي ان اسمعها وأحس نبض صدرها .

وقالت : « يجب أن آخذه الى البيت . » وأخذت بيدي . ثم همست : « إني قادمة . »

قال شارلي : « انتظري . نادي الزنجي . »

قالت كادي : « لا ، سأعود . هيا بنا يا بنجي . »

فهمس شارلي بصوت عال : « كادي . » ومشينا . « الافضل لك ان تعودي . أتعودين . » وجعلنا أنا وكادي نركض وصاح شارلي « كادي. » وركضنا إلى ضوء القمر ، في اتجاه المطبخ .

ونادى شارلي : « كادي . »

وبقينا انا وكادي نركض . وصعدنا ركضاً درجات المطبخ إلى الشرفة ، وركعت كادي في الظلام وأمسكت بـي . وجعلت اسمع وأحسّ صدرها . وقالت : « لن افعلها . لن افعلهـا ثانية ، أبداً . بنجي ، بنجي . » وأخذت تبكي ، فبكيت ، وتعانقنا . وقالت : « هس . لن افعلها ثانية . » فسكت ، ونهضت كادي ودخلنـــا المطبخ وأشعلنا الضوء وتناولت كادي صابونة المطبخ وغسلت فمها عند المغسلة غسلاً عنيفاً . وكانت رائحـــة كادي كالشجر .

قال لستر قلت لك وأعدت القول ان ابتعد عن ذلك المكان . وجلسا منتصبين في الأرجوحة ، بسرعة . وقد وضعت كونتن يدها على شعرها . وكان رباطه أحمر .

وقالت كونتن ، يا أبله يا معتوه . والله سأخبر دلزي بأنك تدعـه يتبعني اينما ذهبت . وسأجعلها تجلدك جلدة لا تنساها عمرك كله .

قال لستر : « لم استطع إيقافه هيا بنا ، يا بنجي . »

قالت كونتن : « تستطيع ذلك طبعاً ولكنك لم تحاول . لانكما تتعقبانني . هل ارسلتكما جدتي لكي تتجسّسا عليّ . » وقفزت من على الأرجوحة .

« اذا لم تأخذه هذه اللحظة وتُبقِـه بعيداً عني ، فسأجعل جاسن بجلدك . »

قال لستر : « أنا لا اقدر عليه حاولي انت ان ترغميه ، ان كنت تظنين انك تستطيعين . »

قالت كونتن : « إخرس . ألن تصرفه ؟ »

قال : « آه ، دعيه يبقى . » وكان رباطه أحمر ، والشمس حمراء عليه . « عينك عليّ يا رجل . » وأشعل عود كبريت ووضعه في فمه . ثم أخرجه من فمه وهو ما زال يشتعل . وقال : « اتريد ان تجرب . » فدنوت منـــه . وقال : « افتح فمك . » ففتحت فمي . ولكن كونتن ضربت عود الكبريت بيدها ، فسقط .

قالت كونتن : « لعنك الله . أتريد له ان يبكي . ألا تعلم انه سيظل يولول طيلة النهار . سأخبر دلزي عنك . » وراحت تركض .

فقال : « اسمعي ، يا فتاة . اسمعي . ارجعي . لن اداعبه . »

وركضت كونتن حتى بلغت البيت . ودارت حول المطبخ .

وقال : « اذن ، أفسدتَ الأمور ، يا رجل . »

فقال لستر : « إنه لا يفهم ما تقول . فهو أصمّ وابـكم . »

قال : « صحيح . منذ متى . »

قال لستر : « منذ ثلاثـة وثلاثـين عاماً ، لقد ولد في مثـــل هذا اليوم . لقد ولد معتوهاً . هل انت احد اعضاء جماعة السيرك . »

— « لماذا . »

— « لاني لا اتذكر انني رأيتك في هذه الاماكن من قبل . »

— « حسناً . وماذا تريد . »

— « لا شيء . سأذهب الى السيرك هذه الليلة . »

نظر اليّ .

وقال لستر : « هل انت الرجل الذي يعزف نغماً على المنشار . »

— « ستكلفك معرفة الجواب ربع دولار . » قال ذلك ثم نظـــر

اليّ . « لماذا لا يسجنونه في غرفة ما . لماذا جئت به الى هنا . »

قال لستر : « ليس ذلك من شأني . انا لا اقوى عليه . كلّ ما هناك هو انني جئت هنا ابحث عن ربع فقدته ، لكي استطيع الذهاب الى السيرك الليلة . ولكن يظهر الآن انني لن أنجح في الذهاب . »

وجعل لستر يتأمل في الأرض ، ثم قال : « أليس لديك ربع زائد .»

قال : « كلا . ليس لديّ ربع زائد . »

قال لستر : « اذن لا بد لي من ان اجد الربع الآخر . » ووضع يده في جيبه ، وقال : « او لا تريد ان تشتري كرة غولف . »

— « كرة ماذا . »

قال لستر : « كرة غولف ، ولا اريد لقاءها الا ربعاً . »

— « وما الفائدة منها . ما الذي افعله بها ؟ »

قال : « حسبت انها تفيدك . تعال هنا يا رأس البغل . تعال هنا وتفرج عليها وهم يضربون تلك الكرة . هاك . هاك شيئاً تلعب به بالاضافة الى زهرة « الجمسن » تلك . » والتقطها لستر واعطاني اياها. وكانت برّاقة .

— « اين حصلت عليها . » قال ذلك ، وهو يمشي ورباطه يبدو احمر في ضوء الشمس .

قال لستر : « وجدتها تحت هذه الشجيرة . فظننت لبرهة انها الربع الذي فقدته . »

وجاء واخذها .

قال لستر : « هس ، سيعيدها عندما يفرغ من النظر اليها . »

— « آغنِس مابِل بكِي . » قال ذلك وتطلع الى البيت .

قال لستر : « هس ، انه ينوي اعادتها . »

واعطاني اياها ، فسكتُّ .

— « من جاء لرؤيتها الليلة الماضية . »

قال لستر : « لا ادري . انهم يأتون كل ليلة . وهي تستطيع النزول من على تلك الشجرة . وانا لا أتعقب آثارهم . »

— « أقسم ان احدهم قد خلّف اثراً وراءه . » قال ذلك ونظر الى البيت . ثم ذهب واضطجع في الارجوحة ، وقال . « انصرف . لا تزعجني . »

قال لستر : « تعال هنا . يكفيك ما سببت من فوضى . لا بد ان الآنسة كونتن قد انتهت من الوشاية بك . »

وذهبنا الى السياج ونظرنا من خلال فسحات الزهور المتثنية . وراح لستر يبحث في العشب .

وقال : « كان معي وانا واقف هنا . » ورأيت العلم يرفرف والشمس تنحدر على العشب الفسيح .

وقال لستر : « سيأتي آخرون عما قريب . هناك الآن جماعة ، ولكنها ذاهبة . تعال وساعدني في البحث عنه . »

وجعلنا نمشي بمحاذاة السياج .

قال لستر : « هس ، كيف أجعلهم يأتون الى هذه الناحية ، وهم لا يأتون . انتظر . سيأتي بعضهم بعد لحظات . انظر هناك . أترى ؟ انهم قادمون . »

ومشيت بمحاذاة السياج ، إلى البوابة ، حيث كانت الفتيات يمررن ، حاملات حقائب كتبهن . « اسمع يا بنجي . » قال لستر . «عد الى هنا .»

ما الفائدة من تطلعك من خلال البوابة ، قال تي بي . لقد رحلت كادي وابتعدت في رحيلها . تزوجت وغادرتك . ما الذي ترجوه من التشبث بالبوابة والبكاء والعويل . انها لا تستطيع أن تسمعك .

وقالت أمي ، ما الذي يريده يا تي بي . الا تستطيع ان تلاعبه وتهدئه .

فقال تي بي ، يريد ان ينزل الى هناك لينظر من خلال البوابة .

قالت امي : لن أسمح له ، الدنيا ماطرة . وعليك ان تلاعبه وتهدئه. أنت يا بنجامين .

قال تي بي : لن يهدئه شيء فهو يظن انه اذا نزل الى البوابة ، عادت كادي اليه .

كلام فارغ ، قالت امي .

سمعتهم يتحدثون . وخرجت من الباب فما عدت اسمعهم ، ونزلت الى البوابة ، حيث كانت الفتيات يمررن حاملات حقائب كتبهن . كن ينظرن الي ، مسرعات في سيرهن ، ورؤوسهن تستدير نحوي . وحاولت ان اقول ، غير انهن تابعن السير ، وسرت بمحاذاة السياج محاولاً أن اقول ، فزدن من سرعتهن . ثم جعلن يركضن وبلغتُ زاوية السياج ولم يكن لي مجال للمزيد من السير ، وتشبثت بالسياج ، متطلعاً وراءهن ومحاولاً ان اقول .

قال تي بي : « انت يا بنجي . ما الذي تفعله ، بعد أن خرجت متسللاً . الا تعلم ان دلزي ستجلدك ؟ »

قال تي بي : « ما الذي ترجوه من عويلك ونشيجك من خلال السياج ؟ لقد افزعت اولئك الفتيات انظر اليهن ، وهن يمشين على الجانب الآخر من الشارع . »

قال ابي : كيف خرج ؟ هل تركت البوابة دون ازلاج عندما دخلت يا جاسن ؟

قال جاسن : طبعاً لا ، ألا تعلم انني أعقل من ان افعل ذلك . اتحسب انني كنت اريد وقوع شيء كهذا . الله يعلم ان في هذه الاسرة من السوء ما يكفيها . وقد كان بوسعي ان أقولها لك طيلة الوقت . يخيل إلي انك سترسله الآن الى جاكسن . إلا اذا سبقتك المسز بيرجس باطلاق النار عليه .

قال أبي : اسكت .

وقال جاسن : كان بوسعي أن اقولها لك طيلة الوقت .

كان الباب مفتوحاً عندما لمسته ، فأمسكت به في الأصيل . لم اكن ابكي ، وحاولت أن اكفّ ، وانا ارقب الفتيات قادمات في الأصيل . لم اكن أبكي .

— « ها هو . »

ووقفن .

— « انه لا يستطيع الخروج . وهو ، على كل ، لن يؤذي أحداً . هيّا . »

— « انا خائفة . خائفة . سأقطع الشارع . »

— « انه لا يستطيع الخروج . »

لم اكن أبكي .

— « لا تكوني قطةً خوافة . امشي . »

وتقدّمن في الأصيل . لم اكن ابكي ، وأمسكت بالبوابة . وتقدّمن ببطء .

— « انا خائفة . »

— « لن يؤذيكِ . اني أمرّ بهذا المكان كل يوم . كل ما هنالك انه يركض بمحاذاة السياج . »

وتقدمن . وفتحت الباب ، فتوقفن واستدرن . كنت احاول ان اقول شيئاً ، وامسكت بها محاولاً ان اقوله ، فزعقتْ وانا احاول ان اقول واحاول وجعلت الاشكال البراقة تتوقف وحاولتُ ان اخرج . وحاولتُ ان أزيلها عن وجهي ، غير ان الاشكال البراقة جعلت تتحرك من جديد . وترقى التل حيث وقعتْ عني ، وحاولتُ ان ابكي . ولكنــني عندما شهقت لم استطع ان ازفر ثانية لأبكي ، وحاولت ألاّ اقع من التــل ووقعتُ من على التل في وسط الاشكال البرّاقة الدوّامة .

قال لستر ، اترى يا معتوه . ها هي ذي جماعة قادمــة . فكفّ عن النشيج والانين .

اقبلوا صوب العلم . فحمله بعيداً ، وضربت الجماعة اللاعبة ضربتها ،

ثم وضع العلم مكانه .

قال لستر : « يا سيد . »

فالتفت احد الجماعة وقال : « نعم . »

— « أتشتري كرة غولف . »

— « دعني اراها . » قال ذلك واقبل نحو السياج ومدّ لستر له الكرة في يده خلال السياج .

فقال : « من اين لك هذه . »

قال لستر : « وجدتها . »

قال : « اعلم ذلك . ولكن اين . أفي كيس الغولف الذي يخص احدهم ؟ »

قال لستر : « وجدتها هنا في فناء الدار . اعطيك اياها بربع . »

قال : « وما الذي يجعلك تظن انها كرتك . »

قال لستر : « لأنني وجدتها . »

قال : « اذن ابحث لك عن اخرى . » ووضعها في جيبه ومشى .

قال لستر : « لا بد لي من ان اذهب الى السيرك الليلة . »

قال : « صحيح . » وذهب إلى المستوى وقال: « اليّ يا كادي . » وضرب .

وقال لستر : « انت والله مشكلة . تولول عندما لا تراهم، وتولول عندما تراهم . لماذا لا تسكت . ألا تحسب ان الناس يملّون الاصغاء اليك طيلة الوقت . هاك . لقد اسقطت زهرة الجمسن . » التقطها وناولني اياها . « انت بحاجة الى زهرة جديدة . فهذه قد استهلكت . » ووقفنا عند السياج نرقبهم .

قال لستر : « ذلك الرجل الابيض صعب المعشر . أرأيته يأخذ كرتي . » وتحركوا ، فتحركنا بمحاذاة السياج وبلغنا الحديقة ولم يبق لنا مجال للمزيد . فأمسكت بالسياج وتطلعت من بين فسحات الزهور .

وانصرفوا .

قال لستر : « لا عذر لك في البكاء الآن . اسكت . فأنا الذي لديّ ما ابكي عليه ، لا انت . اسمع . لماذا لا تمسك بهذه الزهرة ، والاّ رحت تولول من اجلها بعد لحظة . » وناولني الزهرة . « اين ذاهب انت الآن . »

كان ظلاّنا على العشب . وقد ادركا الاشجار قبلنا . وكان ظلّي الأسبق اليها . ثم وصلنا نحن اليها ، واذا ظلانا قد اختفيا . كان في الزجاجة زهرة . فوضعت الزهرة فيها .

وقال لستر : « ألست رجلاً بالغاً ، وتلعب بزهرتين في زجاجة . أتعلم ما الذي سيفعلونه بك عندما تموت السيدة كارولاين . سيرسلونك الى جاكسن ، حيث ينبغي ان تكون . هذا ما يقوله المستر جاسن . حيث تمسك بالقضبان ليل نهار مع بقية المجانين وتبكي ويسيل لعابك على هواك . أيروق لك ذلك . »

ثم قذف لستر بالزهرتين بيده وقال : « هذا ما سيفعلونه بك كلما بدأت بالعياط . »

فحاولت ان ألتقط الزهرتين ، ولكن لستر التقطهما ، وابتعدتا عني . فجعلت ابكي .

قال لستر : « عِطْ ، عِطْ . أتريد ما تعيّط من اجله . طيبٌ ، اذن خذها . » وهمس : « كادي . كادي . عِطْ ، هلمّ عِطْ . كادي . »

نادت دلزي من المطبخ : « لستر »

وعادت الزهرتان .

قال لستر : « صه . هاك الزهرتين . انظر . ها هما في مكانهما كما من قبل . والآن ، اسكت . »

قالت دلزي : « انت يا لستر . »

قال لستر : « نعم . نحن قادمان . خربطتَ الدنيا . انهض.» وشدني من ذراعي فنهضت . وخرجنا من بين الشجر . واختفى ظلانا .
قال لستر : « هس . انظر الى هؤلاء الناس كلهم وهم يرقبونك .هس »
قالت دلزي : « تعال به هنا . » ونزلت الدرج.
وقالت : « ما الذي فعلت به . »
قال لستر : « لا شيء . فجأة ، بدأ يعيط . »
قالت دلزي : « كذاب . لقد فعلت به شيئاً . اين كنتما . »
قال لستر : « هناك تحت اشجار الارز . »
قالت دلزي : « وأغضبت كونتن أيضاً . لماذا لا تبقيه بعيداً عنها . ألا تعرف انها لا تريد ان تراه في كل مكان تذهب اليه . »
قال لستر : «لديها قدر ما لدي من وقت للعناية به . أخالي هو أم خالها ؟ »
قالت دلزي : « لا تجادلني ، يا عبداً أسود . »
قال لستر : « ما فعلت به شيئاً والله . كان يلعب هناك ، واذا هو فجأة يصيح ويعيط . »
قالت دلزي : « هل كنت تعبث بمقبرته . »
قال لستر : « والله ما وضعت يدي على مقبرته . »
— « لا تكذب عليّ ، يا ولد . » وصعدنا الدرج الى المطبخ . وفتحت دلزي باب الموقد وجرّت لي كرسياً فجلست عليه وأمسكت عن البكاء .
قالت دلزي : لماذا أثرتها ، لماذا لم تبقه بعيداً عن ذلك المكان .
كان يتأمل النار ، لا اكثر ولا اقل ، قالت كادي . وكانت امي تذكر له اسمه الجديد . لم نقصد قط ان نثيرها .
فقالت دازي ، صدقت . ولكن ، هو في طرف من البيت وهي في الطرف الآخر . دعي اغراضي وشأنها . ولا تلمسي شيئاً الى ان اعود.

قـــالت دلزي : « الا تخجل من نفسك ، فتكايده . » ووضعت الكعكة على المائدة .

قال لستر : « انا لم اكايده . كان يلعب بتلك الزجاجـــة الملأى بالأعشاب ، وفجأة بدأ بالعياط . وقد سمعته انت . »

سألت دلزي : « الم تفعل شيئاً بزهوره . »

قال لستر : « لم أضع يدي على مقبرته . مالي ولألاعيبه . كل ما هناك هو انني كنت ابحث عن ذلك الربع . »

قالت دلزي : « فقدته ، اليس كذلك . » وأشعلت الشموع المغروسة في الكعكة . وكان بعضها صغيراً ، وبعضها كبيراً مجزأ اجزاءً صغيرة. « قلت لك اذهب وخبئه . والآن ، اتصور انك تريدني ان احصل لك على ربع آخر من فروني . »

قال لستر : « لا بد لي من الذهاب الى السيرك ، وُجد بنجي أم لم يوجد . اني أرفض ان اتعقبه طيلة النهار ثم طيلة الليل أيضاً . »

— « ستفعل كلّ ما يشاء هو ان تفعل ، يا عبداً اسود . »

قال لستر : « الا افعل ذلك دائماً ؟ الستُ دائماً افعل ما يشاء . ألست ، يا بنجي ؟»

قالت دلزي : « اذن ، استمرّ في ذلك . كيف تأتي به هنا وهو يبكي ، وتثيرهـــا هي ايضاً . تعالوا وكلوا هذه الكعكة قبل ان يأتي جاسن . فأنا لا أريد له ان يثب عليّ من اجل كعكة اشتريتها بنقودي. وانا اصنع الكعكة هنا ، وهو يحصي عليّ كل بيضة تدخل هذا المطبخ. دعه وشأنه الآن ، الا اذا كنت لا تريد الذهاب الى السيرك الليلة . »

وذهبت دلزي .

قال لستر : « انت لا تستطيع ان تطفىء الشموع . انظر اليّ وانا اطفئها . » وانحنى ونفخ خديه . وراحت الشموع . وشرعت بالبكاء . فقال لستر : « **هس.** انظر الى النار ريثما اقطع الكعكة . »

جعلت اسمع الساعة ، واسمع كادي واقفةً خلفي،واسمع السقف . السماء ما زالت تمطر ، قالت كادي . اكره المطر . اكـره كل شيء . ثم استقر رأسها في حضني واذا هي تبكي وقد امسكت بـي ، فجعلت ابكي . ثم نظرت الى النار ثانية وتحركت الاشكال الناعمة البراقة ثانية . وانا اسمع الساعة والسقف وكادي .

اكلت بعض الكعك . وجاءت يـد لستر واخذت قطعة اخـــرى . وجعلت اسمعه يأكل . ونظرت الى النار .

سِلكٌ طويلٌ وقع على عرض كتفي . ذهب الى الباب، وبعد ذلك اختفت النار . وبدأت بالبكاء .

قال لستر : « والآن ، علامَ العياط . انظر هناك . » كانت النار هناك . فسكتُّ . فعاد يقول : « ألا تستطيع الجلوس والتأمل في النار هادئاً صامتاً كما اوصتك امك . الا تخجــل من نفسك . هاك قطعــة اخرى من الكعك . »

قالت دلزي : « ما الذي فعلت له الآن . أما تستطيــع ان تتركه وشأنه ابداً . »

قال لستر : « انما كنت احاول ان اسكته كي لا يزعــج السيدة كارولاين . ولكن شيئاً ما جعله يبكي من جديد . »

قالت دلزي : « وانا اعرف ما هو اسم ذلك الشيء . سأجعل فيرش يتناولك بالعصا عندما يعود الى البيت . فأنت تتعمد ابكاءه . كنت تفعلها طيلة النهار . هل انزلته الى الغدير . »

قال لستر : « كلا . كنا هنا في هذا الحوش طيلة النهـار ، كما قلت . »

وامتدت يده طلباً لقطعة اخرى من الكعك . فضربته دلزي على يده. وقالت : « مدّها ثانية اقطعها من اصلها بسكـــين الجزّار هذه . اقسم انه لم يحظَ بقطعة واحدة بعد . »

قال لستر : « بل انه اكل حتى الآن قطعتين ، اي قدر ما اكلت انا . اسأليه . »

قالت دلزي : « مدّ يدك . مدّ يدك لترى . »

قالت دلزي : اي والله صحيح . اتصور ان الدور الآن دوري للبكاء. وأتصور ان موري سيسمح لي انا ايضاً بالبكاء عليه لفترة ما .

قالت كادي : ان اسمه الآن هو بنجي .

قالت دلزي : وكيف يكون ذلك ، هل استهلك الاسم الذي ولد به.

قالت كادي : اسم بنجامين قد ورد في التوراة ، وهذا الاسم خير له من موري .

قالت دلزي : وكيف يكون ذلك .

قالت كادي : امي تقول انه خير له .

قالت دلزي : هه ، لن يسعفه الاسم في شيء . لا ولن يؤذيه . والناس انما يستجلبون الشؤم بتغيير الاسماء . لقد كان اسمي دلزي منذ مدة تسبق ما استطيع تذكره بكثير وسيبقى دلزي حتى بعد ان ينساني الناس بأمد طويل .

قالت كادي : ولكن كيف سيعرفون انه دلزي اذا كان قد نسي منذ امد طويل ، يا دلزي .

قالت دلزي : سيكون مكتوباً في الكتاب يا حبيبتي .

قالت كادي : اتستطيعين ان تقرأيه .

قالت دلزي : لن احتاج الى ذلك ، سيقرأونه لي ، وما علي إلا ان أقول : إني هنا .

وقع السلك الطويل على عرض كتفي ، وراحت النار . وبدأت ابكي. وتشاجر لستر ودلزي.

قالت دلزي : « رأيتك ، والله رأيتك . » وجرّت لستر من الزاوية وهي تهزّه . « أتقول لا شيء يزعجه . انتظر الى ان يعود ابوك الى

البيت . يا ليتني كنت شابة كسابق عهدي ، لفصلت هاتين الاذنين عن رأسك . ويخطر لي الآن والله ان اسجنك في ذلك القبو واقفل الباب عليك وامنعك من الذهاب الى ذلك السيرك هذه الليلة . اي والله . »

قال لستر : « آخ ، ماما . آخ ، ماما . »

ومددت يدي الى حيث كانت النار .

قالت دلزي : « رُدَّه . رده عن النار . »

وارتدت يدي ووضعتها في فمي وامسكت بي دلزي . وانا ما زلت اسمع الساعة من خلال صوتي . ومدت دلزي يدها وراءها وضربت لستر على رأسه . وصوتي يرتفع كل مرة .

قالت دلزي : « احضر الصودا . » واخرجتْ يدي من فمي . واشتد ارتفاع صوتي عندئذ وحاولت يدي الرجوع الى فمي ، غير ان دلزي امسكت بها . وارتفع صوتي . ورشّت الصودا على يدي .

وقالت : « اذهب الى غرفة المؤونة وشقّ قطعة من تلك الخرقة المعلّقة على المسمار . **هس ، هس** . أتريد ان تجعل امك تمرض مرة اخرى . اسمع . تفرج على النار . ودلزي ستوقف الألم الذي في يدك في دقيقة . تفرج على النار . » وفتحتْ باب الموقد ، ونظرتُ الى النار غير ان يدي لم تكفّ عن الشعور بالألم وانا لم اكفّ . وكانت يدي تحاول ان تذهب الى فمي ولكن دلزي امسكت بها .

ولفت القماشة حولها . وقالت امي :

« والآن ، ما الامر . الا استطيع حتّى ان امرض براحة . أينبغي عليّ ان انهض من فراشي لأنزل اليه، وهناك زنجيان بالغان يعتنيان به؟»

قالت دلزي : « انه بخير الآن . وسيكفّ بعد لحظة . لقد حرق يده قليلاً ، لا غير . »

قالت امي : « زنجيان بالغان موكلان به . ومع ذلك تعودون به الى البيت وهو يبكي ويصرخ . انكم تحرّكونه عن قصد ، لانكم تعلمون

اني مريضة . » واتت ووقفت بقربي . وقالت : « اسكت . حالاً . هل اعددت له تلك الكعكة ؟ »

قالت دلزي : « لقد اشتريتها . فهي لم تخرج قط من غرفة مؤونة جاسن . لقد رتبت له عيد ميلاد . »

قالت امي : « اتريدين له ان يتسمم بكعكة السوق الرخيصة تلك . أهذا ما تحاولين ان تفعليه . ألن تتاح لي دقيقة من الراحة والهدوء . »

قالت دلزي : « اصعدي الى غرفتك واضطجعي . سيتوقف ألمه بعد برهة ، فيسكت . استمعي اليّ . »

قالت امي : « واتركه هنا بينكم لتعرّضوه لأذى آخر . وكيف يسعني ان اضطجع في غرفتي وهو يولول هنا . بنجامين ، اسكت حالاً . »

قالت دلزي : « ليس لدينا مكان آخر نأخذه اليه . وليست لدينا الغرفة التي كانت لنا . وهو لا يستطيع ان يبقى خارجاً في فناء الدار يبكي حيث يراه الجيران كلهم . »

قالت امي : « اعرف ، اعرف . كلها غلطتي . سأرحل عنكم قريباً ، فتسير الامور بينكم وبين جاسن على نحو افضل . » واخذت تبكي .

قالت دلزي : « كفي عن هذا البكاء يا هذه . ستحطمين نفسك ثانية . اصعدي الى غرفتك . سيأخذه لستر الى المكتبة ريثما اهيء عشاءه . »

وخرجت دلزي وامي .

وقال لستر : « اسكت . اسكت . اتريد ان احرق لك يدك الاخرى. انت لم تتأذّ ، فاسكت . »

قالت دلزي : « هاك . كفاك بكاء . » واعطتني الخف، فسكتّ . وقالت : « خذه الى المكتبة . واذا سمعت صوته مرة اخرى ، جلدتك

والله بنفسي . »

ذهبنا الى المكتبة . واشعل لستر الضوء ، فاسودّت النوافذ ، وبان المكان الطويل المظلم الذي على الحائط فذهبت ولمسته . كان يشبه الباب، غير انه لم يكن باباً .

وجاءت النار خلفي وذهبت الى النار وجلست على الارض ممسكاً بالخفّ . وارتفعت النار . وتسلقت الى الوسادة التي في كرسي امي .

قال لستر : « اسكت . الا تستطيع التوقف، ولو للحظة . ها قد اشعلت لك ناراً ، ولكنك لا تتفضل حتّى بالنظر اليها . »

قالت كادي ، اسمك بنجي . اتسمع . بنجي . بنجي .

قالت امي ، لا تقولي ذلك له . تعالي به هنا .

فرفعتني كادي من تحت الإبطين ، وقالت :

انهض يا مو — اقصد يا بنجي .

قالت امي ، لا تحاولي ان تحمليه . الا تستطيعين ان تقتاديه اليّ . ايعسُر هذا على تفكيرك .

قالت كادي ، استطيع ان احمله . « دعيني احمله يا دلزي . »

قالت دلزي : « أتستطيعين ان تحمليه وانت بحجم البندقة . البرغوث كبير عليك . فاذهبي وحافظي على الهدوء كما امرك السيد جاسن . »

وفي اعلى الدرج بان نورٌ . كان ابـي هنـــاك في قميصه ، وكانت نظرته تقول : « هس . » فهمست كادي :

« هل ماما مريضة؟ »

وضعني فيرش عنه ودخلنا غرفة امي . كان فيها نار . تعلو وتهبط على الجدران . وفي المرآة كانت نار اخرى . وجعلت اشمّ المرض . كان رأس امي معصوباً بقماشة . كان شعرها على الوسادة ، والنار لا تبلغها ، غير انها كانت تلتمع على يدها حيث كانت خواتمها تتراقص .

قالت كادي : « تعال وقل لماما تصبحين على خير . » فذهبنا الى

فراشها . وخرجت النار من المرآة . ونهض أبي عن الفراش ورفعني ووضعت امي يدها على رأسي .

قالت أمي وعيناها مغمضتان : « ما الساعة ؟ »

قال ابي : « السابعة إلاّ عشر دقائق . »

قالت امي : « لم يحن بعد وقت نومه . سيفيق لدى طلوع الفجر ، وانا لن استطيع تحمل يوم آخر كهذا اليوم . »

قال ابي : « هدئي من روعك . » ولمس وجه امي .

قالت امي : « انا اعرف أنني لست إلا عبئاً عليك . ولكنني راحلة عن قريب . وعندها ستخلص مما اسببه لك من عناء . »

قال ابي : « هس . سآخذه الى تحت . » ورفعني . « هيا بنا ، يا غلام . لننزل الى الاسفل قليلا . ولكن علينا بالهدوء بعض الوقت لأن كونتن منهمك في دروسه . »

وذهبت كادي وانحنت بوجهها فوق الفراش ودخلت يد أمي ضوء النار ، وتراقصت خواتمها على ظهر كادي .

قال ابي : ماما مريضة . ستضعك دلزي في فراشك . اين كونتن؟
قالت دلزي : ذهب فيرش ليأتي به .

وقف ابي يرمقنا ونحن نمر . وسمعنا امي في غرفتها. وقالت كادي: « هس. » وكان جاسن لا يزال يصعد الدرج . ويداه في جيبه .

قال ابي : « عليكم ان تكونوا عاقلين ، كلكم ، هذه الليلة . ولا تحدثوا اي ضجيج ، لكي لا تقلقوا راحة امكم . »

قالت كادي : « لن نحدث اي ضجيج . لا تحدث اي ضجيج يا جاسن . » ومشينا على رؤوس أصابعنا .

كنا نسمع سطح البيت . وكنت ارى النار في المرآة ايضاً . ورفعتني كادي ثانية .

وقالت : « هيا بنا الآن . وبعد ذلك لك ان تعود الى النار . هس. »

فقالت امي : « كاندس . »

قالت كادي : « هس يا بنجي . ماما تريدك لدقيقة . كن ولداً عاقلاً . ثم تستطيع ان تعود ، يا بنجي . »

وانزلتني كادي وسكت .

— « دعيه هنا ، ماما . وعندما ينتهي من النظر الى النار ، فلك ان تخبريه ان شئت . »

قالت امي : « كاندس . » فانحنت كادي ورفعتني .

وترنّحنا معاً . وقالت امي : « كاندس . »

قالت كادي : « هس . ما زلتَ تستطيع ان تراها . **هس** . »

قالت امي : « تعالي به هنا . انه اكبر من ان تحمليه انت . كفّي عن المحاولة ، والا آذيت ظهرك . ما من امرأة في اسرتنا الا وفاخرت الدنيا بقوامها . اتريدين ان تشبهي الغسّالات بقوامك . »

قالت كادي : « انا لا أجده ثقيلاً عليّ . اني استطيع ان احمله . »

قالت امي : « حسناً اذن . أنا لا أريد أحداً ان يحمله . ابن خمس سنين . لا ، لا . لا تضعيه في حضني . ليقف على قدميه . »

قالت كادي : « اذا أمسكتِ به ، سكت . **هس** . ستعود بعد لحظة . هاك . هذه وسادتك انظر . »

قالت امي : « لا يا كاندس . »

قالت كادي : « دعيه ينظر اليها ، يهدأ . قف دقيقةً الى ان انزعها. هاك ، بنجي ، أترى . »

ونظرتُ اليها وسكت .

قالت امي : « انت تبالغين في معاملته على هواه . وكذلك ابوك . ولا تعلمين انني أنا التي سأدفع الثمن فيما بعد . لقد دلّل ابوك جاسن وافسده على هذا النحو ، ثم استغرقه الاقلاع عن دلاله سنتين كاملتين، وليست لدي شخصياً تلك القوة لاعادة مثل تلك التجربة مع بنجامين . »

قالت كادي : « لا حاجة الى ازعاج نفسك به . اذ يلذّ لي ان اعنى به . أليس كذلك يا بنجي . »

فقالت امي : « كاندس . قلت لك ألا تدعيه ببنجي . حسبنا أن اباك أصرّ على تسميتك بذلك اللقب السخيف*، ولذا فاني لن أرضى باطلاق اي لقب عليه . الألقاب سوقية . ولا يستخدمها إلا العوام . بنجامين . »

وقالت امي : « انظر إليّ . »

ثم قالت : « بنجامين . » وأخذت وجهي بين راحتيها وأدارته صوب وجهها .

وقالت : « بنجامين . يا كاندس ، خذي تلك الوسادة منه . »

قالت كاندس : « سيبكي . »

قالت امي : « خذي تلك الوسادة منه ، كما قلت لك . يجب ان يتعلم الطاعة . »

وابتعدت الوسادة .

قالت كادي : « هس يابنجي . »

قالت امي : « اذهبي انت واجلسي هناك . بنجامين . »

وأمسكت بوجهي ازاء وجهها .

وقالت : « كفّ عن البكاء . كفّ عن البكاء . »

غير انني لم اكفّ فضمتني امي في ذراعيها وجعلت تبكي وبكيتُ . ثم عادت الوسادة ،وأمسكت بها كادي فوق رأس امي . وسحبت امي الى الوراء في الكرسيّ واتكأت امي باكيةً على الوسادة الحمراء الصفراء.

قالت كادي: «هس . ماما . اصعدي الى غرفتك واضطجعي لتستريحي في مرضك . سأذهب لآتي بدلزي . » واقتادتني الى النار ونظرت إلى الاشكال الناعمة الوهّاجة . وجعلت اسمع النار وسطح البيت .

---

* تقصد تصغير « كاندس » الى « كادي » . (المترجم)

وحماني أبي . وكانت رائحته كالمطر .

وقال : « يا بنجي ، هل كنت اليوم ولداً عاقلاً . »

وكان جاسن وكادي يتشاجران في المرآة .

قال أبي : « اسمعي يا كادي . »

وتشاجرا ، ثم أخذ جاسن يبكي .

قال ابي : « كادي . » وجاسن يبكي . وقد توقف عن الشجار ، ولكننا رأينا كادي ما تزال تتشاجر في المرآة وانزلني أبي ودخل المرآة وتشاجر هو أيضاً . فرفع كادي ، وهي تصارع . وجاسن مطروح على الأرض يبكي . وفي يده مقص . وأمسك ابي بكادي .

قالت كادي : « لقد قطّع دُمَى بنجي كلها . وسأشق حلقه . »

قال ابي : « كاندس . »

قالت كادي وهي تصارع ، وأبي ممسك بها : «سأشق حلقه . سأشق حلقه . » وركلت جاسن . فتدحرج إلى الزاوية ، خارجاً من المرآة . وأتى ابي بكادي الى النار . فكانوا كلهم خارج المرآة . ولم يبقَ فيها إلا النار . وكأنما نار في باب .

قال ابي : « كفى ، كفى . اتريدين لأمك ان تمرض في غرفتها. »

فكفّت كادي وقالت : « لقـد قطّع كل الدُّمى التي صنعناها أنا وموري وبنجي . لأنه حقير . »

قال جاسن : « لم اقطّعها . »وقد اعتدل في جلسته ، وهو يبكي . « لم أعرف انها له . ظننتها جرائد قديمة . »

قالت كادي : « لا بد أنك عرفت . ولكنك قطعتها . »

قال ابي : « هس ، جاسن . »

وقالت كادي : « سأصنع لك دمى اخرى غداً . سنصنع دمى كثيرة. هاك الوسادة . انظر إليها . »

دخل جاسن .

قال لستر : قلت لك الف مرة اسكت .
قال جاسن : ما الأمر الآن ؟
قال لستر : « انـــه يرهق نفسه . لقد ظلّ على هذه الحال طيلة النهار . »
قال جاسن : « اذن لماذا لا تدعه وشأنه . واذا عجزت عن إسكاته فعليك ان تأخذه الى المطبخ . اما نحن فلا نستطيع ان نحصر أنفسنا في غرفة واحدة كما تفعل امي . »
قال لستر : «ولكن جدتي تقول لا تدخلوه المطبخ حتى اهيىء العشاء.»
قال جاسن : « اذن لاعبه واسكته . أأعمل النهار بطوله ثم أعود الى داري لأجدها داراً للمجانين . » وفتح الصحيفة وراح يقرأها .
قالت كادي ، انظر الى النار والمرآة والوسادة ايضاً ، لا ضرورة لانتظارك حتى العشاء لكي تنظر الى الوسادة . وجعلنا نسمـــع سطـــح البيت . ونسمع جاسن ايضاً يعيط ويصرخ من وراء الجدار .
قالت دلزي : « تعال يا جاسن . هل تركته وحده . »
قال لستر : « نعم . »
قالت دلزي : « اين كونتن . كاد العشاء يحضر . »
قال لستر : « لا ادري . لم أرها . »
فخرجت دلزي وقالت في البهو : « كونتن . يا كونتن . لقد حضر العشاء . »
جعلنا نسمع سطح البيت . وكانت رائحة كونتن كالمطر ، ايضاً .
وقال ، ماذا فعل جاسن .
قالت كادي ، قطّع دُمى بنجي كلها .
فقال كونتن ، اوصت ماما بألا ندعوه ببنجي . وجلس على البساط معنا . وقال ، ليتها لا تمطر . اننا لا نستطيع ان نفعل شيئاً في المطر .
وقالت كادي ، كنتَ تتشاجر . اليس كذلك .

فقال كونتن ، شجار بسيط .

قالت كادي ، انه ظاهر عليك . وسيلاحظه ابـي .

فقال كونتن ، لا ابالي . ليتها لا تمطر .

قالت كونتن : « ألم تقل دلزي ان العشاء قد حضر . »

قال لستر : « نعم . » ونظر جاسن الى كونتن . ثم عاد الى قراءة صحيفته . ثم دخلت كونتن . وقال لستر : « تقول انه كاد يحضر . » وطفرت كونتن الى كرسي امي . فقال لستر :

« سيد جاسن . »

قال جاسن . « ماذا . »

قال لستر : « اعطني ربعاً . »

قال جاسن : « لماذا . »

قال لستر : « لكي اذهب الى السيرك الليلة . »

قال جاسن : « ألم تقل دلزي انها ستأخذ لك ربعاً من فروني . »

قال لستر : « اخذت ربعاً منها . ولكنني فقدته . وقـد بحثنا انا وبنجي عنه طيلة النهار . اسأله . »

قال جاسن : « اذن استدن ربعاً منه . اما انا فعليّ ان اشتغل لقاء ربعي . » واخذ يقرأ الصحيفة . وتأملت كونتن النار . وكانت النار في عينيها وعلى فمها . وكان فمها أحمر .

قال لستر : « حاولت ان ابعده عن ذلك المكان . »

قالت كونتن : « اخرس . » فنظر اليها جاسن .

وقال : « ما الذي قلت لكِ بأنني سأفعله إن انا رأيتك ثانية مـع غلام السيرك ذلك . » وبقيت كونتن تتأمل النار . « أسمعت ما قلتُ . »

قالت كونتن : « نعم ، سمعت . لماذا لا تنفـّذ قولك اذن . »

قال جاسن : « طيـّب . اطمئني . »

قالت كونتن : « انا مطمئنة . » وعاد جاسن الى قراءة الصحيفة

أخرى .

جعلت اسمع سطح البيت . ومال ابـي الى الامام ونظر الى كونتن. وقال ، هالو . من الذي غلب .

قال كونتن : « لا أحد . أوقفنا المعلمون . »

قال ابـي : « من كان . اخبرني ، أرجوك . »

قال كونتن : « ما همّني . كان كبيراً مثلي . »

قال ابـي : « حسناً . هلاّ اخبرتني بالسبب . »

قال كونتن : « لا شيء . قال انه سيضع ضفدعـاً في منضدتها ، لن تجرؤ على ضربه . »

قال ابـي : « اوه . هي . وبعد ذلك . »

قال كونتن : « نعم يا أبـي . وبعد ذلك ضربته . »

كنا نسمع سطح البيت والنار ونشيجاً خارج الباب .

قال ابـي : « ومن اين له ان يحصل على ضفدع في تشرين الثاني.»

قال كونتن : « لا ادري . »

كنا نسمعهم .

قال أبـي : « جاسن . » واخذنا نسمع صوت جاسن .

قال أبـي : « جاسن . تعال هنا ، كفاك بكاءً . »

قال أبـي : « كفاك بكاءً . اتريد ان اجلدك مرة اخرى . » وحمل جاسن وأجلسه في الكرسي بقربه . وجاسن ينشج . وسمعنا النـار لح البيت . وارتفع نشيج جاسن قليلاً .

قال ابـي : « مرة أخرى ؟ » وسمعنا النار وسطح البيت .

قالت دلزي ، طيب . تعالوا الآن الى العشاء .

كانت رائحة فيرش كالمطر . وكانت رائحته ككلب ايضاً . وكنـا ع النا وسطح البيت .

وسمعنا كادي تسرع بالمشي . ووقف أبـي وامي بالباب ، الذي مرّت

به كادي ، مسرعة ، دون ان تنظر منه . كانت تسرع بالمشي .

قالت امي : « كاندس . » فتوقفت كادي عن المشي .

قالت كادي : « نعم ، ماما . »

قال ابـي : « اسكتي يا كارولاين . »

قالت امي : « تعالي هنا . »

قال ابـي : « اسكتي يا كارولاين . دعيها وشأنها . »

جاءت كادي الى الباب ووقفت عنده ، تنظر الى ابـي وأمي . وطارت عيناها إلي ، ثم عني . فأخذت أبكي . وارتفع صوتي ونهضت . ودخلت كادي ووقفت وظهرها الى الحائط ، وهي تنظر إلي . واقتربت منهـا ، باكيـاً ، فتشنّجت لاصقةً بالحائط ورأيت عينيها وارتفع صوت بكائي وجذبت فستانها . فمدت يدها ولكنني شددت ثوبها . وسالت عيناها .

قال فيرش، اسمك الآن بنجامين . اتدري كيف اصبح اسمك الآن بنجامين . سيجعلون منك لباناً* ازرق . وماما تقول في سالف الأيام غيّر جدك اسم احد الزنوج ، واصبح قسيساً ، فلما نظروا اليه، وجدوا انه لبان ازرق ايضاً . ولم يكن لباناً ازرق من قبل . وعندما نظرت اليه امرأة حامل وجهاً لوجه في ضوء القمر ، والقمر بدر ، ولد ابنها لباناً ازرق ايضاً . وفي إحدى الاماسي ، وقد انتشر في المكان زهـاء عشرة اطفال من اللبان الازرق يلعبون ، لم يعد الى البيت . ثم عثر عليه صيادو القنافذ في الغابة ، مفترساً حتى العظم . اتعلم من الذي افترسه . اطفال اللبان الأزرق هؤلاء افترسوه .

كنا في البهو . وكادي ما زالت تنظر الي . ويدها على فمها . فرأيت عينيها وبكيت . ثم صعدنا الدرج . ووقفت ثانية ، لصق الحائط ، وهي تنظر إلي . وفتحت باب غرفتها ، غير أنني جذبت فستانها وذهبنا الى الحمام ووقفتْ لصق الباب تنظر إلي . ثم غطّت وجهها بذراعها ودافعتُها

* اللبان : العلك .

وأنا ابكي .

قال جاسن : ما الذي تفعل له . لماذا لا تتركه وشأنه .

قال لستر : انا لم امسه . لقد ظل طيلة النهار على هذه الحال يلزمه جلد.

فقالت كونتن : ينبغي ان نرسله الى جاكسن ، فكيف يستطيع احد ان يعيش في بيت كهذا .

قال جاسن : إذا لم يرق لك ، فالأفضل ان تخرجي منه .

قالت كونتن : سأخرج منه ، اطمئن .

قال فيرش : « انسحب الى الوراء قليلاً ، لكي استطيع ان اجفف ساقي . » ودفعني الى الوراء قليلاً . « إياك ان تبدأ بالعياط . ما زال بوسعك ان تراها . وهذا كل ما عليك ان تفعل . فأنت لم تضطر الى الخروج في المطر مثلي . لقد ولدت محظوظاً وانت لا تعلم . » واستلقى على ظهره امام النار .

قال فيرش : « اتــدري كيف اصبح اسمك الآن بنجامين . املك فخورة بك جداً . هذا ما تقوله ماما . »

قال فيرش : « إهدأ ودعني اجفف ساقي . وإلاّ فأنت تعلم ما انا فاعل . سأسلخ قفاك . »

كنّا نسمع النار وسطح البيت وفيرش .

ونهض فيرش على عجل وجرّ ساقيــه . وقال ابي : « لا بأس يا فيرش . »

قالت كادي : « سأطعمه أنا هذه الليلة . فهو يبكي احياناً عندما يطعمه فيرش . »

قالت دلزي : « خذ هذا الطبق الى فوق ثم ارجع بسرعة واطعم بنجي . »

قالت كادي : « ألا تريد ان تطعمك كادي . »

قالت كونتن ، امن الضروري ان يضع ذلك الخفّ القذر عــلى

المائدة . لماذا لا تطعمونه في المطبخ . كأننا نأكل مع خنزير .

قال جاسن ، ان كنت لا ترضين عن طريقة اكلنا ، فخير لك الا تقربـي هذه المائدة .

تصاعد البخار من رسكوس . كان جالساً أمام الطبّاخ،وباب الفرن مفتوح وقد وضع رسكوس قدميه فيـــه . وتصاعد البخار من الطبق . ووضعت كادي الملعقة في فمي بسهولة . وكان في داخل الصحن بقعة سوداء .

قالت دلزي ، لا ، لا . لن يزعجكم ثانية ابداً .

وانخفضت المحتويات عن العلامة . ثم فرغ الطبق ، وراح . وقالت كادي : « انه جائع هذه الليلة . » وعاد الطبق . وما عدت ارى البقعة فيه . ثم رأيتها . وقالت كادي : « انه ميّت جوعاً هذه الليلة . انظري كم أكل . »

قالت كونتن ، اجل سيفعلها . كلكم ترسلونه للتجسس عليّ . اني اكره هذا البيت . وسأهرب .

قال رسكوس : « سيستمر المطر طيلة الليل . »

لقد هربتِ مدةً طويلة ، فما تجاوز بلك موعد الاكل .

قالت كونتن ، سترى كيف سأهرب .

قالت دلزي : « لا ادري ما انا فاعلة . لقد اشتدّ الألم في وركي الآن بحيث اكاد لا استطيع الحركة. وما ذلك الا من صعود هذا الدرج وهبوطه طيلة المساء . »

قال جاسن ، لن ادهش . لا والله ، لن ادهش لاي فعل تفعلينه.

والقت كونتن بفوطتها على المائدة .

قالت دلزي ، لا تقل ذلك يا جاسن . وذهبت واحاطت كونتن بذراعها . اجلسي يا حبيبتي . وليخجل من نفسه ، اذ يرمي بوجهك ما هو ليس ذنباً من ذنوبك .

قال رسكوس : « هل حَرِدَتْ مرة اخرى . »
قالت دلزي : « اسكت . »
دفعت كونتن بدلزي عنها . ونظرت الى جاسن . وفمها احمر . وتناولت كأس مائها ورفعت ذراعها وهي تنظر الى جاسن . فأمسكت دلزي بذراعها . وتعاركا . وانكسرت الكأس على المائدة وسال الماء عليها . وركضت كونتن .
قالت كادي : « مرضت امي من جديد . »
قالت دلزي : « اي والله . طقس كهذا قد يُمرِض اي انسان . متى ستفرغ من اكلك يا ولد . »
قالت كونتن ، لعنك الله . لعنك الله . سمعناها تركض على الدرج . وذهبنا الى المكتبة .
واعطتني كادي الوسادة ، وجعلت اتأمل الوسادة والمرآة والنار .
قال ابي : « علينا بالهدوء اثناء انهماك كونتن بدروسه . ما الذي تفعله يا جاسن . »
قال جاسن : « لا شيء . »
— « ما رأيك اذن في ان تأتي هنا لتفعله . »
فخرج جاسن من الزاوية .
فقال ابي : « ما الذي تمضغه . »
قال جاسن : « لا شيء . »
فقالت كادي : « انه يمضغ ورقاً مرة أخرى . »
قال ابي : « تعال هنا يا جاسن . »
فنفخ جاسن في النار . فأزّت ، واستقامت ، واسودّت . ثم تحولت الى رمادية ، ثم راحت . وكان ابي وكادي وجاسن يجلسون في كرسي امي . وعينا جاسن مغمضتان من الورم وفمه يتحرك ، كمن يتذوق . ورأس كادي على كتف أبي . كان شعرها كالنار وفي عينيها نقط

صغيرة من النار ، وذهبت فرفعني ابـي الى الكرسي ايضاً ، واحتضنتني كادي . وكانت رائحتها كالشجر .

كانت رائحتها كالشجر . كانت الزاوية مظلمة، ولكن كان بوسعي ان ارى النافذة . جلست هناك القرفصاء والخفّ في يدي . لم يكن بوسعي ان اراه ، غير ان يديّ كانتا تريانه وجعلت اسمع الليل وهو يقدم ، ويداي تريان الخفّ دون ان استطيع ان اراه انا ، غير ان يديّ تريان الخف ، وجلست هناك القرفصاء وانا اسمع قدوم الظلام .

قال لستر ، أهذا انت هنا . انظر ما عندي . واراني اياه . أتعلم اين حصّلته . الآنسة كونتن اعطتني اياه . كنت اعلم انهم لن يبقوني في الخارج . ما الذي تفعله في هذا المكان . لقد ظننت انك تسللت الى الخارج . ألم تشبع انيناً وريلاً اليوم ، فجئت تختبىء في هذه الغرفـــة المهجورة لتتمتم وتدمدم . هيا معي الى فراشك ، لكي استطيع الوصول هناك قبل البداية . أتحسب انني سألاعبك طيلة هذه الليلة . ستجد انني قد ذهبت حالما تنفخ تلك الابواق .

لم نذهب الى غرفتنا .

قالت كادي : « هذه هي الغرفة التي ننام فيها اذ نمرض بالحصبة. ما الداعي الى نومنا هنا الليلة . »

قالت دلزي : « ولماذا يهمك اين تنامون . وأغلقت البـــاب وجلست وأخذت تنزع ثيابـي . فبدأ جاسن يبكي . فقالت دلزي : « هس . »

قال جاسن : « اريد ان انام مع ماما . »

قالت كادي : « ولكنها مريضة . لك ان تنام معها عندما تشفى . أليس كذلك يا دلزي ؟ »

فسكت جاسن ، فقالت دلزي : « هس، هس.»

قالت كادي : « مناماتنا هنـــا . ولوازمنا كلها . كأننا انتقلنا الى بيت آخر . »

قالت دلزي : « فالبسوها إذن . فكي ازرار جاسن . »
ففكت كادي ازرار جاسن ، فجعل يبكي .
قالت دلزي : « أتريد ان تُجلَد .» فسكت جاسن .
نادت امي وهي في البهو « كونتن »
ماذا ، قالت كونتن من وراء الجدار . وسمعنا امي تقفل الباب . وتطلعتْ من الباب فدخلت وانحنت فوق الفراش وقبّلتني على الجبين .
وقالت امي ، بعد ان تضعه في الفراش ، اذهب الى دلزي واسألها ان كان ثمة اعتراض على تهيئة قربة ماء حار لي . وقل لها ان كان لها اعتراض على ذلك فانني سأحاول ان اقضي الليلة بدونها . قل لها انني أريد ان أعرف جوابها .
فقال لستر ، نعم . هيا . انزع بنطلونك .
دخل كونتن وفيرش ، وقد أشاح كونتن بوجهه . قالت كادي : « ما الذي يبكيك . »
قالت دلزي : « هس . هيا ، انزعوا ثيابكم كلكم. أما انت يا فيرش، فتستطيع ان تذهب الى البيت . »
نزعتُ ثيابي ونظرت إلى نفسي ، فجعلت أبكي . فقال لستر، صه . من العبث ان تبحث عنهم . لقد راحوا . وإذا بقيت على هذه الحال فلن نقيم لك حفلة عيد ميلاد أخرى . ألبسني ثوبي ، فسكتُّ ، ثم وقف لستر ووجهه نحو النافذة . ثم ذهب إلى النافذة وتطلّـــع منها إلى الخارج . وعاد إليّ وأخذ بذراعي ، وقال ، ها هي قادمة . أسكت . فذهبنا إلى النافذة ونظرنا منها . فرأيناها تخرج من نافذة كونتن وتتعلق بالشجرة . ورقبنا الشجرة وهي تهتز . وسرى الاهتزاز سُفُلا في الشجرة ثم خرجت ورأيناها تبتعد على العشب. ثم ما عدنا نستطيع رؤيتها. فقال لستر، هيا بنا . لحظة . أتسمع الابواق . عليك بالفراش قبل أن أتناولك برجلي .
كان هنـــاك سريران . استلقى كونتن على السرير الآخر ، وأدار

وجهه نحو الجـــدار . ووضعت دلزي جاسن الى جانبه . ونزعت كادي فستانها .

قالت دلزي : « انظري الى سروالك . احمدي الله على ان امك لم ترك . »

قال جاسن : « لقد وشيت بها وانتهيت . »

قالت دلزي : « لا شك انك فعلت . »

قالت كادي « اترى ماذا جنيت بذلك ، يا نمّام . »

قال جاسن : « ماذا جنيت . »

قالت دلزي : « لماذا لا تلبسين منامتك . » وذهبت لتعين كادي على خلع قميصها وسروالها ، وقـــالت : « انظري الى نفسك . » وطوت السروال وجعلت تفرك به مؤخرة كادي ، وقالت : « لقد نفـذ الطين الى جسمك . ولكنك لن تنالي حماماً هـــذه الليلة . » ثم ألبست كادي منامتها وقفزت كادي الى فراشها وذهبت دلزي الى الباب ووقفت ويدها على الضوء . وقالت : « عليكم بالهدوء جميعاً ، أتسمعون . »

قالت كادي : « حسناً . لن تدخل علينا مامـــا الليلة . ولذا فعليكم ان تستمروا في إطاعتي . »

قالت دلزي : « نعم . والآن ناموا . »

قالت كادي : « ماما مريضة . هي وبابا ، كلاهما مريض . »

قالت دلزي : «هس. ناموا ، ناموا . »

واسودّت الغرفة ، فيما عدا الباب . ثم اسودّ الباب . وقالت كادي : « صه يا موري ، » واضعة يدها عليّ . فبقيت ساكتاً . وصرنا نسمع انفسنا . وجعلنا نسمع الظلام .

ثم راح الظلام ، ونظر أبي إلينا . نظر الى كونتن وجاسن ، ثم جاء وقبّل كادي ووضع يده على رأسي .

فقالت كادي : « هل ماما مريضة جداً . »

قال أبي : « كلا . استحسنين العناية بموري . »

قالت كادي : « نعم . »

وذهب ابي الى الباب ونظر إلينا ثانية . وبعد ذلك عاد الظلام ، ووقف أبي أسودَ في الباب، ثم اسودّ الباب ثانية . فأمسكت بي كادي وجعلت اسمع الجميع ، واسمع الظلام واخذت اشم شيئاً ما . ثم جعلت ارى النوافذ ، حيث كانت الأشجار تَغنّ ، وبعدها بدأ الظلام بالزوال في أشكال وهاجة ناعمة ، شأنه دائماً ، حتى حين كنت اغرق في النوم كما تقول كادي .

حزيران

٢
١٩١٠

عندما سقط ظلّ عارضة الشبّاك على الستائر ، كانت الساعة ما بين السابعة والثامنة ، لقد أفقت اذن في الوقت المطلوب ثانية ، وأنا اسمع الساعة . كانت تلك ساعة جدي ، وعندما أهداني اياها ابي قال : كونتن ، اني اعطيك ضريح الآمال والرغبات كلها . وانه لمن المناسب الى حد العذاب ان تستخدمها لتكسب النهاية المنطقية الحمقاء لاختبارات الانسان جميعها ، وهي التي لن تنسجم وحاجاتك الشخصية اكثر مما انسجمت وحاجات جدك أو ابيه.اني اعطيك اياها لا لكي تذكر الزمن ، بل لكي تنساه بين آونة وأخرى ، فلا تنفق كل ما لك من نَفَس محاولاً ان تقهر الزمن . لأن ما من معركة ربحها احد ، قال ابي . لا بل ما من معركة حارب فيها احد . فالميدان لا يكشف للمرء الا عن حماقته ويأسه ، وما النصر الا وهم من اوهام الفلاسفة والمجانين .

كانت الساعة مسندة الى صندوق الياقة ، وبقيتُ مستلقياً اصغي اليها.

اي ، اسمعها . فأنا لا أحسب ان احداً يصغي الى الساعة عن قصد . وهل بلك حاجة الى ذلك ؟ انك لتستطيع ان تغفل عن صوتها مــدةً طويلة ، واذا هي في ثانية من (التكتكـــة) تخلق في الذهن استعراضاً طويلاً متسلسلاً متلاشياً للزمن الذي فاتك ان تسمعه . وكما قال ابـي لكأنك ترى المسيح يمشي على مدى أشعة الضوء المديدة الموحشة.وكذلك مار فرنسيس ، ذلك القديس البارّ الذي كان يقول ايتها المنيّة يا اختي الصغيرة ، دون ان تكون له اخت .

من خلال الجدار سمعت رفّاص سرير « شريف » ، ثم نعليه وهما يشحطان على الارض . فنهضت وذهبت الى منضدة الزينة وتحسست بيدي صفحتها وأصبت الساعة ، فقلبتها على وجهها وعدت الى الفراش . غير ان ظل العارضة ما زال هناك ، وكنت قد تعلمت ان استدل به على الوقت بدقة تحدد حتى الدقيقة ، بحيث اضطر الى ان ادير له ظهري وانا أحس ان لي عيوناً كعيون الحيوانات التي كانت في مؤخرّ رؤوسها حين كان قذالها فوقها ، تحكّ وتضطرب . فالعادات التي تأسف لها دائماً هي عادات الكسل والخمول . ابـي قال ذلك . وقال ان المسيـــح لم يُصلب : انما استهلكته قرقعة دواليب صغيرة . ولم تكن له اخت .

وهكذا،حالما ادركت انني لا استطيع ان اراه ، جعلت أتساءل عن الوقت . وقد قال ابـي ان التكهن المستمر بشأن وضع عقربين آليـّيـْن على ميناء اعتباطي هو من دلائل وظيفة الذهن ليس الا افرازاً، كالعرق . هكذا قال ابـي . وانا اقول له : « لا بأس . » واعجب . ثم اعجب.

لو كانت السماء غائمة لنظرت الى النافذة متأملاً ما قاله في عادات الكسل والخمول . قائلاً لنفسي سيطيب لهم في « نيو لندن » ان يظل الطقس كذلك . ولمَ لا يظـــل . شهـــر العرائس ، الصوت اللاهث بـِ **طلعتْ راكضةً من المرآة ، من العِطر المكوّم . ورود . ورود . السيد جاسن رتشموند كمبسن وعقيلتـــه يعلنـــان زواجَ — ورود .**

لسن عذارى كبعض الزهور . قلتُ زنيت باحدى محارمي ، يا ابـي . ورود . ماكرة وهادئة باسمة . اذا التحقتَ بهارفرد لسنـة واحدة ، ولم تذهب لرؤية سباق الزوارق ، فينبغي ان يعيدوا إليك بعض الرسوم. فليأخذها جاسن . دعه يقضي سنةً في هارفرد .

وقف شريف في الباب وهو يلبس ياقته ، ونظّارته تتألـق ورديّةً كانما قد غسلها بوجهه . « اتغيب عن محاضرة هذا الصباح ؟ »

ــ « أتأخرنا كل هذا التأخر ؟ »

فنظر الى ساعته وقال : « بقي على موعد قرع الجرس دقيقتان . »

ــ « لم أعلم اننا تأخرنا كل هذا التأخر . »

كان ما زال ينظر الى الساعة ، وفمه يتكور . وقلت : «عـلـيّ أن اهرول . لا استطيع ان اغيب عن محاضرة اخرى . وقد قال لي العميد في الاسبوع الماضي ــ » وأعاد الساعة الى جيبه . فأمسكت عن الكلام .

ــ « الأفضل ان تلبس سروالك وتركض . » قال ذلك وخرج .

نهضت وذرعت الغرفة وأنا اصغي اليه من خلال الجدار . فدخل غرفة الجلوس في اتجاه الباب وقال : « ألم تتهيأ بعد ؟ »

ــ « لا . اسرع انت . سأصل في الوقت المحدد . »

وخرج . انغلق الباب . وابتعد وقع قدميـه في الرواق . ثم جعلت اسمع الساعة من جديد . فأقلعت عن ذرع الغرفة ، وذهبت الى النـافذة وفتحتُ الستائر لأرقبهم وهم يركضون الى الكنيسة، هم هم اذ يعاركون اردانهم الفضفاضة وهي هي اذ تعلو وتهبط ، حاملين الكتب نفسها ومرتدين الياقات المرفرفة نفسها منجرفين كالأسلاب على فيض الماء ، و« سبود » . هذا الذي دعا شريف بزوجي . دعه وشأنه ، قال شريف ، فإن كان كل ما لديه من عقل لا يستحثه الاّ على مطاردة الرخيصات القذرات ، فما همنا ؟ في « الجنوب » ينتابك الخجل ان كنت ذا عذرة . والصبيْةُ والرجال كلهم يكذبون بشأن ذلك . لأن البكارة أقلّ شأنـاً في نظر

النساء ، هكذا قال ابي . وقال أيضاً ان الرجال هم الذين اخترعوا البكارة ، لا النساء . وقد قال أبي إنها كالموت : مجرد حالة يبقى فيها الآخرون ، فقلت ، ولكن ان تعتقد بأنها لا تهم ، فقال: هذا ما يحزننا من اي أمر مهما يكن ، لا البكارة وحدها ، فقلت : ولمَ لم يتفق ان أكون أنا الذي فقدت البكارة لا هي ، فقال : ذلك هو السبب في ان هذا أمر محزن أيضاً ؛ ما من شيء يستحق حتى التبديل والتغيير ، وقال شريف ان كان كل ما لديه من عقل لا يستحثه الاّ على مطاردة الرخيصات القذرات وقلت له : هل كانت لك أخت قط ؟ تكلم . تكلم .

كان « سبود » في وسطهم كالسلحفاة في طريق يعج بأوراق ميتة تجرفها الريح ، يمشي وياقته حول أذنيه مشيته الوئيدة المألوفة . كان طالباً في الصف المنتهي ، من أبناء كارولاينا الجنوبية . وكان من دأب النادي الذي ينتمي اليه ان يتباهى بأنه لم يركض قط ذهاباً الى الكنيسة وانه لم يصلها يوماً في الوقت المحدد وانه لم يغب يوماً طوال السنوات الأربع ولم يبلغ قط الكنيسة او المحاضرة الأولى لابساً قميصاً على ظهره أو جورباً على قدمه . فهو في حوالي الساعة العاشرة يأتي الى مطعم «طومبسن» فيتناول قدحين من القهوة ، ويجلس ثم يخرج جوربيه من جيبه وينزع حذاءيه ويلبسها ريثما تبرد القهوة . ولدى الظهر تراه لابساً قميصاً وياقةً كغيره من الطلاب . فكان الآخرون يمرون به راكضين ، غير انه لم يسرع في خطوه قط . وبعد لحظات كان الفناء خالياً .

هبط عصفور عبر نور الشمس وحطّ على عتبة النافذة، ورفع رأسه اليّ . كانت عينه مستديرة براقة . وكان يرقبني أولاً بعين ، واذا هو يرقبني بالأخرى ،وحنجرته تضخّ بأسرع من أي نبض . وبدأت الساعة تدقّ. فأقلع العصفور عن نقل عينيه وراح يرقبني في ثبات بالعين نفسها الى ان انتهت الدقات الرنانة ، كأنه كان يصغي اليها هو أيضاً . ثم

رف عن العتبه وطار .

ومرت برهة قبل ان تكفّ الدقة الأخيرة عن الرنين. وبقيت في الهواء محسوسةً اكثر منها مسموعة مدة طويلة . كأنما الأجراس كلها التي دقت فيما مضى بقيت ترنّ في أشعـــة الضوء الطويلة المحتضرة والمسيح ومار فرنسيس يتحدث عن أخته لأنهالوكانت مجرد السقوط إلى الجحيم ، لو كانت ذاك وانتهت . انتهت . لو كانت الأمور تنهي نفسها بنفسها . وما من أحد آخر سواها وسواي . لو أننا استطعنا ان نأتي إثماً مريعاً . فيهربوا جميعاً من الجحيم إلاّنا . **قلت لقد زنيت باحـــدى المحارم يا أبـي أنا الذي فعلتها لا « دالتن ايمز »** . وعندما وضع دالتن ايمز . دالتن ايمز . دالتن ايمز . عندما وضع المسدس في يدي لم أفعلها . والسبب في احجامي هو انه سوف يكون هو هناك وكذلك هي وكذلك انا . دالتن ايمز . دالتن ايمز . دالتن ايمز . لو أننا استطعنا أن نأتي إثماً مريعـاً . فقال أبـي : وذلك أيضـــاً امر محزن ، فالناس لا يستطيعون أن يأتوا إثماً على ذلك القدر من الروع بل انهم لا يستطيعون أبداً أن يأتوا اثماً مريعاً جداً فهم غداة الغـــد لا يذكرون ما كان مريعاً اليوم ، فقلت يستطيع المرء ان يتنصل من كل شيء فقال : أيستطيع حقاً . ولسوف انظر إلى القرار وأرى عظامي المغمغمة والماء العميق كالريح ، كسقف من الريح ، ولن يستطيعوا بعد زمن طويل أن يتبينوا حتى العظام على الرمال البكر الموحشة. حتى يوم يقول الله « **قوموا** » لن يطفو إلى السطح إلاّ المكواة . ليس الأمر ان تـــدرك ان لا شيء ثمة يسعفك — لا الدين ولا الكبرياء ولا أي شيء آخر بل ان تدرك أنك لست بحاجة الى أي عون . دالـتن ايمز . دالتن ايمز . دالتن ايمز . لو انني كنت أمــــه مستلقية معرّضة الجسد ترفع نفسها ضاحكة ، امسك بأبيه بيدي محجماً ، رائياً ، ناظراً إياه يموت قبل ان يحيا . **وقفتُ في الباب دقيقة** .

ذهبت الى منضدة الزينة وتناولت الساعة ، ووجهها لما يزل الى أسفل.

وقرعت بلّورها على زاوية المنضدة وأمسكت بحطام الزجاج في كف يدي وأفرغتــه في المنفضة ثم نزعت العقربين ووضعتها في المنفضة . وبقيت الساعة تدق . وجعلتُ وجهها إلى فوق ، لأرى الميناء الفارغ بما وراءه من دواليب دقيقة تتكتك ، غير عارف ما أفعــل غير ذلك . والمسيح يمشي على بحيرة الجليل وواشنطن يرفض ان يكذب . لقد عاد أبـي مرة من معرض سان لويس ومعــه تميمة لجاسن : منظار صغير تحدّق فيه بعين واحـدة فترى ناطحة سحاب ، ودولاب هواء أشبه بالعنكبوت ، وشلالات نياغارا على رأس دبوس . رأيت لطخة حمراء على الميناء . فأخذ ابهامي يتألم . فوضعت الساعة من يدي وذهبت الى غرفة شريف وجلبت اليود وصبغت بـــه الجرح . وأخرجت بقية قطع الزجاج من الحواف بالمنشفة .

أخرجت طقمين من الثياب الداخلية،مع الجوارب والقمصان والياقات والأربطة ، وحزمتها في حقيبتي الكبرى . لقد وضعت فيهـا كل شيء فيما عدا بدلتي الجديدة واخرى قديمة وزوجي أحذية وقبعتين، وكتبي . وحملت الكتب إلى غرفة الجلوس وكوّمتهـا على المنضدة ، تلك الكتب التي كنت احضرتها معي من البيت وتلك التي **قال أبـي كان السيّد يُعرف فيما مضى بكتبه ؛ أما اليوم فيعرف بالكتب التي لم يُعِدْها لاصحابها** وأقفلت الحقيبة وعنونتُها . ودقّت الساعة في ربع دورتها . فتوقفت وأصغيت الى أن تلاشى الرنين .

استحممتُ وحلقت . وقد آلم الماء اصبعي قليلاً ، فصبغته ثانيـة . ثم ارتديت بدلتي الجديدة ولبست ساعتي وحزمت البدلة الأخرى والملحقات وآلة الحلاقة والفُرَش في حقيبتي اليدوية ، ولففت مفتاح حقيبتي الكبرى في ورقة وضعتها في غلاف كتبت عليه عنوان أبـي ، وكتبت الرسالتين المقتضبتين وجعلت كلاً منها في غلافها .

لم يكن الظل قد انقشع كله عن شرفة المدخل ، فوقفت داخل الباب

أرقب الظلّ يتحرك . فهو يكاد يتحرك مرئياً ، زاحفاً الى الخلف الى ما هو داخل الباب ، دافعاً بالظل الى داخل الباب . غير انها كانت قد بدأت بالركض عندما سمعتُه . وفي المرآة كانت تركض قبل ان أدرك ما هو . بسرعة ، وقد رفعت أذيالها على ذراعها خارجةً من المرآة كسحابة ، ونقابها يدوّم في لُمَعٍ مستطيلة وكعباها هشّان منطلقان ، قابضة على ثوبها لصق كتفها باليد الأخرى ، خارجة من المرآة . الروائح الورود الورود الصوت الذي ضوّعت أنفاسه في أرجاء جنة عدن . ثم عبرتْ الشرفة ولم أستطع سماع كعبيها ثم اقتحمتْ ضوء القمر أشبه بسحابة ، وظل نقابُها العائم يجري عبر العشب ، الى وسط الجئير . وانطلقت من ثوبها ، ممسكة بنقاب الزفاف ، الى وسط الجئير حيث تي بي في الندى الله الله الشراب وبنجي تحت الصندوق يجأر . كان لابي درع فضي في شكل ٧ على صدره الراكض .

قال شريف : « لم تأتِ الى المحاضرة ... ما هذا ، أعرس أم جنازة ؟ »

قلت : « لم أستطع . »

— « وكيف تستطيع بكل هذا الهندام والتزويق . ما الأمر ؟ أظننت ان اليوم الأحد ؟ »

فقلت : « لست احسب ان الشرطة ستعتقلني لانني ارتديت بدلتي الجديدة ذات مرة . »

— « كنت افكر في طلاب « الميدان » * . هل جعلت تأنف من حضور المحاضرات أيضاً ؟ »

— « اريد ان آكل أولاً . » كان الظل قد انقشع عن الشرفة . فخطوتُ الى ضوء الشمس ، لاجد ظلي ثانية . ونزلت الدرجات وهو على عقبي . ودقّ نصف الساعة . ثم توقفت الرنّات وتلاشت .

---

* ميدان هارفرد ، وهو القلب من مدينة كمبردج ، ماساشوست . (المترجم)

لم يكن « الشماس » في دائرة البريد أيضاً . ألصقت الطوابع على الغلافين ، وحولت أحدهما الى ابي ووضعت رسالة شريف في جيبي الداخلي ، ثم تذكرت متى رأيت الشماس لآخر مرة . كان ذلك يوم منح الاوسمة ، وقد ارتدى بزّة « جيش الجمهورية الاعظم » ، وسط العرض العسكري . فلو انتظرت بعض الشيء عند أي منعطف لرأيته في اي عرض عسكري قادم . فالعرض السابق جرى يوم عيد ميلاد كولومبس او غاريبالدي او غيرهما . لقد كان في فرقة « كناسي الشوارع » ، يلبس قبعة كالمدخنة ، ويحمل علماً ايطالياً طوله بوصتان ، وهو يدخّن سيجاراً بين المكانس والمكارف . غير ان آخر عرض له كان عرض « جيش الجمهورية الأعظم » ، لأن شريف قال اذ ذاك :

« اليك به ! أنظر كيف جنى جدك على ذلك الزنجي المسكين . »

فقلت : « نعم . ان بوسعه الآن ان يقضي اليوم تلو اليوم سائراً في الاستعراضات . ولولا ما جناه جدّي لكان عليه ان يشتغل كالقوم البيض . »

لم اره في أي مكان . الا انني لم اعرف قط زنجياً تراه عندما تريده، حتى ولو كان من الذين يشتغلون ، ناهيك عن الذين ينعمون بخيرات الارض دونما شغل . جاءت احدى سيارات الباص، فاستقللتها الى المدينة وذهبت الى مطعم باركر وتناولت فطوراً طيباً . وبينما كنت آكل سمعت الساعة تدق . فلا بد للمرء ، ولا ريب ، من ساعة واحدة على الأقل يفقد فيها شعوره بالوقت ، وهو الذي قضى زمناً أطول من التاريخ في محاولته الانسجام مع سيره الآليّ .

عندما انتهيت من افطاري اشتريت سيجاراً . قالت الفتاة ان الواحد من افضل انواع السيجار يباع بخمسين سنتاً ، فأخذت واحداً وأشعلته وخرجت الى الشارع . ووقفت هناك وسحبتُ نَفَسين ، ثم أمسكته بيدي ومشيت باتجاه المنعطف . فمررتُ بنافذة ساعاتيّ ، ولكنني أشحت

عنها قبل ان يفوت الأوان . وعند المنعطف احاط بي اثنان من صبّاغي الأحذية ، كل من جانب ، يصيحان وينعقـــان ، كغرابين اسودين . فأعطيت احدهما السيجار والآخر عشرة سنتات . فتركاني وشأني ، وراح صاحب السيجار يحاول بيعه للآخر بالسنتات العشرة .

كانت هناك ساعة كبيرة ترتفع شاهقة في ضياء الشمس . فخطر لي ان المرء اذا ما أعرض عن فعل شيء ما ، دفعه جسده بالحيلة الى فعله، وكأنه لا يعي . لقد جعلت اشعر بالعضلات في مؤخر عنقي ، ثم جعلت اسمع الساعـــة تتكتك في جيبي ، وبعد لحظات حبستُ عني الاصوات الاخرى جميعها غير مُبْقٍ إلاّ على الساعـة التي في جيبي . فاستدرت في الشارع ، عائداً الى النافذة . وكان الساعاتي يعمل على المنضدة خلف النافذة . وكان بادي الصلع . وفي عينه منظرة انبوب معدني ممسمر في وجهه . ودخلت .

كان المكان يضج بالتكتكة ، كالزيزان بين حشائش أيلول، وسمعت ساعة كبيرة على الحائط فوق رأسه . فرفع رأسه نحوي ، وعينه كبيرة غائمة دافقة وراء المنظرة . اخرجت ساعتي وناولته إياها .

— « لقد كسرت ساعتي . »

فقلبها في يده وقال : « اي والله لقد كسرتها . لا بد انك دست عليها . »

— « نعم يا سيدي . اوقعتها عن المنضدة ودست عليها في الظلام . ولكنها ما زالت تدور . »

فأعمل عدته في ظهرها وفتحها وسلّط عليها عينه . « تبدو صالحة. ولكن لا استطيع التأكد حتى أفحصها . سأفحصها بعد الظهر . »

فقلت : « سآتي بها اليك فيما بعد . قل لي من فضلك ، هل بين هذه الساعات التي في النافذة ساعة مضبوطة . »

فأمسك بساعتي في كفه وصوّب نحوي عينه الغائمة الدافقة .

فقلت : « لقد راهنت أحد الناس . ونسيت نظارتي هذا الصباح . »
قال : « لا بأس ، لا بأس . » ووضع الساعة عنه وقام نصف قومة عن مقعده ونظر عبر الحاجز . ثم رفع عينه الى الجدار . « إنها الـ — »
فقاطعته : « لا تقل لي ، ارجوك يا سيدي . ما عليك إلا أن تخبرني ان كانت احداها مضبوطة . »
فنظر إليّ ثانية ، واستوى على مقعده ورفع منظرته إلى جبينه ، فخلّفت حلقة حمراء حول عينه ، ولما زالت بان وجهه بتمامه كأنه عار أجرد . وقال : « ما الذي تحتفل به اليوم ؟ سباق الزوارق لن يكون حتى الاسبوع القادم . اليس كذلك ؟ »
— « بلى يا سيدي . هذا احتفال خاص . عيد ميلاد . هل بين ساعاتك ساعة مضبوطة . »
— « كلا . لأنها لم تنظّم وتضبط بعد . فان كنت تنوي شراء احداها . »
— « كلا يا سيدي . لست بحاجة الى ساعة . ففي صالوننا ساعة كبيرة . وسأصلح هذه . » ومددت يدي .
— « خير لك ان تبقيها لدي . »
— « سأعيدها فيما بعد . » فناولني الساعة ، ووضعتها في جيبي . وما عدت اسمع صوتها بين اصوات الساعات الأخرى كلها . « شكراً جزيلاً . أرجو الا اكون قد بددت وقتك . »
— « لا بأس . أحضرها عندما تريد . او ليس الأفضل ان تؤجل احتفالك الى ان نكسب سباق الزوارق ؟ »
— « معقول جداً ، يا سيدي . »
وخرجت ، مغلقاً الباب على التكتكة . ولما ادرت وجهي نحو النافذة رأيته يرقبني من وراء الحاجز . كان في النافذة حوالي عشر ساعات، عشرة أوقات مختلفة ، ولكل منها ما لساعتي دون عقاربها من تأكيد

جازم متناقض . الواحدة تناقض الاخرى . كنت اسمع ساعتي تتكتك في جيبي ، وإن لم يكن ثمة من يستطيع رؤيتها ، وان لم يكن ثمة ما تستطيع قوله حتى لو ان احداً رآها .

وهكذا قلت لنفسي ان خذ تلك الساعة . لأن ابي قال ان الساعات تنحر الزمن . لقد قال ان الزمن ميّت لا محالة ما دام مفتتاً بدواليب صغيرة ؛ ولن تعود الحياة الى الزمن الا عندما تقف الساعة . كان العقربان ممتدين افقياً بانحراف طفيف ، أشبه بنورس يطعن الريح . وهما مثقلان بكل ما أسيتُ له كالهلال مثقلاً بالماء ؛ على حد قول الزنوج. لقد عاد الساعاتي الى عمله ثانية مطأطيء الرأس فوق منضدته، والانبوب متسمر في وجهه . وشعره مفروق في الوسط ، ويمتد الفرق فيه الى البقعة الصلعاء ، كمستنقع مجفف في شهر كانون .

رأيت حانوت الادوات الحديدية عبر الشارع . لم اكن أدري انكم تشترون المكاوي بالرطل .

فقال الكاتب : « وزن هذه عشرة أرطال . » غير انها كانت اكبر حجماً مما توقعت . فأخذت اثنتين صغيرتين، زنة كل منهما ستة ارطال، لأنهما تبدوان أشبه بحذاءين مرزومين . وقد أحسست بهما ثقيلتين معاً ، غير انني تذكرت من جديد ما قاله أبي عن النهاية المنطقية الحمقاء لتجربة الانسان ، متأملاً في الفرصة الوحيدة التي اتيحت لي فيما يبدو لتطبيق ما تعلمته في هارفرد . قد افعل ذلك بنهاية السنة التالية ، قائلاً لنفسي لعل المرء يحتاج إلى سنتين من الدراسة الجامعية قبل ان يجيد فعل ذلك .

لقد كانتا ثقيلتين في الهواء .جاءت الحافلة فركبتها ، دون ان أرى اللافتة التي في مقدمتها . كانت مليئة بالركاب ، وجلّهم ممن يبدو عليهم اليسار ، يقرأون الصحف . وكان المقعد الخالي الوحيد بالقرب من زنجيّ ، يلبس قبعة « دربي » وحذاءين مصبوغين، وقد أمسك بعقب

الحافلة هنا ضرب من « الترام » وقد تكون واحدة من حافلات مقطورة معاً « المترجم »

سيجار مطفأ . كنت اعتقد فيما مضى ان « الجنوبي » ينبغي عليه دائماً ان يكون شاعراً بوجود الزنوج ؛ ظاناً ان « الشماليين » يتوقعون منه ذلك . فلما جئت الى الشرق* لأول مـــرة جعلت أردد لنفسي « عليك ألا تنسى ان تنظر اليهم كملونين لا كزنوج عبيد » ولو لم يتفق انني ما ألفيت نفسي مع الكثير منهم ، لأضعت الكثير من الوقت والجهـــد قبل ان أعلم ان افضل الطرق في النظر الى الناس جميعاً ، البيض منهم والسود على السواء ، هي ان تنظر اليهم وفق نظرتهم الى انفسهم ، ثم تدعهم وشأنهم . وكان عنـــد ذلك ان ادركت ان الزنجي ليس شخصاً بقدر ما هو ضرب من السلوك ، كأنه الانعكاس المقابل للاناس البيض الذين يعيش بينهم . ولكنني حسبت بادىء الامر ان لا بد لي ان افتقد وجود الكثيرين منهم حولي إذ خلت ان الشماليين يخالونني افتقدهم، غير انني في الواقع لم افتقد رسكوس ودلزي والآخرين حتى صباح ذلك اليوم في فرجينيا . أوقف القطار ، فأفقت ورفعت مظلة النافذة ونظرت إلى الخارج . كانت الحافلة تسد تقاطع السكة بالطريق ، حيث كان سياجان ابيضان ينحدران مع التل ثم ينأيان سُفُلاً كقرن لم يبق من هيكله إلا بعضُه ، وكان هناك زنجي راكباً بغلاً وسط الأخاديد المتصلبة ينتظـــر تحرّك القطار . لم أعرف كم قضى في مكانه ذاك من وقت ، غير انه امتطى بغله كاسياً رأسه بقطعة من بطانية ، فكأنهما قد بُنيا هناك مـع السياج والطريق ، او مع التل ، كأنهما قد نحتا من التل نفسه، كلافتة أقيمت هناك تقول : انك بين أهلك من جديد . لم يكن تحته سرج ، فتدلّت قدماه حتى كادتا تلامسان الارض . اما البغل فكان اشبه بالأرنب. ورفعت النافذة .

وقلت : « اسمع يا عم . هل هذه هي الطريق ؟ »

---

* يقصد بالشرق الساحل الشمال الشرقي من الولايات المتحدة، حيث توجد ولاية « نيو انجلند »، واهم مدنها بوسطن التي تقع بقربها مدينة كمبردج مقر جامعة هارفرد . (المترجم)

— « ماذا يا سيدي ؟ » نظر الي ّ ثم حل ّ البطانية ونحاها عن اذنه .
قلت : « خذ هذا هدية لعيد الميلاد ! »
— « اي والله ان العيد قادم . لقد أمسكت بـي ، اليس كذلك ؟ »
— « سأخلي سبيلك هذه المرة . » وسحبت سروالي من السرير الصغير المعلق وأخرجت منه ربع دولار . « ولكن خذ الحذر في المرة التالية . سأعود وأمر من هنا بعد رأس السنة بيومين ، فخذ اذ ذاك الحذر . » وقذفت بالربع اليه من النافذة، قائلاً : « اشترِ لك هدية لعيد الميلاد . »
فقال : « نعم يا سيدي . » وترجل والتقط الربع وفركه على ساقه. « شكراً يا سيدي الشاب ، شكراً . » ثم بدأ القطار يتحرك . فأخرجت رأسي من النافـذة الى الهواء البارد ، ونظرت الى الخلف . لقد ظل واقفاً هناك قرب بغله الضامر الشبيه بالارنب ، كلاهما رث ساكن غير نافد الصبر . وانعطف القطار في المنحنى ، والقاطرة تنفث نفثات ثقيلة قصيرة ، وتلاشيا عن الانظار تلاشياً ناعماً ، وقد علتهما سيماء صبر رث ّ لا يعرف الزمن ، هدأة سكونية لا تعرف القلق : انه ذلك المزيج من العجز الصبياني المتهيء والأمانة المناقضة لنفسها ، وهو مزيج يحنو عليهما ويدافع عنهما، مزيج يحب حباً يخرج على العقل ويسلبهما على مهل ويراوغ المسؤولية والواجب بوسائل اجهر من أن تسمى حتى بالخديعة ولا يؤخذ في السلب او المراوغة الا بذلك الاعجاب التلقائي الصريح بالمنتصر ، الذي يحسه المرء الكريم ازاء من يغلبه في مسابقة عادلة ، ويرافق ذلك كله تسامح كَلِف ٌ لا يتقاعس ازاء اطوار القوم البيض الغريبة كتسامح الجد ّ ازاء اطفال مزعجين ينضحون بكل ما لا يُستطاع توقعه — وهو تسامح كنت قد نسيته . واذ جعل القطار ينساب خلال الفجوات الدافقة وازاء التلاع الصخرية حيث كانت الحركة مجرد صوت مكدود من النافذة والعجلات مرسلة الانين والجبال الازلية تتلاشى في الفضاء الكثيف، رحت طوال ذلك اليوم افكر ببيتنا وبلدتنا ، بالمحطة القفراء والطين والزنوج

واهل الريف يزدحم الميدان بهم شيئاً فشيئاً ، والمكان يعج بدمى القرود والعربات والحلوى في الأكياس والشموع الكبيرة ناتئة هنا وهناك ، فتتحرّك أحشائي كما كانت تتحرك في المدرسة كلما دق الجرس .

لم اكن اشرع في العدّ حتى تدق الساعة ثلاثاً . ثم اروح اعد حتى الستين ، طاوياً احد اصابعي ومفكراً بالأصابع الأربع عشرة الأخرى التي تنتظر أن اطويها ، او الثلاث عشرة او الاثنتي عشرة او الثماني أو السبع ، الى أن أدرك على حين غرة الصمت والأذهان اليقظة ، فأقول: « نعم يا ست ؟ » فتقول الست لورا: « اسمك كونتن ، أليس كذلك؟» ويلي ذلك مزيد من الصمت والأذهان اليقظة القاسية والأيدي المنتفضة صمتاً . « قل لكونتن من اكتشف نهر المسيسبي ، يا هنري . » « دي سوتو . » ثم تذهب عني الأذهان ، وبعد برهة تساورني الخشية من انني تأخرت عن الآخرين فأسرع في العدّ وأطوي اصبعاً آخر ، ثم اخشى ان اكون بالغت في السرعة فأبطىء ، ثم أخاف وأسرع في العد مرة أخرى . وهكذا لم أفلح يوماً في الخروج متكافئاً مع الجرس ، وطوفان الأقدام التي سرعان ما تتحرّك ، شاعراً بتراب الارض المشحّطة ، والنهار كلوح زجاج أصابته ضربة حادة خفيفة ، فتتحرك أحشائي ، ساكناً في جلستي . متحركاً ساكناً في جلستي . **وقفت في الباب دقيقة. بنجي يعيط . بنجامين ابن شيخوختي يعيط . كادي ! كادي !**

سأهرب . فجعل يبكي فذهبت ولمسته . صه . لن أهرب . صه . فسكت . يا دلزي .

إنه يشم ما تريدين ان تقوليه له عندما يريد . فلا حاجة به الى الاصغاء او الكلام .

أيستطيع ان يشمّ هذا الاسم الجديد الذي أطلق عليه ؟ أيستطيع أن يشمّ سوء الحظ .

ولِمَ يزعج نفسه بالحظ ؟ لن يؤذيه الحظ في قليل او كثير .

اذن لماذا غيّروا اسمه إن لم يكونوا يحاولون اسعاف حظه ؟

وقف القطار ، وسار ، ووقف ثانية . فرحت أرقب من النـــافذة أعالي رؤوس السابلة تحت قبّعات القش التي ما حالت الوانها بعد . ثم كان هناك في القطار نساء يحملن السلال ، وبدأ عدد الرجال المرتدين ثياب العمل يزيد على عدد الأحذية المصبوغة والياقات البيضاء .

لمس الزنجي ركبتي وقال : « العفو . » فدفعت ساقيّ جانباً لأفسح له مجال المرور . وكنا الآن نسير بمحاذاة جدار أصمّ يرجّع قرقعة السيارة إليها ، إلى النساء الرافعات سلالهن على الركَب ورجلٍ ملوّث القبعة غرز في رباطها غليونه . ثم جعلت اشمّ رائحة ما ، وفي فجوة في الحائط لمحت بَريقَ مـــاء وساريتين ، ونورساً ساكناً في الفضاء ، كأنه قائم على سلكٍ غير مرئيّ بين الساريتين ، وعندهـــا رفعت يدي وتحسست من خلال سترتي الرسالتين اللتين كتبتُهما . وعندما وقف القطار ، نزلت منه .

كان الجسر مفتوحاً لاحد المراكب . وتجرّ المركب ساحبةٌ تنخزه على جانب من مقدمتـــه ، والدخان يتصاعد منها ، أما المركب نفسه فكأنه ينساب دونما وسيلة تُرى . وكان يقف في مقدمة المركب رجل عار حتى الخصر يلفّ حبلاً ، وجسمه ملوّح بلون ورقة التبغ . وعند الدفـــة رجل آخر يلبس قبعة قش لا سقف لها . نفذت السفينة خلال الجسر منزلقةً تحت الأعمـــدة العارية كطيفٍ في رابعة النهار ، وفوق المؤخرة تحوم نوارس ثلاثة كالدُّمى .

وعندما انغلق الجسر عبرته الى الضفة الأخرى واتكأت عـلى السياج المشرف على بيوت الزوارق . كانت العوّامة مهجورة والابواب مغلقة . فالمجذفون في مثل هذا الحين يخرجون عصراً ، ويستريحون قبل ذلك . ظِلُّ الجسر ، وظل طبقات السياج ، وظلي مستلقياً على الماء — مـــا أسهل ما خدعته فما عاد يهجرني ! خمسون قدماً على الأقل ، فيا ليت

لديّ **شيئاً** أغمره به في المـــاء ممسكاً به الى ان يغرق ، وظلّ الطرد كحذاءين مرزومين مُلقىً على الماء. يزعم الزنوج ان ظل الغريق يترقبه في الماء طيلة الوقت الى ان يغرق . كان يتألق ويتلألأ ، كأنه يتنفس، والعوامـــة بطيئة كالتنفس أيضاً ، والأسلاب نصف مغمورة ، تنساب أعقابهـــا نحو البحر وكهوف البحر ومغاوره . إن وزن الماء الذي يحل محلّه كيت يساوي كيت وكيت . النهاية المنطقية الحمقاء للتجربة الانسانية كلها ، ومكواتان مسطحتان تزن كلتاهما ستة أرطال ، همـا معاً أثقل من مكواة خياط فحمية واحدة . يا للتبذير الآثم ، كما تقول دلزي . لقد عرف بنجي ان جدتي ماتت . فبكى . **لقد** شمّ **الواقعة . شمّها .**

عادت الساحبة نزلاً باتجاه التيار وهي تقصّ المـاء اسطوانات طويلة تتدحرج وتهز العوامة أخيراً بترجيع مرورها،وتترنح العوامة على الاسطوانة المتدحرجة ببقبقة وصريف طويـــل ناشز حينما انجر الباب وبرز رجلان يحملان قارباً صغيراً ، وضعاه في الماء ، وبعد برهة خرج جرالد بلاند ومعه المجاذيف . كان يلبس سروالاً من الفلانلة،وسترة رمادية ، وقبعة قش صلبة . لقد قرأ هو أو قرأت أمّه ، ذات مرة في مكان مـا أن الطلاب في اكسفورد يجـــذفون لابسين بنطلونات الفلانلة وقبعات القش الصلبة ، فكان ان اشتريا لجيرالد في اوائل آذار من احدى السنين قارباً بمجذافين فغدا الى النهر بالفلانلة والقبعة الصلبة . ورغم أن جميع الذين كانوا في دور الزوارق هددوه باستدعاء الشرطة ، الا أنـه استمرّ في تجذيفه . وقد جاءت أمـــه في سيارة مكتراة ، مرتدية بذلة من الفراء أشبه ببذلة مستكشف قطبي ، وودّعته في ريح سرعتها خمسة وعشرون ميلاً في الساعة ، في غمرة قطيع من كُتَل الجليـــد المنسابة كالخراف القذرة . ومنذ ذلك الحين آمنت بأن الله ليس رياضياً وسيداً مهذباً فحسب، بل انه من ولاية كنتاكي أيضاً . ولما اقلع وابتعد حـادت عن الطريق وانحدرت الى النهر ثانية وراحت تسوق سيارتها ببطء بموازاته . فقـالوا

لو رأيتهما عندئذ لما حسبت ان الواحد منهما قد شاهد الآخر من قبل ابداً، كأنهما ملك وملكة ، لا يتبادلان النظرات ، وهما منطلقان جنباً الى جنب عبر ولاية ماساشوستس في مدارين متوازيين ككوكبين في الفضاء .

جلس في قاربه ، وأخذ يجذّف . انه يجيد التجذيف الآن . ولا بد له من ذلك . فقد زعموا ان أمه حاولت ان تصرفه عن التجذيف ليفعل شيئاً آخر لا يفعله ، أو يعجز عن فعله بقية طلاب صفه ، غير انه ركب رأسه هذه المرة بعناد ان جاز لنا ان نصف بالعناد جلسته المتكررة تلك في أوضاع من سأم الأمراء، بشعره الأصفر الجعد وعينيه البنفسجيتين وأهدابه الطويلة وملابسه النيويوركية ، وقد استرسلت أمه العزيزة في التحدث الينا عن خيول جرالد وزنوج جرالد ونساء جرالد . ولا ريب في ان الآباء والأزواج من أهل كنتاكي حمدوا الله وشكروه الف مرة عندما دفعت جرالد الى كمبردج . وقد كانت لها شقة في المدينة ، كما كانت لجرالد أيضاً شقة ، عدا غرفتيه في الكلية . وقد وافقتْ على معاشرته اياي لأنني ، على الاقل ، كشفت عن حس فيّ غير هادف بضرورة نبل التصرف مدفوعاً بكوني قد ولدت جنوبي خط ماسن وديكسن، وكان ثمة نفر آخر تتمتع جغرافيته بالمؤهلات المطلوبة (الحدّ الادنى منها) . لقد غفرتْ له ذلك ، على الاقل . أو غضت النظر عنه . بيد انها منذ ان التقت بسبود خارجاً من الكنيسة وقال انها ليست من كرائم السيدات فكرائم السيدات لا يخرجن من بيوتهن في مثل تلك الساعة من الليل ، لم تستطع قط ان تغفر له انّ له أسماء خمسة، بما فيها لقب إحدى أسر الدوقات الانجليزية . ويقيني انها عزّت نفسها عندئذ باعتقادها بأن رجلاً ما من آل مينغولت او مورتيمار تمرد يوماً على اسرته وتورط مع ابنة حارس القصر . وذلك امر جدّ محتمل ، سواء أكان من اختراعها أم لم يكن . فلقد كان سبود بطل العالم في التسكع ، دون قيد أو شرط .

أضحى القارب الآن نقطة بعيدة ، والمجذافان يلتمعـــان في الشمس بانتظام ، كأن القارب يسيّر نفسه بالغمزات .

هل كانت لك أخت قط ؟ لا ، ولكن كلهن عواهر .

هل كانت لك أخت قط ؟ كانت لدقيقة . عواهر .

لا عاهرة وقفت في الباب دقيقة . دالتن إيمز . دالتن إيمز . قمصان دالتن . كنت دائماً أظنهـا من الخاكي ، من خاكي الجيش ، الى ان وجدت انها من الحرير الصيني الثقيل أو من أجود اصناف الفلانلة لانها تزيد من سمرة وجهه وزرقة عينيه . دالتن إيمز . لقد كاد يكون نبيل المحتد . من اثاث المسرح . ورق مقوّى ، فإذا ما لمسته ــ آه، اسبست . وليس بالبرونز تماماً . **ولكن لن تراه في البيت .**

تذكر ان كادي أيضاً امرأة . ولا بد لها من ان تفعل ما تفعـــل لاسباب نسائية أيضاً .

لمَ لا تَدْعينه إلى البيت يا كادي؟ لماذا تفعلين ما تفعله نساء الزنوج في المرعى والخندق والاحراش المظلمة متخفية عنيفة ملتهبة في الاحراش المظلمة .

وبعد مدة كنت أصغي الى ساعتي وجعلت أحسّ الرسالتين تخشخشان خلال سترتي ، لصق السياج . واتكأت على السياج أرقب ظلي، وكيف خدعته . ومشيت بمحاذاة السياج ، غير ان بدلتي أيضاً كانت قاتمـــة وبوسعي مسح يديّ وأنا ارقب ظلي ، وكيف انـني خدعته . ودخلت ظل رصيف المرفأ ثم سرت شرقاً .

هارفرد ابني الذي في هارفرد هارفرد هارفرد ذلك الطفـــل الانمش الوجه الذي التقته يوم العرض الرياضي حاملاً شرائط ملونة . متلصصاً لصق السياج محاولاً ان يدعوها اليه بالصفير ، كالجرو . ولإخفاقهم في اغرائه بالدخول الى غرفة الطعام اعتقدت امي ان في حوزته تعويذة ما سحرية سيسلطها عليها حالما يختلي بها . ولكن أي نذل **كان مستلقيـــاً**

قرب الصندوق تحت النافذة منخرطاً في العويل بوسعه ان يأتي في سيارة « ليموزين » وفي عروته زهرة . هارفرد . يا كونتن هذا هربرت . ابني الذي في هارفرد . سيكون لك هربرت أخاً أكبر وقد وعد جاسن بوظيفة في المصرف .

يضجّ بالمرح ، لكأنه صنع من غشاء ملون ، كالسماسرة . وجهه كله أسنان ، اسنان بيضاء بغير ابتسام . لقد سمعت به هناك . كله اسنان ولكن بغير ابتسام . هل ستسوقين أنت ؟

إركب يا كونتن .

هل ستسوقين أنت .

إنها سيارتها ألست فخوراً بأن أختك الصغيرة تملك أول سيارة في المدينة هدية من هربرت . مرّ زمن ولويس يعطيها دروساً كل صباح ألم تبلغك رسالتي يتشرف السيد جاسن ريتشموند كمبسن وعقيلته باعلان زواج كريمتهما كاندس من السيد سدني هربرت هد في الخامس والعشرين من نيسان عام ألف وتسعمئة وعشرة في جفرسن مسيسبي . يستقبلون المهنئين في منزلهم اعتباراً من اول آب رقم كذا وكذا شارع ساوث بند انديانا . وقال شريف ألن تفتح حتى الرسالة؟ثلاثة ايام. ثلاث مرات . السيد جاسن ريتشموند كمبسن وعقيلته . من الغرب جاء الفتى لوخنفار على متن جواده قبل اوانه ، أليس كذلك ؟

أنا من الجنوب . ألستَ مضحكاً .

أجل كنت اعلم انها في مكان ما من الريف .

ألستَ مضحكاً . خير لك لو تلتحق بالسيرك .

التحقتُ به . ألا ترى كيف اعميت عينيّ بسقاية براغيث الفيل . ثلاث مرات فتيات الريف هؤلاء . يستحيل عليك حتى الحديث عنهن . على كلٍ ، لم يحقق بايرون امنيته ، والحمد لله . على ألاّ تضرب رجلاً يلبس نظّارة . ألن تفتح حتى الرسالة ؟ كانت ملقاة على المنضدة وشمعة

تحترق على كل زاوية من الغــلاف وقد شُدّ برباط زهــريّ ملوّث وزهرتان اصطناعيتان . على ألاّ تضرب رجلاً يلبس نظارة .

قرويون مساكين لم يسبق لهم ان رأوا سيــارة واكثرهم يزمّرون ويزمرون كاندس اذن **رفضت أن تنظر إليّ** سيحيدون عن السبيل **رفضت أن تنظر إليّ** سيغضب أبوك ان أنتِ أصبتِ احدهم بأذى لا ريب في ضرورة اقتناء والدك لسيارة . اكاد آسف لمجيئك بها يا هربرت لقــد تمتعت بها جداً . طبعاً هناك العربة ولكن كلما اردت الخروج بها وجدت أن السيد كمبسن قد أمر السُّود بأن يقوموا بمهمة اجازف برأسي ان أنا عارضتها وهو يصر على أن رسكوس تحت تصرفي طيلة الوقت ولكنني اعلم معنى ذلك فما اكثر ما يسرف الناس بالوعود لا لشيء الا ليرضوا ضمائرهم أهكذا ستعامل طفلتي الصغيرة يا هربرت ولكنني أعلم انك لن تفعل ان هربرت يدلّلنا جميعاً يا كونتن لقد أفسدنا هل كتبتُ إليك أنه سيعيّن جاسن في وظيفة في مصرفه عندما ينتهي جاسن من دراسته الثانوية ولسوف يصبح جاسن مصرفياً ممتازاً فهو الوحيد بين ابنائي الذي يتمتع بحس عملي والفضل في ذلك يعود إليّ ، فهو يحمل خصائص أهلي أما الآخرون فكلهم كآل كمبسن **جاسن هيأ الطحين. كانا يصنعان الطيارات الورقية على الشرفة الخلفية ويبيعانها الواحدة بخمسة سنتات ، هو وابن باترسن . وكان جاسن أمين الصندوق .**

لم يكن في هذه الحافلة زنوج ، والقبعات التي لم تكلمح بعــد تسيل مارة بنــا تحت النافذة . سيذهب الى هارفرد . لقد بعنا مرعى بنجي **كان مستلقياً على الأرض وهو يعيط . لقد بعنا مرعى بنجي لكي يتمكن كونتن من الذهاب إلى هارفرد** أخ لك اخوك الصغير .

عليك بسيّارة لقد افادتك جداً ألا تظن ذلك يا كونتن ها أنا أدعوه بكونتن في أول لقاء فقد سمعت عنه الكثير من كاندس .

ولمَ لا فأنا اريــد ان يكون اولادي اكثر من مجرد أصدقاء نعم

كاندس وكونتن اكثر من مجرد صديقين أبي لقد فحشت لشد ما يؤسفني ألاّ أخ أو أخت لك لا أخت لا أخت لا أخت لك لا تسل كونـــتن فهو والسيد كمبسن يشعران بضرب من الاهانة كلما أتيـح لي من القوة مـــا يكفيني للنزول والجلوس الى المائدة إني أعيش على أعصابي الآن وسأدفع ثمن ذلك عندما ينتهي كل هذا وتأخذ أنت طفلتي الصغيرة مني كان لأختي الصغيرة لا . لو كنت استطيع أن أقول أماه . أماه .

لا أظن ان السيد كمبسن يستطيع اللحاق بالسيارة إلاّ إذا استسلمت لمن يراودني فأخذتكِ انت عوضاً عنها .

آه يا هربرت أتسمعين يا كاندس رفضت أن تنظر إلي زاوية الفك العنيدة الناعمة لا تردّ الطرف ولكن لا تغاري فهو يتملق امرأة عجوزاً ابنة ناضجة متزوجة . لا استطيع التصديق .

كلام فارغ فأنت تبدين فتيّة إنلك اوفر شباباً من كاندس ، اللون في خديك كصبيّة . وجهٌ لائمٌ دامع رائحة من كافورٍ ودموعٍ صوتٌ يبكي وئيداً خافتاً وراء الباب المضاء بالشفق ومن زهر العسل شذًا بلون الشفق . انزلوا من على درج مخزن السطح حقائب فارغة صوتها كالتوابيت الأرض المالحة . لم يلق الموت في الأرض المالحة .

قبعات كلحت ولا قبعات . لن استطيع بعد ثلاث سنوات ان ألبس قبعة مستحيل . في خبر كان . فهل سيكون ثمة قبعات يومئذ وأنا غير موجود ، ولا هارفرد كذلك . فهناك كما قال ابي يتشبث اسمى ما في الفكر بالقرميد الميّت العتيق كما تتشبث المتسلقات الميتة . لا هارفرد يومئذ. بالنسبة إليّ ، على كل حال . مرة اخرى . أعمق حزناً من قبل . مرة اخرى . اعمق الاحزان حزناً . مرة اخرى .

كان سبود مرتدياً قميصاً . صحيح إذن . حين أرى ظلي ثانية ، إن أنا لم انتبه ، وهو الذي خدعته وأغرقته في الماء فسأطأ ثانية ظلي الصلد الأصمّ.ولكن لا أخت . وما كنت لأفعلها . لن أسمح لأحد بالتجسس

على ابنتي ما كنت .

أنى لي أن اسيطر على أي منهم وقـد علمتهم دائماً الا يحترموني ورغباتي أنا أعرف انك تزدري أهلي ولكن هل في ذلك ما يبرر تعليم اولادي اولادي أنا التي شقيت في ولادتهم وتربيتهم ألا يحترموني جعلت ادوس عظام ظلي على الكنكريت بعقبي الصلبين ثم إذا بـي أسمع الساعة، ولمست الرسالتين من خلال سترتي .

لن أسمح لاحد لا لك ولا لكونتن بالتجسس على إبنتي مهما ظننت انها فعلت .

ولكنك على الاقل توافق على أن هناك ما يبرر مراقبتها .

ما كنت ما كنت . أعلم إنك لن تفعليهـا وما كنت لاتكلم بهـذه الحدّة غير ان النساء لا تحترم الواحدة منهن الاخرى ولا تحترم نفسها .

ولكن لماذا فعلتْ وبدأت الدقات ترنّ حالما وطأتُ ظلي ، الا انها اعلنت ربع الساعة . ولم تقع عيني على «الشماس» في اي اتجاه نظرت . أكنتُ ، أكان بوسعي .

إنها لم تقصد ذلك فتلك طريقة النساء في كل ما يفعلن وما ذلك إلا لانها تحب كادي .

مصابيح الشارع تنحدر على التل ثم تصعد في اتجاه المدينة . ومشيت على بطن ظلي . وبوسعي ان أمدّ يدي الى ما وراءه . شاعراً بأن أبـي خلفي فيما وراء ظلام الصيف وشهر آب المترع بالصرير مصابيح الشارع أنا وأبـي نحمي النساء بعضَهن من بعض ومن أنفسهن نساؤنا هذه حال النساء إنهن لا يتعلمن أيّ بَشَر نحن لقد فُطرن على خصب في الريبة عملي يؤتي بين الحين والحين غلالا وهن في الغالب على حق إن بينهن وبين الشر وشائج وقربـى يزوّدنه بما ينقصه ويسحبن أطرافه غريزيـاً حولهن كأغطية الفراش ساعة سباتهن مخصبات له الذهن حـتى يقضي الشر وطره وُجد أم لم يوجد رأيته قادماً بينَ اثنين من طلاب السنـة

الاولى . ولم يكن بعد قد استعاد نفسه من نشوة الاستعراض ،إذ حيّاني تحية ضابط رفيع الرتبة .

فوقفت وقلت : « اريد ان اراك لدقيقة . »

ـ « تراني انا ؟ لا بأس . سأراكم فيما بعد ايها الصحب ، » قال ذلك ، واقفاً ومستديراً الى الوراء ؛ « كانت فرصة سعيـدة للتحدث اليكم . » هذا هو « الشماس » بنصه وفصه . اسمعتهـم يتحدثون عن الذين هم سيكولوجيون بالفطرة؟لقد قيل ان قطاراً ما لم يفته في مستهل العام الدراسي طوال اربعين سنة ، وان بوسعه ان يتبين ابناء الجنوب من النظرة الاولى . لم يخطىء يوماً في ذلك ، وإذا سمعك تتكلم ذكر لك من اية ولاية انت . وكان له زيّ خاص يستقبل فيه القطارات كأنه ، بكل ما فيه من رُقَع ، من ثياب كوخ العم طوم .

فيقول وهو يأخذ حقائبك : « نعـم يا سيدي . من هنا يا سيدي الشاب . عال ، عال . يا ولد ! تعال هنا وخذ هـذه الحقائب . » وعندها ترى جبلاً زاحفاً من الامتعة يترنح في اتجاهك ، كاشفاً عن صبي ابيض يناهز الخامسة عشرة فيضيف اليه « الشماس » حقيبة اخرى كيفما اتفق ويسوقه امامه . « اياك ان تسقطهـا يا ولد . نعم يا سيدي الشاب . ما عليك إلا ان تعطي الزنجي الشيخ رقم غرفتك،فتجد امتعتك فيها حالما تبلغها . »

ومنذ تلك اللحظة وحتى يُتمّ اخضاعك له تلقاه دوماً داخل غرفتك او خارجها ، موجوداً في كل مكان ، دائم الثرثرة ، ويتحول اسلوبه بالتدريج ويغدو شمالياً كلما تحسن هندامه حتى تجد في النهاية ، اذ يكون قد عصرك واستنفد ضرعك وتكون انت قد ادركت ما تورطت فيه ، انه يناديك باسمك ، كوينتن او اي اسم آخر ، وعندما تراه ثانية تُلفيه لابساً بدلة مستعملة من محلات « بروكس » وقبعة تحمـل شارة احد نوادي جامعة « برنستون » اعطاه اياها احدهم فظل يردد جازماً دمثاً

انها جزء من حزام ابراهام لنكولن العسكري . وقبل اعوام اشاع البعض انه يوم ظهر في الجامعة لأول مرة - والله يعلم من اين جاء - كان خريج مدرسة اللاهوت . فلما ادرك معنى ذلك لذت له القصة حتى اخذ يروّجها بنفسه ، الى ان جعل يعتقد ، ولا ريب، انه خريج مدرسة اللاهوت فعلاً . مهما يكن من امر ، فإنه راح يروي النوادر السخيفة الطويلة عن ايام تلمذته ، متحدثاً دونما كلفة عن اساتذة راحلين مسمياً إياهم بأسمائهم الاولى ، ولم تكن هذه الاسماء عادة صحيحة . بيد انه كان للعديد من الطلاب الجدد السذّج المستوحشين صديقاً وناصحاً ودليلاً . ويخيل اليّ انه بصغائر حيله واخاديعه ونفاقه لم يزكم الانوف اكثر مما فعل غيره من البشر .

قال وهو يحدق فيّ من بقايا هالته العسكرية . « لم أرك لثلاثة أيام او اربعة . اكنت مريضاً ؟ »

— « كلا . اني بخير . كنت أدرس . ولكنني رأيتك . »

— « صحيح ؟ »

— « في الاستعراض قبل أيام . »

— « آه ، الاستعراض . تماماً . كنت فيه . انا لا اكترث لمثل هذه الامور، كما لا يخفى عليك، ولكن الشباب يروق لهم ان ارافقهم ، القدامى منهم . فالسيدات يطلبن ظهور القدامى ، كما تعلم . وهل يرفض الكريم لهن طلباً ؟ »

فقلت : « ويوم عطلة المهاجرين ايضاً ؟ لعلك كنت يومها تستجيب الى طلب اتحاد النساء المسيحيات لمكافحة المسكرات ؟ »

— «يومها ؟ فعلت ذلك من اجل زوج ابنتي . إنه يريد ان يعمل عضواً في قوات المدينة . كنّاساً . وانا اقول له ان كل ما يعوزه هو مكنسة ينام عليها . أرأيتني اذن ؟ »

— « نعم ، في المرتين . »

— « اقصد في بزتي . كيف بدوت ؟»

— « رائعـــاً بل كنت أروع مظهراً من كل الآخرين . ينبغي ان يجعلوك جنرالاً ، يا شماس . »

فمس ذراعي مساً خفيفاً وقد رقّت يده وحفيت كما تفعل ايدي الزنوج، وقال: « اسمع . بيني وبينك فقط . اقول لك هذا لاننا ، انا وانت، من جماعة واحـــدة ، في اليوم الابيض واليوم الاسود على السواء . » وانحنى نحوي قليلاً وهو سريع الكلام وعيناه زائغتـــان عني . « لديّ من وسطته في الامر . انتظر حتى السنة القادمة . انتظر . ثم انظر اين يكون مكاني من المسيرة . لا حاجة بـي لان اخـــبرك كيف انوي ان اتدبر الامر . ما عليّ إلا ان اقول ، من يعش يَرَ يا صاح . »وهنـا نظر اليّ وربت عـــلى كتفي وتأرجح الى الوراء على عقبيه وهو يهزّ برأسه . « نعم يا سيدي . وهـــل كنت لانضم إلى الديمقراطيين لغير غاية ؟ صهري موظف في المدينة ، وانا اي والله يا سيدي . ان كان مجرد الانضمام الى الديمقراطيين يهيء عملاً لابن الزانية هذا ... اما بخصوصي : فما عليك إلا ان تقف عند ذلك المنعطف بعد سنة واحـــدة اعتباراً من امس الاول ، لترى . »

« إن شاء الله . انك اهل لذلك يا شماس . والآن وقد تذكرت » واخرجت الرسالة من جيبي . « خذ هذه الى غرفتي غداً واعطها لشريف. سيكون لديه ما يعطيك . ولكن لا تأخذها حتى الغد . تذكر . »

فأخذ الرسالة وتفحصها . « إنها مغلقة . »

— « نعم . وقد كُتب في داخلها : غير صالحـــة للاستعمال حتى الغد . » فقال : « احم . » ونظر الى الغلاف وقد زمّ بشفتيه . «هل قلت ان لديه ما يعطيني إياه ؟ »

— « نعم . هدية اقدمها لك . »

نظر اليّ والغلاف ابيض في يده السوداء ، في الشمس . كانت عيناه

لماعتين بنّيتين بلا قزحية ، وفجأةً رأيت فيه رسكوس يرقبني من وراء افانين البيض التي يتظاهر بها الشماس من بزّة عسكرية ومماحكةسياسية واسلوب هارفردي ، عديمَ الثقة ، خفي النفس، عيي اللسان ، عميق الاسى .

وقال : « أرجو الا تكون هذه نكتة تفعلها بزنجيك الشيخ ؟ »

ــ « انت تدري انها ليست كذلك . وهل نكث بك يوماً رجل من الجنوب ؟ »

ــ « صدقت والله . انهم قوم طيبون . ولكن من المستحيل العيش معهم . »

فقلت : « وهل جربت ذلك يوماً ؟ » غير ان رسكوس اختفى . وعاد الشماس مرة اخرى الى الذات التي لقّن نفسه منذ زمن طويل ان يتلبّسها أمـــام اعين العالم ، بما فيها من تحذلق وزيف لا يبلغان حد الخشونة .

ــ « سأصدع لما تريد يا صاح . »

ــ « ليس قبل الغد ، تذكر . »

ــ « أكيد . مفهوم يا صاح . ولكن ــ »

فقلت : « آمـل . » وارسل بصره نحوي ، كريم النفس ، عميق الابعاد . وفجأةً مددت له يدي وتصافحنا ، وقد اشتـــد به الوقار من علياء حلمه العسكري البَلدِيّوي . « انك رجل طيب يا شماس . آمل... انك كنت عوناً للكثير من الشباب ، هنا وهناك . »

فقال : « لقد حاولت ان اعامل الناس كلهـم كما ينبغي . فأنا لا اضع فوارق اجتماعية حقـيرة فيما بينهـم . الانسان في نظري انسان أينما وجدته . »

ــ « ارجو ان تجد دوماً من الاصدقاء بعدد من صادقت . »

ــ « انهم شباب ، أنسجم معهم ، فلا ينسونني . » قال ذلك وهو يلوّح بالرسالة . ثم وضعها في جيبه وزرّر سترته . وقال : « اي والله .

ان لي اصدقاءً طيبين . »

وبدأت الرنّات مرة اخرى ، معلنة نصف الساعة . فوقفت في بطن ظلي واصغيت إلى الدقات متناسقةً وادعةً ونور الشمس ، بين الاوراق الصغيرة الرقيقة الساكنة . متناسقةً آمنةً خليّة البال فيها ما في الاجراس دوماً من رنّة الخريف حتى إبّان شهر العرائس . مستلقياً على الارض تحت النافذة وهو يعيط القى عليها نظرة واحدة فعـرف . من افواه الاطفال . مصابيح الشوارع وتوقفت الرنّات . وعدت ادراجي إلى دائرة البريد وانا اطأ ظلي مقحماً اياه في الرصيف . تنحدر التل ثم تصعد نحو المدينة كفوانيس عُلِّق بعضها فوق بعض على جدار . وقال ابي إنها لحبها كادي تحب الناس لنقائصهم . وجلس خالي موري منفرج الساقين امام النار وعليه ان ينقّل يده زمناً يؤمّن له ان يبلغ شراب عيد الميلاد. واستمر جاسن في ركضه ووقع ويداه في جيبيه وبقي ملقى هناك كالطير المنتوف الى ان اوقفه فيرش على قدميه . لم لا تبقي يديك خارج جيبيك عندما تركض لكي تظل واقفاً على قدميك مديراً رأسه في المهد مديراً اياه عبر ظهره . وقالت كادي لجاسن ان فيرش يقول ان السبب في ان خالي موري لا يشتغل هو انه كان في طفولته يدير رأسه وهو في المهد.

رأيت شريف آتياً يجرجر قدميه على الممشى ، بدينَ الجد ، ونظارته تتألق تحت الاوراق الجارية كبركتين صغيرتين .

— « لقد اعطيت الشماس ورقة ببعض الاشياء . قد لا اكون في غرفتي بعد ظهر اليوم ، فإياك ان تعطيه شيئاً حتى صباح الغد . »

— « لا بأس . » ونظر اليّ . « بربك ما الذي تريد فعله اليوم ، وقد تهندمت وتزينت وهمت على وجهك مطبقاً مراسيم اشبه بمقدمة مراسيم الارملة الهندية التي ستضحي بنفسها على قبر زوجها؟هل ذهبت لمحاضرة علم النفس هذا الصباح ؟ »

— « لن افعل شيئاً اليوم . حتى الغد . »

— « ما هذا الذي تحمله ؟ »

— « لا شيء . حذاء نعلته عند الاسكافي . لا شيء حتى الغد ، اتسمع ؟ »

— « طيّب ،طيّب . وبالمناسبة ، هل اخذت رسالة لك كانت على المنضدة هذا الصباح ؟ »

— « كلا . »

— « انها هناك . من سميراميس* اتى بها السائق قبل العاشرة . »

— « لا بأس . سآخذها . ترى ما الذي تريده الآن ؟ »

— « حفلة موسيقية اخرى ، فيما اظن . للآلات النحاسية . تمّي تاتا جرالد بلا ... ضربة اقوى على الطبل يا كونتن ! احمد الله على انني لست بجنتلمان . » وانصرف عني محتضناً كتابـاً ، بدين العزم ، مشوّه الشكل قليلاً . **مصابيح** الشوارع اتظن ذلك لان احد اسلافنا كان حاكماً وثلاثة منهم كانوا قواداً عسكريـين ولم يكن كذلك احد من اسلاف امي .

ايّ حيٍ خيرٌ من اي ميت ولكن ما حي او ميت خير من اي حي او ميتٍ آخر **أما في ذهن أمي فقـد** تم وانتهى . **إنتهـى . ثم** تسممنا **كلنا** انك تخلط بـين الإثم والاخلاق . والنساء لا يفعلن ذلك وامك انما تفكر في الاخلاق اما ان كانت هذه الاخلاق إثماً ام لا فشيء لم يخطر لها ببال .

يجب ان اذهب يا جاسن احتفظ انت بالآخرين اما انا فسآخذ جاسن واذهب إلى مكان لا يعرفنا فيه احد **لكي يتاح له ان ينشأ** وينسى كل هذا لا يحبني احد من الآخرين ولا هم احبوا شيئاً قط وقد ابتُلوا بشيمة آل كمبسن شيمة الانانية والكبرياء الزائفة وجاسن هو الوحيد الذي تعلق به قلبي دون وجل .

---

* يقصد بهذه التسمية الساخرة المسز بلاند ، ام جرالد . (المترجم)

كلام فارغ ان جاسن بخير وقد فكرت انك حالما تتحسنين صحةً قد تذهبين برفقة كادي الى « فرنش ليك » .

واترك جاسن هنا ولا احد حوله إلاك وهؤلاء السود .

سوف تنساه وحينئذ يكف الناس عن أقاويلهم **لم يلقَ الموت في الارض السبخاء .**

جاءت الحافلة ووقفت ، والاجراس لا تزال تدق نصف الساعة . فركبتُها وسارت ثانية غامرةً صوت نصف الساعة . لا: ثلاثة الارباع . على كل، ستستغرق عشر دقائق . أن تترك هارفرد **حلم أملك أن مرعى بنجي قد بيع لكي**

ما الذي جنيت حتى أُرزق اولاداً كهؤلاء أما كفاني ببنجامين عقاباً حتى تتمرد ابنتي عليّ انا أمها التي من اجلها عانيت وقاسيت ومن اجلها حلمت وخططت وضحيت ونزلت الى وادي الموت ولكنها منذ أن فتحت عينيها لم تعرني يوماً بالاً دون انانية وغالباً ما انظر إليها فأتساءل اهي حقاً ولدي الا جاسن فهو لم يسبب لي لحظة من الحزن او الالم منذ أن حملته بين ذراعيّ لقد ادركت آنئذ أنه سيكون فرحي وخلاصي وقلت حسبي ببنجامين عقاباً جزاء ما اقترفت من ذنوب قلت انه عقابي لتنازلي عن كبريائي وزواجي من رجل يعتبر نفسه اسمى شرفاً مني اني لا أتذمر لقد احببته اكثر من الآخرين جميعاً شعوراً بواجبي بالرغم ان جاسن راح يجرجر قلبي وحشاي طيلة الوقت غير اني ارى الآن انني لم أنل كفايتي من العذاب أرى الآن ان عليّ ان اجازى على خطاياك بالاضافة الى خطاياي ما الذي فعلتَه ما الذي جنيتَه ، ما الآثام التي اقترفها اسلافك ذوو الحسب والنسب، الآثام التي يقع عليّ انا الآن قصاصها غير انك ستقف دونهم محامياً فمن شأنك دوماً أن تجد الاعذار لمن هم من دمك باستثناء جاسن فهو المذنب الوحيد لان في عروقه من دماء باسكوم اكثر مما فيها من دماء كمبسن في حين أن ابنتك انت ابنتي

الصغيرة طفلتي العزيزة ليست بأفضل من ذلك . أيام كنت صبية ما كنت لسوء طالعي الا من آل باسكوم ولكنهم انشأوني على ان اعتقد ان ليس للمرأة طريق وسط فهي اما شريفة او غير شريفة فلما كنت احتضنها طفلةً بين ذراعي لم يخطر ببالي قط ان ابنةً لي ستسمح لنفسها بالذي تدريه أنت . بوسعي ان انظر الى عينيها وأدرك ولقد تحسب انها ستعترف ولكنها لا تعترف بشيء لانها انطوائية تنام على اسرارها انت لا تعرفها اما انا فأعرف اموراً فعَلَتْها اوثر الموت على الادلاء بها إليك أهكذا اذن لك ان تستمر في انتقاد جاسن واتهامي بأني أحضّه على مراقبتها كأن ذلك جرم مني في حين ان ابنتك لها ان أنا أعلم انك لا تحبه وانك توهم نفسك بأنك ترى فيه اخطاء ليست فيك أجل إهزأ منه كما هزئت دائماً من موري لن تؤلمني اكثر مما آلمني اولادك حتى اليوم ولسوف أموت ويبقى جاسن وليس له من يحبّه ويحنو عليه ويقيه هذا كله وإني لأنظر إليه كل يوم وقلبي واجف خشية ان أرى دم آل كمبسن قد اخذ يظهر فيه أخيراً وأخته تتسلّل من البيت لتقابل هذا الذي ما اسمه وهل وقعت عليه عيناك قط او لن تتيح لي ان اعرف على الأقل من هو لا من أجلي انا فانني لن اطيق رؤيته بل من اجلك انت لحمايتك انت ولكن من يقوى على محاربة الدم الفاسد ولن تدعني أحاول وعلينا ان نجلس مكتوفي الأيدي في حين راحت تمرّغ اسمك في الاوحال وتسمّم الهواء الذي يتنفسه اولادك يجب عليك يا جاسن أن تدعني ارحل عنكم فما عدت أتحمل هذا دع لي جاسن واحتفظ انت بالآخرين انهم ليسوا مثله من لحمي ودمي غرباء لا قربى ولا صلة بيننا وأنا اخافهم واخشاهم فبوسعي ان آخذ جاسن فنذهب الى حيث لا يعرفنا أحد ولسوف أخرّ ساجدة على ركبتيّ وأصلي واطلب الغفران لذنوبي لعله ينجو من هذه اللعنة وأحاول ان انسى وجود الآخرين .

ان كانت تلك ثلاثة أرباع الساعة ، فما بقي إلا زهاء عشر دقائق .

وكانت إحدى الحافلات قد سارت قبل لحظات ، والناس يتجمعون في انتظار التالية.سألت أحدهم،غير انه لم يعرف إذا كانت ثمة أخرى ستسير قبل الظهر لأنك قد تحسب ان سكان الضواحي . وهكذا كانت الاولى بعد ذلك حافلة ترام . فركبتهـــا . بوسعك ان تحس الظهيرة . ترى أحسّها أيضاً عمال المناجم في أحشاء الارض . ومن هنا الصافـــرات : لأن الذين يعرقون ، وان أنت ابتعدتَ عن العرق بعداً كافياً فلن تسمع الصافرات وفي ثماني دقائق تكون قد ابتعدت بقدر ذلك البعد عن العرق في بوسطن . كان أبـي يقول إن الانسانَ مجموعُ نكباته . ولقـد تظن يوماً ان النكبات قد سئمت،ولكن الزمن هو نكبتك قال ابـي . نورس معلقٌ على سلكٍ غير مرئي مجرورٌ عـــبر الفضاء . انك لتحمل رمـــز خيبتك معك الى الأبد . وعندها يكون الجناح أكبر قال أبـي ولكن من يستطيع العزف بالقيثارة .

كلما وقفت الحافلة سمعت ساعتي،ولكن لم يتكرر ذلك كثيراً وكانوا قد بدأوا يأكلون من يريد العزف الأكل مسألة الأكل في دخائلك مـن الفضاء إلى الفضاء والزمن مضطرب مشوّش المعدة تقول الظُّهر والدماغ يقول ساعة الأكل لا بأس ترى ما الساعة وما همني . كانوا ينزلون . وما عادت الحافلة تكثر من الوقوف ، وقد أخلاها الأكل .

ثم مرت . نزلتُ ووقفت في ظلي وبعد لحظات جاءت حافلة ركبتها وعدت إلى محطة ما بين المدن . كانت هناك حافلة مهيأة للسير،ووجدت فيها مقعداً قرب النافذة ورقبتها وكأنها تتمـــزق إلى نتف من مساكن رخوة تعلو وتهبط ،ثم إلى شجر . وبين الحين والآخر كنت أرى النهر فأقول لشدَّ ما سيلذّ لهم في «نيو لندن» اذا كان الطقس جيداً وزورق جرالد بكل وقار يصعد الضحى المتألق وتساءلت ترى ما الذي تريده تلك العجوز وقد أرسلت إليّ رسالتها قبل العاشرة هذا الصباح . أية صورة لجرالد دالتن إعز آه أسبست أطلق النار عليه كونتن أكون أنا في خلفيتها.

صورةٌ فيها فتيات . فالنساء لهنّ صوته دائمــاً يعلو اللغط والضجيج يوحي بالقربى بينهن والشر ، بينهن والاعتقاد بأن ليس في الدنيا امرأة أهل للثقة، ولكن بعض الرجال سذج لا يعرفون كيف يحمون أنفسهم . فتيات عاديات . أقرباء بعيدون وأصدقاء للعائلة أضفى عليهم مجرد كونهم معارف لا أكثر ضرباً من الالتزام العشائري تحتّمه كرم النفس . وصاحبتنا جالسة هناك تقول لنا أمام وجوههم جميعاً أليس من المؤسف ان يتمتع جرالد بكل ما في الاسرة من جميل القسمات يكون الرجل عادة في غنى عنها ، بل خير له ان يكون بدونها ، أما الفتاة فهي ضائعة بدونها . وتروي لنا أخبار نساء جرالد بنبرة المستحسن الراضي عن نفسه ، بنبرة كونتن أطلق النار على هربرت أطلق النار على صوته من خلال أرض غرفة كادي . « عندما كان في السابعة عشرة من عمره قلت له يوماً : أليس من المؤسف ان يكون لك فم كهذا الفم الذي يجب ان يتحلى به وجه فتاة . او تعرفون والستائر قد حنت على الاصيل على شذى شجرة التفاح وخلف رأسها الاصيل وذراعاها خلف رأسها مجنّحان بالكيمونو والصوت الذي تنفس في ارجاء جنة عدن وعلى الفراش ثيــاب تحت الانف ترى فوق التفاحة ماذا قال ؟ وعمره سبعة عشر عاماً ، تذكروا . قال: «كثيراً ما يتحلى به وجه فتاة . »وصاحبنا جالس هناك في أوضاع ملكية يرقب اثنتين أو ثلاثاً من خلال أهدابه . وهن يتدفقن كسنونوات تسفّ لصق أهدابه. وقد قال شريف إنه دائماً هل ستُعنى ببنجي وابي.

خير لكِ الا تتكلمي عن بنجي وأبي هل همّك أمرهما يوماً .

عدني .

لا تقلقي عليهما انك ذاهبة في خير حال .

عدني إني مريضة عليك أن تعدني يتساءل من الذي اخــترع تلك النكتة إلا انه كان دائماً يعدّ المسز بلاند امرأة حافظت على حسنها وقوامها رغم انف السنين وقال إنهــا تهيىء ابنها جرالد لغواية احدى الدوقات

يوماً ما . اما هي فقد دعت شريف بذلك الفتى الكَنَدي السمين ومرتين رتبت لي زميلاً جديداً يقاسمني غرفتي دون استشارتي ، ومرة بأن أغيّر الغرفة ، والأخرى

فَتَح البابَ في الأصيل ، ووجهه أشبه بيقطينة مطبوخة .

— « جئت أودعك أحرّ الوداع . ولئن يفرّق القدر العاتي بيننا فإني لن أحب احداً سواك . ابداً . »

— « ما الذي تتكلم عنه ؟ »

— « اني اتكلم عن القدر مرتدياً ثماني ياردات من الحرير المشمشي ويحمل من المعدن ارطالاً اكثر مما كان يحماه رقيق المراكب والمالك الأوحد للمرحاض المشّاء بلا منازع في الاتحاد الجنوبي المرحوم . » ثم أخبرني كيف انها ذهبت إلى رقيب الجامعة وطلبت إليه ان يخرجه من غرفتي وكيف ان الرقيب ابدى من العناد ما جعله يصرّ على استطلاع رأي شريف اولاً . فاقترحتْ عليه ان يرسل في طلب شريف على الفور لسؤاله ، ولكنه رفض ، ولذا فإنها منذ ذلك اليوم لم تخاطب شريف بلطف قط . وقال شريف : « ان من مبادئي ألا اغلظ القول في امرأة ، غير ان لتلك المرأة من اساليب العواهر ما ليس لأية سيدة في هذه الاصقاع والولايات المستقلة ذات السيادة . » والآن رسالة على المنضدة سُلّمت باليد ، أمر زاهي اللون معطّر بالأوركيد ولو علمتْ انني كدت امر تحت النافذة وانا اعرف بوجودها هناك دون سيدتي العزيزة لم يتح لي بعد ان اتسلّم رسالتك الكريمة غير انني استميحك العذر سلفاً عن الحضور اليوم او البارحة او غداً او عندما اذكر كيف يقذف جرالد بزنوجه على الدرج وكيف ان الزنجي توسّل ان يسمح له بالتخرج من مدرسة اللاهوت ليكون على مقربة من السيد جرالد وكيف انه جرى طيلة الطريق الى المحطة بمحاذاة العربة وعيناه طافحتان بالدموع حين رحل فيها السيد المحترم جرالد فاني سأنتظر حتى ذلك اليوم أما النكتة الاخرى

عن الزوج الذي يعمل في المنشرة فإنه جــاء الى باب المطبخ وبيده بندقية صيد فنزل جرالد وعضّ البندقية شطرين وأعادها اليه ومسح يديه بمنديل من حرير ورمى بالمنديل في نار الموقد لم اسمعها إلا مرتين
اطلق النار عليه من خلال الـ رأيتك تدخل هنا فاغتنمت الفرصة وجئت اليك لعلنا نتعارف وندخن سيجاراً معاً
شكراً اني لا أدخن
صحيح لا بدّ ان الامور قد تغيّرت منذ ان كنت هناك اتسمح لي بأن اشعل سيجاري
تفضل
شكراً لقــد سمعت لست احسب ان املك تعترض ان انا وضعت عود الكبريت وراء الحاجز الكثير عنك فقد كانت كاندس تتحدث عنك طيلة الوقت ونحن في فرنش ليك حتى جعلت اغار منك وقلت لنفسي من هو كونتن هذا لا بد لي من ان أرى ما شكل الحيوان هذا وذلك لأن الغيرة نالت مني أترى حالما رأيت الفتـاة ولا اكتمك انه لم يخطر ببالي قط انها انمــا تتحدث عن أخيها ولكن ما كانت لتتحدث عنك اكثر مما تحدثت حتى لو كنت الرجل الوحيد في الدنيا ولن يكون الزوج فيها ألن تغيّر رأيك وتدخن
انا لا ادخن
اذن فلن أصر بالرغم من ان هذا تبغ فاخر يكلفني خمسة وعشرين دولاراً لكل مئة بالجملة لي صديق في هافانا أجل لا بد ان في الجامعة تغيرات كثيرة وانا دائماً اكرر الوعد لنفسي بزيارتهـا ولكنني لسبب ما لا افعل لقد أمضيت عشر سنين منذ ان بدأت حيــاة العمل ولا يسعني ان اترك المصرف في اثناء الدراسة وعادات المرء تتبدّل وما يبدو للطالب امراً خطيراً كما تعلم أخبرني عن امور الحياة هناك
لن اخبر ابـي وامي ان كان هذا ما ترمي اليه

لن تخبر لن تخبر ، آه اهذا ما تقول اود ان تعلم انه لا يهمني في كثير او قليل ان اخبرتها او لم تخبرها فأنا أعلم ان شيئاً من هذا القبيل امر مؤسف غير انه ليس جريمة تتعقبها الشرطة فلست انا الاول ولا الأخير انما كنتُ سيء الحظ وقد تكون انت اوفر حظاً مني

تكذب

لا تغضب لست احاول جعلك تدلي بشيء لا تريد الادلاء به لم اقصد اية اساءة بالطبع وشاب فتي مثلك يعتبر مثل هذا الامر اخطر بكثير مما سوف تعتبره انت بعد خمس سنوات

ليس لي الا اسلوب واحد في النظر الى الغش والخديعة ولا أحسب ان هارفرد ستعلمني غير ذلك

حوارنا خير من مسرحية لا بد انك جعلت المؤلّ طيّب لا بأس انت على حق لا حاجة الى اخبار والديك والذي فات مات ها ولماذا نسمح انا وانت لأمر طفيف كهذا بالوقوف حجر عثرة بيننا اني اودك يا كونتن ويروق لي مظهرك فأنت لا تشبه هؤلاء الصقعاء الآخرين ويسعدني ان عرى الالفة ستتوثق بيننا وقد وعدت أمك بأنني سأساعد جاسن ولكنني اود لو اعينك انث ايضاً لا شك في ان جاسن سيكون في خير حال هنا أما بالنسبة الى شاب مثلك فليس في هذه الخرابة مستقبل لك

شكراً ارجوك ان تقصر همك على جاسن فهو يليق بك اكثر مني

انا آسف لما حدث ولكن الفتى الذي كنتُه حينئذ لم تكن لي أم كأمك تلقنني المبادىء الرفيعة ولسوف يؤلمها الأمر دونما ضرورة إن هي علمت به انك على حق لا حاجة بنا وينطبق هذا على كاندس ايضاً بالطبع

قلت ابي وامي

انظر انظر إليّ اتظن انك تقوى على الصمود طويلاً إزائي

اني في غنى عن الصمود طويلاً ان كنتَ قد تعلمتَ القتال في

المدرسة جرّب تعرف مقدار صمودي
ما الذي تقصده يا
جربّ تعرف
رباه السيجار ما الذي ستقوله املك لو رأت حـَرْقاً على رف موقدها ولكن لم يحدث شيء اسمع يا كونتن اننا على وشك الوقوع في امر سنندم كلانا عليه وانا اودك لقد وددتك حالما رأيتك وقلت لا بد انه شاب ممتاز مهما يكن الامر والا فان كاندس لن تعجب به هذا الاعجاب لقد مضت عليّ عشر سنين وانا في خضمّ الحياة وستجد ان الامور حينئذ ليست على ما تتصوره من الأهمية والخطورة فلنأتلف انا وانت بهذا الشأن نحن ابناء هارفرد يخيل اليّ انني لن اعرفها لو زرتّها الآن انها للشاب خير مكان في الدنيا وقد قررت ان ارسل ابنائي اليها واتيح لهم فرصة افضل مما اتيح لي انتظر لا تذهب ولنبحث هذا الموضوع ان الشاب يؤمن بهذه الافكار وحسناً يفعل فإنها تفيده وهو في طور الدراسة وتقوّم خلقه وتحافظ على التقاليد هذا في المدرسة ولكنه حالما يتركها ليدخل عالم الناس عليه ان يحصل على ما يريد بأبرع السبل التي يملكها لأنه سيجد ان الآخرين كلهم لا يحاولون الا الشيء نفسه مضحين بكل شيء آخر تعال اذن ولنتصافح ونتناسَ ما فات من اجل والدتك تذكر حالتها الصحية هيا اعطي يدك وانظر إلى هذه لقد خرجت تواً من الدير أترى ما انقاها لم يشبُها بعد اي غـَضـَن او ثنٍ هاك
خذ نقودك الى حيث ألقت
لا لا اسمع هيا انني الآن من افراد الاسرة ولا تحسب انني اجهل شعور شاب مثلك له غرامياته الكثيرة ويصعب عليه ان يستخرج القرش من ابيه اعرف ذلك كله ألم اكن طالباً ايضاً ومنذ زمن ليس بالطويل اما الآن فانني مقبل على الزواج وغير ذلك ولا سيما في الجامعة هيا لا تكن احمق واسمع حالما تتاح لنا فرصة لحديث جاد سأخبرك عن ارملة

ذاك ايضاً سمعته ابق نقودك القذرة لنفسك
اعتبرها دَيْناً اذن اغمض عينيك دقيقة تجد انك اغنى بخمسين
ابعد يديك عني وارفع سيجارك من على الرف
اذهب اذن واخبر من تشاء ولنر النتائج الباهرة لو لم تكن غبياً مغفلاً لأدركت انني طوّقتهم في وضع يستحيل على اخ فجّ مثلك التدخل فيه لقد اخبرتني املك من اي صنف انت وقد انتفخ رأسك كبرياءً ادخلي ادخلي يا عزيزتي انا وكونتن قد بدأنا نتعارف ونتحدث عن هارفرد اتريدينني اترى كيف انها لا تستطيع بُعداً عن رَجُلها
اخرج لدقيقة يا هربرت اريد التحدث الى كونتن
تعالي ادخلي لنثرثر سوية ونتعارف كنت اقول لكونتن
ارجوك هربرت اخرج للحظة
لا بأس اذن يظهر انك تريدين ان تري اخاك مرة اخرى ها
وارفع سيجارك عن الرف
اصبت كالعادة يا صاح اذن عليّ بالخروج وليتحكموا بك ما دام ذلك من حقهم ولكن يا كونتن بعد اليوم الذي ما بعد غد سيترتب عليك ان تقول للزوج ارجوك ومن فضلك أليس كذلك علي بقبلة يا حلوتي
كف عن ذلك وفرّه لليوم الذي يلي الغد
عند ذاك سأصرّ على الفائدة ايضاً لا تسمحي لكونتن بفعل شيء لا يستطيع انجازه وبالمناسبة هل رويت لك يا كونتن قصة الببغاء التي كانت مُلكاً لأحدهم انها قصة محزنة ذكّرني بها فكّر بها باي باي الى اللقاء في مجلة الفكاهة
إذن
إذن

ما الذي تحاوله الآن
لا شيء
انك تتدخل بشؤوني ثانية الم يكفك التدخل في الصيف الماضي .
كادي انك محمومة انك مريضة تدوخين لماذا
اني أدوخ وكفى . ولن اسأل لماذا.
اطلق النار على صوته خلال الـ
لا هذا النذل الحقير يا كادي
كان النهر بين الحين والحين يتألق وراء الاشياء فيما يشبه الالق الخاطف عبر الظهيرة وبعدها . بعد الظهيرة بكثير، وان كنّا قد مررنا به وهو ما يزال يجذف ضد التيار في جلال شامخ ازاء وجه الله الآلهة. أحسن . الآلهة . والمجذافان البليلان يحملانه في غمزات وهاجة واكف نسائية . مملاق منافق . مملاق ان لم يكن زوجاً فإنه ليتجاهل الله . ذلك النذل الحقير يا كادي وراح النهر يتألق وراء منحنى خاطف طويل .
اني مريضة يجب ان تعدني
مريضة وما مرضك
مريضة ولا استطيع أن استشير أحداً بعد ولكن عدني
إن يكونوا بحاجة الى عناية فما ذلك إلا بسببك ما مرضك تحت النافذة سمعنا الحافلة تغادر المكان الى المحطة ، قطار الساعة ٨:١٠ . للعودة بأبناء العم . رؤوس . يزيد من نفسه رأساً رأساً ولكن لا حلاقين . فتيات المانيكيور . كان لدينا يوماً حصان أصيل . في الاسطبل نعم ، أما تحت السرج فجرو ليس الا . لقد اطلق كونتن النار على أصواتهم جميعاً من خلال أرض غرفة كادي
وقفت الحافلة ونزلت الى وسط ظلي . كانت ثمة طريق تقطع سكة الحافلة . ومظلة خشبية تحتها رجل يأكل شيئاً من كيس ورق ، ثم تعدت الحافلة نطاق السمع . كانت الطريق تفضي الى الاشجار حيث

يمتد الفيء ، غير أن اوراق حزيران في نيوانجلند لا تزيد كثافة عن اوراق نيسان في بلدتي في مسيسبي . ووقعت عيني على مدخنة عالية . فأدرت اليها ظهري ووطئتُ ظلي في التراب . كان فيّ شيء رهيب وفي بعض الليالي كنت أراه يكشّر لي اراه من خلالهم يكشّر لي من خلال وجوههم لقد راح الآن وأنا مريضة

كادي

لا تمسني انما عدني فقط

ان كنت مريضة فلن تقدري

بلى أقدر وبعد ذلك تعتدل الأمور ولن يكون لذلك أهمية لا تدعهم يرسلونه الى جاكسن عدني

اني اعدك يا كادي كادي

لا تمسني لا تمسني

ما شكله يا كادي

ما هو

هذا الذي يكشر لك من خلالهم

كنت ما زلت ارى المدخنة العالية . هناك الماء ينساب الى البحر والكهوف الآمنة . تتساقط آمنة وعندما يقول الله « انهضوا » لا ترتفع الا المكواتان . عندما كنا انا وفيرش نقضي النهار كله بالصيد لم نكن نأخذ معنا غداءً ، وفي الثانية عشرة كنت اجوع . فأبقى جائعاً حتى الواحدة واذا بي فجأة قد نسيت حتى انني ما عدت جائعاً. مصابيح الشوارع تنزل التل ثم سمعت الحافلة تنزل التل . وذراع الكرسي مسطح بارد ناعم تحت جبيني وشجرة التفاح تنحني على شعري فوق ثياب الجنة تُري بالانف انك محمومة وقد شعرت بها امس كأنك جالسة قرب الموقد

لا تمسني

لن تستطيعي ذلك ان كنت مريضة يا كادي . ذلك النذل الحقير .

لا بد لي من الزواج من رجل ما . **ثم اخبروني ان العظـــم يجب كسره ثانية .**

واخيراً ما عدت ارى المدخنة . وجعلت الطريق تحاذي حائطاً تنحني عليه الاشجار ، وعلى الاشجار رذاذ من نور الشمس . كان الحجـــر بارداً . فاذا مشيت قربه احسست برودته . غير ان ريفنا ليس كهـذا الريف . ففي مجرد التمشي في مجاليه شيء يصعب تحديـــده ، ضرب من الخصب الساكن العنيف المشبع ابداً كمن جوع الى الخبز . دافقـاً من حولك ، لا مستغرقاً في التأمل وحاضناً كل حجر شحيح . كأنه مكره على التذرع بالحيل لتفي الخضرة بحاجـــة الاشجار كلها ، وحتّى زرقة الفضاء البعيد ليست كهذه السعادة العميقة اللون . **اخـــبروني ان العظم يجب كسره ثانية فصرخت أعماقي يقول آه آه آه وبدأت أعرق.ما همني فأنا اعرف ما تعنيه الساق المكسورة كل ما تعنيه لن تكون شيئاً ذا بال فكل ما علي هو ان ابقى في البيت لمدة اطول بقليل لا غير وعضلات فكي آخذة بالخدر وفمي يقول انتظر انتظر لحظة من خلال العرق وآه آه آه خلف أسناني وابـي لعنة الله على هذا الحصان لعنة الله على هذا الحصان. انتظر انها غلطتي . كان يأتي كل صباح بمحاذاة السياج حاملا سلة في اتجاه المطبخ ويجر عصاه على السياج وكل صباح أجرّ نفسي الى النافذة وساقي في جبيرة الجبس وأقذفـــه بقطعة فحم فتقول دلزي ستحطم نفسك ألست أعقل من ان تفعل ذلك ولم تمر بعد اربعة ايام منذ كسرتّهـا . انتظري سوف اعتاد عليها في لحظة انتظري لحظة سوف**

حتّى الصوت يبدو كأنه ينقطع في هذا الهواء ، كأنما الهواء منهوك القوى لطول مـــا حمل من اصوات . ان صوت الكلب أبعد مدى من صوت القطار ، في الظلام على الاقل . وكذلك اصوات بعض الناس . والزنوج . فلويس هاتشر لم يستعمل قط بوقه رغم انـه كان يحمله مع ذلك المصباح العتيق . قلت : « متى نظفت ذلك المصباح لآخر مرة؟»

– « نظفته قبل مدة . اتذكر عندما جرفت مياه ذلك الفيضان اناساً كثيرين هنالك ؟ نظفته في ذلك اليوم بعينه . فقد كنا انا وعجوزتي جالسين امام النار تلك الليلة فقالت : يا لويس ، ما الذي ستفعله عندما يبلغنا الفيضان ؟ فقلت : اي والله صدقتِ . فالافضل ان انظف ذلك المصباح . وهكذا نظفته تلك الليلة . »

قلت : « ولكن ذلك الفيضان كان في بنسلفانيا . وما كان بامكانه ان يبلغ هذا المكان . »

فقال : « هذا ما تظنه انت . فالماء يعلو ويفيض في جفرسن كما في بنسلفانيا . والناس الذين يقولون ان الماء لا يستطيع ان يبلغ هذا المكان هم الذين تجدهم في النهاية عائمين متشبثين بسقائف البيوت . »

– « هل خرجتما تلك الليلة ، انت ومرتا ؟ »

– « ذلك ما فعلناه . نظفت المصباح ثم قضينا بقية الليل انا وهي على قمة تلك التلة التي وراء المقبرة . ولو كنت اعرف بوجود قمة اعلى منها لذهبنا اليها . »

– « ومنذ ذلك اليوم لم تنظف المصباح ؟ »

– « ولماذا أنظفه ما دمت لا أحتاج اليه ؟ »

– « تقصد الى ان يأتينا فيضان آخر ؟ »

– « لقد خلّصنا من ذلك الفيضان . »

فقلت : « دع عنك هذا يا عم لويس . »

– « اي والله يا سيدي ، أنت تذهب في سبيلك وانا أذهب في سبيلي . ان يكن كل ما علي ان أفعله للخلاص من مياه الفيضان هو تنظيف هذا المصباح ، فلن أخاصم أحداً . »

فقال فيرش : « العم لويس لا يصطاد شيئاً بضوء ينير له الطريق. »

– « يا ولد ، كنت أصطاد القنافذ في هذه البقاع أيام كانوا يغرقون الصئبان في رأس أبيك بالنفط . » قال لويس . « وامسك بها أيضاً . »

فقال فيرش : « صحيح . أتصور ان العم لويس اصطاد من القنافذ أكثر مما اصطاده أي رجل آخر في هذا البلد . . »

قال لويس : « اي والله . عندي الكثير من الضوء لرؤية القنافذ . وما سمعت أحدها يتذمر . صه ! هناك هو . هُوِي ! هيا يا كلبي ، عليك به ! » ونجلس بين الاوراق اليابسة الهامسة همساً رفيقاً مع وثيد تنفسنا في الانتظار ووثيد تنفس الأرض وتشرين العديم الريح ، ورائحة المصباح الخبيثة تلوث الهواء الرقيق الهش ، مصغين الى الكلاب وصدى صوت لويس يتلاشى بعيداً . لم يرفع صوته قط ، غير اننا كنا في الليالي الساكنة نسمعه حتى من شرفتنا الامامية . واذا ما استدعى كلابه كان صوته أشبه بالبوق الذي يحمله معلّقاً على كتفه ولا يستعمله ، الا انه أكثر صفاء ورخامة كأنه جزء من الظلام والسكون ، يتلولب خارجاً منه داخلاً فيه من جديد . هو وووو ... هو وووو ... هو وووو وووووووو ...

لا بد لي من الزواج من رجل ما

هل عرفت رجالا كثيرين يا كادي

لا اعرف الكثيرين هل ستعنى ببنجي وابي

اذن ألا تعلمين من ابوه أيعلم هو

لا تمسني ارجوك هل ستعنى ببنجي وابي

بدأت أشعر بالماء قبل ان ابلغ الجسر . كان الجسر من حجر رمادي ، مطحلب ، بقّعته الرطوبة البطيئة حيث دبت فطريات العفن . وكان الماء تحته صافياً ساكناً في الظل ، يهمس ويقوقىء حول الحجر في دوامات متلاشية من سماء تدور وتدور . **كادي ذلك**

لا بد لي من الزواج من رجل ما لقد أخبرني فيرش عن رجل خصى نفسه . توغل في الاحراش وفعلها بموسى وهو جالس في خندق . بموسى مكسورة . وقذف بهما الى الخلف من فوق كتفه وفي الحركة نفسها انقذفت انشوطة الـدم المترجرجة خلفاً وما تحلقت . ولكن ليست هذه هي

المسألة . ليست المسألة فقدانها . بل هي ان اولد بدونهما ولقلت حينئذٍ آه تلك لغـة صينية وأنا لا أعرف الصينية . وقال أبـي : ذلك لأنك أعذر ، الا ترى ؟ والنساء لسن أبداً عذارى . فالعفة حالة سلبية ولذا فإنها تناقض الطبيعة . الطبيعة هي التي تؤلمك وليست كادي فقلت هـذه محض كلمات فقال وكذلك البكارة . فقلت انت لا تدري، وليس بوسعك ان تدري فقال اجل . في اللحظة التي ندرك فيها ان المأساة وافتنـا لا جديدة بل كرداء مستعمل .

كان بوسعي ان أرى سُفُلاً الى عمق بعيد حيث يقع ظل الجسر ، ولكن دون ان أرى القاع . اذا تركت ورقة خضراء في الماء مدةً طويلة وجدت بعد زمن ان النسج يتلاشى وأن الألياف الدقيقة تماوج بطيئـة بطء حركة النوم .وفلا يمسّ بعضها بعضاً مهما تتشابك في الأصل، مهما تكن في الأصل قريبة من العظام . ويوم يقول الله « قوموا » لربما تطفو العينـان أيضاً الى السطح خارجتين من أعماق الهدأة والنوم ، لتشاهدا النور والجلال . وبعد لحظات تطفو المكواتان . لقد اخفيتهما تحت نهاية الجسر وعدت واتكأت على الافريز .

لم استطع ان أرى القاع ، ولكن بصري ، كان ينفذ عميقاً في حركة الماء قبل ان تكلّ العين ، واذا بـي أرى ظلاً طافياً كسهم بدين متأصل في التيار . وكان الذباب يحوّم فوق سطح الماء داخلاً ظل الجسر خارجاً منه . **يا ليت هناك جحيماً وراء ذلك : اللهب النقي وكلانا اكثر من ميت. وعندها لن يكون لك سواي سواي أنا ثم كلانا وسط الإشارات والرعب وراء اللهب النقي** لقد تضخم السهم بغير حركة ، وفي تدويرة سريعة التقمت السمكة ذبابـةً تحت السطح بتلك النزاكة العملاقية التي تراها في فيل يلتقط فستقة . وانسابت الدوامة المتلاشية مع السيل ثم رأيت السهم ثانية ، ورأسه في التيار ، وهو يترنح ترنحاً لطيفاً مع حركة الماء الذي كان الذباب فوقه يتمايل ويتوازن.**دون غيرنا أنا وانت حينئذ وسط الاشارات**

والرعب يُسَوِّرنا اللهب النقي

واستكانت السمكة ، رقيقة لا تبدي حراكاً بين الظلال المترنحة ، وجاء ثلاثة اولاد يحملون السنانير إلى الجسر واتكأنا كلنا على الافريز وتأملّنا السمكة . لقد كانوا يعرفونها . إنها من شخصيات المحلّة .

— « لقد مضى عليهم وهم يحاولون ان يصيدوا تلك السمكة خمس وعشرون سنة . وفي بوسطن حانوت يقدّم سنّارة قيمتها خمسة وعشرون دولاراً لكل من يستطيع صيدها . »

— « لماذا لا تصيدونها انتم اذن ؟ ألا تودّون لو تحصلون على سنارة قيمتها خمسة وعشرون دولاراً ؟ »

فقالوا : « نعم . » واتكأوا على الافريز وهم ينظرون إلى السمكة . وقال احدهم : « ليتني استطيع . »

قال الثاني : « لن آخذ السنارة ، بل النقود . »

فقال الاول : « لن يقبلوا بذلك . بل يجعلونك تأخذ السنّارة . »

— « ابيعها اذن . »

— « لن تحصل بها على خمسة وعشرين دولاراً . »

— « سآخذ المبلغ الذي يتيسّر ، اذن . فأنا بهذه السنارة أتمكن من صيد العديد من السمك بقدر ما اتمكن من صيدها بذات الخمسة والعشرين دولاراً . » ثم راحوا يتحدثون عما سيفعلونه بالخمسة والعشرين دولاراً . وكلهم يتحدثون في آن واحد ، بأصوات ملحاحة متناقضة لجوج ، جاعلين من الخيال إمكاناً ، ثم احتمالاً ثم حقيقة لا تُدحض ، شأن الناس جميعهم عندما تتحول مشتهياتهم ألفاظاً .

قال الثاني : « سأشتري حصاناً وعربة . »

فقال الآخران : « صحيح ؟ »

— « أي والله . فأنا أعرف مكاناً أستطيع شراءهما منه بخمسة وعشرين دولاراً . أعرف صاحب المكان . »

— « ومن هو ؟ »

— « ولم السؤال؟باستطاعتي ان أشتريها بخمسة وعشرين دولاراً . »

فقال الآخران : « انه يهرف بما لا يعرف . كلام في كلام . »

فقال الولد : « أهذا ما تظنان ؟ » واستمرا في الهزء منه وهو لا يقول شيئاً . واتكأ على الافريز يتأمل السمكة التي انهكها، واذا الأصوات فجأة تفقد المرارة والصراع ، كأن الآخرين اقتنعا هما ايضاً بأنه قد اسر السمكة وابتاع العربة والحصان ، وبدت فيهما تلك السجية من سجايا البالغين ، سجية الاقتناع بأي شيء بمجرد التظاهر بالاستعلاء الصامت الوقور . وليخيل إلي ان الناس ، لشدة ما يستهلكون انفسهم وغيرهم الفاظاً ، ينسجمون مع منطقهم حين يعزون الحكمة الى الشفتين المطبقتين، فانتابني الشعور لبرهة بأن الاثنين الآخرين جعلا يبحثان حثيثاً عن وسيلة ما يسيطران بها عليه ، ويسلبانه عربته وحصانه .

فقال الاول : « لن تحصل على خمسة وعشرين دولاراً لقاء تلك السنارة . اراهنك على ما شئت . »

قال الثالث فجأة : « لم يصد تلك السمكة بعد . » ثم صاحا معاً:

« اترى ؟ ماذا قلت لك ؟ ما اسم صاحب المكان ؟ اتحداك بأن تذكره . لا وجود لمثل هذا الرجل . »

فقال الثاني : « اوه ، اسكت ! انظر . ها هي قد عادت ثانية.» واتكأوا على الافريز ، بلا حراك ، متماثلين ، وسنانيرهم الهيفاء نازلة، متماثلة أيضاً ، في ضوء الشمس.ونهضت السمكة دونما عجلة ، ظلاً باهتاً يترنح ويتضخم ، وتلاشت الدوامة ثانية منسابة مع السيل . وتمتم الاول: « يا الله . »

وقال : « لن نحاول ان نصيدها مرة اخرى . ولنراقب اهل بوسطن وهم يحاولون . »

— « وهل هي السمكة الوحيدة في هذا الماء ؟ »

— « نعم . فقد هزَمت الاسماك الاخرى كلهـا . ولكن افضل اماكن الصيد هي هناك ، عند « الدوامة » . »

فقال الثاني : « لا ، ابداً . افضل منها بمرتين المكان الذي عند طاحونة بيغلو . » وتلا ذلك جدل حول افضل امكنة الصيد ، اقلعوا عنه فجأة ليرقبوا السمكة وهي ترتفع ثانية ودوامة الماء الصغيرة تمتص شيئاً من السماء . فسألتهم عن المسافة الى اقرب بلدة . فأخبروني .

— « ولكن اقصر طرق الحافلات في الاتجاه الآخر . » قال الثاني وهو يشير بيده الى الطرف القصي من الطريق : « الى اين انت ذاهب ؟ »

— « لا مكان . انني اتمشى . »

— « هل انت من طلاب الجامعة ؟ »

— « نعم . أتوجد في تلك البلدة مصانع ؟ »

— « مصانع ؟ » وحدّقوا بي .

وقال الثاني : « كلا . » وتأملوا ثيابي . « أتبحث عن عمل ؟ »

قال الثالث : « وطاحونة بيغلو ، أليست مصنعاً ؟ »

— « اي مصنع ؟ انه يسأل عن مصنع حقيقي . »

فقلت : « مصنع له صافرة . لم اسمع بعد صافرة تعلن الساعة الواحدة . »

فقال الثاني : « آه . في قبة الكنيسة الاتحادية ساعة ، تستطيـع ان تعرف الوقت منها . الا تحمل انت ساعة على طرف سلسلتك هذه ؟ »

— « لقد كسرتها هذا الصباح . » واريتهم ساعـتي . فتفحصوها جادّين . وقال الثاني :

— « ما زالت تشتغل . ما ثمن ساعة كهذه ؟ »

فقلت : « انها هدية . اعطاني اياها ابي يوم تخرجت من الثانوية . »

قال الثالث : « أكنديّ انت ؟ » وكان شعره احمر .

— « كندي ؟ »

قال الثاني : « انه لا يتكلم مثلهم . فقد سمعتهم يتكلمون . انـه

يتكلم كما يفعلون في حفلات المغنين الملونين .»

فقال الثالث : « ألا تخشى أن يضربك ؟ »

— « يضربني ؟ »

— « قلتَ انه يتكلم كالملونين . »

— « كفاك كلاماً ! بوسعك ان ترى برج الكنيسة عندما تصعد ذلك التل . »

فشكرتهم . « أرجو لكم التوفيق . ولكن لا تصيدوا صاحبتنا التي في هذا الماء . ألا تستحق أن تترك وشأنها ؟ »

فقال الأول : « وهل هناك من يستطيع صيدها ؟ » واتكأوا على الافريز ، وهم يرساون النظر إلى أعماق الماء، وسنانيرهم الثلاث كخيوط مائلة ثلاثة من نار صفراء تلتمع في الشمس . ومشيت على ظلي، مقحماً إياه بقدمي في بُقَع أفياء الشجر ثانية . كان الطريق ينعطف صعداً عن الماء ، ويقطع التلّ ، ثم ينحدر في تعاريج وهو يحمل العين والذهن قُدُماً في نفق أخضر ساكن تحت قبة مربعة تعلو الاشجار وعينَ الساعة المستديرة . جلست على قارعة الطريق . كان العشب يبلغ الكاحلين ، كثّاً . والظلال الملقاة على الطريق ساكنة كأنها قد رسمت عليه بأقلام مائلة من ضوء الشمس . ولكن لم يكن ذاك إلا قطاراً تلاشى بعد قليل وراء الأشجار صوته الطويل، ثم جعلت اسمع ساعتي واسمع القطار يتلاشى، كأنه يجري خلال شهر آخر أو صيف آخر في مكان ما ، مهرولاً تحت النورس المتوازن في الفضاء وكل ما يهرول . إلا جرالد . فهو أيضاً سيبدو جليلاً وقوراً وهو يجذف في أبهة الوحيد الفريد عبر الظهيرة ، الى ما وراء الظهيرة ، صاعداً الفضاء الوهّاج المستطيل كشيء مؤلّه ، راقياً الى أبدية وسنانة حيث يكون هو والطير دون غيرهما ، أحدهما بلا حراك والآخر في انطلاقة مجذافية وئيدة كأنها القصور الذاتي بعينه ، والدنيا ضئيلة تحت ظليهما الواقعين على الشمس . يا كادي ذلك النذل

الحقير ذلك النذل الحقير يا كادي .

جاءتني أصواتهم من على التل والسنانير النحيلة الثلاث كخيوط متزنة من نار جارية . ونظروا اليّ اذ مرّوا بي ، غير مبطئين .

فقلت : « لست أراها ؟ »

فقال الأول: « لم نحاول ان نصيدها . لن يستطيع أحد ان يصيدها.»

قال الثاني مشيراً : « تلك هي الساعة ، بوسعك ان تعرف الساعة اذا دنوت منها قليلاً . »

قلت : « نعم . لا بأس . » ونهضت . « أذاهبون انتم الى المدينة ؟»

قال الاول : « اننا ذاهبون الى « الدوامة » للصيد . »

قال الثاني : « ولن نصيد شيئاً هناك . »

— « هل الافضل اذن ان نذهب الى الطـاحونة ، حيث الكثيرون يتراشقون بالماء ويُفزعون الاسماك ؟ »

— « لن نصيد شيئاً عند الدوامة . »

قال الثالث : « لن نصيد سمكاً في اي مكان اذا لم نذهب . »

فقال الثاني : « لست ادري والله ما فائدة الكلام عن الدوامة . لن نصيد سمكة واحدة هناك . »

قال الاول : « لا حاجة بك الى الذهـاب هناك ، انت لست مربوطاً بي . »

قال الثالث : « لنذهب الى الطاحونة ونسبح . »

قال الاول : « لن اذهب الا الى الدوامة للصيد،فافعل ما تشاء . »

قال الثاني للثالث : « بالله قل لي ، متى سمعت احداً اصطاد سمكة عند الدوامة ؟ »

فقال الثالث : « لنذهب الى الطاحونة ونسبح . »

اخذت القبة تحتجب رويداً وراء الاشجار ، وميناء الساعة المستدير لما يزل بعيداً . وسرنا معاً في الظلال الرقشاء حتى بلغنا حديقة وردية بيضاء،

تعج بالنحل . فقد بدأنا نسمع الطنين .

وقال الثالث : « لنذهب الى الطاحونة ونسبح . » كان قرب الحديقة ممر يتفرع عن الطريق . فأبطأ الولد الثالث سيره ثم توقف . اما الاول فاستمر في سيره ، ونَدْفٌ من الشمس ينزلق على السنارة عبر كتفه الى ظهر قميصه . قال الثالث : « هيا بنا . » فتوقف الولد الثاني ايضاً .

ولماذا لا بد لك من زواج يا كادي

اتريدني ان اقولها اتظن اذا قلتها انها

قال : « لنذهب الى الطاحونة . هيا بنا . »

واستمر الولد الاول في سيره، دون ان تحدث قدماه الحافيتان صوتاً إذ تقعان على التراب الرقيق وقعاً انعم من وقع اوراق الشجر . اما في الحديقة فقد كان طنين النحل اشبه بريح تلملم نفسها ، او بصوت بلغ ما دون الذروة شدةً فأبقاه سحر ما مستمراً وهو دون ذروته بقليل . كان الممر يمتد بمحاذاة الحائط وقد انعقدت فوقه الأزهار في قناطر وجزّأته ، ويتلاشى في الشجر . ونور الشمس هابط فيه، متقطعاً لاهثاً . والفراشات الصفر تنتفض في الفيء كندفٍ من الشمس .

وقال الولد الثاني : « لماذا تريد الذهاب الى الدوامة ؟ لك ان تصيد السمك عند الطاحونة اذا شئت . »

فقال الثالث : « آه ، فليذهب . » وتبعا الولد الاول بنظراتهما . ونور الشمس ينزلق متقطعاً عبر كتفه الماشية، ويتألق على سنارته كالنمل الأصفر .

قال الولد الثاني : « كني . » **قلها لابيك ارجوك سأقولها اني ناسلُ ابي لقد اخترعته وخلقته انا اياه قلها له انها لن تكون لانه سيقول لم اكن ثم انت وانا محب الاطفال اطفالي**

وقال الولد : « هيا ، هيا بنا . لقد بدأوا يسبحون . » وتبعا الولد الاول بنظراتهما ، ثم قالا فجأة : « طيّب ، اذهب، اذهب يا مدلّل

امه . اذا ذهب للسباحة ابتلّ رأسه، فيأكلها علقة في البيت . » ودخلا الممر وسارا ، والفراشات الصفر تتهابط حولها في الظل .

ذلك لانه ليس ثمة اي شيء آخر بل اعتقد ان ثمة شيئاً آخر ولكن لعلني واهم ومن ثم انا انك ستجد حتى الظلم يكاد لا يكون اهلاً لما تعتقد انك اياه لم يعرني اي اهتمام ، مشدود الحنك وقد اشاح الوجه قليلاً تحت قبعته المكسّرة .

وقلت : « لماذا لا تذهب للسباحة معها ؟ » **ذلك النذل الحقير يا كادي**

هل كنت تحاول ان تتشاجر معه هل كنت

كذّاب ووغد لئيم يا كادي طردوه من عضوية ناديه لغشّه في لعب الورق وقاطعوه اجتماعياً وامسكوا به متلبّساً بالغش في امتحانات نصف السنة وطردوه

وماذا يهمني من كل ذلك لن ألعب معه الورق

قلت : « أتفضل صيد السمك على السباحة ؟ » وتضاءل طنين النحل، وان بقي مستمراً ، كأنه بدلاً من ان ينتهي الى الصمت، ازداد الصمت بيننا ، كماء يرتفع . وانعطف الطريق ثانية وأصبح شارعاً على جوانبه حدائق وارفة الظلال تتوسطها بيوت بيضاء . **كادي ذلك النذل الحقير أبوسعك ان تفكري بابي وبنجي وتفعليها وبي**

وهل هناك ما افكر به سوى ذلك هل هناك ما فكرت به سوى ذلك لقد حاد الولد عن الشارع . ثم تسلّق سياجاً دون ان ينظر الى الخلف وقطع مرج الحديقة الى احدى الاشجار ورمى بالسنارة عنه وتسلّق الى فرع الشجرة وقعد هناك مديراً ظهره الى الطريق واستقرت الشمس الرقشاء بلا حراك أخيراً على قميصه الابيض . **فكرت به سوى ذلك لا استطيع حتى البكاء لقد متُّ في السنة الماضية وقد قلت لك ذلك** من **قبل غير اني لم اعرف حينئذ معنى ما قلت لم اعرف ما الذي كنت اقول** بعض

الايام في أواخر آب في بلدتنا شبيه بهذا ، اذ يكون الهواء رقيقاً لاهثاً كهذا الهواء ، يشوبه حزن وتوق وحنين . وما الانسان إلا مجموع تجاربه المناخية ، قال أبي . وما الانسان إلا مجموع ما تشاء . معضلة من معضلات الحواص المشوبة وقد استمرت رتيبة إلى صفر لا يتبدل : حرب سجال بين التراب والشهوة . اما الآن فانني أعلم انني ميتة

اذن لماذا عزمت اسمعي بوسعنا ان نذهب انا وانت وبنجي الى مكان لا يعرفنا فيه أحد حيث كانت العربة يجرها حصان أبيض تقرع حوافره التراب الرقيق ، والعجلات العنكبوتية تدمدم دمدمة رقيقة هشة ، وهي تصعد التل تحت رداء يتماوج من الورق . دردار . دردار .

بماذا بنقود رسومك الجامعية بالنقود التي تأتت لقاء المرعى الذي باعوه لكي تستطيع الذهاب الى هارفرد ألا ترى ان عليك ان تكمل الدراسة وان لم تكملها لم يبق له شيء

المرعى الذي باعوه كان قميصه بلا حراك في فرع الشجرة ، في الظل المنتفض . وكانت العجلات عنكبوتية ، والحوافر تحت منخفض العربة تطرد رشيقة كحركات سيدة تطرز منديلاً ، تتضاءل دونما تقدم كمن يقلد الركض على خشبة المسرح . ثم انعطف الشارع مرة أخرى . ورأيت القبة وإصرار الساعة الغبي المستدير . **المرعى الذي باعوه**

يقولون ان ابي سيموت بعد سنة ان لم يكف عن الشرب وهو لن يكف عنه لأنه لن يستطيع لأن لأنني منذ الصيف الماضي وعندئذ يرسلون بنجي الى جاكسن لا استطيع البكاء لا أستطيع حتى البكاء وقفت في الباب دقيقة وسرعان ما راح يسحب ثوبها ويولول وصوته تتقاذفه الجدران أمواجاً وقد جعلت تتقلص لصق الحائط أصغر فأصغر وقد ابيض وجهها وغدت عيناها كإبهامين مغروزين فيه إلى أن دفع بها الى خارج الغرفة وصوته تتقاذفه الجدران جيئة وذهاباً كأن اندفاعه لن يدعه يتوقف كأنه لا مكان له في عالم الصمت يولول

اذا فتحت الباب دقّ جرسٌ دقة واحدة وحسب ، دقة رفيعة صافية خفيضة في العتَمة النظيفة التي فوق الباب ، كأنه قد قيس وكُيِّف لاطلاق تلك الرنّة الخفيفة الصافية الوحيدة خشية أن يهترىء الجرس أو يتطلب انفاقاً لصمت كثير عند استعادتها اذا ما فُتح الباب على فوْح الخبز الحار الجديد ؛ طفلة لهـا عينان كعيني دبٍّ دميةٍ وضفيرتان كالجلد المصقول .

— « مرحباً يا أختاه . » كان وجهها أشبه بكوب من الحليب فيه قطرتان من القهوة في الفراغ الدافىء العذب . « هل من أحد هنا ؟ »

غير انها اكتفت بالتحديق فيّ الى ان انفتح باب دخلت منه السيدة . فوق الحاجز حيث صُفّت الأشكال المحمّرة اللذيذة وراء الزجاج وجهها الأشيب الأنيق بشعرها الخفيف المشدود من جمجمتها الشيباء الأنيقة ، ونظارتها بحوافها الشهباء راكبة مقبلة كشيء معلق بسلك ، كصندوق نقد في متجر . لقد بدت وكأنها أمينة مكتبة، كشيء استقر بين رفوف معفّرة من الحقائق المرصوفة المنفصلة عن الواقـع منذ بعيد ، وها هو يجفّ ويتهافت في أمنٍ ودعة ، كنسمة من ذلك الهواء الذي يرى الظلم يقع .

— « اثنتين من هذه ، لطفاً ، يا سيدي . »

فأخرجت من تحت الحاجز ورقة مربعة اجتُزئت من صحيفة ووضعتها على الحاجز ورفعت الكعكتين . وراحت الفتاة الصغيرة ترنو اليهما بعينين جامدتين لا تغمضان كزبيبتين طافيتين في كوب من القهوة الخفيفـة يا أرض « الكايك » يا موطن « الطرب »* . راحت ترنو الى الخبز ، واليدين الشهباوين الانيقتين وحول السبّابة اليسرى خاتم ذهبي عريض ، والسّلاميات الزرقاء .

---

* Wop,Kike من الكلمات التي يطلقها الامريكيون الذين يغلب فيهم الدم الانجلوسكسوني ، على الفئات الاخرى في امريكا ، احتقاراً يقصد بالاولى الهنود الحمر وبالثانية الايطاليون .
(المترجم)

— « هل تخبزون أنتم كل ما تبيعون ، يا سيدتي ؟ »

فقالت : « سيدي ؟ » هكذا : سيدي؟كما يقولونها على المسرح : سيدي ؟ « خمسة سنتات . أي شيء آخر ؟ »

— « كلا يا سيدتي . لا أريد شيئاً آخر . انما السيدة هنا تريد شيئاً . » لم تكن طويلة بحيث تستطيع ان ترى من فوق الخزانة،فذهبت الى نهاية الحاجز ونظرت الى الفتاة الصغيرة .

— « أأنت أتيت بها هنا ؟ »

— « لا يا سيدتي . فقد كانت هنا عندما دخلت . »

فقالت : « يا قليلة الحياء . » وخرجت من وراء الحاجز ، غير انها لم تمس الفتاة الصغيرة . « ألديك شيء في جيوبك ؟ »

فقلت : « لا جيوب لها . لم تفعل شيئاً ، بل كانت واقفة هنا،في انتظارك . »

— « لمَ لم يدق الجرس اذن ؟ » وحدجتني بنظرة غضبى . ما كان ينقصها سوى مجموعة من المفاتيح ولوح أسود وراءها ٢ × ٢ = ٥ . « قد تخفيه تحت ثوبها ولن يعرف به أحد . اسمعي يا طفلة ، كيف دخلتِ ؟ »

لم تقل الطفلة شيئاً . نظرت الى المرأة ثم قذفتني بنظرة سوداء سريعة ونظرت الى المرأة ثانية . قالت المرأة : « هؤلاء الأجانب ! » ، ثم أردفت : « كيف استطاعت الدخول دون ان يدق الجرس ؟ »

فقلت : « لقد دخلتْ عندما فتحت أنا الباب . فدقّ مرة واحدة لكلينا . وهي لن تستطيع ان تطال شيئاً من هنا ، على كل حال . ولا أحسبها تفعل ذلك حتى لو استطاعت . أليس كذلك يا اختاه ؟ » ونظرت الفتاة الصغيرة اليّ كمن يتأمل ويتكتّم . « ماذا تريدين ؟ خبزاً ؟ »

فمدّت قبضتها ، وفتحتها عن قطعة نقد صغيرة ، رطبة قذرة ،

والقذارة الرطبة قد انحفرت في لحمها . كانت قطعة النقد لزجة دافئة ، تشممتُ رائحتها المعدنية .

— « من فضلك يا سيدتي ، ألديك رغيف بخمسة سنتات ؟ »

ومن تحت الحاجز أخرجتْ قطعة ورق مربعـة اقتطعت من صحيفة ووضعتها على الحاجز ولفت بها رغيفاً من الخبز . فوضعتُ قطعة النقد، مضيفاً اليها قطعة أخرى ، على الحاجز وقلت : « وكعكة أخـرى من هذه ، من فضلك يا سيدتي . »

فتناولتْ كعكة أخرى من الخزانة وقالت : « أعطني تلك الرزمة.» فأعطيتها اياها ، ففكّتها ووضعت فيها الكعكة الثالثة والتقطت قطعتَي النقد ، ووجدت في صدريتها فلسين ناولتني اياهما ، فأعطيتهما الفتاة الصغيرة . وفي الحال انغلقت أصابعها عليهما ، رطبةً حارةً، كالديدان .

فقالت المرأة : « أستعطيها تلك الكعكة ؟ »

قلت : « نعم . لا ريب ان رائحة فطائركم تلذّ لها بقدر ما تلذ لي.»

وتناولتُ الرزمتين وأعطيت الخبز الى الفتاة الصغيرة ، والمرأة الشهباء بلون الحديد من وراء الحاجز ترقبنا بيقين صارم . وقالت « انتظـري دقيقة . » ثم ذهبت الى مؤخرة الحانوت وانفتح الباب ثانية وانغلق . وبقيت الفتاة ترنو اليّ وقد أمسكت بالخبز لصق ثوبها الوسخ .

قلت : « ما اسمك ؟ » فصرفت عينها عني ، غير أنها ما انفكّت بلا حراك . وكأنها لا تتنفس . وعادت المرأة ، وفي يدها شيء مضحك المنظر حملته كأنه جرذ مدلّل ميّت .

وقالت : « هاك . » فرفعت الطفلة عينها اليها . « خذيها ! » قالت المرأة وهي تنخز بها الفتاة الصغيرة . « منظرهـا غريب ، ولكنك لن تعرفي الفرق عندما تأكلينها . هاكِ . انا لا استطيع ان اقف هنا النهار كله . » فأخذتها الفتاة وهي ما زالت تنظر إليها . ومسحت المرأة يدها بصدريتها . وقالت : « يجب أن اصلح هـذا الجرس . » وذهبت الى

الباب وفتحته بعنف ، فرنّ الجرس الصغير مرّة واحدة ، خافتاً صافياً غير مرئيّ . وسرنا نحو الباب وظهر المرأة المتطلع .

وقلت : « شكراً لك على الكعكة . »

فقالت وهي تحدّق في العتَمة حيث الجرس يرنّ : « هؤلاء الاجانب! خذ نصيحتي وابقَ بعيداً عنهم ، يا فتى . »

قلت : « نعم . هيّا يا أختاه . » وخرجنا . « شكراً يا سيدتي . »

واغلقت الباب ثم فتحته بعنف ثانية ليطلق الجرس رنّته الهزيلة الوحيدة وقالت « أجانب ! » وعينها مصوبة إلى الجرس .

ومشينا . وقلت : « والآن ، ما رأيك في شيء من الدندرمة ؟ » بدأت تقضم الكعكة العقــداء . « اتحبين الدندرمة ؟ » فلمحتني بنظرة سوداء ساكنة وهي تمضغ . « هيّا بنا . »

وأتينا إلى الحانوت ، وأخذنا شيئاً من الدندرمة : وهي تتشبّث بالرغيف. وقلت : « لماذا لا تضعينه عنك ، فتأكلي براحة ؟ » وهممت بأخـذه منها . غير أنها تمسكت به وهي تمضغ الدندرمة كأنها « توفي » ، والكعكة المعضوضة على الطاولة . وراحت تأكل الدندرمة على رِسْلها ، ثم انكبّت على الكعكة من جديد ، وهي تدير بصرها بين خزائن الزجاج . ولما أتيت على دندرمتي ، خرجنا .

قلت : « اين تسكنين ؟ »

عربة — تلك العربة ذات الحصان . ولكن الدكتور بيبدي سمــين . مئة وخمسون كيلوغراماً . فاذا ركبت معه صاعدين التل ، تشبثت بها . اطفال . المشي اسهل من التشبث صعوداً على التل . **هل راجعتِ الطبيب هل راجعت يا كادي**

لا حاجــة لا استطيع السؤال الآن سيسهل الأمر فيما بعد لن يكون ذا بال

لأن النساء رهيفات غامضات قال ابي . دقة توازن القذارة الحيضية

بين قمرين متوازنة . قال بدورٌ صفراء كبدر الحصاد ردفاها فخذاها . خارج خارجهن دائماً ولكن . صفراء . أسفل القدمين كأنما من كثرة المشي . فاعلم اذن ان رجلاً ما ان كلّ هذه الغوامض المتعجرفات خفية . يكل ما في دواخلهن اشكال دماثة ظاهرية حسبها لمسة واحـــدة لكي . عفن سائل كأشياء غريقة طافية كمطاط مُلىء مترهلاً اختلط عليّ شذا زهر العسل .

— « أليس الأفضل ان تأخذي خبزك الى البيت ؟ »

ونظرتْ إليّ وهي تمضغ هادئة على رسلها ؛ وعـــلى فترات نظيمة تنزلق انتفاضة صغيرة على حنجرتها . ففتحتُ رزمتي وأعطيتها احـــدى الكعكات . وقلت : « استودعك الله . »

ومضيت في سبيـــلي . ثم التفتُّ الى الخلف ، واذا هي ورائي . « اتسكنين في هذا الاتجاه ؟ » لم تقل شيئاً . وسارت الى جانبي ، تحت المرفق مني ، وهي تأكل . ومضينا معاً . والهدوء شامل لا نكاد نرى أحداً في الطرق **اختلط عليّ شذا زهر العسل ولكانت ستخبرني ألا ادعني اجلس هناك على الدرج لأسمع بابها الأصيل ينصفق لاسمع بنجي ما برح في بكائه العشاء وعندها لا بد لها من النزول وقد اختلط به زهر العسل** وبلغنا المنعطف .

فقلت : « عليّ أن اسير في هذا الاتجاه . وداعاً . » فتوقفت هي أيضاً . ابتلعت آخر لقمـــة من الكعكة الكبيرة ثم بدأت تلتهم الكعكة الصغيرة ، وعيناهـــا عبر الكعكة ترمقانني . « وداعاً . » قلت لها ، وانعطفت في الشارع ومضيت ، ولكنني سرت الى المنعطف التـــالي قبل ان أقف .

وقلت : « في أي اتجاه بيتك ؟ في هذا ؟ » وأشرت بيدي الى الشارع . غير انها نظرت الي ولم تجب . « أم في ذاك ؟ لا شك انك تسكنين قرب المحطة ، حيث توجد القطارات . أليس كذلك ؟ » فظلت

تنظر الي ، وادعةً غامضةً ماضغة . كان الشارع خالياً في كلا اتجاهيه وعلى الجانبين حدائق هادئة ومنازل أنيقة بين الشجر ، ولكن دونما اي بشر الا في المكان الذي تركناه . فاستدرنا وعـــدنا ادراجنا . ورأينا رجلين جالسين في مقدمة أحد المخازن .

— « هل هنا من يعرف هذه الفتاة ؟ لقد تعلقت بـي ولا استطيع ان أعرف منها أين تقيم . »

فما عادا ينظران الي ، بل نظرا اليها .

وقال أحدهما : « لعلها من احدى هذه العائلات الايطالية الجديدة .» كان يلبس معطفاً رسمياً صدِئاً . « لقد رأيتها من قبل . ما اسمك يا صغيرة ؟ » فألقت عليهما نظراتها السوداء للحظتين ، وفكّاها في حركة مستمرة . وابتلعت ما في فمها دون ان تكفّ عن المضغ .

قال الآخر : « لعلها لا تتكلم الانجليزية . »

قلت : « ارسلوها لتبتاع خبزاً . فلا بد انها تتكلم قليلاً . »

قال الأول : « ما اسم ابيك ؟ بيت ؟ جو ؟ اسمه جون ، هه ؟ » وتناولت لقمة اخرى من كعكتها .

فقلت : « ماذا أفعل بها ؟ انها تتبعني أينما أذهب . وعليّ ان أعود الى بوسطن . »

— « أمن الجامعة أنت ؟ »

— « نعم يا سيدي . ويجب ان أعود . »

— « اصعد في هذا الشارع وسلّمها لآنْس ، مفوض الشرطـــة . ستجده عند اسطبل مؤجر الخيل . »

فقلت : « أعتقد ان هذا ما يجب ان أفعله . يجب ان أتخلص منها على نحو ما . شكراً جزيلاً . هيا بنا يا أختاه . »

وسرنا في الشارع على الجانب المظلـل ، حيث كانت ظلال الواجهة المتقطعة ترتمي في عرض الطريق . ولما بلغنا اسطبل مؤجر الخيل لم نجد

المفوض هناك ، بل رجلاً جالساً على كرسي مائل في الباب المنخفض العريض الذي يهب منه نسيم معتم قرير عابق بالنشادر على الحظائر المصطفّة ، قال لي ان راجع دائرة البريد ، لانه هو ايضاً لا يعرف الطفلة .

— « هؤلاء الأجانب . لا أميّز الواحد منهم عن الآخر . حاول ان تأخذها عبر السكك الى حيث يقيمون، فلعلك تجد من يطالب بها . »

فذهبنا الى دائرة البريد ، التي كانت في الطرف الذي خلّفناه من الشارع . ورأيت صاحب المعطف الرسمي يفتح صحيفة بين يديه .

وقال : « لقد خرج آنس من البلدة قبل لحظات . أتصور ان افضل ما تفعله هو ان تذهب الى ما وراء المحطة وتمرّ بتلك البيوت المبنية قرب النهر . ستجد هناك من يعرفها . »

فقلت : « انك على حق . هيا بنا يا اختاه . » واقحمت آخر قطعة من الكعكة في فمها وابتلعتها . فقلت : « اتريدين اخرى ؟ » فنظرت الي وهي تمضغ ، وعيناها سوداوان ، لا ترفّان ، حميمتان . فأخرجتُ الكعكتين من الرزمة وناولتها احداهما وعضضت الاخرى . وسألت عابر سبيل اين المحطة . فدلني عليها . « هيا بنا يا اختاه . »

بلغنا المحطة وعبرنا السكك إلى النهر . كان على النهر جسر ويتلو النهر شارع من البيوت الخشبية الخليطة أدارت الظهر للنهر : شارع أشعث، ولكنه غزير التنويع طلق الحيوية . وفي وسط ارض مهملة محاطة بسياج مكسّر كثير الثغرات وقفت عربة معوجّة عتيقة وبيت ملوّح تدلّى من إحدى نوافذه العليا لباس فاقع الحمرة .

قلت : « أيشبه هذا بيتكم ؟ » فنظرت إلي من فوق الكعكة . « هذا ؟ » قلت مشيراً بيدي : فبقيت تمضغ ، ولكن خيل الي انني اتبين في وجهها ضرباً من الايجاب ، مستسلماً اشد منه تواقاً . وقلت : « هذا البيت ؟ تعالي اذن . » ودخلت البوابة المكسورة . والتفتّ اليها

وقلت : « هنا ؟ أيشبه هذا بيتكم ؟ »

فهزت رأسها هزات سريعة وعينها عليّ وهي تقضم النصف المتبقي من حلواها الرطبة . وتقدمنا ، على ممشى من بلاط محطم مرصوف كيفما اتفق ، تخترقــه حشائش قشيبة خشنة ، يؤدي إلى شرفة المدخل المحطّمة . كل مـــا يحيط بالبيت ساكن بلا نأمة ، واللباس الورديّ يتدلى من النافــذة العليا لا تنوشه أية ريح . وثمة مقبض خزفي لجرس سحّاب يتصل بحوالي ست اقدام من سلك معدني ، على انني أعرضت عن سحبه وقرعت البـــاب . أما الفتاة الصغيرة فقد كانت الحافة من قشرة الكعكة في فمها الماضغ .

فتحت امرأة الباب . ونظرت إليّ ثم راحت تخاطب الفتـاة الصغيرة بالإيطالية بسرعة بنبرة متصاعدة ، تلتها وقفة استفهاميـــة . ثم خاطبتها ثانية ، والفتاة تنظر اليها من فوق قشرة الكعكة وهي تقحمها في فمهـا بيد قذرة .

فقلت : « تقول إنهـا تسكن هنا . صادفتها في المدينة . هل هذا الخبز لـكم ؟ »

فأجابت المرأة : « ما أتكلم . » وخاطبت الفتاة الصغيرة مرة أخرى. والفتاه تنظر اليها ولا تجيب .

— « لا تسكن هنا ؟ » قلت ذلك واشرت الى الفتاة ثم اليها ، ثم الى البيت . فهزت المرأة رأسها نفياً ، وهي تتكلم بسرعة . وجاءت الى حافة الشرفة واشارت الى الطريق وهي تتكلم .

فهززت رأسي بعنف أنا ايضاً ، وقلت : « تعالي أريني ؟» وأخذت بذراعها وانا الوّح بيدي الأخرى في اتجاه الطريق . وانطلقتْ في كلام سريع وهي تشير . « تعالي اريني ، » قلت ، محاولاً ان اقتادها على الدرج .

« سي ، سي ، » قالت ، وهي تتمنع ، وتدلني بيدها . فهززت

رأسي مرة اخرى .

« شكراً ، شكراً ، شكراً . » ونزلتُ الدرج وسرت نحو البوابة لا راكضاً ولكن حثيث الخطى . ولما وصلت البوابة وقفت ونظرت اليها برهة . كانت قد أتت على الكعكة ، فراحت تزجيني نظرتها السوداء الحميمة . ووقفت المرأة على الشرفة ترقبنا .

وقلت : « تعالي اذن . يجب ان نعثر على بيتكم ان عاجلاً او آجلاً . »

ومضينا وهي تسير تحت مرفقي . وبانت المنازل كأنها خالية كلها ، وما من أحد يُرى . ضربٌ من انعدام التنفّس تتصف به البيوت المقفرة . غير انها لم تكن كلها مقفرة ولا ريب . هذه الغرف المختلفة كلها ، لو كان بوسعك ان تسلخ عنها الجدران فجأة يا سيدتي ، ابنتك ، لطفاً . لا يا سيدتي ، والله ، ابنتك . كانت تسير وتحت مرفقي ضفائرها المشدودة اللامعة ، ثم ادركنا آخر المنازل ، وانعطف الطريق غير مرئي وراء جدار شاهق ، متبعاً النهر . وطلعت المرأة من البوابة المحطمة وعلى رأسها شال امسكت بطرفيه تحت ذقنها . وانعطف الطريق خالياً مقفراً . وعثرت على قطعة نقد أعطيتها الفتاة الصغيرة . ربع دولار . وقلت : « وداعاً يا أختاه . » وركضت .

ركضت ركضاً سريعاً ولم التفت الى الخلف . وقبل ان ينعطف الطريق التفتّ . فرأيتها واقفة في الطريق ، قداً صغيراً ، ممسكة بالرغيف لصق ثوبها الصغير الوسخ ، وعيناها ساكنتان ، سوداوان ، لا ترفّان . واستمررت في الركض ..

وتفرع درب عن الطريق فدخلته ، وبعد قليل تباطأت من الركض الى المشي السريع . وكان الدرب يمتد ما بين مبانٍ خلفية – منازل غير مصبوغة فيها الكثير من تلك الثياب الملونة المُجفّفلةً منشوراً على الحبال ، وعنبر مهدّم الظهر ، يتداعى ويتفسخ بهدوء وسط اشجار الحدائق الخثلة غفلت عنها يد التقليم وخنقتها الاعشاب ، وردية بيضاء غنّاء بالنحل

وبشعاع الشمس . والتفتُّ الى الوراء ، فوجدت المدخل الى الدرب خالياً . فازددت بطئاً في السير ، وظلي يعيّن لي خطوي ، وهو يجرّ برأسه بين الاعشاب التي تحجب السياج .

وتناهى الدرب إلى بوابة ذات قضبان ، وتلاشى في العشب ، صائراً إلى مجرد ممر جرّحه العشب الجديد . فتسلقت البوابة الى حرش صغير عبرته إلى حائط آخر ، فسرت بمحاذاته وظلي الآن على عقبيّ . لقد انتشرت الدوالي والمتسلقات حيث نتوقع في بلدنا ان نرى زهر العسل . فآتي وآني بخاصة في عتمة الغسق اذا ما أمطرت ، فيختلط عليّ زهر العسل بالغسق كأنه لا يكفيني وحده ، ولا يرهقني وحده . لماذا سمحتِ له بتقبيل بتقبيل

لم اسمح له بل ارغمته ولما رأتني قد غضبت ما رأيك في ذلك هـه وقد برزت طبعة يدي الحمراءُ على وجهها كأنك اضأت نوراً تحت يدك وتألقت عيناها

لم اصفعك بسبب القُبَل . مرافق الفتيات في الخامسة عشرة قال ابي انك تبلع طعامك كأن في حلقك عظمة سمك ما الذي بينك وبين كادي على طرفي المائدة ولا تنظران الي . بل لان الذي قبلك حقير من حقراء المدينة صفعتك أتفعلينها ثانية ألعلك تقولين الآن افتتان طارىء . ويدي تبرز على وجهها . ما رأيك في ذلك هه واليدان تبحثان في شعرها المغروس في الـ . وسيقان الاعشاب تنطبع متقاطعة في البشرة والرعشة واليدان تبحثان في شعرها . قولي انه افتتان طارىء قوليها

على كل انا لم أقبّل فتاة قذرة كنتالي دخل الجدار في الظل ، ثم ظلي ، خدعته ثانية . كنت قد نسيت ان النهر ينعطف بموازاة الطريق. فتسلقت الحائط ، وإذا هي ترقبني وانا أقفز ، ممسكة بالرغيف لصق ثوبهـا .

وقفت في وسط الاعشاب وتبادلنا النظرات .

— « لمَ لم تخبريني انك تقيمين في هذه الناحيـــة ، يا اختاه ؟ »
كان الرغيف قد جعل يمزق الصحيفة ببطء ، فهو الآن بحاجة إلى ورقة جديدة . « تعالي اذن وأريني بيتكم . » **لا فتاة قذرة كنتالي . كـــان المطار يهطل ونحن نسمعه يضرب السطح ، ويتنهد خلال الفراغ الشاهق الزكي ، فراغ العنبر .**

أهنا ؟ متحسساً اياها

لا هنا

أهنا ؟

لم يكن المطر غزيراً ولكن لم نكن نسمع الا السطـــح ولكأنه دمي او دمها

ودفعت بي الى اسفل السلّم وهربتْ راكضة كادي

أهنا كان موقع الاذى عندما كادي وهربتْ أهنا

اوه سارت وقمة رأسها الشبيه بالجلد تحت مرفقي ، والرغيف يمزّق الصحيفة ويبرز منها .

« اذا لم تصلي إلى البيت بسرعة فإن رغيفك هذا سيصبح بلا ورقة تلفُّهُ . فماذا تقول لك ماما عندها ؟ »**اراهن انني استطيع ان احملك**

لن تستطيع فأنا ثقيلة

هل انصرفت كادي هل ذهبت الى البيت لا يرى العنبر من بيتنا هل حاولتِ يوماً ان تري العنبرَ من

الذنب ذنبها دفعتني هربت

استطيع حملك جرّبي

آه دمها او دمي آه ومضينا نسير في التراب الرقيق ، واقدامنا صامتة كالمطاط في التراب الرقيق واشعة الشمس تتكسر بين الاغصان . وشعرت بأن الماء يجري من جديد سريعاً آمناً طيَّ الظلال الخفية .

— « اما بيتكم فبعيد جداً والله . يظهر انك بارعة جداً اذ تستطيعين

ان تذهبي من هذا المكان البعيد الى المدينة وحدك . » **كأنــك ترقص وانت جالس هل رقصت يوماً وانت جالس ؟ كنا نسمع المطر ، وجرذاً في الحظيرة، والعنبر خال من الخيل . كيف تمسك بالفتاة عند الرقص**

آه

كنت امسك بها هكذا ما كنت تحسبيني في مثل هـذه القوة أليس كذلك

آه آه آه آه

امسكت اكون هكذا اقصد اسمعتِ ما قلتُ قلتُ

آه آه آه آه

واستمر الطريق ، ساكناً مقفراً ، والشمس تشتد انصباباً وتكسراً . وكانت ضفائرها عند اطرافها مربوطة بمِزَقٍ من قماش قرمزي. وجعلت إحدى زوايا الرزمة ترفرف قليلاً وهي تسير ، وقد برز انف الرغيف سافراً . ثم وقفت وقلت :

« اسمعي . اتقيمين في هذا الطريق ؟ لم نمر ببيت واحد طوال ميلٍ كامل . »

فأزجت اليّ نظرتها السوداء الكتومة الحميمة .

« اين تقيمين يا أختاه ؟ اتقيمين في المدينة التي تركناها وراءنا ؟»

في مكان مـــا من الآجام كان عصفور ، فيما وراء شعاع الشمس المتكسّر النادر .

« سيقلق عليك أبوك . الا تظنين انه سيجلدك لانك ما عـدت الى البيت مباشرة بهذا الخبز ؟ »

وعاد العصفور الى سقسقته غير مرئي ، صوتاً وتير النبرة ، عديم المعنى ، عميقــه ، ينقطع كمن تنزل به ضربة من سكين ، ثم يعود، وذلك الاحساس بالماء يجري سريعاً آمناً في اماكن خفية ، تحس به ولا تراه ولا تسمعه .

« أوه يا أختاه . » لقد تدلى نصف الجريدة التي لُف فيها الخبز .
« لا فائدة من هذه الآن .» ومزقتها والقيت بها على جانب الطريق .
« هيا بنا ، نعد الى المدينة . ولنعد بمحاذاة النهر . »
وتركنا الطريق بين الطحالب تحت ازاهير شاحبة صغيرة، والاحساس بالماء مكتوماً. غير مرئي . **امسكت اكون هكذا أقصد كنت امسك هكذا وقفت في الباب تنظر إلينا ويداها على وركيها**
انتَ دفعتني الذنب ذنبك وقد آذيتني ايضاً
كنا نرقص ونحن جلوس اقسم أن كادي لا تستطيع الرقص جالسة
كفى كفى
كنت انفض ما علق بمؤخرة ثوبك من قش .
أبعد يديك القبيحتين عني ان الذنب ذنبك دفعتني وأوقعتني وأنا غاضبة منك

لا أبالي وراحت تنظر إلينا ، إبقي على غضبك ذهبتْ وبدأنا نسمع الصيحات وطرطشة الماء ؛ ورأيت جسماً اسمر يلتمع لحظة .

إبقي على غضبك . اخذ قميصي يبتل وكذلك شعري . عبر السطح وانا اسمع السطح عالياً رأيت نتالي تعبر الحديقة في المطر المنهمر. تبللي، ارجو ان تصابي بذات الرئة امضي الى بيتك يا وجه البقرة . وقفزت بكل ما اوتيت من عزم في حمأة الخنازير وارتفع الطين الأصفر الى خصري نتن الرائحة وما برحتُ اغوص إلى ان وقعت وتمرغت فيه .
« اتسمعينهم يسبحون يا اختاه . اتمنى لو كنت اسبح مثلهم. » لو كان لدي الوقت لذلك . عندما يتاح لي الوقت لذلك . وسمعتُ ساعتي .
كان الطين ادفأ من المطر اما رائحته فكريهة . كان ظهرها مداراً إلي فذهبت ووقفت امامها . اتعلمين ما الذي كنت افعله ؟ فأدارت ظهرها فذهبت امامها والمطر يتغلغل في الطين الذي سطح قميصها الداخلي من خلال ثوبها ، نتن الرائحة . كنت اعانقها ، هذا ما كنت افعله . فادارت

ظهرها فذهبتُ امامها . اقول لك كنت اعانقها .

وما همّني ما كنت تفعله ؟

الا يهمك الا يهمك سأجعله يهمك . وضربتني على يدي لابعدها عنها ولكنني لوثتها بالطين باليـــد الاخرى لم اشعر بصفعة يدها البليلة ومسحت بعض الطين عن ساقي ولطخت به جسمها الصلب البليـل المدبر عني وسمعت اصابعها تغور في وجهي ولكنني لم اشعر بذلك حتى حـــين غدا المطر حلو المذاق على شفتيّ

لقد رأونا هم اولاً ، وقد برزوا من الماء رؤوساً واكتافاً . وصاحوا بنا ، وكان احدهم مقرفصاً فنهض وقذف بنفسه بينهـم . كانوا اشبه بالسامير والماء يتضارب حول ذقونهم ، وهم يصيحون .

« ابعد تلك الفتاة عن هنا ! لماذا تأتي بفتاة إلى هذا المكان؟ ابعدها عن هنا ! »

— « لن تؤذيكم . كل ما نريده هو ان نتفرّج عليكم قليلاً . »

فقرفصوا في الماء ، وتجمعت رؤوسهم معاً وهم يرقبوننا ، ثم تفرقوا وانطلقوا نحونا يقذفوننا بالماء بأكفّهم . فابتعدنا عنهم مسرعَين .

— « لن تؤذيكم يا شباب ، والله لن تؤذيكم . »

— « انصرف يا ابن هارفرد ! » كان ذلك الولد الثاني، ذلك الذي حلم بالعربة والحصان على الجسر . « ارشقوهما بالماء يا رفاق ! »

فقال آخر : « لنخرج ونرمِ بهما في الماء . انا لا اخشى اية فتاة. »

— « ارشقوهما ! ارشقوهما ! » وانطلقوا نحونا وهم يقذفوننا بالماء. وتراجعنا وهم ما زالوا يصيحون « ابتعدا ! ابتعدا ! »

وانصرفنا . أما هم فتجمعوا تحت الضفة مباشرة ، وقـــد انتظمت رؤوسهم اللامعة في صف إزاء المياه المتلألئة . ومضينا وقلت لها: «ليست السباحة من شأننا، ألا توافقين ؟ » والشمس ترسل ضياءها خلال الأفنان إلى الطحالب المنبثة هنا وهناك ، انها المدحلة . « مسكينة ، ما انت الا

فتاة . » وبين الطحالب زهيرات اصغر من كل ما رأيت من أزاهير في حياتي . « ما انت الا فتاة ، يا مسكينة . » أتينا الى ممرّ ينحني بمحاذاة الماء ، ثم غدا الماء ساكناً من جديد ، مظلماً ساكناً سريع الجريان . « فتاة لا غير ، يا اختي المسكينة . » على الحشيش البليل اضطجعنا لاهثَين والمطر كالطلقات الباردة على ظهري . أيهمك الآن اتبالين الآن

رباه اننا والله في ورطة انهض . حيثما وقع المطر على جبيني بدأت اشعر بوخز مؤلم ونزلت يدي عن جبيني حمراء تسيل منها خطوط وردية في المطر . اتؤلمك

طبعاً تؤلمني ماذا تظنين

لقد حاولت ان افقأ عينيك رباه رائحتنا نتنة فلنحاول ان نغتسل في الغدير

« ها قد بلغنا المدينة مرة أخرى يا اختاه . عليك الآن ان تذهبي إلى البيت . فعليّ انا ان اعود الى المدرسة . أترين كم تأخرنا ؟ ستذهبين الى البيت ، أليس كذلك ؟ » غير انها ما زادت على ان نظرت اليّ نظرتها السوداء الكتومة الحميمة ، والرغيف شبه عارٍ في قبضتها لصق صدرها . « لقد تبلل . لقد احسنّا فعلاً بأننا ابتعدنا عنهم في اللحظة المناسبة . » وأخرجتُ منديلي وحاولت ان أمسح الرغيف ، غير ان قشرته جعلت تتساقط ، فتوقفت . « ليجفّ وحده اذن . امسكي به هكذا . » فأمسكتْ به هكذا . وبدا كأن الجرذان قد اكلت منه . والماء يرتفع ويرتفع حول المؤخرة المقرفصة والطين المنضوّ يطفوننا ويحبب وجه الماء المنرثر كدهنٍ اندلق على طبّاخ حار . قلت لك سأجعلك

لا أبالي قيد أنملة بما تفعل

بعد ذلك سمعنا الركض فتوقفنا عن السير والتفتنا الى الوراء ورأيناه قادماً يركض في الممر ، والظلال الأفقية تنتفض على ساقيه .

« انه مستعجل . فالافضل — » ثم رأيت رجلاً آخر ، رجلاً كهلاً

يركض ثقيلاً وبيده عصا ، وصبياً عارياً من خصره فما فوق ، ممسكاً ببنطلونه وهو يركض .

قالت الفتاة الصغيرة : « هذا هو جوليو ، » واذ ذاك لمحت وجهه الايطالي وعينيه وهو يغير عليّ . وسقطنا ارضاً كلانا . كانت يداه تلكمان وجهي وهو يقول شيئاً ما ويحاول على ما اظن ان يعضني ، ثم رفعوه عني وأمسكوا به ثائر الصدر يلوّح بذراعيه ويصرخ فأمسكوا بذراعيه فحاول ان يركلني الى ان جروّه عني . اما الفتاة الصغيرة فراحت تزعق وتبكي محتضنة الرغيف بين ذراعيها . في حين جعل الصبي العاري الصدر يندفع وينطنط ، ممسكاً ببنطلونه ، واقامني احدهم في اللحظة التي رأيت فيها ولداً آخر عارياً من الرأس حتى القدم يركض قادماً من منعطف الممر الوادع ثم يحوّل اتجاهه فجأة ويطفر الى الحرش، ووراءه ملابس متصلبة كأنها الخشب . وما زال جوليو في صراع مع الممسكين به . وقال الذي اقامني : « ها ، الآن،وقعت في قبضتنا . » وكان يلبس صدرية دون معطف،عليها شارة معدنية . وفي يده الأخرى يمسك بعصا صقيلة عقداء .

قلت : « انت آنس ، اليس كذلك ؟ كنت ابحث عنك.ما الأمر؟»

فقال : « انذرك بأن كل ما تقوله سيستخدم ضدك . فقد القيت القبض عليك . »

— « سأقتله ، » قال جوليو ، وهو يكافح الممسكين به . والفتاة الصغيرة تبكي وتعيط على هواها ممسكة بالخبز . « انت سرقت اختي » قال جوليو . « اتركوني يا جماعة . »

فقلت : « سرقت اخته ؟ عجيب . لقد مضى عليّ— »

قال آنس : « اسكت ! قل ما لديك للسكواير . »

فقلت : « سرقت اخته ؟ » وانتزع جوليو نفسه من الآخرين وأغار عليّ ، غير ان المفوض تلقّاه وكافحه قبل ان استطاع الآخرون ان

يمسكوا بذراعيه . فتركه آنس وهو يلهث . وقال :

« اجنبي لعين! والله ليخطرن ببالي ان ألقي القبض عليك انت أيضاً بتهمة التهجم والتعدي . » ثم التفت الي ثانية وقال : « اترافقنا بغير مقاومة أم اضع الاصفاد في يديك ؟ » فقلت : « ارافقكم بغير مقاومة . اي شيء ، عساني ان ارى احداً — ان اخلص من — سرقتُ اخته . سرقت اخته — »

قال آنس : « لقد انذرتك . انه ينوي ان يتهمك بتعمد جرمي عن سابق اصرار . وانتم ، هناك ، اجعلوا تلك الصبية تكف عن هذا الصياح . »

« آه ، » قلت ذلك ، ثم اخذت اقهقه . ومن بين الدغل برز ولدان آخران بشعر اشعث وعيون مستديرة وكلاهما يزرر قميصاً جعل يندى على كتفيه وذراعيه ، وحاولت ان اكف عن القهقهة ، ولكنني لم أفلح .

— « خذ الحذر يا آنس اعتقد انه مجنون . »

وقلت : « يجب ان ان أك أك أكف . ستنتهي بعد لحـ لحظة . قبل قليل قالت اه اه اه ،» قلت وانا اقهقه « دعوني اجلس قليلاً .» وجلست وهم يرقبونني ،والفتاة الصغيرة بوجهها المخطط بالدمع والرغيف الهضيم ، والماء يجري سريعاً آمناً فيما تحت الممر . وبعد قليل غاض الضحك ، غير ان حنجرتي رفضت ان تكف عن محاولة الضحك ، كمن يقيء بعد ان فرغت معدته .

قال آنس : « ها يا فتى ، سيطر على نفسك . »

فقلت مضيقاً على حنجرتي : « نعم . » وكانت ثمة فراشة صفراء اخرى ، كأن ندفة من الشمس قد تهاوت . وبعد برهة لم تكن بي حاجة للتضييق على حنجرتي ، فنهضت . « انا مستعد . اين نمضي ؟»

وسرنا على طول الممر ، والآخرون يرقبون جوليو والفتاة الصغيرة

والصبية الذين في المؤخرة . واستمر الممر بمحاذاة النهر حتى الجسر . فعبرناه وعبرنا السكك الحديدية ، والناس يقفون بالأبواب ليشاهدونا والمزيد من الصبية يظهرون من حيث لا ادري الى ان تضخم الجمع الى ما يشبه المسيرة . ورأيت امام الحانوت سيارة كبيرة ، ولكنني لم أتبيّن من فيها الى ان قالت المسز بلاند :

« هه ، كونتن ! كونتن كمبسن ! » ثم رأيت جرالد ، وسبود في المقعد الخلفي متكئاً على مؤخر عنقه ، وشريف . اما الفتاتان فلم اعرفهما .

قالت المسز بلاند : « كونتن كمبسن ! »

— « مساء الخير ، » قلت رافعاً قبعتي . « لقد القوا القبض عليّ . يؤسفني انني لم اتسلّم رسالتك . هل اخبرك شريف ؟ »

قال شريف : «القبض عليك ؟ اسمحوا لي . » قال ذلك ، وانتزع نفسه وخطا من فوق اقدامهم ونزل من السيارة . واذا هو يرتدي بنطلوني الفلانلة ، وكأنه قد صمّم له . لم اتذكر نسيانه . ولم اذكر ايضاً كم ذقناً لدى المسز بلاند . اما اجمل الفتاتين فقد كانت جالسة قرب جرالد في المقدمة ، ايضاً . وراحت كلتاهما ترقبني من وراء نقابها في ضرب من الاشمئزاز الرقيق . « من الذي ألقي القبض عليه ؟ » قال شريف : « ما هذا ، يا سيد ؟ »

وقالت المسز بلاند : « جرالد، اصرف هؤلاء الناس عنا ! وانت يا كونتن ، ادخل هذه السيارة . »

فخرج جرالد . أما سبود فلم يتزحزح من مكانه .

وقال شريف : « ما الذي فعله، يا كابتن ؟ هل نهب قنّ الدجاج؟»

قال آنس : « اني انذرك ، هل تعرف السجين ؟ »

— « هل اعرفه ! اسمع — »

— « اذن بوسعك ان تصحبنا الى « السكواير » . انك تعرقل سير

العدالة . هيا بنا . » وهزني من ذراعي .

فقلت : « استودعكم الله . يسرني اني رأيتكم جميعاً ، ويؤسفني انني لست معكم . »

فقالت المسز بلاند : « اسمع يا جرالد . »

فقال جرالد : « انظر يا حضرة الضابط . »

— « انذركم بأنكم تتدخلون بشؤون ضابط من ضباط القانون . فإن كان لديكم ما تقولونه ، فتعالوا الى مركز السكواير واعترفوا بمعرفتكم للسجين . » ومضينا . اشبه بمسيرة على رأسها انا وآنس . وسمعتهم يتحدثون عني وسبود يكرر الاسئلة، ثم قال جوليو بالايطالية شيئاً بلهجة العنف فالتفتُّ الى الخلف ورأيت الفتاة الصغيرة واقفة على الرصيف تزجي إليّ نظرتها الغامضة الحميمة .

ونهرها جوليو صائحاً : « اذهبي الى البيت ! سأسلخ جلدك بالضرب. »

وسرنا في الشارع ، وانعطفنا الى حديقة ، في الطرف القصيّ منها مبنىً من القرميد أبيض الحواشي ، ذو طابق واحد . وصعدنا الممر الصخري الى الباب، حيث أوقف آنس الجمع كله عدانا وأمرهم بالمكوث في الخارج . ودخلنا إلى غرفة خاوية تعبق برائحة التبغ العتيق ، فيها موقد حديدي في وسط هيكل خشبي مليء بالرمل ، وعلى الجدار خريطة ذابلة وشعار للبلدية اكفهرّت الوانه . ووراء منضدة نالت منها الخدوش وتراكمت عليها الوريقات كان رجل بلبدة ضارية من الشعر الأشيب يتطلع الينا من فوق نظارته الفولاذية .

قال : « ضبطتموه اذن ، يا آنس ؟ »

— « ضبطناه يا حضرة السكواير . »

ففتح كتاباً ضخماً علاه الغبار وأدناه منه وغمس ريشة قذرة في محبرة بدت كأنها مليئة بتراب الفحم .

وقال شريف : « اسمع يا سيد . »

قال السكواير : « اسم السجين ؟ » فذكرته . فدوّنه ببطء في كتابه ، والريشة تصرّ بالتأني الوجيع على الورق .

قال شريف : « اسمع يا سيد ، اننا نعرف هذا الشخص . اننا—»

قال آنس : « نظام في المحكمة ! »

فقال سبود : « اسكت يا رجل . وليقضِ الأمرَ على طريقته . وهو لن يفعل إلاّ ذلك ، على كل حال . »

قال السكواير : « عمرك ؟ » فأخبرته . ودوّن ذلك وفمه يتحرّك أثناء الكتابة . « عملك ؟ » فأخبرته ، فقال « من طلاب هارفرد ، ها ؟ » وصعد عينيه فيّ ، منحنياً بعنقه قليلاً ليستطيع الرؤية من فوق نظارته . لقد كانت عيناه صافيتين جامدتين ، كعينَي العنز . « ما الذي تنويه بمجيئك هنا لخطف الاطفال ؟ »

فقال شريف : « انهم مجانين يا سيدي السكواير . من قال ان هذا الولد يريد خطف — »

فجاء جوليو بحركة شرسة وصاح : « مجانين ؟ ألم أقبض عليه ؟ الم أره بعينيّ هاتين — »

قال شريف : « انك تكذب ، فأنت لم — »

صاح آنس : « النظام ، النظام ! »

وقال السكواير : « اخرسوا جميعاً اذا لم يسكتوا ، يا آنس ، فاطردهم . » فسكتوا . ونظر السكواير الى شريف، فسبود ، فجرالد . وقال لسبود : « أتعرف هذا الشاب ؟ »

فأجاب : « نعم يا سيدي . انه من أبناء الريف الذين يدرسون هنا . ولا يضمر شراً لأحد . واعتقد ان المفوض سيجد ان الامر كله غلطة . ان اباه من قسس الكنيسة . »

قال السكواير : « ها ، ما الذي كنت تفعله بالضبط ؟ » فأخبرته وهو يرقبني بعينيه الشاحبتين الجامدتين . « ما رأيك في ذلك يا آنس؟»

قال آنس : « جائز ... قبّح الله هؤلاء الأجانب ! »
فقال جوليو : « أنا امريكي . لدي الاوراق . »
— « أين الفتاة ؟ »
قال آنس : « ارسلها الى البيت . »
— « هل وجدتها فزعة ؟ »
— « كلا ، إلى ان هاجم جوليو السجين . ولقد كانا يسيران معاً بمحاذاة النهر ، في اتجاه المدينة . فأخبرنا عنهما بعض الصبية الذين كانوا يسبحون . »

قال سبود : « انها غلطة يا سعادة السكواير . ان من دأبه دائماً ان يجتذب الأطفال والكلاب . ولا يستطيع لذلك رداً . »
فتنحنح السكواير ، وأرسل بصره خارج النافذة برهة من الزمن ، وكلنا نرقبه . وسمعت جوليو يحكّ نفسه . ثم عاد السكواير بعينيه الينا .
— « وأنت الواقف هناك،أمقتنع أنت بأن أذى ما لم يلحق بالفتاة؟»
فأجاب جوليو : « لا اذى حتى الآن . »
— « هل تركت عملك لتبحث عنها ؟ »
— « طبعاً تركت عملي . ورحت أركض . أبحث هنا وأبحث هناك، ثم قال لي رجل انه رآه يعطيها شيئاً تأكله ، فذهبت معه . »
فتنحنح السكواير وقال : « اعتقـــد ، يا بني ، اذلك مدين لجوليو لقاء تركه عمله »
فقلت : « نعم يا سيدي . بـكم ؟ »
— « بدولار . »
فأعطيت جوليو دولاراً .
وقال سبود : « حسناً . ان كان هذا كل ما هناك ، فقد أطلقتم سراحه سعادتـكم ؟ »
غير ان السكواير لم ينظر اليه . « كم قطعت من المسافة بحثاً عنه ،

يا آنس ؟ »

— « ميلين اثنين على الأقل . واستغرقنا البحث حوالي الساعتين قبل ان ضبطناه . »

قال السكواير : « ها ، »وأطرق زمناً ، وابصارنا شاخصة اليه ، بغرّته الخشنة ونظارته المنزلقة الى طرف أنفه . وقد ألقى الشبّاك شكله الأصفر ليتنامى بطيئاً على الأرض ويبلغ الجدار ويتسلقه . وذرات الغبار تدوّم وتتهاوى . « ستة دولارات . »

فتساءل شريف : « ستة دولارات ؟ ولماذا ؟ »

فقال السكواير : « ستة دولارات . » ونظر إلى شريف برهة ثم الي من جديد .

قال شريف : « اسمع . »

قال سبود : « كفى ! اعطها اياه ، يا صاح ، ولنخرج من هنا . إن السيدات في انتظارنا . ألديك ستة دولارات ؟ »

قلت : « نعم . » واعطيته ستة دولارات .

فقال : « رفعت الجلسة . »

قال شريف : « خذ إيصالاً بالمبلغ . خذ إيصالاً موقعاً بالمبلغ . »

فألقى السكواير نظرة غير مغضبة على شريف ، وقال دون ان يرفع صوته : « رفعت الجلسة . »

فقال شريف : « والله العظيم اذا لم — »

« تعال هنا . » قال سبود آخذاً بذراعه . «طاب مساؤكم ايها القاضي . وشكراً جزيلاً . » وما كدنا نخرج حتى علا صوت جوليو عنيفاً ، ثم انقطع . أما سبود فقد حدجني بنظرة استفهام من عينيه البنيتين ، مع شيء من الجمود . وقال : « عليك بعد اليوم يا صاح بمطاردة الفتيات في بوسطن . »

وقال شريف : « يا غبي ! ما بالك تسرح في هذه الأماكن وتعابث

هؤلاء المهاجرين الايطاليين الملاعين ؟ »

وقال سبود : « هيا بنا . لقد عيل صبر السيدات . »

كانت المسز بلاند تتحدث إلى الفتاتين ، وهما الآنسة هومز والآنسة دينجرفيلد . فانقطعتا عن الاصغاء اليها ونظرتا الي ثانيـــة باشمئزاز رقيق مستطلع ، وقد رفعت كلتاهما نقابها عن أنفها الأبيض الدقيق وعيناها في هروب وغموض تحت النقاب .

فقالت المسز بلاند : « يا كونتن كمبسن ، ما الذي ستقوله والدتك ان هي سمعت بهذا ؟ من الطبيعي ان يتورط الشاب بين الحين والآخر ، اما ان يلقي القبض عليـــه شرطي من شرطـــة الريف وهو يمشي على قدميه ... ما الذي حسبوا انه فعل ، يا جرالد ؟ »

قال جرالد : « لا شيء . »

— « كلام فارغ . قل لي انت ، يا سبود . »

قال سبود : « حاول ان يختطف تلك الفتاة الصغيرة القذرة ، غير انهم ضبطوه قبل فوات الاوان . »

قالت المسز بلاند : « كلام فارغ » ، إلا ان صوتها تلاشى وحلقت في برهة ، وشهقت الفتاتان معاً بصوت خافت متناغم . « هراء ، » قالت المسز بلاند بحيوية مفاجئة . « تصرف كهذا ليس إلا من شيم هؤلاء الشماليين الجهلة المنحطين . هيا اركب السيارة يا كونتن . »

وجلسنا أنا وشريف عـــلى مقعدين صغيرين ينطويان . وأدار جرالد محرك السيارة ثم صعد اليها وسرنا .

فقالت المسز بلاند : « والآن يا كونتن ، اخبرني ما حكاية هـذه المهزلة . » فرويت لهم ما جرى ، وقد احدودب شريف وشاط غضبه على مقعـــده الصغير ، وعاد سبود الى الاتكاء على مؤخر عنقه قرب الآنسة دينجرفيلد .

فقال سبود : « والنكتة في ذلك هي أن كونتن كان يخدعنـا طيلة

هذه المدة . فقد أوهمنا طيلة هـذه المدة بأنه الشاب المثالي الذي ما من انسان الا ويستطيع أن يأتمنه على ابنته ، الى ان فضحت الشرطة ألاعيبه الخسيسة . »

قالت المسز بلانعد : « كفاك ثرثرة يا سبود » . وسارت السيارة بنا الى نهاية الشارع وعبرنا الجسر ومررنا بالمنزل الذي كان اللباس الوردي يتدلى من نافذته . « هذا ما يحيق بك حين لا تقرأ رسالتي . لماذا لم تأتِ لتأخذها ؟ فالسيد مكنتزي* يقول انه اعلمك بها . »

— « اجل . وقد أردت ذلك ، غير انني لم اعد الى الغرفة قط . »

— لولا السيد مكنتزي لأبقيتنا جالسين هنـاك في انتظارك الى ما لا نهاية . فلما اعلمنا بأنك لم تعد ، بقي لدينا مكان خال ، فطلبنا اليه ان يصحبنا . يسرنا جداً ان تكون راكباً معنا يا سيد مكنزي . » ولكن شريف لم يقل شيئاً ، وقد كتّف يديه وحملق في الفضاء عبر قبعة جرالد. انها قبعة السياقة في انجلترا . هذا ما قالته المسز بلانـد . ومررنا بذلك المنزل ، وثلاثـة منازل اخرى ، وفناء آخر وقفت عند بوابته الفتاة الصغيرة . ولا خبز بيدها الآن ، وكأن وجهها مخطط بمسحوق الفحم. فلوحت لها بيدي ، غير انها لم تستجب ، اللهمّ الاّ بأن ادارت رأسها ببطء والسيارة تمر بها ، ملاحقةً ايانا بعين لا ترفّ . ثم جعلنا نسير قرب الجدار ، وظلالنا تسير بمحاذاة الجدار ، وبعد قليل مررنا بقطعة من صحيفة ممزقة ملقاة على قارعة الطريق فأخذت أقهقه من جديد . لقد أحسست بالقهقهة في حلقي فأرسلت بصري بعيـداً أصوّبه نحو الاشجار حيث يتهاوى نور ما بعد الظهيرة ، مفكّراً بما بعد الظهيرة وبالعصفور وبالأولاد يسبحون . ورغم ذلك عجزت عن كبتها وعندها ادركت ان انا بالغت في محاولة كبتها فانني سأنخرط في البكـاء وفكّرت في انه لا يسوغ لي ان اظل ذا عنزة ، وحولي العديدات ممن يتجوّلن في الظلال

---

* اي « شريف » . (المترجم) .

غامت صورتها بعداً في المجذافـين الغامزين وتركض خنازير يوبيليوس تركض ازواجاً ملتحمة في جماع من الداخل كم رجلا يا كادي

قال سبود : « ولا أنا . » لست ادري اكثر ممـا ينبغي انتابني شعور رهيب رهيب ابي لقد اقترفت هل فعلت ذلك قط لم نفعل ذلك لم نفعل ذلك أفعلنا ذلك

« ... وجدُ جرالد كان من دأبه ان يجمع النعناع بنفسه قبل الفطور ، والندى ما زال يلتمع عليه . وما كان ليسمح حتى لويلكي ان يضع يده عليه اتذكر يا جرالد بـل يجمعه بنفسه ويهيء شرابـه بنفسه . وكان حريصاً على شرابه هذا حرص العانس ، فيقيس ويزن كل شيء بموجب وصفة يحفظها في دماغه . ولم يحظ احد بهذه الوصفة منه الا رجـل واحد ؛ كان ذلك » فعلناها وكيف يمكنك تجاهلها انتظري لحظة اخبرك بالتفاصيل ان ما فعلناه جريمة جريمة رهيبة لا يمكن سترها اتحسبين انك تستطيعين سترها ولكن تريث يا كونتن يا مسكين انك لم تفعلها أفعلتها وسأروي لك ما حدث سأخبر ابي اذن فلنقل اننا قد فعلناها لانك تحب ابي اذن لا بد لنا من الذهاب إلى حيث الاشارات والرعب واللهب النقي وسأجعلك تقولين اننا فعلناها اني اقوى منك وسأجعلك تدركين اننا فعلناها فقد ظننت انهم الفعلة ولكنـه انا اسمعي لقد خدعتك طيلة هذا الوقت لقد كنت انا لقد حسبت انني في البيت حيث زهر العسل اللعين محاولا جهدي ان أصرف عن خاطري الارجوحة وأشجار الأرز والفورات الجوامح الخفيـة واللهاث المشتبك واجتراع اللهاث الأهـوج الوحشي والـ نعم نعم نعم نعم « أبداً وصار يشرب النبيذ هو ايضاً ، ولكنه كان يقول دوماً ان سلة النبيذ ما الكتاب الذي قرأته ذلك الذي فيه جرالد يجذف في بذلة الحمر جزء لا بد منه لسلة النزهة لدى كل شاب مثقف » هل أحببتهم يا كادي هل أحببتهم كلما لمسوني كنت أموت

وقفت هناك لحظة وفي اللحظة التالية كان يصرخ ويسحب فستانهـا

ودخلا البهو وصعدا الدرج وهو يصرخ ويدفع بها على الدرج الى باب الحمام وأوقفها وظهرها الى الباب وذراعها يغطّي وجهها ويصرخ ويحاول دفعها الى الحمام ولما جاءت الى العشاء كان تي بي يطعمه فبدأ من جديد أنيناً اول الأمر الى ان لمسته وعندها انفجر صارخاً فجمدت مكانها وعيناها كفأرين في مأزق . وبعد ذلك كنت أركض في العتمة الشهباء العابقة بالمطر وعطور الزهور كلها أطلقها الهواء الدافيء الرطب والزيزان تصرصر في العشب تعيّن لي خطْوي مع جزيرة صغيرة من الصمت ترافقني ونظرت اليّ الفرس فانسي من وراء السياج رقشاءَ كلحاف منشور فقلت لنفسي لعن الله ذلك الزنجي الاسود لقد نسي ان يطعمها ونزلتُ التل راكضاً في ذلك الفراغ من الزيزان كنَفَسٍ يهب على وجه مرآة كانت مضطجعة في الماء ورأسها على اللسان الرملي والماء يجري حول ردفيها كان في الماء شيء من النور وتنورتها المنقوعة تصفق برفق على كشحيها مع حركة الماء في مويجات ونيئة تسير الى لا مكان وتجدد نفسها بحركتها فوقفت على الضفة ونشقت زهر العسل على فجوة الماء وبدا الهواء كأنه يهمي رذاذاً من زهر العسل وصرصرة الزيزان مادة بوسعك ان تستشعرها بكل جارحة في جسدك .

اما زال بنجي يبكي

لا ادري نعم لا ادري

مسكين بنجي

قعدت على الضفة كان الحشيش ندياً ثم وجدت ان حذائي قد تبلل

اخرجي من هذا الماء . أمجنونة انت

ولكنها لم تبد حراكاً ووجهها غمامة بيضاء يؤطرها شعرها فيميّزها عن غمامة الرمال

اخرجي هيا

جلست منتصبة الصدر ثم نهضت وتنورتها تصفق على جسمها وتقطر

ماء وصعدت الى الضفة وثيابها تصفق وجلست

لم لا تعصرينها اتريدين ان تصابي بالزكام

نعم

وراح الماء يغرغر عبر اللسان الرملي جارياً في الظلام الى ما بين أشجار الصفصاف متماوجاً في المكان الضحضاح كقماشة مشدودة تعكس شيئاً من النور كدأب الماء

لقد قطع بحار الدنيا كلها

وجعلت تتحدث عنه وقد احتضنت ركبتيها البليلتين ورفعت وجهها في الضوء الأشهب شذا زهر العسل ورأيت نوراً في غرفة امي وغرفة بنجي حيث كان تي بي يضعه في فراشه

أتحبينه

وامتدت يدها ولم أتحرك ونزلت يدها باحثة على ذراعي الى ان امسكت بيدي مفتوحةً لصق صدرها وقلبها يضرب

كلا كلا

هل جعلك اذن جعلك تفعلينهـا لا بأس انه اقوى منك وهو غداً سأقتله قسماً بالله سأقتله ولا حاجة بنا الى اعلام ابي حتى ما بعد ذلك وبعد ذلك فاننا انا وانت ولن نُعلم احداً نستطيع ان نأخذ النقود المخصصة لدراستي ونلغي تسجيلي في الجامعة انك تكرهينه يا كادي تكرهينه أليس كذلك

أمسكت بيدي لصق صدرها وقلبها يضرب فاستدرت اليها وقبضت على ذراعها

كادي انك تكرهينه اليس كذلك

ودفعت بيدي صعداً الى حنجرتها واذا قلبها يضرب هناك

مسكين كونتن

اتجهوجهها نحو السماء والسماء منخفضة منخفضة جداً حتى بدت روائح الليل

وأصواته كلها كأنها احتشدت تحت خيمة لم يُحسَن شدها ولا سيما زهر العسل فقد تغلغل في تنفسي وكسا وجهها وعنقها كالطلاء ودمها ينبض نبضاً عنيفاً تحت يدي ولما كنت متكئاً على ذراعي الأخرى فقد جعلت ترتج وتنتفض وكان علي ان اشهق لاستمد شيئاً من الهواء من زهر العسل الأشهب الكثيف

نعم اني أكرهه وارضى بالموت من أجله وقد متُّ من أجله واني لأموت من أجله مرة أخرى كلها

عندما رفعت يدي كنت ما زلت احس كيّ العساليج والاعشاب المتشابكة في كف يدي

مسكين كونتن

وانحنت على ذراعيها ويداها مقفلتان حول ركبتيها

انت لم تفعلها قط أليس كذلك

لم أفعل ماذا

ما فعلته انا

بلى بلى مرات عديدة مع فتيات كثيرات

عندها جعلت أبكي ولمستني يدها ثانية وجعلت أبكي ووجهي على قيصها الرطب ثم استلقت على ظهرها وانطلقت نظراتها بمحاذاة رأسي نحو السماء فرأيت مداراً من البياض تحت بؤبؤ عينيها وفتحت سكيني

أتذكرين يوم ماتت جدتي وجلست انت في الماء بسروالك

نعم

ووضعت رأس سكيني على حنجرتها

لن تستغرق الا ثانية ثانية فقط ثم اطعن حنجرتي اطعن حنجرتي بعدها

لا بأس أتستطيع ان تطعن حنجرتك بنفسك

نعم فالشفرة طويلة لا بد ان بنجي قد نام الآن

نعم
لن تستغرق الا ثانية وسأحاول الا أؤلمك
حسناً
اغمضي عينيك
لا إن وضعتها هكذا عليك ان تضغط بعزم اشد
المسيها بيدك
ولكنها لم تتحرك وكانت عيناها مفتوحتين باتساع تنظـــران بمحا
رأسي إلى السماء
كادي اتذكرين كيف جعلت دلزي تصيح بك لأن سروالك اتسخ بالط
لا تبك
لست ابكي يا كادي
ادفعها الا تريد ان تدفعها
اتريدينني ان ادفعها
نعم ادفعها
المسيها بيدك
لا تبك مسكين كونتن
ولكنني لم استطع الكف عن البكاء فأمسكت برأسي عنـــد صد
الصلب الرطب وجعلت اسمع قلبها ينبض بثبات وبطء وما عـــاد يضر
كالمطرقة والماء يثرثر بـين اشجار الصفصاف في الظـــلام والهواء
حاملاً امواجاً من زهر العسل والتوت ذراعي وكتفي تحتي
ما هذا ما هذا الذي تفعله
واجتمعت عضلاتها فجلستُ منتصباً
سكيني لقد اسقطتها
فاستوت في جلستها
ما الساعة

لست ادري

ووقفت على قدميها وجعلت ابحث في الأرض

اني ذاهبة دعها حيثما تكن

واحسستها واقفة هناك واشتممت ثيابها الرطبة شاعراً بها هناك

اتركها لعلك تجدها غداً هيا بنا

انتظري قليلاً سأجدها

أتخشى تركها

ها قد وجدتها لقد كانت هنا طيلة الوقت

صحيح هيا بنا

فنهضت وتبعتها وصعدنا التل والزيزان تصمت أمامنا

من المضحك انك تجلس فتسقط شيئاً فتصر على البحث عنه في كل مكان

الاشهب لقد كان اشهب مثقلاً بطلٍ يشع نحو السماء الشهباء فالأشجار البعيدة

قاتل الله زهر العسل هذا ليته يكف

كنت تحبه

وعبرنا القمة ومضينا في اتجاه الاشجار واصطدمت بي ومالت علي.
وكان الخندق ندبة سوداء على العشب الرمادي واصطدمت بي ثانية
ونظرت الي ومالت علي وبلغنا الخندق

لنذهب من هنا

لماذا

لنجد أما زال بوسعنا ان نرى عظام نانسي لقد نسيت ان اذهب هناك لرؤيتها منذ زمن بعيد أذهبت انت

تواشجت على ارض المكان في الظلام الدوالي والاشواك

كانت عظامها هنا بالضبط من المستحيل ان نتبينها

كفّ يا كونتن
ضاق الخندق ثم انتهى ويممتْ نحو الاشجار
كفّ يا كونتن
كادي
ووقفتُ أمامها ثانية
كادي
كفّ عن ذلك
فأمسكت بها
انني أقوى منك
لم تتحرك ولكنها كانت رغم سكونها صلبةً غير مستسلمة
لن اعاركك كفى خير لك ان تكفّ
كادي لا يا كادي
لا خير يرجى من ذلك الا تعلم لا خير يرجى خلِّ سبيلي
وتساقط زهر العسل في رذاذ اثر رذاذ واستطعت ان اسمع الزيزان
ترقبنا في دائرة حولنا وتراجعت ودارت حولي صوب الاشجار
عد الى البيت لا حاجة بك الى المجيء
واستمررت في سيري
لماذا لا تعود الى البيت
قاتل الله زهر العسل هذا
وبلغنا السياج فزحفتْ خلاله وزحفتُ خــلاله وعندما انتصبت من
انحناءتي رأيته يبرز من بين الأشجار قادماً نحونا في عتمتنا الشهباء طويل
القامة مسطّح الشكل ساكناً يتحرك وكأنه لا يتحرك وسارت اليه
هذا كونتن اني مبتلّة جسمي كله مبتل لن اشدد عليك ان كنت
لا تريد
ظلاّهما ظل واحد وارتفع رأسها فوق رأسه ازاء السماء وارتفع رأساهما

لن اشدد عليك ان كنت لا تريد
ثم لا رأسان وعبق الظلام بفوح المطـــر والعشب الرطب والاوراق الخضلة والضوء الأشهب يتساقط رذاذاً كالمطر ويتصاعد زهر العسل في امواج ندية وانا ارى وجهها اشبه بغمامة على كتفه وامسك بهـــا بذراع واحدة كأنها لا تكبر الطفل ومدّ يده
تشرفنا
وتصافحنا ثم وقفنا هناك وظلها سامق ازاء ظله ظلٌ واحد
ما الذي ستفعله يا كونتن
سأمشي قليلاً سأذهب من خلال الآجام الى الطريق واعود من خلال المدينة .
واستدرت عنها ومضيت
ليلة سعيدة
كونتن
فوقفت
ماذا تريدين
في الآجام كانت الضفادع في نقيق تستروح المطر في الجو وصوتها كلُعَب صناديق الموسيقى التي يصعب نصبها وزهر العسل
تعال هنا
ماذا تريدين
تعال هنا يا كونتن
فعدت ولمست كتفي منحنية بظلها بغمامة وجهها منحنية من ظله السامق فتراجعتُ
خذي الحذر
اذهب الى البيت
لست نعساناً سأتنزه قليلاً

انتظرني عند الغدير

اريد ان امشي

سأكون هناك عاجلاً انتظرني انتظرني

لا سأمضي من خلال الآجام

ولم التفت الى الوراء وضفادع الاشجار لم تعرني اهتماماً والضوء الاشهب كالطحالب في الاشجار يهمي رذاذاً ولكن المطر يأبى ان يهطل وبعد قليل انعطفت وعدت الى طرف الغابة وحالما وصلت هناك بدأت أتشمم زهر العسل من جديد وصار بمقدوري ان ارى الاضواء على ساعة المحكمة ووهج المدينة وميدانها على السماء واشجار الصفصاف المظلمة بمحاذاة الغدير والاضواء في نوافذ غرفة امي والنور في غرفة بنجي ما زال مضاءً وانحنيت عابراً خلال السياج ومضيت عبر المرعى راكضاً وركضت على الحشيش الأغبر بين الزيزان ورائحة زهر العسل تشتد وتشتد وكذلك رائحة الماء ثم جعلت ارى الماء في لون زهر العسل الاغبر وارتميت على الضفة ووجهي لصق الارض لكي لا اشم زهر العسل فلم اشمه ثم بقيت ملقى هناك اشعر بالارض تخترق ثيابي واصغي الى الماء وبعد قليل تناقص لهاثي وبقيت ملقى هناك وانا اقول لنفسي اذا لم احرك وجهي كنت في غنى عن اللهاث وشمّه ثم ما عدت افكر في شيء وجاءت تمشي على الضفة ووقفت وأما انا فلم اتزحزح

الساعة متأخرة اذهبي الى البيت

ماذا

اذهبي الى البيت الساعة متأخرة

لا بأس

حفّت ثيابها ولما لم اتحرك كفت عن الحفيف

استذهبين كما قلت لك

لم اسمع شيئاً

كادي
نعم سأذهب ان كنت تريدني ان اذهب
فجلست واذا هي جالسة على الارض واصابعها متشابكة حول ركبتها
اذهبي الى البيت كما قلت لك
نعم سأفعل كل ما تريدني ان افعله كل ما تريدني نعم
لم تكن تنظر الي فأمسكت بمنكبها وهززتها هزاً عنيفاً
اخرسي
وهززتها
اخرسي اخرسي
نعم
ورفعت وجهها وعندها ادركت انها لم تكن حتى تنظر الي ورأيت تلك الحلقة البيضاء
انهضي
وسحبتها واذا بها متهالكة مرتخية فرفعتها واوقفتها على قدميها
هيا امضي
الم يكن بنجي قد انقطع عن البكاء عندما تركته
امضي
وقطعنا الغدير وبدا السطح ثم شباك الطابق الأعلى
انه نائم الآن
اضطررت الى التوقف لأحكم اغلاق البوابة اما هي فظلت تسير في الضوء الاشهب رائحة المطر ولكن المطر يتأبى علينا وزهر العسل آخذ بالتسرب من سياج الحديقة آخذ ودخلت هي الظل وجعلت اسمع قدميها
كادي
وعند الدرج وقفت ولم اعد اسمع قدميها
كادي

فسمعتُ قدميها ولمستُها بيدي لا دافئة ولا باردة فثيابهـــا ما زالت رطبة بعض الشيء ما زالت

أتحبينه الآن

لا تتنفسُ الا ببطء كتنفسٍ بعيد بعيد

كادي أتحبينه الآن

لا ادري

خارجَ الضوء الأشهب ظلالُ الاشياء اشبه بأشياء ميتة في ماء آسن

ليتكِ تموتين

اتريد لي ذلك استدخل

اتفكرين به الآن

لا ادري

اخبريني بماذا تفكرين أخبريني

كفاك كفاك يا كونتن

اخرسي اخرسي أتسمعين اخرسي اخرسي

لا بأس اذن سأكف ولكننا سنحدث ضوضاء هنا

سأقتلك اتسمعين

لنخرج ونذهب الى الارجوحة سيسمعونك هنا

لست ابكي اتقولين انني ابكي

كلا اسكت والا ايقظنا بنجي

ادخلي انت البيت ادخلي

لا تباك اني فتاة فاسدة وليس الذنب ذنباك

نعنة حلّت علينا وليس الذنب ذنبنا هل الذنب ذنبنا

صه هيا اذهب الى فراشك

لا تستطيعين ارغامي لقد حلت علينا اللعنة

وأخيراً وقعت عيني عليه وهو يدخل دكان الحلاق نظر الى الخارج

فسرت نحوه وانتظرت
لقد مضى يومان او ثلاثة وانا ابحث عنك
اتريد ان تراني
سأراك
لفّ السيجارة بسرعة بحركتين واشعل عود الكبريت بابهامه
لا نستطيع الحديث هنا ما رأيك في ان نلتقي في مكان ما
سآتي الى غرفتك أنازل انت في الفندق
لا ليس ذلك بالمكان المناسب اتعرف ذلك الجسر الذي على النهر وراء الـ
نعم حسناً
في الساعة الواحدة اتفقنا
نعم
وانصرفت
انا ممتن لك
انظر
فوقفت والتفتُّ الى الوراء
هل هي بخير
وبدا كأن قميصه الخاكي مصنوع من البرونز
ألعلها في حاجة الي
سأكون هناك في الواحدة
لقد سمعتني آمر تي ؛ ي بسَرج «برنس» في الواحدة وراحت ترقبني ولا تكثر من الأكل ثم جاءتني
ما الذي تريد ان تفعل
لا شيء أليس لي ان اركب الحصان قليلاً حين اشاء
لقد عزمتَ على فعلة ما فما هي

ليس ذلك من شأنك يا بغي يا بغي
كان تي بـي ينتظرني وقد هيأ برنس عند الباب الجانبي
لا اريده قررت ان امشي
وسرت في طريقنا الخاصة إلى البوابة وانعطفت في الممر ثم اخذت اركض وقبل وصولي الجسر رأيته متكئاً على الافريز وقد عقل الحصان بين الشجر ارسل نظرة من فوق كتفه ثم ادبر ولم يرفع بصره الى ان وطأتُ الجسر فوقفت ورأيت بين يديه قطعة لحاءٍ يكسر منها قطعاً ويسقطها من على الافريز في الماء
جئت لأقول لك غادر المدينة
فكسر قطعة من اللحاء على مهل وأسقطها في الماء بعناية وتبعها بعينيه والماء يسيل بها على متنه
قلت يجب ان تغادر المدينة
فنظر الي
هل أرسلتك هي الي
انا اقولها لك غادر المدينة لا ابـي ولا احد غيره انا اقولها
اسمع اجِّل هذا الأمر قليلاً اريد ان اعرف ان كانت بخير ام انهم يضايقونها في البيت
تلك مسألة لا داعي لازعاج نفسك بها
ثم سمعت نفسي اقول اعطيك مهلة لمغادرة المدينة حتى غروب الشمس
فكسر قطعة لحاء واسقطها في الماء ثم وضع اللحاء على الافريز ولفّ سيجارة بتينك الحركتين السريعتين وقذف بعود الكبريت فوق الافريز
وما الذي ستفعله ان انا لم اغادر المدينة
سأقتلك لا تحسب لمجرد انني ابدو لك كالصبي
وانطلق الدخان في نافورتين من منخريه عبر وجهه
كم عمرك

فانتابتني رجفة ويداي على الافريز وفكرت في انه سيعرف السبب إن انا اخفيتها

امهلك حتى اول الليل

اسمع يا صاح ما اسمك أليس بنجي هو المعتوه وانت

كونتن

فمي نطق بها أما انا فلم أقلها قط

امهلك حتى غروب الشمس

كونتن

وأسقط رماد السيجارة بحكّها متمهّلاً على الافريز لقد فعل ذلك بعناية وعلى مهل كأنه يبري قلماً وكفّت يداي عن الارتجاف

اسمع من العبث ان تتألم للأمر هذا التألم كله ليس الذنب ذنبك يا ولد فلو لم اكن انا لكان غيري

هل كانت لك اخت قط هل كانت لك أخت

كلا ولكن كلهن عواهر

فضربته وتغلبت يدي المبسوطة على الحافز الى قبضها عند وجهه غير ان يده تحرّكت بسرعة يدي وطارت السيجارة في اتجاه الماء ولما هويت بيدي الاخرى امسك بها ايضاً قبل ان تبلغ السيجارة الماء امسك بكلتا يديّ في قبضته الواحدة وانخطفت يده الاخرى نحو ابطه تحت سترته ونور الشمس وراءه يتهاوى ووراء الشمس عصفور يغنّي وتبادلنا النظرات والعصفور يغني ثم اطلق يديّ

اسمع

وأزاح اللحاء عن الافريز مسقطاً اياه في الماء فغاص ثم طفا وحمله السيل معه واستقرت يده على الافريز والمسدس فيها لا يشدّ عليه وانتظرنا

لن تقدر ان تصيبه الآن

كلا

وبقي اللحاء طافياً يتناءى به الماء وران السكون على الآجام وسمعت العصفور مرة اخرى ثم الماء واذا النار تنطلق من المسدس دون ان يصوّبه بالمرة فاختفى اللحـــاء ثم ارتفعت قطع منه الى السطح وعامت وانتشرت وبعد ذلك اصابه قطعتين اخريين منهـــا ولم تكن القطعة الواحدة اكبر حجماً من قطعة النقد الفضية

اعتقد ان في ذلك الكفاية

ثم انتزع الاسطوانة ونفخ في الفوهة مطلقاً غشاوة رقيقة من الدخان ثم حشا الحجيرات الثلاث من جديـــد وسدّ الاسطوانة وناولني المسدس من مقبضه

لماذا انا لن احاول منافستك في الرمي

ستحتاج اليه قياساً على ما قلت وانا اعطيك هذا المسدس لأنك رأيت الآن ما يستطيع فعله

اني ارفض مسدسك

وضربته وبقيت محاولاً جهدي ان اضربه بعد ان امسك بكلا معصمي وحاولت من جديد وبعدها رأيته وكأنني انظر اليه من خلال زجـــاجة ملونة وجعلت اسمع دمي ثم صار بوسعي ان ارى السماء ثانية والأغصان ازاءها والشمس تتهاوى من بينها وهو ممسك بي من قدمي .

اضربتني

لم استطع سماع الجواب

ماذا

نعم كيف تشعر

لا بأس خلّني

فخلاّني فاتكأت على الافريز

أتشعر انك بخير

دعني وشأني اني بخير

انستطيع ان تصل إلى البيت وانت على هذه الحال

انصرف دعني وشأني

خير لك الا تحاول السير على قدميك خذ حصاني

لا عليك اذهب عني

بوسعك ان تترك له الحبل على الغارب وتطلقه فيعود وحده الى الاسطبل

دعني وشأني اذهب ودعني وشأني

واتكأت على الافريز انظر الى الماء وسمعته يحلّ الحصان ويمتطيه ويبتعد وبعد قليل ما عدت اسمع شيئاً سوى الماء ثم العصفور من جديد فتركت الجسر وقعدت ارضاً مسنداً ظهري الى شجرة ووكأت رأسي عليها واغمضت عينيّ ووقعتْ من بين الاوراق رقعةٌ من الشمس حطت على عينيّ فتزحزحت مبتعداً حول الشجرة وسمعت العصفور ثانية والماء واذا كل شيء يبدو كأنه ينسرح عني وما عدت اشعر بشيء قط وكدت اشعر بالهناءة بعد هاتيك الأيام والليالي كلها وزهر العسل يتصاعد من طيات الظلام لينفذ الى غرفتي حيث كنت احاول ان انام حتى بعد ان ادركت إثر ذلك بقليل انه لم يضربني وانه كذب عليّ بشأن ذلك من اجلها ايضاً وانني إنما اغمي عليّ كما يغمى على امرأة ولكن لم يعد حتى لذلك اهمية لدي وجلست هناك لصق الشجرة ونديف الشمس يتراوح على وجهي كأوراق صفراء علقت بعودها مصغياً الى الماء غير مفكر بشيء حتى عندما سمعت الحصان مسرعاً نحوي جلست هناك مغمض العينين وسمعت حوافره تدق الارض وتبث التراب مهسهساً واقداماً تركض ويديها المهرولتين اللاهثتين

مجنون يا مجنون هل انت في اذى

ففتحت عيني ويداها تهرولان على وجهي

لم اعلم في اي اتجاه الى ان سمعت المسدس لم اعلم اين لم يخطر ببالي

انه واياك ركضت عثرت لم يخطر ببالي انه سوف
وأمسكتْ بوجهي بين يديها صادمةً رأسي بالشجرة
كفى كفى
فقبضت على معصميها
لا تفعلي ذلك لا تفعلي ذلك
كنت اعرف انه لن يؤذيك كنت اعرف
وحاولت ان تصدم رأسي بالشجرة
قلت له ألاّ يكلّمني ثانية ابداً قلت له
وحاولت ان تخلص معصميها من قبضتي
خلّني
كفاكِ اني اقوى منك كفاك
خلّني يجب ان ألحق به فأسأله خلّني كونتن ارجوك ان تخليني ارجوك
وفجأة كفّت وارتخى معصماها
نعم بوسعي ان اخبره وبوسعي ان اجعله يصدّق في اية لحظة شئت اجعله
كادي
لم تكن قد ربطت برنس ولعله يخبّ كدأبه عائداً الى البيت اذا خطر له ذلك
في اية لحظة شئتُ فانه يصدقني
أتحبينه يا كادي
ماذا قلت
وتأمّلت في واذا عيناها تفرغان من كل شيء وتبدوان كعيون التماثيل خاويتين وادعتين لا تبصران
ضع يدك على حنجرتي
وأخذتْ يدي ووضعت راحتي على حنجرتها

والآن اذكر اسمه
دالتن ايمز
فأحسست دفقـــة الدم الأولى هناك وراح الدم يدفق في نبض قوي متسارع
اذكره مرة اخرى
ودارت بوجهها نحو الاشجار حيث تتهاوى الشمس وحيث العصفور
اذكره مرة اخرى
دالتن إيمز
وظل دمها في دفق نابض مستمر يضرب نبضه كفّ يدي

راح يسيل لمدة طويلة ، غير أنني شعرت أن وجهي بارد فاقد الحياة، وكذلك عيني ، وجعل الجرح في اصبعي يؤلمي من جديـــد . وسمعت شريف يدير المضخّة ، ثم عاد بالطبق تترجرج فيه دائرة من الأصيل، وقد اصفرّت حواشيه كنفاخة ذابلة ، ثم انعكاس صورتي . فحاولت ان أرى وجهي فيه .

وقال شريف : « هل توقف الدم ؟ أعطني المنديل . » وحاول ان يجرّه من يدي .

فقلت : « انتبه . بامكاني انا ان أوقفه . نعم،لقد كاد يتوقف .» وغمست المنديل ثانية مكسّراً النفّاخة . فتلوث الماء بالمنديل. « ليت لي منديلاً نظيفاً . »

قال شريف : « انك أحوج الى قطعة من اللحم* النيء وعينك على هذه الحال . ستجد والله ان عينك ستسود غداً . ابن الزانية . »

ــ « هل أوجعته ؟ » وعصرت المنديل وحاولت ان انظف صدريتي من قطرات الدم .

---

* من الاقوال الشائعة في امريكا ان العين اذا لكمت امكن علاجها بقطعة من الـ « ستيك » النيء . (المترجم)

قال شريف : « لن تستطيع ان تنظفها ، يجب ان ترسلها إلى الغسيل. هيا ، ضعه على عينك ، لماذا لا تضعه على عينك ؟ »

فقلت : « بامكاني ان أنظفها من بعض القطرات .» ولكنني لم أفلح كثيراً . « كيف تبدو ياقتي الآن ؟ »

قال شريف : « لا أدري . ضع المنديل على عينك . اسمح لي . »

ـ « أرجوك . بامكاني ان أضعه بنفسي . هل آذيته ؟ »

ـ « ربما ضربته أنت . لعلني التفتّ عنك أو ان عيني طرفت في تلك اللحظة . غير انه اشبعك لكماً . لم يترك مكاناً في جسمك لم يهو عليه باللكمات . ولماذا نازلته بقبضتيك ، يا غبي ؟ كيف تشعر ؟ »

قلت : « بخير . أما من شيء أستطيع به تنظيف صدريتي ؟ »

ـ « ألن تنسى ثيابك اللعينة ؟ اخبرني عن عينك . هل تؤلمك ؟»

فقلت : « أنا بخير . » كان كل شيء حولي بنفسجياً ساكناً ، والسماء خضراء آخذة بالتعسجد فيما وراء أعلى الدار وريشة من الدخان تتصاعد من المدخنة دون أية ريح . ثم سمعت المضخة ثانية ، فرأيت رجلاً يملأ دلواً وهو يرقبنا عبر منكبه المنهمك في الضخ. وعبرت امرأة عتبة الباب دون ان تنظر الينا . وسمعت بقرة تخور في مكان قريب .

قال شريف : « هيا ، لا تهتم لثيابك وضع منديلك على عينك . سأرسل بذلتك في الصباح الباكر الى الغسيل . »

ـ « حسناً . يؤسفني انني على الأقل لم أنزف بعضاً من دمي عليه.»

فقال شريف : « ابن الزانية . »

خرج سبود من المنزل وهو يتحدث الى المرأة ، فيما أعتقد ، وعبر فناء الدار . وحدّق فيّ بعينيه الجامدتين المتسائلتين .

وقال وهو ينظر إلي : « والله يا صاح انك لا تتورع عن شيء في طلب متعتك . الخطف اولاً ، ثم الشجار . وما الذي تفعله أيام العُطَل؟ أتحرق بيوت الناس ؟ »

قلت : « أنا بخير . ماذا قالت المسز بلاند ؟ »

– « لقد اقامت القيامة على رأس جرالد لأنه أدماك . وسوف تقيمها على رأسك عندما تراك ، لأنك هيأت له ذلك . وهي لا تعترض على الشجار ، انما الدم هو الذي يزعجها . يخيّل إليّ انك فقدت بعضاً من الاعتبار الذي تحمله لك لأنك لم تحسن حقن دمك . كيف تشعر ؟ »

قال شريف : « طبعاً ، فان انت أخفقت ان تكون من آل بلاند، فعليك بالمنزلة الثانية وهي ان تزني بأحد منهم او ان تسكر وتقاتله ، تبعاً للظروف . »

قال سبود : « بالضبط . ولكنني لم أعرف ان كونتن كان سكراناً.»

قال شريف : « لم يكن سكراناً . وهل لا بد لك من السكر لتعزم على ضرب ابن الزانية هذا . »

– « بعد ان رأيت مـا الذي حل بكونتن ، لا بدّ لي من سكر كثير قبل أن احاول ضربه . اين تعلّم الملاكمة ؟ »

قلت : « منذ زمن وهو يتردد على مايك يومياً . »

فقال سبود : « صحيح ؟ وهل كنت تعلم ذلك عندما ضربته ؟ »

قلت : « لست ادري . اجل كنت اعلم . »

وقال شريف : « بلّلها ثانية . اتريد ماء نظيفاً ؟ »

قلت : « لا بأس بهذا الماء . »وغمست القماشة مرة اخرى ووضعتها على عيني . « تمنيت لو كان عندي ما انظّف به صدريتي . » وسبود ما زال يرقبني .

فقال : « بربك قل لي ، لماذا ضربته ؟ ما الذي قاله ؟ »

– « لست ادري . لست ادري لماذا ضربته . »

– « ما رأيتك إلاّ وانت تقفز فجأة وتقول : هل كانت لك يوماً أخت ؟ تكلم ! ولما قال كلا ، ضربتـــه . وقد لاحظت انك بقيت تحدق فيه دون ان تنتبه لما يقوله أي منا إلى ان قفزتَ وسألته ان كانت

له أخت . »

فقال شريف : « كان كالعادة يتباهى بنسائه . كما يفعل دائماً أمام الفتيات ، بحيث لا يفهمن بالضبط ما الذي يقوله . وكل هــذا الغمز واللمز والكذب وهذه الحكايات الكثيرة التي لا تُعقل . كان يروي لنا عن فتاة اتفق معها في احدى قاعات الرقص في اتلانتيك سيتي على اللقاء فلم يذهب للقائها بل مضى الى الفندق وآوى الى فراشه وكيف انه بقي مستلقياً فيه آسفاً لانتظـارها إياه ، دون ان يذهب اليها ويمنحها مــا تشتهيه . ويتكلم عن جمال الجسد وعواقبه الوخيمـة ، وكيف ان النساء يقاسين من جراء ذلك دون ان يعرفن مــا يفعلن سوى الاستلقاء على ظهورهن . يعني ان ليدا تكمن بــين الشجيرات ، وتتأوه وتئن شوقاً للإوزة . ابن الزانيـة . والله لكنت اضربه بنفسي . ولو كنت مكانك لانتزعت سلة النبيذ واهويت بها عليه . »

قال سبود : « آه ، نصير النساء ! انك يا صاح لا تثير الاعجاب فحسب ، بل الاشمئزاز ايضاً . » ورماني بنظرته المتسائلة الجامدة وقال : « يا إلهي ! »

قلت : « إني آسِفٌ لضربه . ولكن كيف أبدو ؟ أأستطيع بحالي هذه ان اذهب وأصالحه ؟ »

قال شريف : « ماذا ، أتعتذر ؟ فليذهب وامه الى الشيطان . أما نحن فنريد الذهاب الى المدينة . »

قال سبود : « ليَعُد اليها لكي يدركا انه يقاتل مقاتلة السيد المهذب ، اعني يُقهَر كما يقهر السيد المهذب . »

قال شريف : « وهو على هذه الحال ؟ وثيابه كلها ملطخة بالدم ؟ »

قال سبود : « طيب ، طيب . أنت أدرى . »

فقال شريف : « لا يمكنه الذهاب لابساً قميصه الداخلي . فهو ليس من طلاب السنة الأخيرة بعد . هيا ، لنذهب الى المدينة . »

فقالت : « ليس ضرورياً ان ترافقني . عد الى نزهتك . »
قال شريف : « دعنا منهم . هيا بنا . »
قال سبود : « وماذا أقول لهم ؟ أأقول لهم انكما انت وكونتن تشاجرتما أيضاً ؟ »

قال شريف : « لا تقل لهم شيئاً . وقل لها ان مهلة اختيارها انتهت عند غروب الشمس . هيا بنا يا كونتن . لأسأل تلك المرأة اين محطة الـ — » فقلت : « كلا ، لست براجع الى المدينة . »
فتوقف شريف ونظر الي . وبالتفاتته بدت الزجاجتان في نظارته كقمرين أصفرين صغيرين .
— « ما الذي ستفعله ؟ »
— « لست براجع الى المدينة الآن . فخير لك ان تعود الى نزهتك مع الجماعة . وقل لهم انني رفضت العودة لاتساخ ثيابي . »
فقال : « اسمع . ما الذي ببالك ؟ »
— « لا شيء . انني بخير . فعد بصحبة سبود . وسأراك غداً . »
ومضيت عبر الفناء نحو الطريق .
وقال شريف : « أتعرف أين المحطة ؟ »
— « سأجدها . سأراكم كلكم غداً . وقل للمسز بلاند انني آسف لافساد نزهتها عليها . » وقفا يرقبانني ، فسرت من حول البيت الى الطرف الآخر حيث كان ممر صخري يؤدي الى الطريق ، وعلى الجانبين منه ورود . ومن خلال البوابة سرت الى الطريق التي تنحدر على التل في اتجاه الآجام ،واستطعت ان أتبين السيارة واقفة على جانب من الطريق. غير انني صعدت التل ، والضياء يشتد كلما ارتقيت وقبل ان ابلغ القمة سمعت سيارة ، جاءني صوتها من بعيد عبر الشفق ، فوقفت واصغيت اليها . فتناءت وما عدت أستبين صوتها ، إلا ان شريف كان واقفاً على الطريق أمام المنزل ، موجهاً بصره نحوي ، والضياء الاصفر خلفه كغشاء

من الصباغ على سطح المنزل . فرفعت له يدي ومضيت الى أعلى التل، مصغياً الى السيارة . ثم اختفى المنزل ووقفت في الضياء الأخضر الأصفر وصوت السيارة في ارتفاع ،وحالما بدأ بالتضاؤل توقف بالمرة . فانتظرت ريثما سمعته من جديد ، ثم عدت الى سيري .

واذ جعلت أهبط الطرف الآخر من التل بدأ الضياء يتضاءل ببطء ، ولكن دون ان يتغيّر نوعاً ، كأنني أنا الذي أتغير لا الضياء ، أتغير وأتضاءل رغم انه كان المقدور قراءة صحيفة حتى عند تغلغل الشارع بين الأشجار . وسرعان ما جئت الى زقاق دخلته ، اشد عتمة وانغلاقاً من الطريق،ولكنه اذ أفضى الى موقف الترام – مظلة خشبية اخرى – فان الضياء كان عين الضياء السابق . بل ان الدنيا بعد الزقاق بدت أشد وهجاً ، كأنني اخترقت الليل في الزقاق فانتهى بي الى الصباح مرة أخرى . وسرعان ما جاءت الحافلة ، فركبتها ، ومن فيها يتلفتون للنظر الى عيني ، ووجدت لي مقعداً في الجانب الأيسر .

كانت أنوار الحافلة مضاءة ، فلم أستطع وهي تسير بين الشجر ان أرى شيئاً سوى وجهي وامرأة في الطرف المقابل بقبعة حطت على قمة رأسها ، وفيها ريشة مكسورة ، ولكن حالما خرجنا من بين الشجر صرت ارى الشفق من جديد ، وهو النور الذي يوهم المرء بأن الزمن قد توقف ردحاً والشمس معلقة دون حافة الأفق بقليل،ثم مررنا بالمظلة التي كان ذلك الشيخ تحتها يأكل من الكيس ، والطريق يمتد ويمتد تحت الوان الاصيل الى الاصيل ، وفي حس بأمواه تجري في الأبعاد سريعة آمنة . وبعد ذلك استأنفت الحافلة سيرها ، ومجرى الهواء يشتد شيئاً فشيئاً خلال الباب المفتوح الى ان جعل الهواء يجري خلال الحافلة كلها مثقلاً بعبق الصيف والظلام باستثناء **عبق زهر العسل** . فرائحة زهر العسل ، فيما أعتقد ، أكثر الروائح كلها حزناً . وانا اذكر العديد منها . الوسطار احداها . ففي الايام الماطرة اذا لم تكن امي من المرض بحيث تضطر

الى الابتعاد عن النوافذ كنا نلعب تحتها . واذا ما مكثت امي في الفراش ألبستنا دلزي ثياباً عتيقة وسمحت لنا بالخروج في المطر المنهمر لأنها ترى ان المطر لا يؤذي الأحداث . اما اذا لم تكن امي في الفراش فقد كنا دائماً نشرع في اللعب على الشرفة الى ان تقول ان ضوضاءنا لا تطاق ، فنخرج عندئذ ونلعب تحت عريشة الوسطار .

هنا رأيت النهر لآخر مرة هذا الصباح ، حوالي هذا المكان. وجعلت اشعر بأن ثمة وراء الأصيل مياهاً ، ورائحة . عندما كانت الازهار تتفتح في الربيع ويهمي المطر ينتشر الشذا في كل مكان ولا يلحظ المرء ذلك بوضوح في بعض الاحيان ولكن اذا ما امطرت السماء بدأت الرائحة في التسرب الى الدار عند الاصيل وعند الاصيل إما ان يشتد المطر او ان في وهج الاصيل شيئاً يجعل الشذا حينئذ اقوى رائحةً الى ان اجدني مستلقياً على فراشي وانا اقول متى ستكف ، متى ستكف . واذا دخل الهواء من الباب حمل رائحة الماء كنَفَسٍ رطب مستمر . وكنت أحياناً انوّم نفسي وانا اعيد واكرر ذلك الى ان اختلط زهر العسل به وأمسى كل ذلك يرمز الى الليل والقلق ولكأنني استلقيت لا نائماً ولا يَقظاً أرسل بصري في أرجاء رواق طويل ضياؤه شبه ضياء أشهب غدت فيه الاشياء المستقرة كلها ظلالاً وتناقضات وكل ما فعلته ظلال وكل ما شعرت به وعانيته يتابس شكلاً مرئياً شَكِساً مهرجاً يهزأ دونما داع وكلها تضج بانكار المعنى الذي كان ينبغي ان تؤكّد عليه واقول لنفسي أكون لا أكون من كان لم يكن من

كنت اشمّ منحنيات النهر وراء الغسق وشاهدت آخر النور مستلقياً وادعاً على مُنْحسَرات المياه كشظايا مرآة محطمة ، تبدأ وراءها أنوارٌ ترتعش في الجو الشاحب الصافي كفراشات مُحومة ترى من بعيد. بنجامين ابن شَيّ — لشد ما كان يلذ له ان يجلس ازاء تلك المرآة . ملجأ لن تخذله، يَلْطُف فيه الصراع ويسكن وينتهي الى وئام.بنجامين ابن شيخوختي

أبقوه رهينةً في مصر . أيا بنجـامين . كانت دلزي تقول كان ذلك بسبب كون امّه اشد كبرياء وأنفـة من ان ترضى به . لقد كانوا يقتحمون حيوات البيض على هـذا النحو في قطرات سوداء جديدة فجائية تفرز حقائق البيض لبرهة من الزمن في حقيقـة لا تقبل الجدل كما تحت مجهر؛ ولكنهم في الاوقات الاخرى ليسوا إلا اصواتاً تضحك حين لا ترى أنت ما يُضحك ، ودموعاً تهل حين لا ترى انت مبرراً للدموع . وإنهم ليراهنون على عدد النادبين في جنازة ما ، أفردي هو أم زوجي . واحتشد بهم يومـاً مبغى في ممفيس فأصيبوا بنشوة دينية جامحة فانطلقوا عراةً إلى الشارع . وللسيطرة على واحد منهم كان لا بد من تعاون ثلاثة من الشرطة عليه . أجـل يا يسوع يا يسوع الصالح يا إنساناً طيّباً يا يسوع .

وقفت الحافلة ، فنزلت منها وهم ينظرون الى عيني . ولما جاءت حافلة الترام التالية كانت مليئة . فوقفت على الدكّة الخلفية .

قال الجابي : « في الأمام مقاعد خاليـة . » فنظرت الى داخل الحافلة ولم أجد مقاعد على الجانب الأيسر .

فقلت : « لست ذاهباً بعيداً . سأقف هنا . »

قطعنا النهر . أعني الجسر المنحني في قنطرة وئيدة شهقت في الفضاء، بين الصمت والعدم حيث الاضواء — الصفر والحمر والخضر — ترتعش في صفاء الجو ، مكررة نفسها .

قال الجابي : « الأفضل ان تذهب الى الامام وتجلس . »

فقلت : « لم يبقَ لي إلا القليل فانزل . عمارتان فقط . »

ونزلت قبل ان نبلغ دائرة البريد . في مثل هذا الوقت يكونون قد تجمعوا للأنس في مكان ما ، واذا بي اسمع ساعتي وأتهيأ لسماع رنات الساعة ولمست رسالة شريف من خلال سترتي ، وظلال الدردار المعضوضة تجري على يدي . وحالما دخلت الفناء انطلقت الساعة برناتهـا ومضيت

والنغمات تتصاعد كالموجات في بركة ماء وتمر بي وتمضي ، وانا أقول اية ساعة إلا ربعاً ؟ لا بأس ، لا بأس . اية ساعة إلا ربعاً ؟

كانت نوافذنا مظلمة . والمدخل خالياً . وقد سرت بمحاذاة الحائط الأيسر عند دخولي ، غير انه كان خالياً : فيما عدا سلّم الدرج يصعد وينعطف الى عالم من الظلال من اصداء الأقدام عبر الأجيال الحزينة اشبه بغشاوة من غبار تكسو الظلال ، توقظها قدماي كالغبار ، ثم تعود وتستقر كالغشاوة من جديد .

استطعت ان ارى الرسالة قبل ان اشعل الضوء ، مسندةً الى كتاب على المنضدة لكي اراها حال دخولي . تسميه بزوجي ! ثم قال سبود انهم ذاهبون الى مكان ما ، ولن يعودوا الا متأخرين ، فتحتاج المسز بلاند الى فارس آخر . ولكنني كنت رأيته لو عاد ولن تحصل على حافلة الا بعد ساعة أخرى لأنها تعدت السادسة . فأخرجت ساعتي وأصغيت اليها وهي تدقدق ، غير عارف انها عاجزة حتى عن الكذب. ثم وضعتها على الطاولة وميناؤها الى الأعلى وتناولت رسالة المسز بلاند ومزقتها طولاً وعرضاً وأسقطت القطع في سلة المهملات ونزعت سترتي وصدريتي وياقتي ورباطي وقميصي . لقد تلوث الرباط ايضاً ، ولكن الزنوج ... لعله حين يرى زخرفة الدم يقول انه الرباط الذي كان يلبسه المسيح . ووجدت البنزين في غرفة شريف فنشرت الصدرية على المنضدة ، وفتحت زجاجة البنزين .

أول سيارة في المدينة فتاة فتاة رائحة البنزين ما كان جاسن يتحملها قط تدفعه الى الغثيان ثم جن جنونه لان فتاة فتاة ما كان له أخت ولكن بنجامين بنجامين ابن أحزاني لو أن لي أماً فأستطيع ان أقول أماه أماه استهلكت الصدرية الكثير من البنزين ، ثم لم أعد أعلم أهي اللطخة ما زالت في مكانها ام انه البنزين . لقد بُعث الألم في جرحي ثانية ولذا فإنني عندما ذهبت لأغتسل علّقت الصدرية على كرسي وانزلت سلك

الكهرباء لكي يجفف النور لطخة البَلَل . ثم غسلت وجهي ويديّ، غير انني حتى في تلك اللحظة اخذت اشمّ رائحته في الصابون لاسعة تقبض الخيشومين بعض الشيء . وبعد ذلك فتحت الحقيبة واخرجت منها القميص والياقة والرباط ووضعت فيها الثياب المدماة ، وارتديت ثيابي . وفيما انا أفرّش شعري دقت الساعة النصف . ولكن ثمة حتى الثلاثة الارباع ، الا اذا افترضت غير مشاهد على الظلام الدافق الا وجهه ولا ريشة مكسورة الا إذا كان إثنان منهم ولكن لا اثنان كهؤلاء ذاهبين إلى بوسطن في الليلة نفسها ثم وجهي وجهه للحظة خاطفة عبر الاصطدام حين برزت من أحشاء الظلام نافذتان مضاءتان في هرب صلب صدام راح وجهه ووجهي أكاد لا أرى رأيت هل رأيت دون وداع مظلة الموقف خالية من الاكل والطريق خال في الظلام في الصمت والجسر منحن نحو الصمت والظلام والنوم والماء آمن سريع دون وداع

اطفأت النور ودخلت غرفة نومي ، بعيداً عن البنزين ولكن رائحته ما زالت تضرب انفي . ووقفت عند النافذة والستائر تتحرك طالعةً على رسلها من الظلام تلمس وجهي كمن يتنفس في نومه ، فيسترسل بها تنفسها عودة الى الظلام ، مخلّفة عليّ لمساتها . بعد ان صعدوا إلى فوق استلقت أمي في كرسيها ، والمنديل المشبع بالكافور على فمها . ولم يتحرك أبي بل ما انفك جالساً بقربها ويدها في يده والصراخ مستمر رتيباً كأنه حُرِم مكاناً في عالم الصمت عندما كنت صغيراً كان في احد كتبنا صورة ، لمكان مظلم لا ينفذ فيه الا شعاع واحد من نور باهت يقع على وجهين طالعين من الظلام أتعلم ما الذي كنت أفعله لو كنت ملكاً ؟ لم تتخيل نفسها قط ملكة او جنّية بل ملكاً او مارداً او جنرالاً . لاقتحمت ذلك المكان وأخرجتهما منه وجلدتهما مُزقت الصورة من الكتاب ، وفرحت بذلك . فقد كان علي ان ارجع اليها الى ان اصبح الكهف امي نفسها هي وابي الى فوق في النور الباهت يداً بيد ونحن ضائعون في

مكان ما تحتها محرومين حتى شعاع النور . ثم جاء زهر العسل . فاذا ما اطفأت النور وحاولت النوم اقتحم علـيّ حجرتي في امواجٍ تلجب وتعلو حتى أُكره على اللهاث لسحب تنفّسٍ من الهواء من خلالها حتى أكره على النهوض والخبط بحثاً عن طريقي كما كنت افعل ايام صغري **ترى اليدان لمساً مشكّلتين في الذهن الباب الذي لا يرى الباب الآن لا شيء ترى اليدان** انفي يرى البنزين ، والصدرية على المنضدة ، والباب. والرواق ما زال خالياً من اقدام الأجيال الحزينة كلها طلباً للسماء . **إلا أن العينين بلا بصر صرّتا كالاسنان غير منكرة بل شاكّة حتى في انعدام الالم كاحل ساق ركبة وانسياب إفريز الدرج الخفي الطويل حيث الكبوة في الظلام مليئة بنوم أمي أبي كادي جاسن موري الباب لست بخائف ولكن أمي أبي كادي جاسن موري سبقوني بعيداً في نومهم سأنام سريعاً وأنا الباب الباب الباب** كان خالياً ايضاً ، الانابيب والخزف الابيض اللماع ، والجدران الهادئة الملونة ، وعرش التأمل . كنت قـد نسيت الكوب ، ولكن بوسعي **تستطيع اليدان أن تريا الاصابع المستبردة عنق الاوزة الذي لا يرى حيث أقل من عصا موسى ملمس الكوب غير يقين لا للقرع العنق الاهيف البارد يقرع المعدن الزجاج الكوب مـليء طافح يبرّد الكوب الاصابع يجرف النوم فيبقى طعم النوم النـديّ في صمت الحنجرة الطويل** عـدت ادراجي في الرواق ، موقظاً في الصمت الاقدام الضائعة في افواج هامسة ، الى البنزين ، والساعة تكرر اكذوبتها الهوجاء على المنضدة المظلمة . ثم الستائر وهي تتنفس من اعماق الظلام على وجهي ، مخلفة انفاسها على وجهي . ربع ساعة بعـد . وبعدها لن اكون . آمنُ الالفاظ جميعاً . آمن الالفاظ واعمقها سلاماً . Non fui Sum . Fui . Non sum في مكان ما ذات يوم سمعت اجراساً . في مسيسبي او ماساشوستس . كنت . لا اكون . ماساشوستس او مسيسبي . لدى شريف زجاجة في حقيبته . **ألن تفتحها على الاقل** يتشرف السيد

جاسن رتشموند كمبسن وعقيلته باعلان **ثلاث مرات . ثلاثة أيام . ألن تفتحها على الاقل** زواج كريمتهما كاندس **بأن الخمر تعلم المـــرء الخلط بين الوسائل والغايات .** انا اكون . اشرب . مـا كنت . فلنبع مرعى بنجي لكي يتمكن كونتن من الذهاب الى هارفرد واتمكـن انا من دق عظامي بعظامي . سأموت في . افي سنة واحدة قالت كادي . لدى شريف زجاجة في حقيبته . سيدي اني لن احتاج الى مال شريف فقـــد بعت مرعى بنجي وبوسعي ان اموت في هارفرد قالت كادي في كهوف البحر ومغاوره تؤرجحني المياه الصاعدة النازلة في امان ودعة لأن هارفرد مضيق بحري رائع وهل اربعون فداناً من الارض ثمن باهظ لقاء مضيق بحري رائع . مضيق ميت رائع لسوف نستبدل مرعى بنجي بمضيق ميت رائع. ستكفيه مدة طويلة لأنه لا يستطيع سماعها الا اذا استطاع شمها **حالمـــا جاءت إلى الباب أخذ يبكي** لقد كنت اظن طيلة الوقت انه احد اجلاف المدينة الذين كان ابي يعابثها بالحديث عنهم الى ان . لم آبـه له اكثر مما ابهت لأي سمسار غريب عنا او اي حسبت انها من قمصان الجيش واذا بسي فجأة ادرك انه لم يعتبرني قط مصدراً ممكناً للاذى ، بل انه كان يفكر بها وهو ينظر الي ينظر الي من خلالها كمن خلال قطعة زجاج ماون **لمَ هذا التدخل منك بشؤوني وأنت أدرى بأن لا خير يرجى من ذلك أو ليس الافضل أن تترك ذلك لامي وجاسن**

هل جعلت أمي جاسن يتجسس عليك ما كنت لارضى .

أما النساء فانما يستخدمن شرائع الشرف التي يتمسك بها الآخرون وما ذلك إلا لأنها تحب كادي وتبقى في الطـــابق الأسفل حتى عند مرضها لئلا يهزأ ابـي من أخيها موري قدّام جاسن وكان أبـي يقول ان خالي موري اضعف علماً بالكلاسيكيّات من ان يجازف بالفتى الضرير الخالد بنفسه وكان الأحرى به ان يختار جاسن لأن جاسن لا بـد ان يقع في عين الخطأ الذي كان خالي موري سيقع فيـه وهو لن يسبّب له لكمة

على العين وابن باترسن كان اصغر من جاسن سناً ايضاً وباع كلاهما
الطيارات الواحدة بخمسة سنتات الى ان اختلفا حول الامور المالية فوجد
جاسن له شريكاً آخر اصغر منه سناً ايضاً صغيراً جداً لأن تي بي قال
ان جاسن ما زال اميناً للصندوق غير ان ابي قال وما حاجة خالي
موري الى العمل وهو الأب الذي يستطيع ان يعيل خمسة زنوج او ستة
لا يفعلون شيئاً مطلقاً فيما عدا القعود على مؤخراتهم وأقدامهم مغروزة
في الموقد فلا ريب ان بوسعه ايضاً ان يؤوي ويُطعم موري بين الحين
والحين ويعيره بعض النقود لكي يبقى ايمان ابيه بانحدار اسلافه من أعلى
عليين حارّا لا يتزعزع وعندها تنخرط امي في البكاء وتقول إن ابي
يعتقد ان اسرته أشرف من أسرتها وانه يسخر من خالي موري لكي
يلقننا تكرار اقواله لقد عجزت عن ان ترى ان ابي كان يلقننا ان
البشر جميعاً ما هم الا تراكمات متوالية دمى محشوة بالنشارة قُذف بها
من اكوام القمامة حيث القيت الدمى السابقة كلها والنشارة تنزّ من جروح
في جوانب لم تمت من اجلي . لقد مر عليّ زمن كنت فيه أتصور الموت
رجلاً كجدي او صديقاً له صديقاً حميماً له منزلة خاصة لديه أشبه
بتصورنا منضدة جدي وقد حُظر علينا لمسها فلا نرفع حتى صوتنا بالكلام
في الغرفة التي توجد فيها فكنت اتصورهما دائماً معاً في مكان ما ينتظران
قدوم الكولونيل سرتورس ليجالسهما ينتظران في مكان شاهق يعلو اشجار
الارز والكولونيل سرتورس في مكان ارفع من مكانهما وقد ارسل بصره
بعيداً الى شيء يحدق فيه وهما ينتظران انتهاءه من التحديق فيه ونزوله
إليهما وجدي مرتدٍ بزته العسكرية وبوسعنا ان نسمع دمدمة حديثهما من
وراء اشجار الارز وهما في حديث دائم وجدّي هو المصيب دوماً .

بدأت الأرباع الثلاثة تدق . وجاءت الرنة الأولى موزونة وادعة ،
آمرةً بهناءتها ، تفرغ الصمت الونيء للرنة التالية أجل لو ان الناس يستطيعون
تغيير بعضهم البعض على ذلك النحو إلى الأبد يمتزجون معاً كلهيب يندلع برهةً

ثم ينطفيء محمولاً على الظلام الأزلي القرير عوضاً عن البقاء هناك ساعياً في ألا افكر بالأرجوحة حتى طفقت اشجار الارز كلها تبث ذلك العطر الميّت النفّاذ الذي كان بنجي يمقته أشد المقت . وحسبي ان اتخيّل الاشجار الملتفة لأتصوّر انني اسمع الهمسات والفوّرات الخفية وأنشق نبض الدم اللاهب في الجسد الفاضح الاهوج فأرقب بجفنين أحمرين الخنازير المُطالقة أزواجاً تهرول مُجامعةً الى البحر وهو* لقد فُرض علينا ان نبقى يقظين لنرى الشر يفعل فترةً ما في حين انه ليس دوماً وأنا لا حاجة بالرجل الشجاع الى ذلك الوقت كله وهو أتحسب تلك شجاعة وانا اي والله يا ابي الا توافقني وهو كل انسان هو المحكّم في فضائله وقولك في ان تلك شجاعة أم لا اشد خطورة من الفعل نفسه بل من اي فعل والا فانك لست جاداً وأنا انت لا تصدق انني جاد وهو بل اني اعتقد انك من الجد بحيث لا تفزعني والا لما وجدت نفسك مدفوعاً الى التذرع بالقول لي بأنك زنيت باحدى المحارم وانا ما كذبت في ذلك ما كذبت وهو لقد اردت ان تحول قطعة من حماقة الانسان الطبيعية الى هول تطرده عنك فيما بعد بالصدق وأنا ما اردت الا ان اعزلها عن العالم الصاخب فيضطر الى الهزيمة منا بالضرورة وحينئذ يكون صخبه وكأنه لم يكن وهو هل حاولت ان تجعلها تفعلها وانا لقد خشيت ذلك لقد خشيت ان ترضخ وعندها ما كان يرجى منها أي خير ولكن لو استطعت ان اقول لك اننا فعلناها لكان الامر كذلك ولما كان الآخرون عندئذ كذلك الجزء فيروح العالم بهديره عنا وهو وهذا الآخر انك لست تكذب الآن ايضاً غير انك ما زلت اعمى لا تبصر ما في نفسك وذلك الجزء من الحقيقة العامة وسياق الاحداث الطبيعية واسبابها الذي يقع ظله على جبين كل انسان حتى بنجي انك لا تفكر بما هو محدود انك تتأمل في تأليهٍ ما تصبح فيه احدى

---

* لا بد من القول أن هذين الضميرين ، هو وأنا ، يعيّنان القائل في الحوار التالي دون ان يقطعا سيل الذكريات المتداعية . (المترجم)

الحالات الذهنية المؤقتة أمراً متناغماً يعلو الجسد ويعي نفسه والجسد معاً الجسد الذي لن يتخلى عنه تمام التخلي حتى الموت لن تعرفه وانا مؤقتاً وهو انك لا تستطيع ان تتحمل الظن بأن هذه لن تؤلمك يوماً ما كما تؤلمك الآن لقد جعلنا ندرك سرها يبدو انك تعتبرها مجرد تجربة يشيب لها شعرك بين عشية وضحاها كما يقولون دون ان تغيّر شيئاً من مظهرك فترفض ان تفعلها في مثل هذه الحالة انها مقامرة والغريب في الأمر ان الانسان الذي تحبل به امه صدفة وكل نَفَس من حياته رمية من نَرد مغشوش ضده يرفض مجابهة تلك المقامرة الأخيرة التي يعلم سلفاً ألا مفرّ له من مجابهتها دون اللجوء الى ذرائع تتراوح بين العنف والتحايل الحقير وهي ذرائع لن تخدع طفلاً من الاطفال واذا به يوماً لشدة اشمئزازه يجازف بكل شيء في رمية عشواء واحدة من ورقة لعب ليس هناك من يفعل ذلك وهو في أول هوج اليأس او تقريع الضمير او الفجيعة انما يفعلها عندما يدرك ان لاعب النرد المغلق الجهم لا يقيم وزناً ليأس او تقريع ضمير او فجيعة وانا مؤقتاً وهو ما اصعب ما يصدق المرء حين يعلم ان العشق او الاسى سند يشتريه دونما خطة او هدف فتنتهي مدته شاء ام ابى فيستعاد بغير اخطار سابق لاستبداله بأي من السندات التي قد يتفق ان تصدرها الآلهة في تلك الآونة لا لن تفعل انت ذلك الى ان تقتنع بأنها حتى هي لم تكن ربما جديرة باليأس وأنا أنا لن افعل ذلك مطلقاً لا احد يعرف ما اعرفه انا وهو يخيّل اليّ انه من الافضل ان تذهب الى كمبردج في الحال ولعلك تذهب في اجازة الى ولاية « مين » لمدة شهر ولن يكون ذلك فوق طاقتك ان انت حرصت على مالك وفي ذلك فيما ارى خير لك لقد لأم الحرص على الفلس جراحات لم يلأم مثلها المسيح وانا افرضْ جدلاً انني ادركت ما تعتقد انني سأدركه هناك في الاسبوع القادم او الشهر القادم وهو عليك ان تذكر اذ ذاك ان ذهابك الى هارفرد حلم ساور أمك منذ ساعة ولادتك وليس في آل

كمبسن من خيّب امل امرأة وانا مؤقتاً ولسوف يكون ذلك خيراً لي ولكل افراد العائلة وهو كل انسان هو المحكم في فضائله ولكن لا تسمحن لانسان بتقرير ما هو الصالح لأي انسان آخر وأنا مؤقتاً وهو تلك أحزن الكلمات كلها ما من شيء سواهـا في الدنيا وليس ذلك باليأس الى ان يحين الوقت ولا يحين الوقت الى أن كان

دقت الرنة الاخيرة . واخيراً بطل رنينها وسكن الظلام من جديد . فدخلت غرفة الجلوس واضأت النور . وقد خفّت رائحة البنزين حتى كدت لا اعيها ، وفي المرآة ما عادت اللطخة تستبان — لا بقدر الرضة السوداء على عيني ، عـلى كل حال . ارتديت سترتي . فخشخشت رسالة شريف من خلال القماش ، فأخرجتها وتفحصت العنوان، ودسستها في جيبي الجانبي . ثم اخذت الساعة الى غرفة شريف ووضعتها في دُرجه وعدت الى غرفتي واخرجت منديلاً نظيفاً واتجهت نحو الباب، ووضعت يدي على مفتاح النور . وعندها تذكرت انني لم افرّش اسناني ، فكان عليّ ان افتح الحقيبة ثانية . فوجدت فرشاة اسنانـي ووضعت عليها قليلاً من معجون شريف وخرجت وفرّشت اسناني . ثم عصرت الفرشاة ما استطعت لتجفيفها واعدتها الى الحقيبة وسددتها ، واتجهت نحو الباب مرة اخرى . وقبـل ان اطفىء النور تلفتُّ حولي لأري ان كان هناك شيء آخر ، فأدركت انني نسيت قبعتي . لقد كان علي ان امرّ بدائرة البريد ولا بد ان ألتقي ببعضهم هناك فيحسبوا انـني من طلاب « ميدان هارفرد » الذين يتظاهرون بأنهم في سنتهم الاخـيرة . وقـد نسيت ان افرّشها هي ايضاً ، ولكن لما كان لدى شريف فرشاة ، لم اضطر الى فتح الحقيبة مرة اخرى .

نيسان

٦
١٩٢٨

عاهرة يوماً ، عاهرة كل يوم ، هذا ما أقوله أنا . وقلت احمدي الله ان كان هربها من المدرسة هو كل ما يقلقك . وأنا اقول انه خير لها الف مرة ان تكون في ذلك المطبخ في هذه اللحظة من ان تكون فوق ، في غرفتها ، تلطخ وجهها بالأصباغ وتنتظر ستةً من الزنوج ، العاجزين عن مغادرة كراسيهم والوقوف على أقدامهم الا اذا وازنهم وعاء مليء بالخبز واللحم ، ليهيئوا لها الفطور . فقالت أمي :

« أما ان تعتقد سلطات المدرسة ان لا سيطرة لي عليها ، وانني لا استطيع — »

فقلت : « بالضبط . وهل استطعت يوماً ؟ لم تحاولي قط يوماً ان تفعلي بها شيئاً . فكيف لك ان تبدأي وقد فات الاوان ، وقد بلغت السابعة عشرة من عمرها ؟ »

فراحت تتأمل في ذلك مدة ، ثم قالت :

« اما ان يعتقدوا ... ما كنت اعلم ان لديهم ورقة تقرير باسمها . فقد اخبرتني في الخريف الماضي انهم اقلعوا عن استعمال التقارير هذا العام.والآن يخابرني الاستاذ جنكن بالتلفون ليقول ان تغيبت مرة واحدة اخرى فعليها ان تترك المدرسة . كيف تفعل ذلك ؟ اين تذهب ؟ انك في البلدة طوال النهار : اما كنت تراها لو انها كانت تتسكع في الشوارع ؟ »

قلت : « بلى . لو كانت تتسكع في الشوارع . ولكنني لا احسب انها تهرب من المدرسة لتفعل شيئاً تستطيع ان تفعله جهاراً امام الناس.»

قالت : « ماذا تعني ؟ »

قلت : « لا اعني شيئاً . أجبتك على سؤالك،لا اكثر ولا اقل . »

فبدأت تبكي من جديد ، وتقول كيف ان لحمها ودمها انتصبا أمامها ليصبا عليها اللعنة .

قلت : « انت التي سألتني . »

فقالت : « لست اعنيك انت . انك الوحيد من دونهم كلهم الذي لا أجد فيه غضاضة علي أو مسبة لي . »

فقلت : « طبعاً ، لم يتح لي الوقت لاكون ذلك . لم يتح لي الوقت للذهاب الى هارفرد ككونتن أو للشرب حتى يطمرني التراب كأبي . كان عليّ ان اشتغل . ولكن بالطبع ان كنت تبغين مني ان اتعقبها وأرى ما الذي تفعله ، فما عليّ إلا ان اتخلى عن المخزن وأجد وظيفة أعمل فيها ليلاً . وعندها استطيع ان اراقبها اثناء النهار ولك ان تستخدمي بن في دورة الليل . »

قالت وهي تبكي على الوسادة : « انا اعرف أنني مصدر إزعاج لك وعبء عليك . »

قلت : « لا بد أنني اعرف ذلك بعد ان كررته على مسمعي ثلاثين

سنة كاملة . وحتى بن لا بد ان يكون عارفاً ذلك الآن . اتريدين لي ان أقول لها شيئاً حول الموضوع ؟ »

فقالت : « وهل ترى اية فائدة تُرجى من ذلك ؟ »

قلت : « لن ترجى أية فائدة إن انت نزلت للتدخل بيننا في اللحظة التي أبدأ فيها . فاذا كنت تريدين لي ان اسيطر عليها ، أخبريني بذلك ولا تتـــدخلي . فكلما حاولتُ ، أقحمت نفسك ، وراحت هي تضحك منك ومني . »

قالت : « تذكـّر أنها من لحمك ودمك . »

قلت : « طبعاً . هذا ما افكـّر به ، دون غيره — اللحم ، وقليل من الدم ، لو أتيح لي مأربي . اذا تصرف المرء تصرف الزنوج ، فلا بد من معاملته معاملة الزنوج ، وليكن من يكون . »

فقالت : « إنني أخشى ان يحتد غضبك عليها . »

فقلت : « انت لم تُوَفـَّقي في اساوبك معها . افتريدينني ان افعل شيئاً بهذا الشأن ام لا ؟ قرري . يجب عليّ الذهاب الى عملي . »

قالت : « أنا اعلم انك تكد وتكدح في سبيلنا . او تدري لو اتيح لي تحقيق ما اشتهيه لكان لك مكتب تذهب اليه ، وساعات دوام تليق برجل هو سليل آل باسكوم . لأنك من آل باسكوم ، رغماً عن اسمك. وانا أعلم لو ان اباك استطاع التكهن بأن — »

فقلت : « له الحق والله في ان يخطيء التكهن بين الحين والحين ، كغيره من البشر ، من آل زيد كانوا أم عبيد . » فجعلت تبكي ثانية.

وقالت : « أتُسمعني هذا الكلام المر عن ابيك المرحوم ... »

فقلت : « طيب ، طيب . ليكن ما تشائين . ولكن ما دمت لا مكتب لي، فعليّ بالسعي إلى ما لدي . اتريدين لي أن اقول لها شيئاً ؟ »

فقالت : « أخشى ان يحتد غضبك عليها . »

قلت : « حسناً اذن ، لن اقول لها شيئاً . »

فقالت : « ولكن لا بد لي من فعل شيء ما . أما ان يعتقد الناس انني اسمح لها بالتغيب عن المدرسة والتسكع في الشوارع او انني عاجزة عن منعها عن ذلك ... جاسن ، جاسن ، كيف ترضى كيف ترضى بتركي رازحة تحت هذه الاعباء كلها ؟ »

قلت : « هدئي روعك ، وإلا مرضت من جديد . لمَ لا تحبسينها في غرفتها طيلة النهار ، او تسلمينها اليّ فتقلعي عن القلق بشأنها ؟ »

قالت : « لحمي ودمي ، » وبكت ، فقلت :

— « لا بأس ، سأعنى بأمرها . كفاك بكاءً . »

فقالت : « لا تحتد غضباً . وتذكر ، ان هي الاّ طفلة . »

فقلت : « لا ، لا . » وخرجت ، واغلقت الباب .

فصاحت : « جاسن . » غير انني لم أجب . ومضيت في البهو ، فقالت من وراء الباب : « جاسن . » ولكنني نزلت الدرج . ولم يكن في غرفة الطعام أحد ، ثم سمعتها في المطبخ ، تحاول جعل دلزي تعطيها كوباً آخر من القهوة . فدخلت المطبخ .

وقلت : « هذا الذي ترتدينه هو زي المدرسة ، ولا شك ، هه ؟ ام ان اليوم عطلة ؟ »

قالت : « أرجوك يا دلزي . نصف كوب فقط . »

قالت دلزي : « لا والله . لن اعطيك قهوة بعد . عيب ان تشربي أكثر من كوب واحد ، وما انت الا فتاة في السابعة عشرة من العمر ، فضلاً عما تقوله السيدة كارولاين . هيا اذهبي ،وارتدي لباس المدرسة ، لتستطيعي ان تذهبي راكبة مع جاسن . أتريدين ان تتأخري ثانية ؟ »

فقلت : « أبداً ! وسوف نتأكد من ذلك تواً . » فنظرت الي والكوب في يدها . وأرجعت شعرها مشطاً عن وجهها ، وقد زلق « الكيمونو » عن كتفها . وقلت : « ضعي ذلك الكوب من يدك وتعالي هنا قليلاً . »

فقالت : « لماذا ؟ »

قلت : « تعالي . ضعي ذلك الكوب في المغسلة وتعالي هنا . »

فقالت دلزي : « ما الذي انتويته الآن يا جاسن ؟ »

قلت : « لعلك تظنين انك تستطيعين ان تتخطيني كما تتخطين جدتك وكل فرد آخر في هذا البيت . ولكن ستجدين انك مخطئة . سأمهلك عشر ثوانٍ لكي تضعي ذلك الكوب من يدك كما قلت لك . »

فصرفت عينيها عني ونظرت الى دلزي . وقالت : « ما الساعة الآن يا دلزي ؟ عندما تنقضي الثواني العشر ، صفّري . نصف كوب فقط يا دلزي ، أر — »

فأمسكت بها من ذراعها ، فأسقطت الكوب وتحطم على الأرض ، وانتفضت الى الوراء وهي تنظر الي ، غير انني بقيت ممسكاً بذراعها . ونهضت دلزي عن كرسيها وقالت :

« اسمع يا جاسن . »

قالت كونتن : « خلِّ سبيلي . والا صفعتك . »

فقلت : « أتصفعينني ، أحقاً تصفعينني ؟ » ورفعت كفها علي ، فقبضت على يدها تلك ايضاً ، وأمسكت بها كالقطة البرية وقلت : « أتصفعينني ، احقاً تصفعينني ؟ »

قالت دلزي : « اسمع يا جاسن ! » وجررتُ بها الى غرفة الطعام ، وانحل الكيمونو مرفرفاً حولها : عارية تقريبـاً والله . وجاءت دلزي تتدحرج ، فاستدرت ورفستُ الباب إغلاقاً في وجهها .

وقلت : « اياك ان تدخلي هنا . »

واتكأت كونتن على المائدة ، وشدت ثوبها ، وانا أنظر اليها .

قلت : « والآن ، اريد ان أعرف ما الذي ترمين اليه بهربك من المدرسة والكذب على جدتك وتزوير اسمها على تقريرك واقلاقهـا حتى المرض . ما الذي ترمين اليه ؟ »

فلم تنبس بكلمة ، وهي ترفع طرف الكيمونو الى ما تحت ذقنها ، وتسحبه بشدة حولها ، ناظرة الي . لم تكن قد صبغت نفسها بعد فبدا وجهها وكأنه قد مُسح مسحاً بخرقة عتيقة . وامسكتها من رسغها بعنف وقلت : « ما الذي ترمين اليه ؟ »

فقالت : « ليس ذلك من شأنك ، أفهمت ؟ خلِّ سبيلي . »

واذا دلزي بالباب تقول : « اسمع يا جاسن . »

قلت دون ان التفت اليها : « اخرجي من هنا ، كما قلت لك ! »

وعدت اقول : « اريد ان أعرف اين تذهبين عندما تهربين من المدرسة. انك تبتعدين عن الشوارع ، والا لكنت رأيتك . من الذي تهربين معه او من اجله ؟ أتختبئين في الغابة مع احد هؤلاء القذرين اللمّاعي الرؤوس؟ اهناك تذهبين ؟ »

« قبحّك الله ، » قالت وهي تكافح، غير انني بقيت ممسكاً بها : «قبحك الله ، قبحك الله ! »

فقلت : « سأريك الآن . ربما استطعت أن تفزعي عجوزاً كجدتك، ولكن سأريك في يد من وقعت الآن . » وأمسكت بهـا بيد واحدة ، ثم كفّت عن العراك وراحت ترقبني وعيناها تتسعان وتكفهران .

قالت : « وما الذي ستفعله الآن ؟ »

— « انتظري الى ان اخرج هـذا الحزام ، فتعرفي ، » قلت وأنا اسحب حزامي . وعندها قبضت دلزي على ذراعي .

وقالت : « جاسن ! اسمع يا جاسن ! ألا تخجل من نفسك ؟ »

وقالت كونتن : « دلزي ، دلزي . »

قالت دلزي : « لن أدعه ، لا تخافي يا حبيبتي . » وتشبثت بذراعي. ثم سحبت حزامي وانتفضتُ طليقاً منها وقذفت بهـا عني . فارتطمت بالمائدة . لقد طعنت في السن حتى عسرت عليها الحركة.ولكن لا بأس: لا بد لنا من اناس في المطبخ يأكلون الطعام الذي لا يستطيع الصبية تهريبه .

وجاءت تتدحرج بيننا وحاولت ابعادي مرة أخرى . وقالت : «اضربني ، ان كان عليك ان تضرب أحداً لكي تهدأ . اضربني أنا . »

فقلت : « أتظنين انني لن اضربك ؟ »

فقالت : « اعرف انك لن تتورع عن أي رجس من عمل الشيطان. »

ثم سمعت أمي على الدرج . كان يجب ان أعلم انها لن تحجم عن التدخل. فأفلتُّها ، فارتطمت متراجعة بالحائط ، وهي تمسك بالكيمونو لئلا ينفتح عليهـا .

وقلت : « لا بأس . سأؤجل الأمر قليلاً . ولكن اياك ان تظني انك تستطيعين التخلص مني . انا لست امرأة عجوزاً ولا زنجيـة شمطاء نصف ميتة . يا ساقطة يا لعينة . »

فقالت : « دلزي ، يا دلزي . أريد أمي . »

فذهبت اليها دلزي وقالت : « لا تخافي . لن تحطّ يده عليك مـا دمت هنا . » ونزلت امي الدرج .

وقالت : « جاسن . دلزي . »

قالت دلزي : « لا تخافي . لن ادعه يمسّك . » ووضعت يدها على كونتن . فقذفت بها عنها ، وقالت :

— « قبحك الله من زنجية شمطاء . » وركضت نحو الباب .

وقالت أمي من على الدرج : « دلزي . » وصعدت كونتن الدرج ركضاً ، مارةً بها . فقالت امي : « يا كونتن . انتِ يا كونتن . » واستمرت كونتن في الركض وسمعتها تصل الى الأعلى فتدخل البهو ، ثم انصفق الباب .

كانت امي قد توقفت ، ثم نزلت وقالت : « دلزي . »

فقالت دلزي : « نعم ، نعم . اني قادمة . » ثم قالت : « اذهب وهيء تلك السيارة لكي تأخذها فيها الى المدرسة . »

فقلت : « لا تقلقي . سآخذها الى المدرسة ، وسأتأكد من انها تبقى

هناك . لقد شرعت في هذا الأمر ، ولسوف استمر به حتى النهاية . »

قالت امي من على الدرج : « جاسن . »

قالت دلزي ، متجهة نحو الباب : « هيا اذهب ، أتريدها ان تبدأ هي أيضاً ؟ اني قادمة ، يا ست كارولاين . »

ولما خرجتُ كنت اسمعها على الدرج ، ودلزي تقول : « عودي الى فراشك . ألا تعلمين انك لم تشفي تماماً لتغادري الفراش ؟ عودي الآن . وسوف اتأكد من أنها تذهب الى المدرسة هذه المرة . »

خرجت من البـــاب الخلفي لأخرج السيارة بسوقها الى الوراء ، ثم اضطررت ان اعـــود فأذهب الى مقدمة البيت بحثاً عنهم حتى وجدت بعضهم .

وقلت : « ألم اقل لك ان تركّب ذلك الاطار في مؤخرة السيارة ؟»

فقال لستر : « لم اجد الوقت لذلك . فليس هناك من يعنى به الى ان تفرغ امي عملها في المطبخ . »

قلت : « طبعاً . اطعم جيشاً من الزنوج لكي يتتبعوه ويهتموا بأمره، اما اذا اردت تغيير اطار سيارتي ، فان علي ان افعل ذلك بنفسي . »

فقال : « لم اجد احداً اتركه معه . » ثم جعل يئن ويريل .

فقلت : « خذه الى خلف المنزل . لمـــاذا تتركه هنا حيث يراه الناس ؟ » وطردتهما قبل ان يبدأ بالعياط العالي . الا يكفينا يوم الأحد حين يمتلىء ذلك الحقـل اللعين بأناسٍ ، لا مشاكل لديهـــم وليس في عهدتهم زنوج ستة لا بد من اطعامهم ، يضربون كرة صغيرة جيئـــة وذهاباً وفي كـل اتجاه . فيركض طالعاً نازلاً بمحاذاة السياج ويصرخ ويعيط كلما رآهم الى ان يخطر لهم ان يتقاضوني اجور الغولف، وعندها سيتحتم على امي ودلزي ان تأتيا بمقبض او اثنـين من مقابض الأبواب الكروية وعصا معقوفة من عصي المشي وتتدبرا الامر، الا اذا اضطررت انا الى اللعب ليلاً في ضوء فانوس . ولعلهم حينئذ يرسلوننا جميعاً الى

مستشفى المجاذيب في جاكسن . ويعلم الله انهم ، اذا ما وقع ذلك ، سيحتفلون بالمناسبة !

عدت الى الكراج ، والاطار هناك مسند إلى الحائط ، ولكن لعنني الله ان كنت سأركبها . خرجت بالسيارة خلفاً واستدرت . ووجدتها واقفة على طريقنا الخاص . فقلت :

« انا اعرف ان لا كتب لديك . ولكن ارجو الا تظنيني متطفلاً إن سألتك ماذا فعلت بها ؟ متطفل انا بالطبع ، فما انا الا الرجل الذي دفع احد عشر دولاراً و ٦٥ سنتاً ثمناً لها في ايلول الماضي . »

فقالت : « امي هي التي تشتري كتبي . لم تنفق علي فلساً من نقودك ، والا لآثرت الموت جوعاً . »

قلت : « صحيح ؟ قولي ذلك لجدتك واسمعي جوابها . » ثم قلت : « لست تبدين عارية تماماً ، وان كان هذا الشيء الذي يكسو وجهك يخفي عن العين منك اكثر مما يخفيه هذا الثوب الذي تلبسينه . »

— « او تظن ان نقودك او نقودها دُفع منها فلس واحد لقاء هذا ؟ »

فقلت : « اسألي جدتك . اسأليها عن تلك الصكوك . اما رأيتها ، على ما اذكر ، تحرق واحداً منها ؟ » حتى إصغاءً لم تكن تصغي ، ووجهها مصمّغ بالاصباغ وعيناها في قسوة عيني كلب شرس .

— « اتعلم ما الذي كنت افعله لو علمت ان فلساً واحداً من نقودك او نقودها قد صرف على هذا ؟ » قالت هذا واضعة يدها على فستانها.

فقلت : « ما الذي كنت تفعلينه ؟ أكنت ترتدين برميلاً ؟ »

قالت : « لكنت مزقته عني وقذفت به في الطريق . ألا تصدقني ؟ »

قلت : « لا ريب عندي . انك دائماً تفعلين ذلك . »

فقالت : « طيب . انظر ! » وأمسكت بعنق ثوبها بكلتا يديها وبدا كأنها تهم بتمزيقه .

فقلت : « ان انت مزقتِ ثوبك ، فسأجلدك والله هنا على قارعة

الطريق جلدةً تذكرينها طوال عمرك . »

قالت : « طيّب ، انظر . » واذا بها فعلاً تحاول ان تمزّقــه ، تمزّقه عن جسدها . والى ان أوقفت السيارة وقبضت على يديها كان هناك اكثر من عشرة اشخاص ينظرون الينا . لقد جننتُ لذلك برهةً وغشت عينيّ غشاوة .

وقلت : « والله ان أعــدت مثل هذه الفعلة لأجعلنك تندمين على انك ذقتِ طعم الحياة . »

فقالت : « انا آسفة الآن . » وكفت ، وحلت في عينيها نظرة غريبة فقلت لنفسي ، ان بكيت في هذه السيارة ، على الطريق ، فسأجلدك ، سأنهنهك ، ولكن لحسن حظها لم تبك ، فأفلت معصميها وعـدت الى السياقة . وكنا لحسن الحظ على مقربة من زقاق استطعت ان ادخل منه الى شارع خلفي فاتجنب الميدان . وكانوا قد بدأوا بنصب الخيمة في ارض بيادر . وكان ايرل قد أعطاني بطاقتين لقاء الإعلان في نافذتي مخزننا . اما هي فقــد ظلت قابعةً في مكانها مشيحةً بوجهها ، وهي تعض شفتيها . وقالت : « انا آسفة الآن . لست ادري لماذا ولدتني امي . »

فقلت : « وانا اعرف على الاقل شخصاً آخر لا يفهم شيئاً مما يعرفه عن ذلك . » وأوقفت السيارة امام المدرسة . كان الجرس قـد دق ، وكانت اخريات الطالبــات في سبيلهن الى الصفوف . فقلت : « لقد وصلت في الموعد المحدد لاول مرة ، على كل حال . اتدخلين المدرسة وتبقين فيهـــا ام أرافقك واكرهك على ذلك ؟ » فخرجت من السيارة وصفقت الباب . « تذكري ما قلته لك » قلت ، « وانا أعني ما قلت . الويل لك ان انا سمعت مرة اخرى انك تتسللين وتتسكعين في الأزقـــة الخلفية جيئة وذهاباً مع بعض اولئك المنحطين . »

فالتفتت الي عندها ، وقالت : « انا لا اتسلل واتسكــع . واتحداكم جميعاً ان تعرفوا ما الذي افعله . »

فقلت : « الكل يعرف ذلك . كل من في هذه المدينة يعرف من انت . ولكنني سأضع حداً لذلك ، اتسمعين ؟ انا لا يهمني في الواقع ما تفعلين ، » قلت لها ، « ولكن لي في هذه المدينة مركزاً اجتماعياً ، ولن اسمح لامرأة من عائلتي بالتصرف تصرف عاهرة زنجية.اتسمعينني ؟»

فقالت : « لا ابالي . اني فاسدة وسأذهب إلى الجحيم ولن ابالي . واني لأفضل الجحيم على اي مكان انت فيه . »

فقلت : « والله ان سمعت مرة واحدة اخرى انك هربت من المدرسة، فسأجعلك تتمنين لو كنتِ حقاً في الجحـــيم . » ثم ادبرتْ وركضتْ عبر الفناء وقلت : « ولو مرة واحدة اخرى ، تذكري ! » ولكنهـا لم تلتفت .

ذهبتُ إلى دائرة البريد واخذت رسائلي ثم اتجهت نحو الحانوت ، واوقفت السيارة في مكانها . وعند دخولي نظر إلي ايرل،واعطيته فرصة التعليق على تأخري ، ولكنه ما قال الا :

« هذه المعشّبات قد وصلت . الأفضل ان تعـين العم ايوب على تركيبها . »

ولما ذهبت الى خلف الحانوت وجدت ايوب يفكّ عنهـــا التغليف ويركبها بمعدل ثلاثة براغي في الساعة .

فقلت : « كان يجب ان تكون انت ايضاً في خدمتي . فكل زنجي خامل في المدينة يأكل من مطبخي . »

قال : « انا اشتغل لأرضي الرجـل الذي يدفــع لي اجوري مساء السبت . واذا ما فعلت ذلك ، لم يبق لي وقت كثير لارضاء الآخرين .» وشد برغياً ، وقال : « لا احد يرهق نفسه بالعمل في هذا البلد هذه الأيام سوى خنفساء القطن . »

فقلت : « اشكر ربك على انك لست خنفساء قطن تنتظـر هــذه المعشبات . والا لقتلت نفسك إرهاقاً قبل ان يتهيأوا لمنعك عن ذلك . »

قال ايوب : « هذه هي الحقيقة . خنفساء القطن مظاومة . تعمل كل يوم من ايام الاسبوع في العراء في الشمس المحرقة ، امطرت ام اشرقت . ولا شرفة مسقوفة لديها تجلس فيها لتتفرج على البطيخ وهو ينمو ، ولا يعني لها يوم السبت شيئاً ابداً . »

فقلت : « لو كان امر اجورك بيدي ، لما كان ليوم السبت اي معنى عندك انت ايضاً . هيا ، اخرج هذه القطع من صناديقها وجرّها الى الداخل . »

فضضتُ رسالتها اولاً واخرجت منها الصك . ان المرأة هي هي . فها هي قد تأخرت ستة ايام . ومع ذلك ، فانهن يحاولن ان يقنعن الرجال بأنهن يستطعن تسيير الاعمال . وهل يدوم طويلاً في عمله رجل يتصور ان اول الشهر يقع في السادس منه ؟ ومن المحتمل جداً ، حين يرسلون تقرير المصرف ، ان تتساءل لماذا لم اودع راتبي حتى السادس منه ؟ امور كهذه لن تخطر ببال امرأة .

« لم يبلغني الجواب على رسالتي بخصوص ثوب عيد الفصح لكونتن. هل وصلت الرسالة ؟ولم يبلغني جواب على رسالتيّ الاثنتين اللتين كتبتهما مؤخراً اليها ، مع ان الصك في الرسالة الثانية قد صرف مع الصك الآخر . هل هي مريضة ؟ اخبرني حالاً ، والا جئت بنفسي لاستوثق من الأمر.لقد وعدت بأن تدعني أعرف كلما كانت في حاجة الى شيء سأتوقع رسالة منك قبل العاشر من الشهر . لا ، بل الافضل ان تبرق الي على الفور . إنك تفتح رسائلي اليها . وانا واثقة من ذلك كأنني انظر في عينيك . فالافضل ان تبرق إلي عنها على الفور على هذا العنوان .

وفي تلك اللحظة جعل ايرل يصيح بأيوب ، فوضعت الرسالة مع امرأتيها جانباً وذهبت إلى حيث ايوب لأحرّكه قايلاً . ان ما يحتاجه هذا البلد هو العمال البيض . فلو جعلنا هؤلاء السود الكسالى يتضورون

جوعاً لسنة او اثنتين ، لأدركوا حينئذ قيمتهم الحقيقية .

في حوالي الساعة العاشرة ذهبت الى مقدمة المخزن . كان هناك سمسار ، وكانت الساعة هي العاشرة الا دقيقتين ، فدعوته الى مكان قريب نشرب فيه زجاجة من الكوكاكولا . وأخذنا نتحدث عن غلال الموسم .

قلت له : « المسألة واضحة جداً ، القطن غلة المضاربين في السوق. انهم يتخمون المزارع بمعسول الكلام ويغرونه على انتاج غلة كبيرة لكي يقصوا بها السوق ، كالمنشار ، مستفيدين صعوداً ونزولاً ، ويضحكوا على ذقون المغفلين . او تظن ان المزارع يخرج بشيء من كل ذلك فيما عدا رقبة حمراء واحديداب في الظهر ! او تظن ان الرجل الذي يتصبب عرقاً من بذره وزرعه يحصل على فلس أحمر غير كفاف العيش ؟ فاذا انتج غلة كبيرة ، فهي لا تستحق القطاف ؛ واذا انتج غلة صغيرة ، لم يكن لديه ما يكفي للحلج . والفائدة ؟ لكي تأتي شرذمة من اليهود الشرقيين — وانا لا اتحدث عن الذين يعتنقون الدين اليهودي ، ولعلك واحد منهم . »

فقال : « كلا . اني امريكي . »

فقلت : « ارجو المعذرة . اني اعطي كل انسان حقه ، بغض النظر عن الدين او اي شيء آخر . وانا لا اعترض على اليهود كأفراد . انما هو الجنس ،العِرْق . فأنت توافقني على انهم لا ينتجون شيئاً . فهم يلحقون بالرواد في اي صقع جديد ليبيعوهم الملابس . »

قال : « لعلك تقصد الأرمن . فالرواد لا تفيدهم الملابس الجديدة في شيء . »

قلت : « أرجو المعذرة . انا لا اعترض على دين اي انسان . »

قال : « أكيد . انا امريكي . في عائلتنا شيء من الدم الفرنسي ، مما يعلل ان يبدو أنفي هكذا . ولكنني امريكي . »

فقلت : « وأنا ايضاً . لم يبق منا والله الا القليل . والـــذي اتكلم

عنه هو — هؤلاء القاعدون في نيويورك ، الذين يضحكون على ذقون المقامرين المغفلين . »

قال : « اي والله صدقت ، مقـامرة وخراب ديار ، بالنسبة الى الفقير . يجب ان يصدروا قانوناً بمنع ذلك . »

قلت : « الا تعتقد انني محق ؟ »

قال : « اي والله محق ، والمزارع يأكلها على الصاعد وعلى النازل . »

قلت له : « انا اعرف انني محق ، انها لعبـة مغفلين ، الا اذا حصل المرء على معلومات داخلية من رجل مطلع على مجريات الامور . اني لحسن الصدف على اتصال ببعض العارفين بخفايا الامور ، ممن لهم مستشار هو من اكبر المدراء في نيويورك . وطريقتي في العمل هي ألا اجازف بالكثير في المرة الواحدة . اما الرجل الذي يعتقد انه يعرف كل شيء ويحاول ان يكسب مال الدنيا بثلاثة دولارات ، فهو الذي يوقعون به . وهذا هو السبب في انهم يمارسون هذه التجارة . »

ثم دقت العاشرة ، فذهبت الى دائرة البرق* . واذا هي قد فتحت بابها بعض الشيء ، كما قالوا تماماً . وركنت الى الزاوية وأخرجت البرقية من جديد . وفيما أنا اتأملها وصل تقرير جديد . ارتفاع بنقطتين. والكل يشتري . لقد ادركت ذلك من العبارات التي كانوا يتفوهون بها . الكل يريد ان يركب المركب ، كأنهم لا يعرفون انه لا يسير الا في اتجاه واحد . او كأن ثمة شريعة .لا تحتم الا ّ الشراء . على كل ، يظهر ان هؤلاء اليهود الشرقيين ايضاً لا بد لهم من وسيلة للعيش . ولكنني أضيق ذرعاً كلما رأيت ان بوسع كل أجنبي لعين عاجز عن طلب الرزق في بلده حيث اوجده ربه ان يأتي الى هذا البلد ويحفن المـال من جيوب الاميركيين . ثم كان هناك ارتفاع ّ بنقطتين اخريين . اربع نقاط . انهم

* دوائر البرق في الولايات المتحدة تقوم بادارتها شركة تجارية كبيرة تدعى « ويسترن يونيون » اي انها ليست حكومية . ودائرة البرق هنا أشبه بالبورصة ايضاً . (المترجم)

هناك ، حيث يجب ان يكونوا ، ويعرفون بالذي يجري . واذا لم آخذ بنصيحتهم ، فما الداعي لأن ادفع لهم عشرة دولارات كل شهر ؟ فخرجت ، ثم تـذكرت فعدت وارسلت البرقية : « الكل بخير . ك ستكتب اليوم .»

قال موظف البرق : « ك ؟ »

قلت : « نعم ، ك . الا تستطيع ان تتهجأ ك ؟ »

فقال : « اردت ان اتأكد . »

قلت له : « ابرقها كما كتبتها وانا اضمن لك تأكيدك . ابرقها مع تحصيل الاجرة من المرسل اليه . »

قال الدكتور رايت وهو يتطلع من فوق كتفي : « ما الذي تبرقه، يا جاسن ؟ ابرقية بالشفرة للشراء ؟ »

فقلت : « لا عليك . استعملوا حكمتكم انتم . فانكم تعرفون عن الموضوع اكثر مما يعرف اولئك الجالسون في نيويورك . »

قال : « طبعاً . وقد كسبت شيئاً من المال هذه السنة بمقدار سنتين في الرطل . »

ثم جاء تقرير آخر . هبوط بنقطة .

فقال هوبكنز : « جاسن يبيع . انظر الى وجهه . »

فقلت : « ليس من شأنكم ما افعله . ما عليكم الا ان تتبّعوا حُكمكم في الامر . واغنياء اليهود في نيويورك لا بد لهم من ان يعيشوا كغيرهم من خلق الله . »

عدت الى المخزن ، حيث وجدت ايرل مشغولاً عند الواجهة . فذهبت الى المنضدة وقرأت رسالة لورين . «عزيزي حبّوبي ليتك هنا . اذا لم يكن حبوبي عندي فمن اين لي سهرات طيبة ، انا مشتاقة جداً لحبوبي . » مشتاقة بالطبع . اعطيتها في المرة الاخيرة اربعين دولاراً . وضعتها في يدها . من دأبي الا أعدّ امرأةً بشيء، وألا اجعلها تتوقع

ما الذي سأعطيها . هذه هي الطريقة الوحيدة للسيطرة عليهن . اتركهن دائماً في حيص بيص . واذا لم تعـــرف كيف تفاجئهن ، فاكسر لهن حنككاً بين الحين والآخر .

مزقتُ الرسالة وحرقتها في المبصقة . من شريعتي ألا احتفظ بقصاصة تحمل خط امرأة ، وألا اكتب الى امرأة ابداً . ان لورين تصر دائماً على كتابتي اليها ولكنني اقول لها ان كان هناك ما نسيت ان اقوله لك فبامكاني ان اوفره إلى ان اجيء إلى ممفيس مرة اخرى ، ولكنني اقول لها بامكانك ان تكتبي إلي بين حين وآخر في غلاف عادي ، اما اذا حاولت ان تخابريني بالتلفون،فوالله لن ادع لك موطىء قدم في ممفيس . عندما اكون عندك فأنا واحد من الجماعة، اما في بلدي فلن اسمح لامرأة بأن تتصل بي تلفونياً . وهنا اعطيها اربعين دولاراً واقول لها : اذا سكرتِ يوماً او خطر لك ان تخابريني بالتلفون ، تذكري هذا الكلام وعدّي العشرة قبل ان تتورطي .

فتقول : « ومتى يكون ذلك ؟ »

فأقول : « ماذا ؟ »

تقول : « متى ستعود ؟ »

فأقول : « سأخبرك في حينه . » وعندها حاولت ان تشتري زجاجة بيرة ، فلم ادعها،وقلت : « احتفظي بنقودك . اشتري لك ثوباً بها . » واعطيت الخادمة ورقة الخمسة ايضاً . فالنقود في الواقـــع ، كما اقول دائماً ، ليست بذات قيمة . والمهم ان تعرف كيف تنفقها . وهي ليست مالاً لأحد ، فلماذا تخزنها ؟ انها ليست مالاً الا للذي يستطيع تحصيلها وحفظها . ففي جفرسن ، هنا ، رجل جمع اموالاً طائلة ببيع بضائع فاسدة للزنوج ، كان يقيم في غرفة فوق دكانه بحجم حظيرة الخنزير ، ويطبخ طعامه بنفسه . ومنذ اربع او خمس سنوات وقع مريضاً . فأخذه الرعب لمرضه واشتد به الهلع حتى انه ، حال شفائه ، انضم الى الكنيسة

واشترى لنفسه تبشيرية في الصين بخمسة آلاف دولار سنوياً . كثيراً ما اتصور الغضب الذي سيعصف به ان هو مات واكتشف ان لا جنة في الآخرة ، ويتذكر الخمسة آلاف دولار سنوياً ! واني اقول ، خير له ان يموت الآن ويوفر نقوده .

عندما احترقت الرسالة تماماً هممت بدس الرسائل الاخرى في جيبي وإذا بهاتف فجائي يحثني على فتح الرسالة الموجهة الى كونتن قبل عودتي الى البيت ، غير ان ايرل في تلك اللحظة اخذ يصيح من عند الواجهة ويناديني ، فوضعتها جانباً وذهبت لأخدم واحداً من ذوي الرقاب الحمراء* كان — قاتله الله — قد بدد خمس عشرة دقيقة في تقرير امره بين طوق حصان بعشرين سنتاً وآخر بخمسة وثلاثين .

فقلت : « خير لك ان تأخذ هـذا الطوق القوي . كيف يا قوم تؤملون في التقدم وانتم تحاولون استعمال أرخص العدد ؟ »

فقال : « اذا كان هذا الآخر غير قوي ، فلم تعرضه على الناس للبيع ؟ »

قلت : « لم اقل إنه غير قوي . انما قلت ان الآخر أقوى منه . »

قال : « وكيف تعلم ان هذا اضعف من ذاك ؟ هل استعملت يوماً احد النوعين ؟ »

قلت : « لأن هذا سعره عشرون سنتاً وذاك خمسة وثلاثون . وهكذا استطيع التمييز بينهما . »

فأخذ طوق العشرين سنتاً بإحدى يديه وسحبه بين اصابعه ، ثم قال : « اعتقد اني سآخذ هذا . » وأردت ان آخذه وارزمه ، غير انه لفه ووضعه في جيبه . وبعد ذلك أخرج كيس تبغ وبعد التي واللتيا نجح في حله ونفض منه بعض قطع النقد ، وسلمني ربعاً وهو يقول « أما بالخمسة عشر سنتاً الاخرى ، وهي الفرق بين الاثنين ، فأستطيع أن

---

* من التسميات التي كانت تطلق على الفلاحين أيامئذ : « الرقاب الحمراء » . (المترجم)

اشتري طعاماً للعشاء . »

قلت : « لا بأس . انت ابو الفهم . ولكن ارجو ألا تـأتيني في العام المقبل متشكياً حين تريد شراء عدة جديدة لحصانك . »

فقال : « لم انتج غلة العام المقبل بعد ، والحمد لله . » وفي النهاية تخلصت منه ، ولكن كلما اخرجت تلك الرسالة حدث امر جديد . لقد جاء الناس جميعاً الى البلدة لمشاهدة السيرك ، جاءوا زرافات لينفقوا نقودهم على أمر لن يدخل منه للمدينة شيء ولن يترك لها شيئاً إلا المبالغ التي سيتقاسمها فيما بينهم هؤلاء المرتشون في دائرة رئيس البلدية ، وإيرل يروح جيئة وذهاباً كدجاجة في القن قائلاً : « نعم يا سيدتي ، السيد كمبسن سيعنى بأمرك . يا جاسن ، أرِ هـــذه السيدة مضخة ، أو علاقات ببضعة فاوس . »

على كلٍ ، ان جاسن يحب العمل . كنت أقول ، لا ، لم تتح لي فوائد الدراسة الجامعيــة لأنهم في هارفرد يعلّمون المرء كيف يسبح في الليل دون ان يعرفوا السباحة وفي جامعة « سيواني » لا يعلمـون المرء حتى ما هو الماء . وكنت اقول لعلكم ترسلونني الى جامعة الولاية، فأتعلم فيها كيف اوقف ساعتي بمضخة الرش ، ولعلكم بعد ذلك ترسلون «بن» الى البحرية أو فرقة الخيالة ، فهم يستخدمون الخصيان في الخيالة . ويوم ارسلوا كونتن ايضاً الى بيتنا لكي اطعمهــا قلت لا ريب ان ذلك حق ايضاً ، فبـــدلاً من ان اضطر انا الى السعي قصياً في الشمال بحثاً عن وظيفة ، يرسلون الوظيفة الي هنا وعندها بدأت امي تبكي فقلت لا تخالي انني اعترض على وجودها هنا ، بل لا مانع لدي إن كنت تريدين ، من ان أترك العمل واتفرغ لحضانتها بنفسي وأجعلك انت ودلزي تعملان لتبقيا عـــلى امتلاء كيس الطحين في البيت ، وبنجي . أجريه لاحدى الفرق ؛ فهناك أناس ولا ريب يستعدون لدفع عشرة بنسات للتفرج عليه. فاشتد عند ذاك بكاؤها وراحت تردد يا طفلي المسكين لقد ابتلاك الله

يا طفلي المسكين، فقلت سيكون لك عوناً حين يكبر ويشتد عوده فهو لا يزيدني قامةً الآن الا بمقدار مرة ونصف مرة فقالت انها ستموت قريباً فنكون كلانا عندئذ احسن حالاً ، فقلت طيّب ، طيّب ، كما تشائين. انها حفيدتك هنالك، الله بها وهل لها جدة أخرى تعرف بالتأكيد انها حفيدة لها ؟ ولكن المسألة مسألة زمن . فإن كنت تعتقدين ان أمّها ستنفذ قولها ولا تحاول رؤيتها فانك انما تخدعين نفسك، ففي المرة الأولى عندما كانت أمي تردد وتقول الحمد لله الذي لم يجعلك من آل كمبسن الا بالاسم، اذ لم يبقَ لي في الدنيا الآن سواك ، سواك انت وموري ، وقلت اني لا اريد تحميل خالي موري مؤونة نفسي ، وعندها أتوا وقالوا انهم مستعدون للبدء . فتوقفت امي عن البكاء ، واسدلت نقابها على وجهها ونزلنا الى الطابق الأسفل . فرأيت خالي موري يخرج من غرفة الطعام ومنديله على فمه . فانتظموا في صفين جاعلين بينهما ممراً وخرجنا الى الباب في اللحظة التي رأينا فيها دلزي تطرد بن وتي بي ليحتجبا في المنعطف . نزلنا الدرج وركبنا العربة . وخالي موري يكرر « مسكينة اختي الصغيرة ، مسكينة اختي الصغيرة » متكلماً من حول فمه وهو يربت على يدي أمي . متكلماً من حول شيء ما في فمه .

وقالت أمي : « هل لبستَ شريطك الاسود ؟ لماذا لا يتحركون قبل ان يخرج بنجامين ويأتينا بمشهد يلفت انظار الناس ؟ ابني المسكين. انه لا يعرف ، ولا يستطيع ان يدرك . »

فيقول موري ، وهو يربت على يدها ، متكلماً من حول فمه : « لا بأس . لا بأس . ذلك خير له . وليبقَ غافلاً عن الفجيعة الى ان يحين له ان يدركها . »

قالت امي : « للنساء الأخريات اولاد يكونون سنداً لهن في مايات كهذه — أما أنا — »

قال خالي موري : « لديك جاسن وأنا . »

قـالت أمي : « انها نكبة مريعة لي . ان افقد كليهما في اقل من سنتين . »

فقال : « صبراً ، صبراً جميلاً . » وبعد قليل مد يده فيما يشبه الخلسة الى فمه واسقط منه شيئاً من النافذة . وعندئذ علمت ما الذي كنت اشتمه . عروق قرنفل ! يظهر انه حسب ان اقل ما ينبغي عليه فعله في مأتم ابي هو ان يشرب او لعل « البوفيه » ظننت انـه ابـي فأغرته بها عندما مرّ بهـا . وكما اقول دائماً ، لئن كان عليه ان يبيع شيئاً لارسالي كونتن الى هارفرد فاننا جميعاً نكون افضل حالاً بكثير لو انه باع تلكَ « البوفيه » بمحتوياتها واشترى لنفسه ببعض النقود سترة حديدية تغله ذات ذراع واحدة. ويخيل اليّ ان السبب في ان مزايا آل كمبسن نفدت كلهـا قبل ان تدركني هو انه شربها كلها . فأنا لم اسمعه قط يتحدث عن رغبته في بيع اي شيء ليرسلني الى هارفرد .

وهكذا راح يربت على يدها قائلاً « مسكينة اختي الصغيرة» ، يربت على يدها باحد القفازين الاسودين اللذين جاءتنا قائمة الحساب بهما بعد ذلك بأربعة ايام لأن اليوم كان السادس والعشرين من الشهر ، لانه كان نفس اليوم من احد الاشهر عندما ذهب ابي هناك واحضر الطفلة ورفض ان يفضي بشيء عن مكان امها وامي تبكي وتقول : « اذن لم تحـاول ان تراه ؟ لم تحاول ان تجبره على ترتيب ما يقوم بأودها ؟ » وأبـي يقول : « كلا لن اسمح لهـا بأن تمس فلساً واحداً من ماله » وأمي تقول : « ولكن يمكن ارغامه عن طريق المحكمة . وهو لن يستطيع ان يثبت شيئـاً الا اذا — يا جاسن كمبسن ! هل كنت من الغباء بحيث تخبره — »

فقال ابـي : « صه يا كارولاين ، » وارسلني لكي اساعد دلزي على انزال ذلك المهد العتيق من غرفة المخزن ، وقلت :

« عظيم والله . لقد حملوا لي وظيفة الى البيت هذه الليلة ، » ذلك

اننا بقينا طيلة الوقت نأمل في ان تصطلح امورها معه فيأخذها الى بيته ، ولأن امي راحت تردد ان ابنتها ستحترم سمعة العائلة فلا تعرّض فرصة حياتي للخطر بعد ان فعلا هي وكونتن ما فعلاه بفرصتَي حياتهما .

قالت دلزي : « وهل تنتمي الاّ لهذا البيت ؟ ومن يربّيها سواي؟ ألست انا التي ربيتكم جميعاً ؟ »

فقلت : « خزيت عين من يحسدنا على تربيتك . على كل،سيكون لها ما تقلق عليه الآن . » وهكذا حملنا السرير وأنزلناه وطفقت دلزي تهيّؤه في غرفة امها القديمة . وعندها انخرطت امي في نشيج مسموع .

فقالت دلزي : « صه ، يا ست كارولاين . لئلا توقظيها . »

قالت امي : « اهناك تضعينها ؟ لتصاب بالعدوى من ذلك الجو ؟ اما كفانا ما ورثت عن أمها . »

قال ابي : « صه ، لا تكوني سخيفة . »

فقالت دلزي : « ولمَ لا تنام هنا، في نفس الغرفة التي كنت أنوّم فيها أمها كل ليلة من حياتها قبل ان تكبر فتنام بمفردها ؟ »

قالت أمي : « انت لا تعرفين . ما أفظع ان ينبذ ابنتي زوجها ، ابنتي أنا . » ثم نظرت الى كونتن وقالت : « أيتها الطفلة البريئة المسكينة . لن تعرفي مبلغ ما سببت من ويلٍ وألم . »

فقال أبي : « صه يا كارولاين . »

وقالت دلزي : « ولماذا تفعلين ذلك لجاسن ؟ »

قالت امي : « لقد أردت ان أقيه ذلك . لقد كنت دائماً اريد ان أقيه ذلك . فعليّ الآن ، على الأقل ، ان اسعى جهدي لحمايتها . »

قالت دلزي : « ولكن اريد ان أعرف كيف يؤذيها النوم في هذه الغرفة . »

قالت أمي : « وكيف أغيّر طبعي ؟اعلم انني عجوز كثيرة الازعاج والمشاكل . ولكنني اعلم ايضاً ان من يسخر من شريعة الله لن ينجو من

القصاص . »

قال ابي : « كلام فارغ . اذن ضعي السرير في غرفة الست كارولاين ، يا دلزي . »

قالت امي : « لك ان تقول : كلام فارغ ، أما هذه الطفلة فيجب ألا تعرف ابداً . يجب ألا تسمع ذلك الاسم . دلزي ، اني امنعك منعاً باتاً من ان تتلفظي بذلك الاسم على مسمعها . ولو كان بوسعها ان تكبر دون ان تعلم ان لها اماً ولدتها ، لحمدت الله . »

فقال ابي : « لا تكوني غبية . »

فقالت امي : « لم اتدخل قط في الطريقة التي ربيتهم انت عليها . اما الآن فان اقف جانباً مكتوفة اليدين . وعلينا ان نقرر ذلك الآن ، هذه الليلة . إما ألا يتلفظ احد بذلك الاسم على مسمع منها ، او انها تذهب من هنا ، او اذهب انا . اختر ما تشاء . »

فقال ابي : « صه . انك مضطربة . هذا كل ما هناك . ضعي السرير هنا يا دلزي . »

قالت دلزي : « وانت ايضاً تكاد تكون مريضاً . لونك شاحب . فاذهب الى الفراش ، وسأهيء لك كأساً من « التودي » الحار لعلك تنام . اراهن على انك لم تنم ليلةً بكاملها منذ ان ذهبت . »

فقالت امي : « لا ، ألا تعرفين ماذا يقول الطبيب ؟ لمَ تشجعينه على الشرب ؟ هذه علته . انظري إلي . انني انا ايضاً اقاسي ، غير انني لست من الضعف بحيث اصرّ على قتل نفسي بالويسكي . »

فقال ابي : « هُراء . ما الذي يعرفه الأطباء ؟ انهم يسترزقون بنصح الناس بأن يفعلوا كل ما لا يفعلونه في تلك اللحظة ، وهذا اقصى ما يعرفه اي انسان عن القرد المنحط . لعل خطوتك التالية هي ان تستدعي قسيساً ليمسك بيدي . » فجعلت امي تبكي ، وخرج ابي . نزل الى الطابق الأسفل ثم سمعتُ البوفيه . واستيقظت وسمعته يهبط الدرج

مرة اخرى . يبدو ان امي كانت قد نامت ، لأن الهدوء اخيراً حل في البيت . وهو ايضاً كان يحاول ان يبقي علـــى الهدوء لأنني لم اقدر ان اسمعه ،وكل ما وقعت عيني عليه هو حاشية قميص نومه وساقاه العاريتان امام البوفيه .

هيأت دلزي السرير ونزعت ثياب الطفلة ووضعتها فيه . ولم تكن قد افاقت منذ ان اتى بها الى البيت .

قالت دلزي : « تكاد تكون اكـبر من السرير ، استريحي الآن . سأفرش لي وطاء في البهو هنا ، لكي لا تضطري الى النهوض في الليل .»

قالت امي : « لن انام ، اذهبي الى بيتك . لن ابالي . وسيسعدني ان اوقف بقية ايامي عليها ، على ان امنع — »

قالت دلزي : «كفى ، كفى ، سنعنى بها . » ثم التفتت الي وقالت : « وانت ، عليك بفراشك . يجب ان تذهب الى مدرستك غداً . »

فخرجت ، غير ان امي نادتني فعدت اليها ،فاحتضنتني وبكت فترة .

وقالت : « انك املي الوحيد . واني لأحمد الله عليك كل ليلة » . وفيما كنا هناك ننتظرهم ليبدأوا ، قالت ان كان قد كتب عليّ ان افقده هو ايضاً فاني احمد الله علي ان الذي بقي لي منهم هـو انت لا اخوك كونتن . انك لست من آل كمبسن والحمد لله ، ولم يبقَ لي في الدنيا سواك انت وموري ، فقلت اني لا اريد تحميل خالي موري مؤونة نفسي. عـــلى كلٍ ، ظل يربت على يدها بقفازه الأسود ، ويتحدث مشيحاً بوجهه عنها . وقد نزع القفازين عندمـا جاءه الدور للحفر بالمسحاة . ثم مضى ووقف قرب الاول ، حيث كانـــوا يمسكون بالمظلات فوق رؤوسهم ويخبطون بأقدامهم بين الحين والحين ليتطاير الطين عنها ويتشبثون بالمساحي ليهيلوا بها التراب ، فيحدث صوتاً اجوف كلما وقـع عليه ، وعندما تراجعت وانعطفت حول العربة وجدته خلف احد القبـــور يجرع جرعة اخرى من زجاجة في يده . وقد خيل اليّ انه لن يكفّ لانني

انا ايضاً كنت لابساً بذلتي الجديدة ، ولكن اتفق ان الطين لم يكن بعد قد تراكم على العجلات ، غير ان امي رأت ذلك وقالت لست ادري متى ستتوفر لك بذلة اخرى وقال خالي موري : « لا يقلقن لك بال . اني هنا لتعتمدي عليّ ، دائماً وأبداً . »

وقد اعتمدنا عليه . دائماً وأبداً . كانت الرسالة الرابعة منه ، ولكن لم تكن بي حاجة الى فتحها . فبامكاني ان اكتبها بنفسي ، او اتلوها لها عن ظهر قلب ، مضيفاً عشرة دولارات ، للاطمئنان . ولكنني هجست بمحتوى الرسالة الاخرى . فقد شعرت ان الوقت قد حان لها لأن تقوم باحدى ألاعيبها من جديد . فقد فتحت عينيها وانتبهت جيداً بعد المرة الاولى تلك . واكتشفت في الحال انني من فصيلة غير فصيلة والدي. فعندما اخذ القبر يمتلىء تراباً انخرطت امي بالبكاء بالطبع ، فركب خالي موري العربة معها ، وسارت بهما ، بعد ان قال لي ، بامكانك ان تأتي مع بعضهم ؛ فهم لن يترددوا في اعطائك مكاناً في عرباتهم . اما انا فعليّ ان آخذ امك الى البيت ، وخطر لي عندها ان اقول : « كان عليك ان تأتي بزجاجتين بدلاً من واحدة » غير انني احترمت المكان الذي نحن فيه ، وتركتها يذهبان . لم يكترثا قط للبلل الذي كنت فيه ، والا لاضطربت امي واقامت الدنيا خشية ان اصاب بذات الرئة .

على كل ، جعلت أفكر بالقبر وارقبهم يقذفون بالتراب فيه ، يهيلونه كيفما اتفق كأنهم يصنعون طيناً او يبنون سياجاً ، فانتابتني أحاسيس غريبة ، وعزمت على التمشي قليلاً . وقلت ان انا مشيت في اتجاه المدينة لحقوا بي وحاولوا ان يحملوني معهم ، فتوجهت نحو مقبرة الزنوج . ووقفت تحت أرزة احتمي بها من المطر ، فما كنت اتلقى منه الا قطرات ، ومن هناك رحت ارقبهم ريثما يفرغون من عملهم ويذهبون . وبعد مدة ذهبوا جميعاً فانتظرت دقيقة ثم خرجت .

كان علي ان اسير في الممر لأتجنب العشب البليل ولذا فانني لم ارها

الى ان كدت ابلغ هناك،حيث وقفت في عباءة سوداء تنظر الى الزهور. فعلمت في الحال من هي ، قبل ان تستدير وتنظر الي وترفع نقابها .

قالت وهي تمد يدها : « هلو ، جاسن . » وتصافحنا .

وقالت : « ما الذي تفعلينه هنا ؟ ألم تعديها بأنك لن تعودي الى هنا؟ كنت احسبك اعقل من ذلك . »

فقالت : « صحيح ؟ » وتأملت الزهور ثانية . لقد كان ثمة منها ما يساوي خمسين دولاراً . وقد وضع بعضهم باقة عــلى قبر كونتن . وقالت : « أصحيح كنت تحسب ذلك ؟ »

قلت : « ولكنني لن ادهش . لانني اعـرف انك لن تتورعي عن شيء . لا تأبهين لاحد ، ولا تكترثين لانسان . »

فقالت : « اوه ، قضية الطفلة . »ونظرت إلى القبر . « اني آسف لها يا جاسن . »

قلت : « لا شك . انك تتكلمين الآن بتواضع ولطف . ولكن لماذا عدت ؟ لم يبق شيء . اسألي خالي موري ان كنت لا تصدقينني . »

قالت : « أنا لا اريد شيئاً » ونظرت الى القبر . ثم قالت : « لماذا لم يخبروني ؟ لقد رأيت الخبر بمحض الصدفة في الجريدة . في الصفحة الاخيرة . بمحض الصدفة . »

لم اقل شيئاً . ووقفنا هناك وعيوننا شاخصة الى القبر ،وعندها جعلت اتذكر ايام كنا صغاراً ومرت ببالي الخواطر حتى انتابتني احاسيس غريبة مرة اخرى ، اشبه ما تكون بالغضب اذ جعلت افكر في اننا منذ اليوم سنجد خالي موري معنا في المنزل طول الوقت ، يتحكم بالأمور كما فعل منذ لحظات حين تركني لأعود وحدي الى البيت في المطر . فقلت :

« كأنك فعلاً تهتمين ، فتتسللين راجعة الى هنا حال موته . ولكن لا تتوقعي من ذلك اي نفع . لا تظني ان بوسعك ان تستغلي هذا الظرف فتتسللي عودة الى البيت . اذا عجزت عن البقاء على حصانك ، فعليك

بالسير على القدم » ، قلت لها . « ففي بيتنا لا نعرف حتى اسمك . اتعلمين ذلك؟ ولا نعرفك ولا نعرفه او نعرف كونتن،اتعلمين ذلك ؟»

قالت ، وهي تتأمل القبر : « نعم ، اعلم ذلك ان رتبت لي امر رؤيتها دقيقة اعطيتاك خمسين دولاراً . »

قلت : « وهل لديك انت خمسون دولاراً ؟ »

قالت : « اتوافق ؟ »

قلت : « ارني اياها . انا لا اصدق ان لديك خمسين دولاراً . »

ورأيت يديها تتحركان تحت عباءتها ، ثم مدت يدها . لعنني الله ان لم تكن مليئة بالنقود . واستطعت ان ارى ورقتين صفراوين او ثلاثاً .

فقلت : « اما زال يعطيك نقوداً ؟ ما المبلغ الذي يرسله اليك ؟ »

قالت : « سأعطيك مئة ، أتوافق ؟ »

قلت : « مهلاً ، قلت لك انني لن اجعلها تعرف من انت حتى ولو اعطيتني الف دولار . »

قالت : « لا بأس ، رتب الأمر كما تريد . كي استطيع مجرد رؤيتها لدقيقة . ولن اتوسل او ألح . بل انصرف في سبيلي . »

فقلت : « اعطيني النقود . »

قالت : « اعطيك اياها فيما بعد . »

قلت : « الا تثقين بي ؟ »

قالت : « كلا . اني اعرفك . لقد نشأت معك . »

فقلت : « شيء رائع ان تتحدثي انت عن الثقة بالناس ! طيب ، يجب ان احتمي من هذا المطر . وداعاً . » وهممت بالانصراف .

فقالت : « جاسن . » فوقفت .

وقلت : « نعم ؟ اسرعي ، فقد تبللت . »

قالت : « لا بأس . هاك . » لم يكن احد يُرى حولنا . فعدت واخذت النقود . غير انها ظلت متمسكةً بها ، وقالت : « كما اتفقنا؟»

وهي تنظر اليّ من تحت نقابها . « أتعد؟ »

فقلت : « افلتي . اتريدين ان يأتي احد ويرانا ؟»

فأفلتت النقود ، ووضعتُها في جيبي . قالت : « أتفعلها يا جاسن ؟ لو كانت هناك اية طريقة اخرى لما طلبت هذا منك . »

— « انت والله على حق . ليست هناك اية طريقة اخرى . وسأفعلها طبعاً . ألم اقل انني سأفعلهـا ؟ ولكن عليك ان تفعلي كما اوصيك ، أفهمت ؟ »

قالت : « نعم ، سأفعل . » فأخبرتها اين تنتظر ، وذهبت مسرعاً الى اسطبل مؤجر الخيل والعربات ، وبلغت المكان وهم يحلون الحصانين. فسألته ان كان قد تسلم نقوده بعد من اهلي ، فأجاب كلا فقلت لقد نسيت والـدتي شيئاً ، ولذا فانها تريد العربة ثانية ، فسمحوا لي بها . وكان الحوذي « منك » ، اشتريت له سيجاراً ، فراح يسوق العربـة هنا وهناك الى ان اظلمت الدنيا في الشوارع الخلفية حيث لن يمكن لأحد ان يتبينه . عندئذ قال « منك » ان عليه ان يعود بالحصانين ، فقلت له انني سأشتري له سيجاراً آخر . وهكذا نزلنا في الزقاق ومشيت عبر الفناء الى البيت . وقد وقفت في البهو الى ان طرق سمعي صوت أمي وخالي موري في الطابق الاعلى ، فيممت شطر المطبخ . فوجدتهـا هي وبن مع دلزي . فقلت ان امي تريدها وأخذتها الى داخل البيت، حيث وجدت معطف خالي المطري فكسوتها به وحملتها وعدت الى الزقاق فالعربة، وقلت لمنك ان يسوق بنا الى المستودع . وقد خشي المرور بالاسطبل ، فكان علينا ان نطرق الطريق الخلفي ورأيتهـا واقفة عند المنعطف تحت النور فطلبت الى منك ان يسوق العربة قريباً من الرصيف فاذا ما قلت له : انطلق ، فان عليه ان يهوي بالسوط على حصانيه . وعنـد ذاك رفعت المعطف عن الطفلة وامسكت بها في نافذة العربة فرأتها كادي واذا بها تطفر نحونا .

قلت : « اضرب ، يا منك ! » فهوى منك بسوطه عليها ومررنا بها بسرعة عربة الاطفائية . وصحت : « والآن اذهبي واركبي ذلك القطار كما وعدتني.» ورأيتها من النافذة الخلفية تركض في اثرنا، وقلت: « اضرب ثانية يا منك ! ولنعد الى البيت . » ولما انعطفنا كانت ما تزال تركض في اثرنا .

وهكذا احصيت النقود مرة اخرى تلك الليلة ووضعتها في مكانها ، وشعرت بشيء من الاطمئنان . وقلت اتصور انك تدركين الآن من أنا. اتصور انك تدركين الآن انك لا تستطيعين ان تحرميني الوظيفة وتتخلصي من العواقب . ولم يخطر ببالي قط انها لن تفي بوعدها بشأن ركوب ذلك القطـــار . الاّ انني لم اكن اعرف الكثير عنهن أيامئذ ، وكنت من الحماقة بحيث اصدق كل ما يقال . ولكن لعنني الله ان لم ارها صباح اليوم التالي تدخل الدكان ، وان تحتط للأمر فتلبس النقاب ولا تخاطب احداً . كان صباح احد ايام السبت ، لانني كنت في الدكان، وتقدمت بخطى سريعة من المنضدة التي في المؤخرة ، حيث كنت .

قالت : « كذّاب كذّاب . »

فقلت : « هل جُننت ؟ ماذا تقصدين بمجيئك هنا على هذا النحو؟» فانطلقت ، غير انني سددت عليها منافذ الكلام . وقلت : « لقد سبق وان افقدتني وظيفـــة واحدة ، افتريدين لي ان افقد هذه ايضاً ؟ ان يكن لديك ما ترومين ان تقوليه لي ، لاقيتك في مكان ما بعد هبوط الظلام . وماذا لديك لتقولي ؟ ألم انفّذ كل ما وعدتك به ؟ ألم اقل ترينها لدقيقة ؟ ألم تريها لدقيقة ؟ » غير انها وقفت ازائي تنظر اليّ ، وترتجف كالمحموم ، ويداها مقبوضتان تنتفضان . فقلت : « لقد بررت بما وعدت ، لا اكثر ولا اقل . وما الكاذب الا انت . لقد وعدتني بأن تستقلي ذلك القطار ، أليس كذلك ؟ الم تعدي ؟ فان كنت تظنين ان بوسعك ان تسترجعي تلك النقود، فما عليك الا ان تجربي ، وحتى

لو كان المبلغ ألف دولار ، لبقيت مدينةً لي بعد المجازفة التي جازفتها. فاذا وجدت او سمعت انك ما زلت في هذه البلدة بعد ان يسير القطار رقم ١٧ ، فانني سأخبر امي وخالي موري . فاحبسي انفاسك اذن الى ان تريها مرة ثانية . » وما زادت على ان ظلت واقفة ازائي ، تحدجني بنظراتها ، وتدق كفاً بكف .

وقالت : « لعنك الله ، لعنك الله . »

فقلت : « لا بأس ، لا بأس ابداً . ولكن تذكري ما قلته لك . بعد القطار ١٧ ، سأخبر من في البيت . »

بعد ذهابها ، اصبحت احسن حالاً . وقلت لا ريب انك ستفكرين بالامر مرتين قبل ان تحرميني وظيفة وُعدتُ بها . كنت صبياً آنئذ ، اصدّق الناس كلما قالوا انهم سيفعلون شيئاً ما . ولكنني زدتُ ادراكاً منذ ذلك الحين . وفضلاً عن ذلك فانني ، كما اقول دائمـــاً ، لست بحاجة الى معونة من احد لكي اتقدم في الحياة وبوسعي ان اقف عـــلى قدميّ كما وقفت دائماً . وفجأة فكرت بدلزي وخالي موري ، وكيف انها تستطيع اللعب بعواطف دلزي وان خالي يستعد لاتيان اي شيء لقاء عشرة دولارات . وهذا انا ، مقيد بهذا المكان لا استطيع التخلص من المخزن لحماية امي التي ولدتني . والتي كانت دائبة القول « ان كان علي ان افقد احداً منـــكم ، فانني احمد الله على انه ابقاك انت لي فبوسعي الاعتماد عليك» فأقول لا أظنني سأستطيع يوماً ان ابتعد عن الدكان بحيث لا تدركني يداك . وبالطبع ، لا بد لأحدٍ منا ان يتشبث بالقليل الذي قد تبقى لنا .

وهكذا ، حالما عدت الى البيت ، تدبرت امر دلزي . فقلت لها انها مصابة بالبرص واتيت بالتوراة وقرأت فيها ما تقوله عن لحم الانسان اذ يتفسخ ويتساقط وقلت لها ان هي نظرت اليها يوماً ، او نظر اليها بن أو كونتن ، فان البرص سيصيبهم ايضاً . وهكذا حسبت انني دبرت

كل شيء حتى جاء ذلك اليوم الذي عدت فيه الى البيت ووجدت بن يعيط . كان يصرخ ويجأر وما من احد يستطيع تهدئته . فقالت امي : طيب اذن ، أعطوه الخف . فتظاهرت دلزي بعدم السماع . فأعادت امي القول وصحت انا قائلاً انني لا استطيع ان اتحمل ذلك الصراخ . وكما اقول دائماً ، بوسعي ان اتحمل اشياء كثيرة ولا أتوقع الكثير من أحد ولكن حين أعمل طيلة النهار في مخزن لعين أفلا استحق شيئاً من الهدوء والسكينة أتناول فيهما عشائي . واذ قلت انني ذاهب قالت دلزي على عجل : « جاسن ! »

وفي لمح البصر أدركت ما حدث ، ولكن لكي أستوثق من ذلك ذهبت واتيت بالخف ، فاذا به حالما وقعت عيناه على الخف ، يجأر ، كما توقعت بالضبط ، كأننا هوينا عليه تقتيلاً . فأجبرت دلزي على الاعتراف ، ثم أخبرت امي . وقد كان علينا وقتئذ ان نصعدها الى فراشها ، وبعد ان هدأت الأمور قليلاً أقحمت مخافة الله في دلزي . بقدر ما يمكن للمرء ان يفعل شيئاً من هذا القبيل مع هؤلاء الزنوج . وهذا هو المزعج في الخدم الزنوج ، فهم بعد ان يقضوا معك سنين طوالاً ، يمتلئون زهواً الى ان تبطل منهم كل فائدة ، ويحسبون انهم يصرّفون شؤون الاسرة كلها .

فقالت دلزي : « اود لو أعرف ما المانع في السماح لتلك البنيّة المسكينة بأن ترى طفلتها . لو كان والدك المرحوم معنا لاختلف الامر ، والله . »

قلت لها : « ولكن والدي ليس معنا . انا اعرف انك لا تأبهين لمشيئتي ، ولكن أغلب الظن انك ستصدعين بأمر امي . انك لتستمرين بإقلاقها على هذا النحو الى ان تقبريها هي ايضاً ، وحينئذ تملأين البيت كله بكل نفاية ومتاع خلِق . ولكن لماذا سمحت لتلك البلهاء اللعينة برؤيتها ؟ »

قالت : « انك رجل من حجر يا جاسن ، إن كنت رجلاً . احمد الباري على ان في صدري قلباً يعطف ، وإن يكن أسود اللون . »

قلت : « اني على الاقل رجل يستطيع ان يبقي على امتلاء ذلك الكيس بالطحين ، فاذا فعلت ذلك ثانية ، فوالله لن تأكلي منه ابداً . »

وهكذا اخبرتها، في المرة التالية ، انها ان هي حاولت ان تتحايل على دلزي مرة اخرى ، فان امي ستطرد دلزي وترسل بن الى جاكسن وتأخذ كونتن وترحل بها . فنظرت اليّ برهة ، غير اننا كنا بعيدين عن مصباح الشارع فلم استطع ان ارى وجهها بوضوح . على انني احسست بأنها تحدّق فيّ . ايام كنا صغاراً اذا ما غضبت وعجزت عن فعل شيء ما ، جعلت شفتها العليا تنطنط . وكل نطةٍ تكشف عن المزيد من اسنانها ، فتظل طيلة الوقت ساكنة كأنها عمود منّ حجر ، لا تتحرك فيها عضلة الا شفتها العليا المنتفضة صُعُداً فصعداً على اسنانها . ولكنها لم تقل شيئاً ، سوى :

« لا بأس . كم ؟ »

فقلت : « ان كانت النظرة الواحدة خلال النافذة من عربة تساوي مئة دولار ... » وكانت النتيجة انها أحسنت التصرف بعد ذلك، ولكنها في احدى المرات طلبت ان ترى تقرير حساب المصرف .

وقالت : « انا أعلم ان امي تجير الصكوك ، الا انني اريد ان ارى تقرير المصرف . اريد ان ارى بنفسي أين تذهب هذه الصكوك . »

قلت : « ذلك من شؤون امي الخاصة . فإن كنت تعتقدين ان لك حقاً في التدخل بشؤونها الخاصة اخبرتها بأنك تعتقدين بأن صكوكك تصرف في غير الوجه الذي تحبين وانك تريدين تدقيق الحساب لأنك لا تثقين بها . »

لم تقل شيئاً ولم تتحرك . إنما سمعتها تهمس لعنك الله لعنك الله اوه لعنك الله .

فقلت : « قوليها بالقلم العريض . فليس رأيك فيّ ولا رأيي فيك بسرّ . لعلك تريدين استرجاع النقود ؟ »

قالت : « اسمع يا جاسن . لا تكذب علي . بشأنها . لن اطالب رؤية اي شيء . وإذا لم يكن المبلغ كافياً ارسلت اليك مزيداً كل شهر. فقط عدني بانها سوف — بانها — انت قادر على ذلك . ان تفعل لها اشياء — كن لطيفاً معها . الاشياء الصغيرة التي لا استطيع ،لا يسمحون لي بان .... ولكنك لن تفعل . ليس فيك قطرة من دم حار . اسمع ،»

قالت لي : « إذا اقنعتَ امي بان تسمح لها بالعودة إلي ، اعطيتك الف دولار . »

فقلت : « ومن اين لك الف دولار ؟ اني اعرف انك تكذبين .»

قالت : « لدي الف دولار . ستكون لدي . استطيع تحصيلها . »

قلت : « اعرف كيف تحصّلينها . ستحصلين عليها مثلما حصلت على طفلتك ، على نفس الغرار . وعندما تنشأ وتكبر — » وإذ ذاك خيل الي انها فعلاً سترفع يدها علي ، ولم اعرف ما الذي ستفعله . فقد تصرفت برهةً كلُعبةٍ أدير زمبلكها فوق ما يطيق فغدت على وشك الانفجار الفَ شظية .

قالت : « اوه لقد جننت . لقد ضيعت عقلي . لا استطيع اخذها . فاحتفظ بها . ما الذي خطر ببالي يا جاسن ، » قالت ذلك ، وقبضت على ذراعي ، ويداها في حرارة الحمى . «ولكن يجب ان تعدني بالعناية بها ، بـ — انها قريبتك ؛ من لحمك ودمك . عدني يا جاسن . لقد لقبتَ بلقب ابي ، فهل تظن انني كنت اطلب اليه ذلك مرتين ؟ بل حتى مرة واحدة ؟ »

قلت : « بالضبط ، لقد خلّف لي شيئاً . فما الذي تريدين مني ان افعله ؟ أأشتري مريولاً وعربة اطفال ؟ هل انا الذي اوقعتك في هذا المأزق ؟ » قلت لها . « اني اجازف باكثر مما تجازفين ، لأن

ليس لديك انت ما تخشين ضياعه . فإن كنت تتوقعين — »

فقالت : « لا ، لا . » وأخذت تضحك وتحاول حبس ضحكتها في آن واحد . « لا ، ليس لدي ما اخشى ضياعه ، » قالتها وهي تاتي بذلك الصوت الغريب ، ويداها على فمها . « لا لا لا شيء . »

فقلت : « اسمعي ! كفي عن ذلك ! »

قالت : « اني احاول ، » وقد كست فمها بيديها . « يا إلهي ، يا إلهي . »

قلت : « سأمضي من هنا . يجب ألا يراني أحد هنا . واخرجي من البلدة الآن ، اتسمعين ؟ »

فقالت وهي تمسك بذراعي : « انتظر . لقد كففت . لن افعلها ثانية . أتعدني ، يا جاسن ؟ » قالت ذلك وأنا اشعر كأن عينيها تمسّان وجهي . « أتعدني ؟ أمي — تلك النقود — اذا احتاجت أحياناً إلى شيء ما — اذا ارسلت لك صكوكاً من أجلها ، صكوكاً اخرى بالاضافة الى تلك ، اتعطيها لها ؟ ولن تفضحها ؟ وتتأكد من أنها تنال ما تناله قريناتها ؟ »

قلت : « لا شك ، ما دمت تتصرفين وتفعلين وفق ما اقول لك . »

وهكذا ، عندما جاء إيرل الى مقدمة الدكان لابساً قبعته ، قال : « سأسرع الى محل روجرز لاتناول وجبة خفيفة . لا أظن ان لدينا وقتاً للذهاب الى البيت للغداء . »

فقلت : « ولم لا ؟ »

قال : « بسبب هذا السيرك الذي حلّ في البلدة . سيقدمون حفلة بعد الظهر أيضاً ، والكل يريد ان ينتهي من البيع والشراء ليذهب الى الحفلة . فالأفضل أن نهرع الى محل روجرز . »

فقلت : « كما تشاء . انها معدتك . ان كنت تريد أن تجعل من نفسك عبداً لشغلك ، فليس ذلك من شأني . »

فقال : « أتصور انك لن تجعل من نفسك عبداً لأي شغل .

فقلت : « إلا اذا كان شغل جاسن كمبسن نفسه . »

فلما عدت وفضضت الغلاف لم أدهش إلا لأن مـا فيه كان حوالة بريدية ، لا صكاً . اي والله . لا يستطيع انسان ان يثق بواحدة منهن. أبعد كل هذه المجازفات . المجازفة بأن تكتشف امي امر مجيئها هنـا مرة او مرتين أحياناً في السنـة ، واضطراري الى صنوف الاكاذيب امو ّه بها على أمي بشأن ذلك . أيكون الاعتراف بالجميل على هذه الصورة ؟ لا استبعد مطلقاً ان تحاول اعلام دائرة البريد خطياً بألا ّ تصرف الحوالة إلا ّ لها . أتعطي صبية صغيرة كتلك خمسين دولاراً ؟أما أنا فلم أر َ خمسين دولاراً قط حتى بلغت الحادية والعشرين من عمري ، وبقية أقراني يعطلون بعد الظهر من كل يوم وايام السبوت بطولها ، وأنا اكد ّ في الدكان . انّى لهم كما اقول ان يتوقعوا السيطرة عليها من أحد ، وهذه أمهـا تمد ّها بالنقود من خلف ظهورنا ؟ وقد قلت لها إن بيتها هو عين البيت الذي نشأت فيه ، وتربيتها هي تربيتك بعينها . واحسب ان امي أصوب حكماً على امورها منك ، انت التي ليس لك حتى بيت تركنين إليه . وقلت : « اتريدين ان تعطيهـا نقوداً ؟ اذن ارسليها الى أمي ، ولا تعطيها إياها . فاذا كان لا مناص لي من المجازفة مرة كل بضعة أشهر ، فعليك ان تفعلي ما أقوله لك ، وإلا وضعتُ حداً للأمر . »

وفيما أنا أهم ّ بأن أبدأ ــ فان يعتقـد ايرل انسي سأهرول الى الشارع لالتهم من أجله ما قيمته ربع دولار من سوء الهضم ، فانه جد ّ مخدوع . قد لا أجلس رافعاً قدمي على منضدة من خشب « الموغونو » الفاخـر ولكنني أنال أجراً على ما أفعله داخل المبـنى فإذا استطعت ان اعيش خارجه عيشة متمدنة فإنني ان اذهب إلا حيثما اشتهي . بوسعي ان اقف على قدمي ّ ، ولست بحاجة إلى منضدة فاخرة من اي انسان لتسندني في وقفتي . وهكذا ، فيما انا أهم ّ بأن ابدأ كان علي ان اترك كل شيء

واركض لأبيع فلاحاً احمر الرقبة بضعة مسامير او ما اشبه ذلك بدريهمات قليلة ، بينما كان إيرل يلتهم شطيرة وهو في منتصف طريق عودته ، ولا شك ، واذا بي اجد ان صكوكي البيضاء قد انتهت كلها . فتذكرت حينذاك أنني كنت قد عزمت على المجيء بكمية جديدة منها ، ولكن الاوان قد فات ، وما رفعت عينيّ الا لأرى كونتن تدخل من الباب الخلفي . وسمعتها تسأل ايوب العجوز ان كنت في الدكان . وبسرعة دسست الرسائل كلها في الدُّرج واغلقته .

جاءت إلى المنضدة ، فنظرتُ الى ساعتي وقلت :

« هل انتهيت من الغداء بهذه السرعة ؟ إنها الثانية عشرة تماماً . سمعتها تدق . لا بد انك طرت إلى البيت ذهاباً وإياباً . »

فقالت : « لست ذاهبة إلى البيت للغداء . هل اتتني رسالة اليوم ؟»

قلت : « اتتوقعين رسالة اليوم ؟ الديك حبيب يستطيع الكتابة ؟ »

— « من امي . هل اتتني رسالة من امي ؟ » قالتها وهي تنظر إلي.

قلت : « لقد وردت فيها رسالة لأمّي . ولم افتحها . وعليك بالانتظار إلى ان تفتحها هي . واغلب الظن انها ستطلعك عليها . »

فقالت دون اكتراث لما اقول : « ارجوك يا جاسن . هل اتتني رسالة ؟ »

فقلت : « ما الذي دهاك ؟ لم اجدك يوماً تقلقين على احد . لا بد انك تتوقعين نقوداً منها . »

قالت : « لقد قالت انها — ارجوك يا جاسن،هل اتتني رسالة ؟ »

قلت لها : « يبدو انك اخيراً ذهبت الى المدرسة ! او الى اي مكان آخر علّموك فيه ان تقولي : ارجوك . انتظري دقيقة ريثما اخدم هذا الزبون . »

ذهبت وخدمته . وعندما استدرت لكي اعود كانت قد اختفت وراء المنضدة . فركضت . ركضت حول المنضدة وأمسكت بها وهي تنفض

يدها من الدُّرج . فنزعت الرسالة من يدها بأن جعلتُ ادقّ عقد اصابعها بالمنضدة إلى ان افلتتها .

وقلت : « أتفعلينها ، أتفعلينها ؟ »

قالت : « اعطني اياها . لقد فتحتها . اعطـــني اياها . ارجوك يا جاسن . انها رسالتي . لقد رأيت اسمي . »

قلت : « اعطيك طوقاً يلتف على رقبتك . هذا ما سأعطيك اياه . اتعبثين بأوراقي ؟ »

قالت وهي تمد يدها لها : « هل فيها نقود ؟ لقـد وعدت بأن ترسل إلي شيئاً من النقود . لقد وعدتني . اعطني اياها . »

قلت : « وما لك والنقود ؟ »

قالت : « لقد وعدتني بها . اعطني اياها ، ارجوك يا جاسن . لن اطلب منك شيئاً ابداً بعد اليوم ، اذا اعطيتني اياها هذه المرة . »

فقلت : « سأعطيك اياها ،اذا امهلتني . » فأخرجت الرسالة والحوالة البريدية وناولتها الرسالة . غير انها مدت يدها للحوالة ، دون ان تنظر الى الرسالة . وقلت : « عليك ان توقعيها اولاً . »

قالت : « كم المبلغ ؟ »

قلت : « اقرأي الرسالة ، تعرفي . »

فقرأتها بسرعة ، وبنظرتين اثنتين .

ــ « انها لا تعيّن المبلغ ، » قالت ذلك ، رافعة عينيها . واسقطت الرسالة على الارض ، وقالت : « كم المبلغ ؟ »

قلت : « عشرة دولارات . »

قالت ، مبحلقة فيّ : « عشرة دولارات ؟ »

فقلت : « اشكري ربك على حصولك عليهـا . طفلة مثلك . ولمَ هذا الالحاح كله على النقود فجأة ؟ »

قالتها وكأنها تتكلم في نومها : « عشرة دولارات ؟ عشرة دولارات

فقط ؟ » وحاولت خطف الحوالة من يـــدي . « انك تكذب عليّ ! لص ! يا لص ! »

قلت وانا اصدّها : « اتريدين خطفها ؟ »

فصاحت : « اعطني اياها ! انهـا لي . ارسلتْها اليّ . سأراها ، سأراها ! »

قلت وانا اصدها : « صحيح ؟ وكيف سترينها ؟ »

فقالت : « دعني اراها فقط يا جاسن . ارجوك . ولن اطلب منك شيئاً ثانية . »

قلت : « اتحسبين اني اكذب ؟ اذن لن تريها ! »

فقالت : « ولكن عشرة دولارات لا غير ؟. لقد اخبرتني بأنهـــا — اخبرتني — جاسن ، ارجوك ارجوك ارجوك . لا بد لي من نقود . لا بد ، لا بد . اعطني اياها يا جاسن . سأفعـــل ما تريد ان انت اعطيتني اياها . »

قلت : « اخبريني لماذا لا بد لك من نقود . »

قالت : « لا بد لي منها . » كانت تنظر الي . واذا بهـــا فجأة تكف عن النظر الي دون ان تنقل عينيها عني . فأدركت انها ستكذب. وقالت : « اني مدينة ببعض النقود . وعـلي ان اردّ الدين . علي ان ارده اليوم . »

— « لمن ؟ » ، قلت ويداها تلتويان ، فرقبتها وهي تحاول اختلاق اكذوبة تتفوه بها . « هل عدت إلى الاستدانة من المتاجر ؟ لا حـاجة بك إلى قول ذلك . فان استطعت ان تجدي من يبيعك شيئاً بالدين بعد أن أعلمتُ الجميع بالأمر ، أكلت ذلك الشيء امام عينيك ! »

قالت : « هناك فتاة ، هناك فتاة ، استدنت منها بعض النقـود . ويجب ان اردها الآن . جاسن ، اعطني إياها ، ارجوك. سأمتثل لمـــا تشاء . لا بدّ لي منها . وستدفعها امي لك . وسأكتب لها رسالة لكي

تدفعهـــا لك ولكي اقول لها انني لن اطلب منها شيئاً ثانية . وللك أن ترى الرسالة . ارجوك يا جاسن . لا بد لي منها . »

قلت لها : « اخبريني لِمَ تريدينها ، وسأنظر في الأمر ، » وبقيت واقفة أمامي ، تفرك كفاً بكفٍ لصق ثوبها . « حسناً اذن ، » قلت. « ان كنت تجدين عشرة الدولارات مبلغاً صغيراً ، فسأحملها إلى أمي ، وأنت أدرى بمصيرها عند ذاك . بالطبع ،اذا كنت على هذه الدرجة من الغنى بحيث لا تحتاجين الى عشرة دولارات — » .

وظلت واقفة هناك ، تنظر إلى الأرض ، وتدمدم لنفسها . « لقـد قالت إنها سترسل إليّ شيئاً من النقود . وقالت إنهـــا ترسل إليّ نقوداً هنا وانت تقول انها لا ترسل اي نقود . وقالت انها قد ارسلت مبلغـــاً كبيراً هنا . وانت تقول ان لا نقود لدينا .»

فقلت : « انك تعرفين عن ذلك ما أعرفه أنا . ألم تري ما يحدث للصكوك التي ترسلها ؟ »

فقـــالت ، ناظرة الى الارض : « بلى . عشرة دولارات . عشرة دولارات . »

قلت لها : « اشكري ربك عـلى ان المبلغ يبلغ عشرة دولارات ،» ووضعت الحوالة ووجههـــا الى الاسفل على المنضدة ، ويدي عليها . « وقعيها . »

فقالت : « الن تدعني أراها ؟ أريد ان القي عليها نظرة واحـــدة فقط . مهما يكن المبلغ المذكور فيها ، فانني لن أطلب إلا عشرة دولارات. وخذ انت البقية . نظرة واحدة فقط . »

قلت : « مستحيل بعد تصرفك المشين هذا ؟ عليك أن تتعلمي شيئاً واحداً ، عندما اقول لك افعلي كيت ، فعليك بالطاعة . هيا ، وقعي اسمك على هذا السطر . »

تناولت القلم ، ولكن عوضاً عن توقيعها بقيت واقفة مطأطئة الرأس

والقلم يرتجف في يدها . كأمها تماماً . وقالت : « يا إلهي، يا إلهي . »
فقلت : « أي نعم . هذا شيء يجب أن تتعلميه حتى ولو انت لم تتعلمي اي شيء آخر . وقعيها ، هيا ، واخرجي من الدكان . »
— « وقعتها ، وقالت: اين النقود ؟ » فأخذت الحوالة ، وجففتها بالنشاف ووضعتها في جيبي . ثم اعطيتها الدولارات العشرة .
وقلت : « والآن ، عليك ان تعودي الى المدرسة بعد ظهر اليوم ، أتسمعين ؟ » لم تجب بشيء . كوّرت ورقة النقد في يدها كأنها خِرقة قديمة وخرجت من الباب الامامي في اللحظة التي دخل فيها ايرل . وقد دخل معه عميل ، ووقفا عند الطرف الأمامي . فجمعت اغراضي ولبست قبعتي وتوجهت نحوهما .
قال ايرل : « اشغلتَ كثيراً ؟ »
قلت : « ليس كثيراً . » فأرسل بصره خارج الباب .
وقال : « أتلك سيارتك الواقفة هناك ؟ الافضل الا تحاول ان تذهب الى البيت للغداء . فقد يحدث لدينا ازدحام آخر قبيل افتتاح السيرك . تناول غداءك في مطعم روجرز وضع بطاقة في الدُّرج . »
فقلت : « شكراً جزيلاً . اعتقد انني اعرف كيف اطعم نفسي . »
انه ليظل في مكانه هناك ، يرقب ذلك الباب كالصقر الى ان اعود. لا بأس . فليرقبه ما شاء ، فأنا اسعى جهدي على طريقتي . في المرة السابقة قلت لنفسي ، هذا هو الصك الاخير ، فعليك ان تتذكر استحضار صكوك جديدة . ولكن من يستطيع تذكر اي شيء في هذا الهرج والمرج . لا يأتينا هذا السيرك اللعين الا في اليوم الذي يتعين علي فيه ان ابحث في كل ارجاء البلدة عن صك ابيض ، فضلاً عن الاشياء الاخرى كلها التي اتعهد بها للمحافظة على سير الأمور ، وصاحبنا ايرل يرصد الباب كالصقر .
ذهبت الى المطبعة الصغيرة وقلت لصاحبها انني ادبّر مقلباً لصديق على

سبيل النكتة ، ولكن لم يكن لديه ما اريد . واشار علي بأن اراجع دار الاوبرا العتيقة ، حيث اختزن بعضهم اوراقاً وانقاضاً كثيرة من ذلك المصرف القديم ، « مصرف التجار والمزارعين » بعد افلاسه ، وهكذا تجنبت عدة ازقة لكي لا يراني ايرل ، وبعد البحث الطويل عثرت على الحارس العجوز سيمونز واخذت منه المفتاح وصعدت هناك ورحت انبش الاوراق . وفي النهاية عثرت على دفتر صكوك باسم مصرف سانت لويس . ان أمتي لن تدقق النظر في الصك الا هذه المرة امهما يكن من امر ، ليس لي من مخرج آخر . ولم يبق لي من وقت اضيّعه .

فعدت إلى الدكان ، وقلت : « نسيت اوراقاً تريد امي اخذها الى البنك . » وذهبت الى المنضدة ورتبت الصك كما يجب . وإذ كنت احاول ان افعل ذلك بسرعة قلت لنفسي إنه من حسن الحظ ان عينيها آخذتان في التلف ، وان تلك العاهرة الصغيرة في البيت ، وامي سيدة تقية تخاف الله . وقد قلت لها انك تعلمين ، كما أعلم انا ، ما الذي ستؤول اليه هذه الفتاة عندما تكبر ولكنني قلت إن ذلك من شأنك انت اذا كنت تريدين ان تعني بها وتربيها في بيتك من أجل أبي . وإذ ذاك تبدأ بالبكاء وتقول إنها من لحمها ودمها فأقول لا بأس ، كما تشائين ، إني احتملها ما دمت تتحملينها انت .

ورتبت الرسالة بحيث أعدتها إلى ما كانت عليه وصمّغت الغلاف وخرجت .

قال إيرل : « حاول الا تتأخر اكثر مما يجب . »

فقلت : « حسناً . » ومضيت الى دائرة البرق . وهناك وجدت الفتية الشطار كلهم .

وقلت : « ابينكم من حصل على مليون دولار ؟ »

قال الدكتور : « ومن يستطيع ان يفعل شيئاً بسوق كهذه ؟ »

— « وماذا بها ؟ » قلت ذلك ودخلت وألقيت نظرة . لقد حصل

هبوط بثلاث نقاط عن الافتتاح . فقلت : « يا جماعة ، اترضون بأن يغلبكم على امركم شيء صغير كسوق القطن ؟ كنت أحسبكم أشطر وأدهى من ذلك . »

قال الدكتور : « اشطر وأدهى ! لقد هبطت اثنتي عشرة نقطة في الساعة الثانية عشرة . أفلستني ، والله ! »

قلت : « اثنتي عشرة نقطة ؟ لماذا لم يعلمني أحد بذلك ؟ » والتفت للموظف : « لماذا لم تعلمني بذلك ؟ »

فقال: « اني أسجلها كما تأتيني . فأنا لست ادير محلاً للغش والخديعة. »

فقلت : « ذكي والله ! أعتقد ان بأمكانك أن تنفق شيئاً من وقتك الثمين للاتصال بي تلفونياً ، نظراً لما انفق لديك من مبالغ . أم ان شركتكم المحترمة متواطئة مع هؤلاء الذئاب المحترمين في نيويورك ؟ »

لم يقل شيئاً ، وتظاهر بالشغل .

فقلت : « لقد كبرت اكثر من طاقتك . واذا لم تنتبه فلعلك تضطر الى العمل في سبيل رزقك . »

فقال الدكتور : « ماذا دهاك ؟ ما زلتَ غانماً بثلاث نقاط . »

قلت : « تماماً ، لو كنت ابيع . نسيت ان اذكر ذلك ، فيما أظن. وأنتم يا جماعة ، الم يبق معكم شيء ؟ »

قال الدكتور : « اكلتها مرتين ، وحوّلت في اللحظة المناسبة . »

وقال آي . أو . سنوبس : « والله وقعتُ عليها . ومن الانصاف فيما أرى ان تقع هي عليّ مرة بين حين وآخر . »

وهكذا تركتهم يبيعون ويشترون فيما بينهم بسعر خمسة سنتات لكل نقطة . ووجدت زنجياً ارسلته ليحضر سيارتي ووقفت عند المنعطف وانتظرت. ولم استطع ان ارى إيرل يرسل بصره الى فوق والى تحت في الشارع ، واحدى عينيه على الساعة ، لانني لم اتمكن من مشاهدة الباب من مكاني. وبعد حوالي اسبوع عاد الزنجي بالسيارة .

فقلت : « أين ذهبت ، قـاتلك الله ؟ ارحت تسوق في الشوارع حيث تراك المومسات ؟ »

فقال : « جئت مباشرة بقدر ما استطيع . فقد كان علي ان ادور حول الميدان كله ، بسبب هذا الازدحام بالعربات . »

لم اجد في حياتي زنجياً لا يقدم لك اروع عذر مقنع عن كل مـا يفعله . ولكن ما عليك الا ان تطلق احدهم حراً في سيارة لترى كيف يزهو ويتباهى . ركبت السيارة ودرت حول الميدان . ولمحت إيرل واقفاً بالباب عبر الميدان .

ذهبت تواً إلى المطبخ وامرت دلزي باحضار الغداء على عجل .

قالت : « لم تأت كونتن بعد . »

قلت : « وإذا لم تأت ؟ ستقولين لي بعـد قليل إن لستر لم يتهيأ بعد للأكل . اوقات الطعام في هـذا البيت تعرفها كونتن . هيا ، اسرعي بالغداء . »

كانت امي في غرفتها،فاعطيتها الرسالة . ولما فضّتها اخرجت الصك وجلست وهي ممسكة به في يدها . فذهبت واحضرت المعول من الركن وناولتها عود الكبريت ، وقلت : « هيا ، وانتهي من الامر . ستبكين بعد لحظة . »

فتناولت عود الكبريت ولكنها لم تشعله . وبقيت جالسة في مكانهـا تنظر الى الصك . تماماً كما توقعت !

وقالت : « اني اكره ان افعـل هذا . فقد زاد حملك بوجود كونتن ... »

قلت لها : « لا اظن اننا سنحتاج الى الخبز هيـا ، وانتهي من الأمر . »

غير انها بقيت جالسة هناك ، والصك في يدها .

قالت : « ارى ان هذا الصك محول على مصرف مختلف . لقد كان

السابق محولاً على مصرف انديانابولس . »

قلت : « نعم ، يسمح للنساء ايضاً بذلك . »

قالت : « بماذا ؟ »

قلت : « بوضع النقود في مصرفين مختلفين . »

قالت : « آ . » وتأملت الصاك برهة وقالت : « يسعدني ان اعلم انها غ ... ان لديها أموا ... ان الله شاهد على انني لا افعل الا الحق.»

فقلت : « هيا ، احرقيه ، وانتهي من هذه التسلية . »

قالت : « تسلية ؟ كلما تذكرت ... »

قلت : « كنت اظن انك تحرقين مبلغ المئتي دولار هذا كل شهر للتسلية ، فهيا ، وانتهي . أأشعل لك عود الكبريت ؟ »

قالت : « لو حاولت لاستطعت ان اقنع نفسي بقبولها ، من اجل اولادي . لم تبق فيّ عزة نفس . »

قلت : « ما كنت لترضين بذلك . وانت ادرى . لقد قررت ذلك ، فلا تنقضي قرارك . لا أظننا سنحتاج الى مال من احد . »

فقالت : « اني اترك كل شيء لك . غير انني اخشى احياناً انني اذ افعل هذا انما احرمك ما هو حق من حقوقك . ولعل الله سيعاقبني على ذلك . فان شئت ، فسأخنق عزة نفسي واقبل هذه النقود . »

قلت : « وما فائدة البدء الآن ، وقد مضى عليك خمسة عشر عاماً وانت تحرقينها ؟ فاذا استمررت بحرقها الآن ، ما ضيّعت شيئاً ، اما إذا بدأت بقبولها الآن ، فقد ضيّعت خمسين الف دولار . وقد استطعنا الحياة بدونها حتى الآن ، أليس كذلك ؟ وما اخذتك انا بعد الى ملجأ العجزة ، والحمد لله . »

فقالت : « بلى . نحن آل باسكوم في غنى عن كل احسان . ولا سيما احسان امرأة ساقطة . »

واشعلت عود الكبريت واشعلت به الصك ووضعته في المعول ، ثم

الرسالة ، وتأملتها وهما يحترقان .

وقالت : « لن تفهم شعوري . احمد الله على انك لن تعرف كيف تشعر الأم . »

فقلت : « في العالم نساء كثيرات لسن خيراً منها . »

قالت : « ولكنهن لسن بناتي ، وانا لا اهـتم بنفسي ، فأنا حتى مستعدة للسماح لها بالعودة رغم كل آثامها ، لأنها من لحمي ودمي . انما اهتمامي بكونتن . »

وهنا كان بامكاني ان اقول لها الا حاجة بهـا الى القلق بخصوص كونتن وشرفها ، ولكنني ، كما اقول دائماً،لا اتوقع الكثير من احد ، غير انني اريد ان آكل وانام دون شجار وبكاء وعويل من امرأتين في البيت .

قالت : « وبك انت . انني ادرى بحقيقة مشاعرك تجاهها . »

فقلت : « فلتَعُد الى البيت ، ان كنت انا العائق . »

قالت : « لا . احتراماً لذكرى أبيك المرحوم . »

قلت : « ولكنه كان طول الوقت يحاول ان يقنعك بالسماح لها بالعودة الى البيت عندما طردها هربرت ؟ »

قالت : « انك لا تفهم . وانا أعلم انك لا تقصد ان تزيد طينتي بلة . ولكن واجبي هو ان اقاسي من أجل اولادي . واني لأتحمل . »

قلت : « يخيل الي انك تسعين جهدك فـيما لا ضرورة له لكي تتحملي ، » واتت النار على الاوراق ،فأخذت المعول الى الموقد وافرغت الرماد . وقلت : « أليس خسارة حرقُ هذه النقود ؟ »

فقـالت : « لا أراني الله ذلك اليوم الذي يضطر فيه اولادي إلى الرضا بأجور الخطيئة ! وإني لأوثر ان اراك ميتاً في نعشك قد ذلك .»

قلت : « كما تشائـين ، انتغـدى عمـا قليل ؟ وإلاّ ، فإن عليّ ان اعود ، لكثرة ما لدينا من عمل اليوم . » فنهضت امي

وقلت : « لقد اوصيتها بتهيئة الغداء . يبدو انها تتريث انتظاراً لكونتن او لستر او غيرهما . لحظة ، سأناديها . انتظري . » غير انهـــا ذهبت الى أعلى الدرج ونادتها .

قالت دلزي : « لم تأتِ كونتن بعد . »

قلت : « لا بأس . يجب ان اعود ، سأبتاع شطيرة في البلـــد ، ولن اتدخل بترتيبات دلزي . » فأثارها ذلك من جديد ، ودلزي تتدعبل وتدمدم جيئةً وذهاباً وتقول :

« طيّب ، طيّب . اني اهيؤه بأسرع ما استطيع . »

فقالت امي : « اني احاول ان ارضيكم جميعاً . وأسهل عليكم الأمور بقدر ما اتمكن . »

فقلت : « هل رأيتني تذمرت ؟ هل قلت شيئاً سوى انني يجب ان اعود الى عملي؟ »

فقـــالت : « اعرف . اعرف انه لم تتح لك الفرصة التي اتيحت للآخرين ، وانك اضطررت الى دفن نفسك في متجر ريفي صغـــير . اما انا فقد اردت لك التقدم . وكنت اعلم ان اباك لن يدرك انك انت الوحيد المتمتع بحس للاعمال التجارية ، فلما خاب فألي في كل شيء آخر اعتقدت انها عندما تتزوج ، وهربرت ... بعد وعده ... »

فقلت : « ربما كان هو ايضاً يكذب عليك . لعله لم يكن لديه اي مصرف . واذا كان لديه مصرف فلا أحسبه يقطع الفيافي والقفـار الى مسيسبي ليجد رجلاً يستخدمه فيه . »

استغرق منا الغداء فترة من الوقت . كنت اسمع بن في المطبخ ولستر يطعمه . وكما اكرر دائمـــاً ، ان كان لا بد لنا من إطعام فم آخر وهي ترفض ان تتسلم تلك النقود ، فلم لا نرسله الى جاكسن . سيكون سعيداً هناك ، برفقة اناس مثله . فقلت يعلم الله ان هذه الاسرة لم يبق لديها مبرر يذكر للعزة والكبرياء ، ولكن المرء ليس بحاجة الى الكثير

من العزة والكبرياء لكي يستقبح ان يرى رجــلاً في الثلاثين يلعب في فناء الدار مع ولد زنجي ، ويركض صاعداً نازلاً بمحاذاة السياج ويخور كالبقرة كلما رأى احداً يلعب الغولف هناك . ولو أرسلوه الى جاكسن منذ البداية لكنا تحملنا افضل حالاً الآن . وقد قلت ، لقد اديت واجبك تجاهه ؛ لقد فعلت* كل ما يمكن لأي انسان ان يتوقعه منك بل فعلت اكثر مما يفعله معظم الناس،فلمَ لا ترسلينه هناك وتستفيدي من الضرائب التي ندفعها . فقالت : « سأرحل عما قريب . اعرف انني عبء ثقيل عليك » فقلت : « لطالما قلت هذا حتى جعلت الآن اصدّقك » ولكن، قلت لها ، ارجوك ان تنتبهي ولا تعلميني برحيلك لأنني والله سأركّبه القطـــار رقم ١٧ في الليلة نفسها ، واضفت قائلاً إنني اعرف مكاناً يأوونها هي ايضاً فيه لا يسمى بشارع الحليب او شارع العسل . وعندها بـــدأت تبكي فقلت لا بأس لا بأس انني اعتز بقومي وعشيرتي كأي رجل آخر حتى ولو جهلت اصلهم وفصلهم .

واخذنا نأكل . وارسلت امي دلزي الى بوابة المنزل لتتطلّع بحثـــاً عن كونتن ثانية .

فقلت : « الا تسمعينني اكرر واعيد بأنها لن تأتي للغداء ؟ »

فقالت : « ولكنها اعقل من ذلك . فهي تعلم انني لا اسمح لهـــا بالتسكع في الشوارع وعدم المجيء الى البيت في مواعيد الاكل . هـــل تطلعت جيداً يا دلزي ؟ »

قلت : « اذن امنعيها من الدخول . »

قالت : « ما العمل ؟ لم يحترم احد منكم كلامي ، قط . »

قلت : « اولا تدخلك،لجعلتها تعبأ بكلامك ، ولن يستغرقني تقويمها الا يوماً واحداً . »

قالت : « ستقسو عليها بوحشية زائدة ، فمزاجك هو مـزاج خالك موري . »

فذكّرني ذلك بالرسالة . فأخرجتها وناولتها اياها . وقلت : « لا حاجة بك لفتحها . سيعلمك البنك بالمبلغ هذه المرة . »

قالت : « انها معنونة باسمك . »

فقلت : « تفضلي وافتحيها . » ففتحتها وقرأتها وناولتني إياها .

— « انها تقول :

« ابن اختي العزيز ،

« سيسرك ان تعلم انني الآن في وضع يتيح لي فرصةً لن اخوض في التفاصيل بشأنها ، لأسباب سأوضحها لك ، الى ان يتسنى لي ان اميط لك اللثام عنها على نحو آمَن واكتم . فقد علمتني التجارب في الاعمال ان أضنّ بوصف اي أمر يقتضي السرية والتكتم عن طريق ايـة وسيلة ملموسة أكثر من الكلام ، ومبالغتي في الحيطة هذه المرة قد تهيء لك فكرةً عن قيمتها . وغني عن البيان انني قد فرغت لتوي من تمحيص اوجهها جميعاً اشد التمحيص ، ولا يسعني التردد في القول لك بأنها من قبيل تلك الفرصة الذهبية التي لا تتاح للمرء الا مرة واحدة في العمر ، واني الآن لأبصر امامي الهدف الذي سعيت اليه طويلاً دونما كلل : اعني توطيد شؤوني نهائياً توطيداً استعيد به ذلك المركـز الذي هو من حق الاسرة التي يشرّفني ان أكون سليلها الحي الوحيد من الرجال ؛ وهي الاسرة التي كان من دأبي دوماً ان أجعل ضمنها السيدة والدتك وأولادها .

« وتشاء الصدف ألا أكون في وضع يتيح لي الاستفـادة من هذه الفرصة حتى أقصاها كما ينبغي ، ولكن لئلا أخرج عن نطاق الاسرة في طلب ما اريد ، سوف اسحب اليوم من مصرف والدتك المبلغ الزهيد الذي لا بد من اضافته الى استثماري الأولي ، ومن اجله ها انا ارفق طيه ، من قبيل الشكليات ، تعهدي الخطي بمعدل ثمانية بالمائة سنوياً . وغني عن البيان ان هذا التعهد ليس الا من قبيل الشكليات ، لتطمين

املك في حالة وقوع ما تُخشى عقباه ، فما الانسان الا ألعوبة المجهول .
وذلك انني ، بالطبع ، سأسخّر هذا المبلغ وكأنه مالي الخاص فأتيح لوالدتك ان تفيد من هذه الفرصة التي أثبتت تحرياتي الدقيقة انها منجم ثروة — إن صح هذا التعبير — من اجود المعدن وانقاه .

« انت ترى انني أسرّ لك بهذا على نحو ما يسر رجل اعمال لآخر ، ولسوف نجني القطوف دانياتٍ من كرومنا ، هه ؟ ولما كنت اعلم ان صحة املك ليست على ما يرام ، واعلم ما تحسّ به سيدات الجنوب بطبعهن ، من جراء نشأتهن الرهيفة ، من قلق وإحجام إزاء الامور التجارية ، وميلهن الفاتن الى إماطة اللثام عن مثل هذه الأمور في حديثهن عن غير قصد ، فانني اقترح عليك الا تذكر الأمر لها أبداً. بل إنني اذ اعيد النظر فيه انصحك بألا تذكره لها . فلعله من الأفضل ان يعاد هذا المبلغ الى المصرف يوماً ما في المستقبل ، جملةً واحدة مع المبالغ الصغيرة الأخرى التي انا مدين بها لها ، دون ان نقول لها شيئاً. إن من واجبنا ان ندرأ عنها هذا العالم المادي الصفيق ما وسعنا ذلك .

« واسلم

لخالك المحبّ

موري ل . باسكوم »

قلت ، رامياً بالرسالة عبر المائدة : « ما الذي ستفعلينه بهذا الخصوص ؟ »

قالت : « اعرف انك تنكر عليّ ما اعطيه . »

قلت : « انها نقودك . حتى لو اردت ان تقذفي بها للطيور ، فذلك شأنك انت . »

فقالت أمي : « انه اخي . انه آخر آل باسكوم . وعندما نموت لن يبقى منا احد . »

فقلت : « لا ريب ان هناك من سيحزن على ذلك . لا بأس ، لا بأس ، » قلت : « انها نقودك ، فافعلي بها ما تشائين . اتريدينني ان

اوصي البناك بدفع المبلغ ؟ »

قالت : « أعلم انك تنكر عليه ذلك . وأنا أدرك ما على عاتقك من عبء باهظ . حين أرحل ، سوف يهون عايك الأمر . »

قلت : « باستطاعتي ان أجعله هيّناً علي هذه الساعة . لا بأس ، لا بأس ، لن أشير إلى الموضوع مرة أخرى . لك ان تنقلي مستشفى المجاذيب كله إلى بيتنا ان شئت . »

قالت : « انه أخوك ، وان ابتلاه الله بعاهة . »

فقلت : « سآخذ معي دفترك المصرفي ، لانني سآخذ راتبي اليوم . »

قالت : « أرى انه أبقاك في الانتظار ستة ايام . فهل أنت واثق من ان عملكم لا خوف عليه ؟ اني أعجب لعمل وافر الدخل يعجز عن دفع رواتب مستخدميه في مواعيدها . »

قلت : « لا خوف على ايرل ، أمين كالبنك . لقد أخبرته بألا يهتم بدفع راتبي حتى ننتهي من القبض كل شهر . هـذا هو السبب في التأخير أحياناً . »

قالت : « لن أستطيع ان أتحمل فقدانك للقليل الذي استثمرته لك ، كثيراً ما أظن ان إيرل تنقصة الطيبة كرجل أعمال . فهو لا يطلعك على دواخل عمله اطلاعاً يبرره المبلغ الذي تستثمره في العمل . سأفاتحه بالأمر . »

فقلت : « لا ، دعيه وشأنه . فالعمل عمله . »

— « ولكن لك الف دولار فيه . »

— « دعيه وشأنه . فأنا أرقب الأمور . ولدي وكالتك الرسمية . فلا تقلقي . »

قالت : « لن تعلم اي عزاء انت لي ، لقد كنتَ دوماً فرحتي وفخري . ولكن يوم جئتني من تلقاء نفسك وأصررت على ايداع راتبك في المصرف كل شهر باسمي ، حمدت الله على انه تركك لي حين حرمني

الآخرين . »

قلت : « كانوا لا بأس بهم . لا أتصورهم قد قصّروا في شيء كان في مقدورهم . »

قالت : « حين تتحدث على هذا النحو أعرف انك تفكر بمرارة بذكرى المرحوم أبيك . ولعلك محق في ذلك . ولكن قلبي ينفطر حين أسمعك . »

فنهضت وقلت : « ان اردت البكاء ، فعليك ان تبكي بمفردك ، لأن علي ان أعود . سأجلب دفتر المصرف . »

قالت : « سأجلبه أنا . »

فقلت : « ابقي في مكانك . سأجلبه أنا . » وصعدت الى فوق وأخرجت دفتر المصرف من منضدتها وعدت الى البلدة . فذهبت الى المصرف واودعت راتبي والحوالة المالية والعشرة الأخرى ، وعرجت على دائرة البرق . كان ثمة ارتفاع بنقطة واحدة منذ الافتتاح . لقد خسرت ثلاث عشرة نقطة ، وما ذلك إلا لأنها جاءتني تصيح وتعربد في الثانية عشرة ، وتزعجني بشأن تلك الرسالة .

قلت : « متى وصل ذلك التقرير ؟ »

قال : « منذ حوالي ساعة . »

قلت : « منذ ساعة ؟ لماذا ندفع لك ؟ لكي تعطينا تقارير اسبوعية ؟ كيف تتوقع أن يفعل المرء شيئاً ؟ قد تنفجر السوق في هذه البورصة ونحن بعد غافلون . »

قال : « انا لا أتوقع ان تفعل شيئاً . فقد غيروا ذلك القانون الذي يسمح للناس بالتلاعب في سوق القطن . »

قلت : « صحيح ؟ لم يبلغني الخبر . لا بد أنهم ابرقوه عن طريق الويسترن يونيون ، شركتكم . »

وعدت الى الدكان . ثلاث عشرة نقطة . لعنة الله عليّ ان كان

أحد يعلم شيئاً عن هذا الأمر اللعين إلاّ اولئك الجالسين في مكاتب نيويورك الذين يتفرجون علـى مغفّلي الريف وهم يأتونهم ويتوسلون اليهم بأخذ نقودهم . والواقع ان كل من يراجعهم انما يبرهن على انـه عديم الثقة بنفسه ، وكما اقول ان كنت سترفض النصيحة فما هو نفع انفاق المال في سبيلها ؟ وفضــلاً عن ذلك ، فان هؤلاء القوم يقيمون في المكان الصحيح ؛ فهم يعرفون بكل ما يجري . كنت أحس بوجود البرقية في جيبي . وما عليّ الا ان اثبت انهم يستخدمون شركة البرق لابتزاز المال، لأقيم الدليل على انهم يديرون عملاً للغش والنصب . وما كنت لاتردد في ذلك طويلاً ،لأنني لا افهم كيف تعجز شركة غنية كبيرة كالويسترن يونيون عن اصدار تقرير عن السوق في الوقت المحدد . على الاقل بنصف السرعة التي يبرقون فيها اليك قائلين « حسابك أُغلق » . ولكن ما الذي يهمهم من امور الناس ؟ انهم متواطئون مع تلك الجماعة في نيويورك . وهل يخفى ذلك على أحد ؟

حال دخولي نظر ايرل الى ساعته . غير أنه لم يقل شيئاً إلى أن خرج الزبون . وعندها قال :

« اذهبت الى البيت للغداء ؟ »

قلت : « اضطررت الى الذهاب الى طبيب الأسنان ، » ذلك لأن ليس من شأنه اين آكل ولكن عليّ البقاء معه في الدكان طيلة فترة ما بعد الظهر . ورغم كل ما أتحمله فانـــه يشغل فكيّه بهذا اللغو . خذ دكاناً صغـــيرة من دكاكين الريف أعني صاحب دكان لا تبلغ قيمتها خمسمئة دولار ترّ صاحبها في قلق يساوي خمسين ألف دولار .

قال : « لماذا لم تخبرني ؟ لقد توقعت عودتك بسرعة . »

فقلت : « أبيعك هذه السنّ واعطيك فوقها عشرة دولارات إن شئت. »

وقلت : « كان اتفاقنا على ساعة واحدة للغداء،فاذا لم ترق لك طريقتي فلك ان تفعل بها ما تشاء . »

قال : « لقد لاحظت ذلك منذ زمن ، ولولا أملك لفعلتها قبل اليوم. انها سيدة أعطف عليها كثيراً يا جاسن . من المؤسف أن الذين أعرفهم من الناس لا يقولون ذلك . »

قلت : « اذن فاحفظ عطفك لنفسك ، فـاذا احتجنا الى عطف أخطرتك في الوقت الملائم . »

— « لقد حميتك طويلاً في تلك القضية ، يا جاسن . »

— « صحيح ؟ » قلتها ، فاسحاً له المجال للاستمرار ، ومصغياً لما سيقول قبل أن اسدّ فمه .

— « اعتقد انني أعرف اكثر ممـا هي تعرف من اين جاءت تلك السيارة . »

— « اتظن ذلك ؟ متى ستنشر الخبر بأنني سرقتها من أمي ؟ »

فقال : « لن اقول شيئاً . فأنا أعرف ان في حوزتك وكالة رسمية عنها . كما انني اعرف أنها ما زالت تعتقد ان الالف دولار تلك مستثمرة في هذا العمل . »

فقلت : « طيّب . بما انك تعرف كل هذا ، فلأخبرك بالمزيد : اذهب الى المصرف واسألهم لحساب مَن اودع مئة وستين دولاراً أول كل شهر ، منذ اثنتي عشرة سنة . »

قال : « لن أقول شيئاً . انما أطلب اليك ان تكون أشد حذراً بعد اليوم . »

لم أقل شيئاً أكثر من ذلك . وما جدوى الكلام ؟ لقد وجدت ان المرء اذا ما وقع في حلقة مفرغة فخير ما تستطيع انت فعله له هو ان تدعه فيها . واذا ما ألحّ رجل على الافصاح عن سيئة بحقك محتجاً انه يفعل ذلك لصالحك ، فاني أقول له ، مع السلامة . يسرني انني لا أعاني من ضمير يفرض علي مراعاته وتدليله كجروٍ عليل طيلة الوقت. فهل ارضي مثله بأن أحرص على كل صغيرة وكبيرة لئلا أجني ، مما بين

يدي من عمل ، اكثر من ثمانية بالمئة . أغلب الظن انه يتصور انهم سيطبّقون عليه قانون الربا ان هو حصّل ربحاً صافياً ما يزيد على ثمانية بالمئة . فما الفرصة اللعينة التي تتاح لامرء هنا ، وهو مقيد بعمل كهذا في بلدة كهذه ؟ والله بوسعي ان اتولى عمله هذا سنة واحدة وادبر أمره حتى يصبح في غنى عن كل عمل فيما بعد ، لولا انه حينئذ سيهب ماله كله للكنيسة او ما شابهها . فإذا كان في الدنيا من يثير حنقي ، فهو المنافق . ذلك الرجل الذي يرى في كل ما لا يفهم تفاصيله كلها ، غشاً وخديعة ، وحالما تتيسر له أول فرصة فان من واجبه الادبي ان يخبر فريقاً ثالثاً ما ليس من حقه ان يخبره . وكما اقول دائماً ، لو انا اعتقدت كلما فعل انسان شيئاً لا أعرف تفاصيله كلها بأنه محتال وغشاش ، لما كان من الصعب علي ان أجد في تلك الدفاتر هناك أموراً لن تجد انت مبرراً لي ان انا أسرعت وأطلعت أحدهم عليها لاعتقادي بضرورة احاطته بها حين قد اكتشف انه يعرف عنها اكثر بكثير مما أعرف انا ، واذا لم يعرف فليس من شأني مطلقاً ان اتولى اطلاعه ، فقال : « دفاتري مفتوحة للجميع . واني لأرحب بأي انسان يطالبني بشيء ، او يعتقد بأن له على هذا الدكان حقاً ، وأقول له : أهلاً وسهلاً ، هاك دفاتري ، افحصها . قل ذلك لوالدتك . »

فقالت : « لن تطلعها على شيء بالطبع . والا ، عجزت عن ارضاء ضميرك . كل ما هنالك ، انك ستقودها نحو الدفاتر وتترك أمر الاكتشاف لها . ولكنك لن تخبرها بنفسك . »

قال : « لا احاول العبث بأمورك . وانا اعلم انك قد اخطأت بعض الأشياء ككونتن . غير ان والدتك قد عرفت الشقاء في حياتها ايضاً ، فلو جاءتني هنا وسألتني لماذا تركت ، لأخبرتها . وانت أدرى بأن السبب ليس هو الالف دولار تلك . ولكن السبب هو ان المرء لن يتقدم في الحياة اذا ناقض واقعه دفاتر حسابه . وانا لن اكذب على احد ، سواء

كان ذلك من أجلي أم من أجل غيري . »

فقلت : « يخيل الي ان ضميرك هذا موظف اكثر أهمية لديك مني، فهو ليس بحاجة الى الذهاب الى البيت ظهراً ليأكل . ولكن ارجوك الا تدعه يتدخل بشهيتي » والا فأنّى لي ان احسن فعل اي شيء وانا في هذه العائلة اللعينة وامي لا تبذل جهداً لضبطها او ضبط احد منهم ، كما حدث عندما اتفق ان رأت احدهم يقبّل كادي فراحت طيلة النهار التالي تدور ارجاء البيت في فستان اسود وعلى وجهها نقاب فعجز الجميع حتى ابي عن جعلها تنطق بشيء فيما عدا البكاء وترديد ان ابنتها ماتت وكادي يومئذ لم تكن تتعدى الخامسة عشرة وعلى ذلك فإنها في بحر سنوات ثلاث ستلبس ثوب الشَّعر بل قل ورق الضفرة . أتعتقدين انني اجد من اللائق بي تسكعها في الشوارع مع كل سمسار يجيء الى المدينة، فيخبر كل سمسار وافد آخر عن المكان الذي يستطيع ان يجد فيه فتاة شهية حارة حال وصوله جفرسن . اين كرامتي ، بل أنّى ان تكون لي كرامة ومطبخي مليء بسودٍ علي ان اطعمهم وقد سلبت مستشفى مجاذيب الولاية نجمه الساطع ؟ وقلت ، ها ، الدم ، وحكام وقوّاد عسكريون ! ما احسن حظنا اننا لم نرزق ملوكاً ورؤساء . والا لكنا كلنا الآن في جاكسن نطارد الفراشات . ولو كان ذلك الدم دمي لساء الأمر بدرجة كافية ولكنت على الأقل متأكداً من نغالته، ولكن قد يكون الله نفسه على غير يقين بشأن ذلك .

وهكذا فانني بعد قليل سمعت الجوقة الموسيقية تبدأ عزفها ، ثم جعل افرادها ينصرفون ، متجهين جميعاً نحو السيرك . يساومون على طوق بعشرين سنتاً لكي يوفروا خمسة عشر سنتاً يعطونها لشرذمة من الشماليين الوافدين والذين قد ينفقون عشرة دولارات في سبيل هذا الامتياز . وخرجت الى ما خلف الدكان .

وقلت : « اسمع ، اذا لم تنتبه ، نما ذلك البرغي في لحم يدك .

حينئذ سأحضر فأساً لأقطعه . ما الذي ستأكله خنافس القطن المسكينة إنْ انت لم تهيء هذه المعشّبات فتنتج لها غلة ما ؟ أحنفاء ؟ »

فقال : « والله إنهم ليتقنون العزف على الأبواق . سمعت ان بينهم رجلاً يستطيع ان يدق لحناً على المنشار ، كأنه يعزف على البانجو . »

قلت : « اسمع . أتعرف كم سينفق ذلك السيرك في هذه البلدة ؟ حوالي عشرة دولارات . وهي الدولارات العشرة التي وضعها بك تيربن في جيبه الآن . »

— « ولماذا يعطون السيد تيربن عشرة دولارات ؟ »

قلت : « لقاء السماح لهم باقامة سيركهم هنا ، وأما بقية ما يصرفون فتستطيع أن تضعه في عينك . »

— « تعني أنهم يدفعون عشرة دولارات لكي يقيموا السيرك هنا؟ »

— « هذا كل ما هناك . وكم ، في اعتقادك ... »

فقال : « عجيب . أتقصد انهم يقاضونهم نقوداً ليسمحوا لهم بالمجيء هنا ؟ والله لو اضطررت ، لدفعت عشرة دولارات عن طيب خاطر لأرى ذلك الرجل يدق على المنشار . وذلك يعني أنني في صباح الغد سأكون مديناً لهم بتسعة دولارات وثلاثة ارباع على هذا المعدل . »

ورغم ذلك فان كل شمالي يزهق منك الروح بالحديث عن تقدم الزنوج . دعهم يتقدمون ، هذا ما أقوله . دعهم يتقدمون حتى لا تلقوا أحداً منهم جنوبي لويزفيل ولو بحثتم عنه مستعينين بكلاب الأثر . لأنه ، عندما أخبرته أنهم سيحزمون امتعتهم ليلة الأحد وينصرفون حاملين الف دولار على الأقل من أموال هذه المقاطعة ، قال :

« حلال عليهم . فأنا لن اتردد بانفاق ربع دولار عليهم . »

فقلت : « ربع دولار ! ما تلك الا بداية البداية . ماذا تقول عن السنتات العشرة او الخمسة عشر التي ستصرفها على علبة الحلوى الحقيرة او غيرها مما يساوي السنتين ؟ وماذا تقول عن الوقت الذي تضيعه في هذه

اللحظة ، بالاصغاء الى تلك الجوقة ؟ »

قال : « هذا هو الواقع . ووالله إن عشت حتى هـذه الليلة فانهم سيخرجون من هذه البلدة غانمين ربعاً آخر ، إي والله . »

قلت : « إذن أنت غبي . »

قال : « ولن اجادلك في ذلك أيضاً . ولكن لو كان الغباء جريمة، لما كانت سجون الاشغال الشاقة كلها مقصورة على السود . »

واتفق في حوالي تلك اللحظـة ان نظرت صوب الزقاق ورأيتها . وعندما تراجعتُ ونظرت الى ساعتي لم الحظ من الذي كان معهـا لانني كنت انظر الى الساعة . كانت الساعة الثانيـة والنصف بالضبط ، اي قبل ان يتوقع احد خروجها ، فيما عداي ، بخمس واربعين دقيقـة . فلما نظرت من حول الباب كان اول ما لمحته رباط العنق الاحمر الذي يلبسه فقلت لنفسي أي صقيع هذا الذي يلبس رباطاً أحمر . غير أنهـا كانت تتسلل في الزقاق ، وهي ترقب الباب ، فلم افكر بأمره الى ان مرّا بباب الدكان وتساءلتُ إن كان احترامها لي من الضآلة بحيث لا تكتفي بالهرب من المدرسة رغم تحذيري لها بل تصرّ على المرور بالدكان، تحدّياً لي بألا أراهـا . ولكنها لم تبصر من خلال الباب لأن الشمس كانت منصبّة عليه مباشرة ، فكأنها تحاول ان تبصر من خلال كشّاف سيارة . فوقفت في مكاني اتتبعها بعينيّ وهي تمر ، ووجههـا مصبوغ كوجه مهرّج وشعرها مجدول ومصمّغ وفستانها — لو ان امرأة خرجت الى شارع غايوسو أو بيل ايام صباي غير كاسية ساقيها وعجيزتها الا بمثل ذلك الثوب لزُجوا بها في السجن . انهن يلبسن ثيابهن كأنهن يحاولن جعل كل رجل يمر بهن في الشارع يكاد يمدّ يده ويضعها عليه . وفيما أنا اتساءل اي صقيع يلبس رباطاً أحمر واذا بـي ادرك فجأة انه أحـد جماعة السيرك ، موقناً من ذلك كأنها أخبرتني عنه بنفسهـا . والله اني لشديد التحمّل ، ولو لم اكن كذلك لوقعت في ورطة كبرى في تلك

اللحظة ، ولذا فانني عندما دخلا المنعطف طفرت من مكاني وتبعتهما .
أجل ، في شمس ما بعد الظهر ، حاسر الرأس ، كان عليّ أن اطاردهما
خلال الأزقة الخلفية احتراماً لسمعة أمي . وكما اقول ، لن يجديك فتيلاً
ما تفعل مع امرأة من هذا الفصيل ، مطبوعة على مثل هذا الشيء . فاذا
كان العهر يجري في دمها . فان يجديك فتيلاً ما تفعل معها . وجل ما
تستطيعه هو أن تتخلص منها ، وتدعها تمضي وتعاشر من هم على
شاكلتها .

ذهبت الى الشارع ، ولكنني لم أرهما . فهذا انا ، في وسط الشارع
حاسر الرأس ، ابدو اشبه بالمجانين ايضاً . كمن يقول لنفسه طبعاً :
احدهم مجنون والثاني انتحر غرقاً والثالثة قذف بها زوجها الى الشارع ،
فلم لا يكون البقية مجانين كذلك . فكنت اراهم طيلة الوقت يرقبونني
كالصقر ، مترقبين الساعة التي يقول فيها احدهم : لست ادهش لهذا ،
كنت اتوقعه طيلة هذا الوقت فالعائلة كلها مجانين . تبيع الارض لارساله
الى هارفرد وتدفع الضرائب لمساندة جامعة الولاية سنة بعد سنة وهي
جامعة لم ارها الا مرتين في مباريات « البيسبول » ولا تسمح لأحد
بالتلفظ باسم ابنتها في المنزل الى ان جعل ابي بعد ذلك يرفض حتى
النزول الى المدينة وهو ما انفك جالساً هناك سحابة يومه يعاقر قارورته
كنت ارى حاشية قميص نومه وساقيه العاريتين واسمع القارورة تدقدق
الكأس الى ان جعل تي بي في النهاية يصب له ما يريد وهي تقول انك
لا تحترم ذكرى المرحوم ابيك فأقول ولم لا فانها في حرز حريز وستبقى
قائمة ولكن ان كنت مجنوناً انا ايضاً فالله يعلم ما الذي سأفعله بشأن ذلك
فمجرد النظر الى الماء يقلب معدتي قلباً وقد اجرع البنزين ولا اجرع
كأساً من الويسكي فتقول لهم لورين انه لا يشرب ولكن ان كنتم تشكون
في رجولته فبإمكاني ان اخبركم كيف تكتشفونها وتقول والله ان وجدتك
يوماً تعابث احدى هؤلاء المومسات أتعرف ما الذي سأفعله قالت سأجلد

ذاك منها ممسكة بذاك منها سأجلد ذاك منها حالما ألقاه فأقول ان كنت لا اشرب فذلك شأني ولكن هل وجدتني يوماً مقصّراً بحقك سأشتري لك من البيرة ما يكفي لاستحمامك فيهـا ان شئت لأنني احترم المومس الأمينة الطيبة وبسبب من احوال امي الصحية وبسبب من المركز الذي احاول ان احافظ عليه اراني ابذل جهدي فلا ارى احترامها لي رغم كل ما اسعى فيه من اجلها يعدو جعلها من اسمها واسمي واسم امي مضغة في افواه اهل البلدة .

لقد زاغت واحتجبت عن النظر في مكان ما . رأتني قادمـاً فزجت بنفسها في زقاق آخر ، لتتسكع في الأزقة مع حقير من رجال السيرك يلبس رباطاً احمر كلما رآه احد قال اي صقيـع هذا الذي يلبس رباطاً احمر . على كل ، ما زال الولد يتحدث الي فأخذت البرقية دون ان اعي انني اخذتها . ولم ادرك ما الذي بين يديّ الى ان جعلت اوقّـع اعترافاً بتسلمها ، وفضضتها دون ان اعبأ بمحتواها . لعلني كنت طيلة الوقت اعرف محتواها . فذلك هو الشيء الآخر الوحيـد الذي يمكن ان يقع ، وقد امسكت بها الى ان دونت قيمة الصك في الدفتر .

لست ارى كيف ان مدينة بحجم نيويورك يمكن ان يكون فيها من الناس ما يكفي لابتزاز نقودنا نحن الريفيين المغفلين . تشتغل كالحمار طيلة النهار كل يوم ، وترسل نقودك اليهم لتأتيك منهم قصاصة ورق تقول « حسابك اغلق عند ٢٠،٦٢ يغرونك باستمرار ، ليتراكم لديك ربح ضئيل على الورق ،وإذاهم يقذفونك بـ « حسابك اغلق عند ٢٠،٦٢ » ! وكأن ذلك لا يكفيك فتدفع لأحدهم عشرة دولارات في الشهـر ليدلك على الطريق الى الخسارة السريعة ، فهو إما لا يعرف عن الموضوع شيئاً او انه متواطىء مع شركة البرق . كفى ، لقد انتهيت منهم . لقـد استغفلوني للمرة الأخيرة . فما من انسان الا ويعرف — الا اذا بلـغ به الغباء حد الايمان بكل ما يقوله اليهود في ذلك — ان السوق في ارتفاع

أي برصيد ٢٠ دولاراً و٦٢ سنتاً (المترجم)

دائم لأن الدلتا اللعينة بأجمعها على وشك الغرق بالفيضان من جديد والماء يكاد يقتلع القطن من الارض كما حدث في العام الماضي . محاصيلنا تغرق سنة بعد سنة ، والجماعة في واشنطون ينفقون خمسين الف دولار في اليوم على جيش لهم في نيكاراغوا او غيرها . وسيقع بالطبع فيضان جديد ، ويصبح سعر القطن ثلاثين سنتاً للرطل الواحد . على كل ، ما غايتي الا ان اضربهم مرة واحدة واسترجع نقودي . لست اروم منهم مقتلاً ، مع ان المضاربين في هذه المدن الصغيرة لا يبغون الا ذلك ، إنما أريد ان أسترد نقودي التي ابتزها هؤلاء اليهود الملاعين « بمعلوماتهم المضمونة لما يجري وراء الستار » . وعندها سأكف نهائياً، وليقبلوا قدمي لكل سنت احمر يستخرجونه مني بعد ذلك .

عدت الى الدكان . لم يبق الا اقل الوقت لعمل اي شيء ولكنني اعتدت على ذلك . وما كان علي ان ادرس في هارفرد لأتعلم ذلك . كانت الجوقة قد توقفت عن العزف . لقد ادخلوا الناس الآن الى حظيرتهم ، فما عادوا بحاجة إلى بذل أنفاسهم بعد . فقال إيرل :

« هل وجدتك اذن ؟ جاء بها هنا منذ قليل ، فقلت لعلك في مكان ما خلف الدكان . »

فقلت : « نعم ، أخذتها . ما كان بامكانهم أن يحجبوها عني طيلة ما بعد الظهر . فالبلدة صغيرة جداً . عليّ ان اذهب الى البيت لبضع دقائق ، ولك ان تحسم من راتبي ان شئت . »

فقال : « لا بأس ، تفضل . استطيع البقاء وحدي الآن . أرجو الا يكون الخبر سيئاً ؟ »

قلت : « عليك بدائرة البرق لمعرفة الجواب . لديهم الوقت لذلك ، اما انا فلا وقت لديّ . »

— « مجرّد سؤال . فأمك تعلم انها تستطيع الاعتماد عليّ . »

قلت : « انها تقدّر ذلك . لن امكث اطول مما ينبغي . »

فقال : « لا تستعجل . استطيع البقاء وحدي الآن . تفضل . »

ركبت السيارة وعدت الى البيت . مرةً هذا الصباح ، ومرتين عند الظهر ، ومرة أخرى الآن ، وعليّ كذلك ان اطارد بحثاً عنها في ارجاء البلدة كلها كما أن عــليّ ان اتوسل إليهم ان يدعوني آكل شيئاً من الطعام الذي اشتريه بمالي . إني اقول احيانــاً ما نفع اي شيء . مع هذه السابقة التي حدثت لي ما كنت لاستمر لولا أنني مجنون . والآن حالما ابلغ البيت عليّ برحلة طويلة في السيارة بحثــاً عن سلة من الطماطم أو غيرهــا اعود بعدها الى المدينة ورائحتي كمصنعٍ للكافور لِئلا ينفجر رأسي على كتفيّ . وانا أردد واكرّر لها ان هــذا الاسبرين اللعين لا يحوي الا الطحين والماء لكل من يتوهم في نفسه المرض ، وأقول لها أنك لا تعرفين ما الصداع . ثم اقول اتحسبين انني كنت ازعـج نفسي بتلك السيارة لو توقف الامر عليّ انا ؟ فباستطاعتي ان أحيا بدونها لقد اعتدت الحياة محرومــاً اشياء عديدة ولكن ان كنت ترغبين في المجازفة بحياتك في تلك العربة العتيقة المستهلكــة يسوقها صبي زنجي ناقص النمو فلا بأس الله يرعى بعنايته من هم من فصيلة بنجي ، والله يعلم ان عليه ان يسعفه على نحو ما ولكن ان كنت تحسبين انني سأعهد بسيارة دقيقة الصنع كلفتني الف دولار لزنجي ناقص النمو او كامل النمو ، فخــير لك ان تشتري له سيارة بنفسك لأنك تحبــين ركوب السيارة ولن تنكري ذلك .

قالت دلزي ان امي في البيت . فدخلت بهو المدخل وأصغيت ، ولكنني لم اسمع شيئاً . فصعدت الى فوق وحالما مررت ببابها نادتني .

وقالت : « اردت ان اعرف من القادم . انني اجلس هنـا بمفردي معظم الوقت . فاسمع كل صوت . »

قلت : « لا حاجة بك الى البقاء هنا . بإمكانك ان تقضي النهـار كله في الزيارات كغيرك من النساء ، ان انت شئت . » فأتت الى الباب.

وقالت : « خشيت ان تكون مريضاً . لأنك تناولت غداءك على عجل . »

قلت : « لعلني اوفق في مرة قادمة . ماذا تريدين ؟ »

— « هل من شيء على غير ما يرام ؟ »

— « اي شيء ؟ ألا يجوز لي ان آتي الى البيت عصراً دون ازعاج كل من في المنزل ؟ »

— « هل رأيت كونتن ؟ »

— « انها في المدرسة . »

— « ولكن الساعة تجاوزت الثالثة . لقد سمعت الساعة تدق قبل نصف ساعة على الأقل . كان يجب ان تبلغ البيت الآن . »

— « صحيح ؟ وهل رأيتها تأتي يوماً قبل هبوط الظلام ؟ »

— « كان يجب ان تكون في البيت . عندما كنت فتاة ... »

قلت : « كان لك من يؤدبك . امّا هي ؟ »

قالت : « لقد اعجزتني ، مع انني حاولت وحاولت . »

— « ولن تسمحي لي بتأديبها ، لسبب ما . فاقنعي اذن . » ذهبت الى غرفتي ، وادرت المفتاح في الباب ووقفت قربه الى ان رأيت مقبضه يدور ، واذا بها تقول :

« جاسن . »

— « ماذا ؟ »

— « خشيت ان لا يكون شيء ما على ما يرام . »

— « ليس في غرفتي . لقد قصدت المكان الخطأ . »

فقالت : « لست اقصد اقلاقك . »

فقلت : « اشكرك على ذلك . لأنني لم اكن واثقاً . وظننت انني مخطىء . أتريدين شيئاً ؟ »

وبعد قليل قالت : « كلا . لا اريد شيئاً . » ثم ابتعدت . فأنزلت

الصندوق واحصيت النقود وخبأت الصندوق ثانيـــة وفتحت قفل الباب وخرجت . وتذكرت الكافور ، ولكن فات الاوان عـــلى كل حال . وسأخرج لرحلة واحدة فقط . فرأيتها ببابها تنتظر .

قلت : « اتريدين شيئاً من البلدة ؟ »

قالت : « كلا . لا أريد التدخل بشؤونك . ولكنني لا ادري ما الذي سأفعله لو حدث لك اي حادث يا جاسن . »

قلت : « انا بخير . مجرد صداع . »

قالت : « ليتك تتناول بعض الاسبرين . أنا اعلم انك لن تتوقف عن استعمال السيارة . »

فقلت : « وما علاقة السيارة بذلك ؟ كيف يمكن للسيارة ان تسبب لي صداعاً ؟ »

— « البنزين كما تعلم كان يسبب لك اضطراباً دائماً . منذ ان كنت طفلاً . اتمنى لو تتناول بعض الاسبرين . »

فقلت : « استمري في التمني . لن يؤذيك التمني . »

ركبت السيارة وعدت الى البلدة . وحالما انعطفت الى الشارع رأيت سيارة « فورد » مسرعة نحوي . وفجأة وقفتْ . سمعت العجلات تنزلق فتدور السيارة ثم تندفع الى الوراء ، فتدوّم وما ان تساءلت ماذا يبغي راكبها ان يفعل ، حتى رأيت ذلك الرباط الأحمر . ثم تبينت وجهها ينظر الى الخلف من النافذة . دوّمت السيارة منطلقة في الزقاق، ورأيتها تنعطف ثانية ، ولكن عندما بلغت الشارع الخلفي كانت قد بدأت تختفي، مسرعة كالشيطان .

طار عقلي . لما تبينت ذلك الرباط الأحمر ، وبالرغم من كل ما قلته لها ، نسيت كل شيء . ولم افكر حتى برأسي المصدوع حتّى بلغت اول تقاطع طرق واضطررت الى الوقوف . ننفق الاموال وننفق الأموال على الطرق ومع ذلك فكأننا والله نسوق على صفيحة من الحديد المموّج .

اريد ان اعرف كيف يمكن لانسان ان يحافظ على عربة يده، بله سيارته في طرق كهذه. انني ابالغ في الخشية على سيارتي، ولن احطمها بالسرعة كأنها « فورد » . واغلب الظن انهما قد سرقاها على كل حال ، فان يعنيها من امرها شيء . وكما اقول ، العــرق دسّاس . ان يكن هذا عِرقك ، فان تتورع عن شيء . وقلت مهما يكن لها من حق عليكَ فقد اديتِ واجبك وانتهيت . فــلا تلومي من الآن فصاعداً الا نفسك لأنك تعلمين ما الذي يفعله في حالة كهــذه انسان يتمتــع بدرهمين من عقل . وقلت ان كان لا بد لي من قضاء نصف وقتي كشرطي سري، فلأذهب على الأقل الى حيث اتقاضى اجراً على ذلك .

وهكذا اضطررت الى الوقوف عند تقاطع الطرق . فتذكرته . وشعرت به كأن في داخل رأسي شخصاً يضربه بمطرقة . قلت لها لقد حاولت ان اصدّ عنك القلق بشأنها . اما بالنسبة إلي فانني اقول لتذهب الى حيث ألقت وبأسرع ما تستطيــع وخير البرّ عاجله . وقلت كذلك ما الذي تتوقعين إلا ان تري كل سافل وكل من ينتمي إلى فرقة من المهرّجين القادمين إلى البلدة لأن شباب البلدة ، حتى أحطّهم شأناً يترفعون الآن عنها . انك لا تعلمين بما يجري في البلدة ، ولا تسمعين الاقاويل التي اسمعها وثقي انني اسد افواههم جميعاً . فأقول لهم لقد كان اسلاف اسرتي يملكون العبيد هنا ايام كنتم تديرون حوانيت ريفية حقيرة لبيــع سقط المتاع وتفلحون اراضي يترفع عنها حتى الزنوج .

هذا ان هم فلحوها قط . من حسن الحظ ان الله قد اسبغ نِعمَتَهُ على هذا البلد . اما اهله فما حركوا من اجله ساكناً . هــا نحن عصر يوم الجمعة ، وبوسعي حيث وقفت ان ارى ثلاثة اميال من اراضٍ لم يشقها محراث ، بينما راح كل رجل سليم الجسم في المقاطعة يهرول الى البلدة ليشاهد السيرك . فلو كنت غريباً مشرفاً على الموت جوعاً ، لما استطعت ان ارى انساناً هناك اسأله حتى عن السبيل الى البلدة . وهي

تحاول ان تقسرني على ابتلاع الاسبرين ، فأقول لها اذا اردت خبزاً اكلته على المائدة . انك لا تنقطعين عن الكلام عن تضحياتك من اجلنا وبامكانك ان تشتري عشرة فساتين جديدة كل سنة بالنقود التي تنفقينها على هذه الأدوية المستحضرة السخيفة . وما انا بحاجة إليه ليس دواء لصداعي بل فرصة لا اضطر فيها الى ان اشعر بالصداع ولكن ما دمت مكرهاً على العمل عشر ساعات في اليوم لأقوم بأود مطبخ مليء بالزنوج يعيشون عندي اترف العيش وارسلهم الى السيرك مع كل زنجي آخر في المقاطعة ، ولكنه قد تأخر ، وربما يبلغ المكان يكون العرض قد انتهى.

بعد زمن دنا من السيارة ولما افهمته أخيراً سؤالي عما اذا كان قد رأى شاباً وشابة يمران به في سيارة فورد ، قال نعم . فاستأنفت السير ، ولما وصلت الى حيث يتفرع طريق العربات جعلت ارى آثار الإطارات . كان « آب راسل » في مزرعته ، غير انني لم اهتم بسؤاله وما كدت اخرج عن مدى البصر من عنبره حتى رأيت الفورد . لقد حاولا ان يخفياها . واتقنا العملية اتقانها لكل ما تفعله . وكما اقول ، انا في الواقع لا اعترض على ؛ فلعلها لا تملك منعاً لنفسها عنه ، ولكن الذي يغضبني هو انها لا تبدي من الاحترام لاسرتها ما يجعلها تتستر على نفسها . وإني لفي خشية مستمرة من ان اصطدم بهما فجأة على قارعة الطريق او تحت احدى العربات في الميدان ، ملتحمين التحام كلب وكلبة .

اوقفت السيارة ونزلت منها . وكان عليّ الآن ان اسير مداورةً واخترق حقلاً محروثاً ، وهو الحقل الوحيد الذي شاهدته منذ ان تركت البلدة ، وامشي بخطوات ثقيلة كأن ورائي شخصاً ما يلاحقني ويضربني على رأسي بهراوته . وجعلت افكر بأنني حال عبوري الحقل ستنبسط الأرض تحت قدمي ، فلا تخضني عند كل خطوة ، ولكن عندما دخلت الآجام وجدتها مليئة بالشجيرات فرحت ابرم جسمي وانا اشق طريقي بينها ، الى ان وصلت الى خندق مليء بالعلّيق . فسرت بمحاذاته ،

والعلّيق يشتد كثافة والتفافاً ، وقد يكون ايرل منهمكاً طيلة هذا الوقت بمخابرة بيتنا تلفونياً ليسأل اين انا فتضطرب امي من جديد .

وفي النهاية حين بلغت الطرف الآخر كنت قد انعطفت وتعرّجت كثيراً فتوقفت لأخمن اين تكون الآن مني سيارة الفورد . اذ كنت اعلم انهما لن يبعدا عنها كثيراً ، فيندسّان تحت اقرب شجيرة . فاستدرت وسرت في الاتجاه المعاكس نحو الطريق . وبعد ذلك لم استطع ان أعيّن مدى بعـــدي ، فجعلت اقف وأصغي ، وكلما وقفت قلّ ما تستخدمه رجلاي من دم ، فتدفق الى رأسي كأنه سينفجر في أية لحظة ، والشمس منحدرة الى حيث تشعّ في عينيّ مباشرة واذناي ترنّان فلا اسمع شيئاً . واستمررت محــاولاً السير بهدوء ، ثم سمعت كلباً او ما يشبه الكلب فادركت انه اذا ما اشتمّ رائحتي فانه سيركض لينقض عليّ ، فتنتهي عبثاً مطاردتي كلها .

في هذه الاثناء كنت قد اكتسيت بضروب القمل والعساليج والاتربة ، داخل ثيابي وحذائي ، سافلي وعاليّ ، ثم التفتُّ بمحض الصدفة ووجدت ان يدي قد وقعت على عنقود من البلوط السام . والشيء الوحيد الذي لم افقهه هو لمَ كان هذا الشيء بلوطاً ساماً لا حية رقطاء مثلاً . فلم اكلّف نفسي مؤونة تحريكها ، وبقيت واقفاً مكاني الى ان ابتعد الكلب. فمضيت في طريقي .

والآن ، لم أعد استطيع ان اتخيــل مكان السيارة . وعجزت عن التفكير بشيء عدا رأسي ، فجعلت أقف في المكان الواحد واتساءل ترى هل رأيت سيارة فورد حقاً ؟ ولم يعد يهمني رأيتها ام لم أرها . وكما أقول، فلتضاجع ليلَ نهار كل شيء يرتدي سروالاً في هذه البلدة ، ما همّني . لن اشعر أن ثمة حقاً عليّ لفتاة لا تعبأ بـي ولا تترفّع عن ترك سيارة فورد هناك وجعلي أنفق عصر يوم كامل بينما راح ايرل آخذاً إياها الى هناك ليريها دفاتر الحساب لأن له من الفضيلة ما لا يتحمله هذا العالم .

فأقول له ستسرح وتمرح في الجنّة ، دون ان يكون لديك ما تتدخل به من أمور الناس ولكن الويل لك إن أنا قبضت عليكِ متلبسة بالجرم المشهود ، فأنا أغمض عينيّ تغاضياً من أجل جدتك ، ولكن يا ويلك إن أنا امسكت بلك وانت تفعلينها في هذا المكان ، حيث تقيم أمّي . أما هؤلاء العلوج اللاعو الشعور ، فإنهم يحسبون انهم يقيمون الجحيم ويقعدونه ، ولسوف اريهم طرفاً من الجحيم ، وأنت كذلك . إي والله . سأجعله يعتقد ان ذلك الرباط الأحمر السخيف هو خيط سقاطة الجحيم ، ان كان يظن انه يستطيع ان يجوب الاحراش مع ابنة اختي .

الشمس في عينيّ ودمي يتدفق فأظن كل مرة أن رأسي سيفعلهـا وينفجر ويفضّ أمره ، والعلّيق وانواع الشوك تتشبّث بـي ، الى ان عثرت على الخندق الرمـلي حيث كانا قد اختفيا وتبيّنت الشجرة التي كانت السيارة بقربها ، وفي اللحظة التي فيها خرجت من الخندق ورحت اركض سمعت السيارة تُشَغَّل . وانطلقتْ سريعةً وبوقها يدقّ . لقد راحا يدقان البوق وكأنه يقول ياه. ياه. يااااهههههه ويتعديان مدى البصر . وبلغت الطريق في اللحظة التي رأيت السيارة فيها تختفي عن العيان .

وما كدت ابلغ المكان حيث كانت السيارة حتى كانا قد اختفيـا نهائياً عن العيان ، والبوق ما زال يدق . فلم أعد افكّر بشيء من ذلك سوى انني رحت اقول : اسرعي . اسرعي الى البلدة . اسرعي الى البيت وحاولي اقنـاع أمي بأنني ما رأيتك قط في تلك السيارة . حاولي ان تقنعيها بأنني لا اعرف من هو . حاولي ان تقنعيها بأنه ادعاء مني حين اقول لم يبق بيني وبين القبض عليك في ذلك الخندق اكثر من عشرة اقدام . وحاولي ان تقنعيها ايضاً بانك لم تكوني مستلقية على ظهرك .

ظل البوق يقول ياههههه ، ياههههه ، ياههههههه ، متخافتاً متنائياً . ثم انقطع ، وسمعت بقرة تخور في حظيرة راسل . وما زلت عديم التفكير بشيء . وذهبت الى الباب وفتحته ورفعت قدمي . وعندها خطر لي ان

السيارة جانحة بأكثر مما يبرره ميلان الطريق ، ولكنني لم اكتشف الامر الى ان ركبت وشغّلت السيارة .

وهكذا ، جلست في مكاني . والوقت يقارب الغروب ، والبلدة على بعد حوالي خمسة أميال . لم تكن لديهما الجرأة حتى لثقب الإطار بضربة ما . انما افرغا هواءه وكفى . فوقفت هناك برهة ، افكر بذلك المطبخ المليء بالزنوج وما من احد فيه يجد الوقت لتركيب اطار على المحور وشدّ برغيين او ثلاثة . والمضحك في الأمر أنها لم تكن حتى هي لتختط للأمر عن بعد نظر فتخرج مضخة الهواء من مكانها عن قصد ، إلاّ اذا خطر لها ذلك حين راح هو يفرغ الاطار . والأغلب ان احدهم أخرجها واعطاها بن ليلعب بها كرشاش لأنهم لن يترددوا في فكّ اوصال السيارة ان هو اراد ذلك فتقول دلزي : لم يمسّ احد سيارتك . ولماذا نعبث بها ؟ فأقول لها انت زنجية . وما أحسن حظّك ، أتعلمين ؟ ولنتبادل اللون أنا وأنت لأن الغباء لن يبلغ بامرىء حدّ الانزعاج لما تفعله فتاة ساقطة الا اذا كان ابيض اللون .

سرت الى مسكن راسل . وكانت لديه مضخة . إهمال منها ، ربما . ولكنني بقيت عاجزاً عن الاعتقاد بأن لها من القحة ما يحدو بها الى فعل ذلك . وظلت تلك الفكرة تتردد في رأسي . لست ادري لماذا أراني لا أتعلّم بأن في وسع المرأة ان تفعل اي شيء . فجعلت افكّر : لننسَ برهةً شعوري نحوك وشعورك نحوي : ولكنني لن استطيع الغدر بك على نحو كهذا . لن اغدر بك على نحو كهذا مهما اسأتِ اليّ . فالدم دم كما اقول دائماً ولا مناص لنا منه . وليست المسألة مسألة مقلب قد يخطر ببال ولد في الثامنة من عمره ، انها جعل خالك ، خالك انت ، اضحوكة رجل يلبس رباطاً احمر . انهم يأتون الى بلدتنا ويدعوننا بالفلاّحين المغفلين ويربأون بأنفسهم عن المكوث فيها لصغرها عن حاجتهم . والواقع انه لا يعرف كم هو محق . وأما هي ، ان كان هذا شعورها ، فخير

لها ان تمضي في سبيلها وتريحنا من مشاكلها .

أعدت مضخة راسل وعدت فسقت سيارتي الى البلدة . ذهبت الى الحانوت وشربت زجاجة من الكوكاكولا وتوجهت على اثرها الى دائرة البرق . كانت البورصة قد أغلقت عند ٢١و١٢ ، هابطة بأربعين نقطة . أربعين مرة خمسة دولارات ، فاشترِ شيئاً بذلك ان استطعت ! وتقول ، لا بد لي منها لا بدّ لي منها فأقول يا للأسف عليك بالمحاولة مع أحد غيري ، فلا نقود عندي ؛ لقد انشغلت بأمور أخرى عن كسبها .

نظرتُ إليه طويلاً .

وقلت : « لعلك لم تسمع هذا النبأ ، فتندهش : سوق القطن تهمني . هل خطر لك هذا ببال ؟ »

فقال : « سعيت جهدي لتسليمك البرقية . ذهبت الى الدكان مرتين وخابرت بيتكم ، ولكن لم يعرفوا اين ذهبت. » قالها وهو ينبش دُرْجه.

قلت : « اية برقية ؟ » فناولني إياها . « متى وصلت هذه ؟ »

— « حوالي الساعة الثالثة والنصف . »

— « إنها الخامسة والعشر دقائق الآن . »

— « حاولت تسليمها ، فلم اعثر عليك . »

فقلت : « وهل ذلك ذنبي ؟ » وفتحتها ، لكي أرى الاكذوبة التي سيلفقونها عليّ هذه المرة . ساعدهم الله ان كانوا بحاجة الى المجيء عبر الفلوات الى مسيسبي ليسرقوا عشرة دولارات في الشهر . « بِـع » تقول البرقية . « ستضطرب السوق ، ميالة الى الهبوط . لا تفزع عند سماع تقرير الحكومة . »

فقلت : « ما تكاليف برقية كهذه ؟ » فأخبرني .

وقال : « دفعوها . »

قلت : « اذن فأنا مدين لهم بها . كنت أعلم محتواها . ارسل هذه البرقية وحصّل من المرسل اليه ، » قلت ذلك وأخذت استمارة ، وكتبت :

« اشتروا . السوق على وشك الانفجار . اضطراب بين الحين والحين للتلاعب على المزيد من القرويين المغفلين الذين لم يأتوا بعـد الى دائرة البرق . لا تفزعوا . » ثم قلت: « ارسلها وحصّل من المرسل اليه . »

نظر الى الرسالة ، ثم رفع بصره الى الساعة ، وقال : « اغلقت السوق منذ ساعة . »

فقلت : « وليس ذلك ايضاً بذنبي . فأنا لم أخترعها . أنا انمـا اشتريت القليل منها حين ظننت أن شركة البرق ستبقيني على علم مستمر بما يجري . »

— « إيراد التقرير يتم حال وصوله . »

— « تماماً . » قلت . « وفي ممفيس يعلنونه على لوح اسود كل عشر ثوان . » ثم قلت : « لقد كنت على مقربة سبعة وستين ميلاً منها بعد ظهر اليوم . »

فتأمل البرقية وقال : « أتريد ارسالها ؟ »

قلت : « لم أغيّر رأيي بعد » ، وكتبت الأخرى وأحصيت النقود . « وهذه أيضاً ، ان تثق من انك تستطيع تهجئة : ب ع . »

عدت ادراجي الى الدكان . واستطعت ان اسمع جوقة الموسيقى من أقصى الشارع . منع المسكرات شيء رائع . جاءتنا أيام كانوا يأتون فيها كل يوم سبت وليس لدى العائلة الا زوج واحد من الأحذية يلبسه صاحبنا القادم ، فيذهب الى مكتب القطار السريع ويتسلّم طرده ؛ أمّا الآن فإنهم يذهبون جميعاً الى السيرك حفاة الاقدام ، والتجار واقفون بأبوابهم كصف من النمور في قفص من الحديد ، يرقبونهم يمرّون . قال ايرل :

« ارجو أنه لم يكن امراً خطيراً ؟ »

فقلت : « ماذا ؟ » فنظر الى ساعته ، ثم سار الى الباب ونظر الى ساعة المحكمة . فقلت : « اجدر بك ان تقتني ساعة بدولار . لكي

لا تكلّفك كثيراً كلما اعتقدت انها تكذب عليك . »

فقال : « ماذا ؟ »

– « لا شيء . » قلت. « أرجو ألا أكون قد سبّبت لك حرجاً . »

قال : « لم يتراكم علينا الشغل ، فقد ذهب الجميع الى السيرك . لا بأس . »

قلت : « واذا كان هناك من بأس ، فافعل ما بدا لك . »

– « قلت لك لا بأس . »

– « سمعتك . واذا كان هناك من بأس ، فافعل ما بدا لك . »

فقال : « أتريد ان تترك العمل ؟ »

قلت : « ليس العمل لي . فليس لرغباتي دخل في الأمر . ولكن حذار من الاعتقاد بأنك تحميني بابقائي هنا . »

– « بوسعك ان تكون من أقـدر رجال الاعمال يا جاسن ، لو سمحت لنفسك بذلك . »

– « اني على الأقل انصرف الى شؤوني الخاصة وادع الناس وشأنهم . »

– « لست ادري لماذا تحاول ان تدفعني الى طردك من العمل . وانت تعلم ان باستطاعتك ان تتركني في اية لحظة شئت دون ان تتعكّر العلاقات بيننا . »

فقلت : « لعل ذلك هو السبب في انني لا اترك العمل . ما دمت اعنى بوظيفتي ، فذلك ما انقاضى راتباً عنه . » وذهبت الى المؤخرة وشربت ماء ثم خرجت الى الباب الخلفي . كان ايوب قد انتهى اخيراً من تركيب المعشّبات . والمكان هادىء ، وسرعان ما خفّ الألم في رأسي . وجعلت اسمعهم يغنون ، ثم شرعت الجوقة بالعزف من جديد . طيّب ، لينتزعوا كل درهم في المقاطعة ، اهو جلدٌ يسلخونه عن ظهري ؟ لقد فعلتُ ما بوسعي ، ومن يعش السنين التي عشتها ولا

يعرف متى يكفّ فهو غبيّ ، ليس الاّ . ولا سيما ان القضية ليست من شأني . فلو كانت ابنتي انا لاختلف الأمر ، لأنها حينئذ لن تجد من الوقت متسعاً لذلك ، لانها ستضطر الى العمل كي تطعم عدداً من المقعدين والمعتوهين والزنوج ، ولأن الحياء سيمنعني عن المجيء بأحد الى داري . فلي من احترام الناس ما يمنعني . اني رجل ، ولي قدرة على التحمّل . فذاك لحمي ودمي وليرُني لون عينه كل من يجرؤ على مس كرامة امرأة هي صديقة لي وهل يفعلها الا هؤلاء النسوة الصالحات قبحهن الله والا فأين المرأة الصالحة المترددة على الكنيسة التي تضاهي لورين امانة واستقامة ، مومساً كانت ام غير مومس . وكما اقول لو اردتُ الزواج لطار عقلكِ فلا تنكري فقالت اريد لك السعادة والحياة العائلية لا الكدح وارهاق النفس من أجلنا . ولكنني راحلة عما قريب فلك عندئذ ان تتزوج على انك لن تجد المرأة التي هي اهل لك فقلت بل سأجدها . ولكنك ستنتفضين في قبرك عندها وتنهضين منه وأنتِ ادرى . لا ، شكراً ، ان لديّ الآن ما يكفيني من نسوة اعتني بهن ولو تزوجت لاكتشفت في الأغلب ان زوجتي نطاطة بلهاء . وهذا كل ما ينقصنا في هذه الاسرة .

كانت الشمس الآن تغيب وراء الكنيسة ، والحمامات تطير يمنة ويسرة حول القبة ، وحالما توقفت الجوقة عن العزف سمعت هديلها . لم تنقض اربعة اشهر على عيد الميلاد ، وهذه هي قد تكاثرت وغزرت . وأغلب الظن ان القس ولتهول قد بدأ الآن يضيق بها ذرعاً . فكأننا نطلق النار على النـــاس ، تجده يخطب ويعظ بل ويمسك ببندقية المرء حينما تطير فوقنا . فيتحدث عن السلام الذي على الارض والمسرة التي بالناس وما من سنونوة تسقط على الارض . وما همّه ان تكاثرت وغزرت ، انه لا يعمل شيئاً ، ولا تهمّه ما الساعة . لا يدفع ضريبة ولا يضطر الى رؤية نقوده تصرف كل سنة على تنظيف ساعة المحكمة لئلا تكفّ عن

سيرها . خمسة واربعون دولاراً دفعوها لأحدهم لكي ينظفها . وقد أحصيتُ اكثر من مئة حمامة نصف فاقسة على الارض . يدهشني انها لا تبارح البلدة . وأحمد الله ان ليس لي من الروابط اكثر مما للحمام . إي والله .

ها هي الجوقة تعزف من جديد ، لحناً عالياً سريعاً ، كأنهـــا على وشك الانتهاء . فايطمئنوا الآن . ولعل لديهم الآن من الموسيقى ما يكفي لتسليتهم وهم يعودون راكبين مسافة اربعة عشر او خمسة عشر ميلاً الى بيوتهم فينزعون العدّة في الظلام عن دوابهم ويطعمونها ويحلبون الأبقار . وما عليهم الا ان يصفروا الانغام ويرووا النكات للدواب في الحظيرة ، وعندها يستطيعون ان يحسبوا مبلغ ما كسبوه بعدم اصطحاب الدواب ايضاً الى السيرك . فيحسبون ان كان للواحد منهم خمسة اولاد وسبعة بغال ، فقد كسب صافياً ربع دولار بأخذ عائلته الى السيرك . كذا بالضبط . وجاء إيرل يحمل طردين .

وقال : « هذه مواد اخرى يجب ارسالها . أين العم ايوب ؟ »

قلت : « ذهب الى السيرك ، فيما اعتقد . الا اذا كنت تراقبه . »

قال : « انه لا يغادر المكان خلسة . وبوسعي الاعتماد عليه . »

قلت : « انك تقصدني بذلك . »

قال : « تلك جوقة تحسن العزف . ولكن أما آن لها ان تنتهي ؟ »

قلت : « لعلها تريد ان تقضي ليلتهـــا هناك . » كانت عصافير السنونو قد بدأت ، وجعلت اسمعها وهي آخذة بالاحتشاد في الاشجار في فناء المحكمة . وبين الحين والحين ينطلق سرب منها ويحوّم ويسفّ على مرأى منا فوق السطح ، ثم يبتعد . انها في رأيـي مصدر ازعاج كبير ، كالحمام . فانت لا تستطيـــع حتى الجلوس في فناء المحكمة بسببها . فما تكاد تجلس حتى تجد انها فشتْ ! على قبعتك . ولكنها تتطلّب مليونيراً يقوم بنفقات رميها بالبندقية بمعدل خمسة سنتات لكل رمية .

فلو وضعوا شيئاً من السّم في ذلك الميدان ، لتخلصوا منها في يوم واحد ، فالتاجر الذي يعجز عن منع بضاعته عن الانسراح في طـول الميدان وعرضه ، خير له ان يتعامل بشيء غير الدجاج ، بشيء لا يأكل ، كالمحاريث أو البصل . واذا لم يُبْقِ المرء على يقظة كلابه ، فهو لا يريد تجارته او انه غير جدير بها . وكما اقول ، ان كانت الاعمـال كلها تدار في البلدة كأنها ليست إلا اعمالاً ريفيّة ، فلن تكون البلدة في النهاية إلاّ بلدة ريفية .

– « وما الفائدة ان انتهت الجوقة ؟ » قلت . « لا بد لهم مـن تهيئة عرباتهم والخروج بها ليبلغوا بيوتهم عند منتصف الليل ، على كل حال . »

قال : « انهم يجدون متعة في ذلك . ولم لا ينفقون قليلاً من النقود على سيرك من هذا القبيل بين حين وآخر ؟ فالفلاح على التلال يعمـل ويكدح ولا يحصل الا على اقلّ من القليل . »

فقلت : « وهل هناك قانون يحتّم عليه الزراعة في التلال ، او في اي مكان آخر ؟ »

قال : « اين نكون انا وانت لولا الفلاحون ؟ »

قلت : « أمّا انا فأكون في البيت . مضطجعاً وعلى رأسي كيس من ثلج . »

قال : « صداعك هذا يتكرر اكثر ممـا ينبغي . لماذا لا تفحص اسنانك فحصاً جيداً ؟ هل نظر فيها جيداً هذا الصباح ؟ »

قلت : « من ؟ »

– « قلت إنك راجعت طبيب الانسان هذا الصباح . »

قلت : « هل تمانع في شعوري بصداع اثناء الدوام ؟ اهـذا ما يقلقك ؟ » جعل الناس يملأون الزقاق ، قادمين من حفلة السيرك .

فقال : « ها هم قادمون . فالافضل ان اذهب الى الواجهـة . »

وذهب . من الغريب ، مهما تكن علتك ، ان ينصحك الرجل بفحص اسنانك وتنصحك المرأة بالزواج ، ولكن لا يشير عليك بأفضل السبل في ادارة اعمالك إلاّ رجل اخفق في كل ما فعل . كهؤلاء الاساتذة الجامعيين الذين لا يملكون زوجاً سليماً من الجوارب ويخبرونك كيف تجمع مليون دولار في عشر سنين ، والمرأة التي عجزت حتى عن ايجاد الزوج تخبرك كيف تنشىء عائلتك .

جاء الشيخ ايوب بالعربة . وبعد قليل فرغ من لف السيور حـــول مرتكز السوط .

فقلت : « ها ، هل كانت الحفلة جميلةً ؟ »

قال : « لم اذهب بعد . ولكن اذا اراد احد ان يقبض عليّ هذه الليلة وجدني في تلك الخيمة ، ما في ذلك شك . »

قلت : « لا أصدق انك لم تذهب . لقد تغيبت منذ الساعة الثالثة . والسيد إيرل جاء هنا قبل لحظات يبحث عنك . »

قال : « كنت مشغولاً بعملي . والسيد إيرل يعرف اين ذهبت . »

قلت : « لك ان تخدعه . ولن أشي بك . »

فقال : « اذن فهو الرجل الوحيد الذي احاول ان اخدعه هنا . ولماذا أضيّع وقتي في خداع رجل لا يهمني ان رأيته أو لم اره مساء يـــوم السبت ؟ لن أحاول خداعك انت مثلاً . »

قال : « شطارتك تقهرني . اي والله . » قال ذلك وهـــو يتظاهر بكثرة الشغل ، واضعاً خمسة او ستة طرود صغيرة في العربة . « شطارتك تقهرني . ليس في هذه البلدة رجـــل يضاهيك شطارة . وانك لتخدع رجلاً له من الشطارة ما يعوقه حتى عن مجاراة نفسه . » قالها وصعد الى العربة وحلّ الرسن .

— « ومن ذلك ؟ » قلت .

قال : « ذلك هو السيد جاسن كمبسن تحرّك ، يا دان ! »

كانت احدى العجلات على وشك الانفلات . فتتبّعته بعيني لأرى ان كان سيخرج من الزقاق قبل ان تنفلت . ما عليك الا ان تعطي اية عربة لزنجي ، مهما كانت . وقد قلت ان تلك الخضخاضة قذى في العين ، ولكنكم ستبقونها واقفة هناك في مأوى العربات مئة سنة أخرى لا شيء إلاّ ليستطيع ذلك الغلام ان يسوقها الى المقبرة مرة كل اسبوع . وقلت انه ليس الرجل الوحيد في هذه الدنيا الذي يتعين عليه ان يفعل شيئاً لا يرغب فيه . فلو ترك الأمر لي لأجبرته على ركوب تلك السيارة كانسان متحضّر وإلاّ فليمكث في البيت . وما الذي يعرفه عن اين يذهب وماذا يركب ، ونحن نُبقي في البيت عربة وحصاناً لكي يتمتع بنزهته بعد الظهر من كل أحد ؟

وهل يهمّ ايّوب انفلتت العجلة ام لم تنفلت ، ما دام لا يضطر الى السير طويلاً حين يعود ؟ فكما اقول إن مكانهم الأوحد هو الحقل ، حيث يجبرون على العمل من طلوع الشمس الى غروبها . فهم لا يتحملون الرفاه او العمل السهل . دع الواحد منهم يقيم مدة مع البيض تجد أنه اصبح لا يستحق حتى القتل . انهم ليتفاصحون عليك في العمل امام عينيك ، كرسكوس الذي كانت الغلطة الوحيدة التي ارتكبها في حياته هي انه اهمل شأنه يوماً فمات . ينكاسلون ويسرقون وتزداد قحتهم عليك يوماً بعد يوم الى ان تجد نفسك ذات يوم مكرها على ازهاق روحهم بعصا غليظة . على كل ، فالدكان دكان إيرل . ولو كنت مكانه لما سمحت بأن يكون عنوان عملي في طول البلدة وعرضها زنجي رجّاف هَرِم وعربة تخال انها كلما انعطفت ستهوي حطاماً .

كانت أشعة الشمس الآن تمتد عالياً في الفضاء ، بينما جعل الظلام يشتد في الداخل . فذهبت الى الواجهة ، ووجدت ان الميدان قد اقفر ، وإيرل في المؤخرة يغلق الخزنة ، ثم جعلتْ الساعة تدقّ .

وقال : « اقفل انت الباب الخلفي . » فذهبت واقفلته ثم عدت .

فقال : « اتصور انك ذاهب الى حفلـــة السيرك الليلة . انا اعطيتك تينك البطاقتين ، اليس كذلك ؟ »

قلت : « بلى . اتريدني ان ارجعهما اليك ؟ »

قال : « كلا ، كلا . انما نسيت ان كنت اعطيتك اياهما ام لا . من السخف ألا نستفيد منهما . »

اقفل الباب وقال : « طاب مساؤك » ومضى . كانت عصافير السنونو ما زالت في ضجيجها في اعالي الاشجار ، غير ان الميدان خالٍ فيما عدا بعض السيارات . وعند مدخل الحانوت وقفت سيارة فورد ولكنني لم انظر اليها . فأنا اعرف حدودي عندما اتخم من شيء ما . إني لا امانع في مساعدتها ، ولكنني اعرف حدودي . يخيّل اليّ ان بوسعي ان اعلّم لستر سياقتها ، فيتمكنون حينئذ من ملاحقتها ان شاءوا طيلة ساعات النهار وابقى انا في البيت لألاعب بن .

دخلت واشتريت سيجارين . ثم قلت فلأتناول جرعة اخرى للصداع تيمناً ، ووقفت اتحدث الى الجماعة برهة .

قال ماك : « لا ريب انك تراهن على « اليانكيز » * هذه السنة . »

قلت : « ولماذا ؟ »

قال : « للحصول على العَلَم . ليس في « الاتحاد » فريق يستطيع أن يغلبهم . »

قلت : « انك مخطيء . لقد استنفدوا قواهـــم . أتحسب ان هناك فريقاً يستطيع البقاء محظوظاً الى الابد ؟ »

— « انا لا اسمي ذلك حظاً . »

— « لن اراهن عـــلى فريق يلعب فيه ذلك الثقيل ، روث . حتى لو تأكدت من انه سيكون الغالب . »

---

* الحديث هنا على مباريات « البيسبول » التي تتمتع بشعبية هائلة في الولايات المتحدة . و « اليانكيز » (الشماليون) اسم فريق من فرق « الاتحاد » . (المترجم)

فقال ماك : « صحيح ؟ »

قلت : « بامكاني ان اذكر لك عشرة رجال في ايّ من الاتحادين أهمّ منه وأحسن . »

— « ما الذي يجعلك تعادي روث ؟ »

قلت : « لا شيء مطلقاً . حتى صورته لا يروق لي ان انظر اليها . » بعد ذلك خرجت ، وقد بدأت الانوار تضاء ، وجعل الناس يطرقون السبيل الى بيوتهم . اما عصافير السنونو فانها احياناً لا تهجع حتى انتشار ظلام الليل . وليلة اضاءوا الانوار الجديدة حول مبنى المحكمة استيقظت العصافير وراحت تحوم وتخبط الانوار طيلة الليل . وقد فعلت ذلك ليلتين او ثلاثاً ، وذات صباح اختفت جميعها . وبعد ذلك بشهرين عادت كلها ثانية .

عدت في سيارتي الى البيت . والانوار فيه لم تضأ بعد ، ولكنهم يتطاعون جميعاً من النوافذ ، ودلزي تتشكى وتلغو في المطبخ كأن الطعام الذي عليها ان تبقيه حاراً هو طعامها هي . ولو سمعتها لظننت ان ليس في الدنيا إلا عشاء واحد ، وهو العشاء الذي اضطُرَّت الى إبقائه بضع دقائق من اجلي . لحسن الحظ جئت هذه المرة الى البيت دون ان ارى بن وذلك الزنجي متعلقين بالبوابة أشبه بدب وقرد في قفص واحد . ما تكاد الشمس تشرف على الغروب حتى تراه منطلقاً نحو البوابة كبقرة نحو حظيرتها ، متعلقاً بها وهو يهزّ برأسه ويئنّ لنفسه . أرأيت من يتحرّق للعقاب ويشتهيه ؟ لو أن ما حدث له لسوء تصرّفه لدى البوابات المفتوحة قد حدث لي ، لما اردت ان ارى بوابة اخرى في حياتي . وكثيراً ما اتساءل ترى ما الذي يفكرّ به وهو متشبث بتلك البوابة ، يرقب البنات عائدات الى البيت من المدرسة ، ويحاول الحصول على أمر يكاد يعجز عن ان يتذكر انه لا يريده ولا يملك ان يريده . وما الذي يفكرّ به كلما نزعوا عنه ثيابه فنظر الى نفسه وراح يبكي

كعادته . ولكن ، كما أقول ، لم يعطوه نصف ما يستحق . فأقول ، إني اعرف ما الذي تحتاجينه أنت ، انك بحاجـة الى ما فعلوه بن ، فتحسنين السلوك عندها . وان كنت تجهلين ما الذي فعلوه بن ، فاسألي دلزي تخبرك .

كانت غرفة امي مضاءة . فأوقفت السيارة في مكانها ودخلت المطبخ . فوجدت لستر وبن .

قلت : « اين دلزي ؟ اتهيء العشاء ؟ »

فقال لستر : « انها فوق ، مع الست كارولاين . شجار مستمر منذ ان رجعت الآنسة كونتن الى البيت . وامي بينهما تمنعهما عـن الخصام . هل وصل ذلك السيرك يا سيد جاسن ؟ »

قلت : « نعم . »

قال : « لقد ظننت انني سمعت الفرقة تعزف . » ثم قال : « ليتني اذهب لاراه . لو كان لديّ ربع دولار فقط . »

ودخلت دلزي فقالت : « هل عدت ؟ ما الذي كنت تفعله هذا المساء ؟ انت اعلم بكثرة ما لديّ من شغل ، فلمَ تتأخر عن الموعد ؟ »

قلت : « ربما لانني ذهبت الى السيرك . هل العشاء جاهز ؟ »

— « وما الذي تفعله في السيرك ؟ » قالت دلزي . « ادخل المنزل واجلس مكانك . ولا تصعد الى فوق وتبدأ المعركة من جديد . »

فقلت : « ما الأمر ؟ »

— « جاءت كونتن منذ قليل وقالت انك رحت تلاحقها طيلة المساء فثارت عليها الست كارولاين . لم لا تتركها وشأنها ؟ الا تستطيع ان تقيم في نفس المنزل مع ابنة اختك دون شجار ؟ »

قلت : « كيف اشاجرها وانا لم ارها منذ الصباح ؟ وما الذي تدعي انني فعلته هذه المرة ؟ انني جعلتها تذهب الى المدرسة ؟ شيء مؤسف حقاً . »

— « التفت الى امورك ودعها وشأنها ، » قالت دلزي : « سأعنى بها ان تسمحا لي انت والست كارولاين . فاذهب الى الغرفة ولا تزعج احداً الى ان اهيء لك العشاء . »

وقال لستر : « لو ان لديّ ربعاً ، لذهبت الى ذلك السيرك . »

فقالت دلزي : « ولو ان لديك جناحين ، لطرت الى السماء . لا اريد ان اسمع كلمة اخرى عن ذلك السيرك . »

فقلت : « هذا يذكّرني بأن لديّ بطاقتين اعطوني اياهما . » واخرجتهما من سترتي .

قال لستر : « اتريد ان تستعملهما ؟ »

قلت : « انا ؟ من المستحيل حتّى لو نقدوني عشرة دولارات فوقها . »

فقال : « اعطني احداهما ، يا سيد جاسن . »

— « ابيعك احداهما . ما رأيك ؟ »

— « لا نقود عندي . »

فقلت : « آسف اذن . » وهممت بالخروج .

فقال : « اعطني احداهما ، سيد جاسن . لن تحتاج كلتيهما . »

فقالت دلزي : « سدّ فمك . الا تعلم انه لن يعطي شيئاً بدون مقابل ؟ »

فقال : « كم تريد لقاء واحدة ؟ »

قلت : « خمسة سنتات . »

قال : « ليس عندي هذا المبلغ . »

قلت « كم عندك ؟ »

قال : « ولا فلس . »

قلت : « طيّب . » ومضيت .

قال : « سيد جاسن . »

فقالت دلزي : « ألن تسكت ؟ إنه يثيرك عن عمد . فهو ينوي استعمال كلتا البطاقتين . تفضل يا جاسن ، واتركه وحده . »

— « انا لا اريد أياً منها ، » قلت ذلك وعدت الى الموقد . « وقد جئت هنا لاحرقها . الا اذا اردت ان تشتري احداهما بخمسة سنتات ؟» قلت ، وانا انظر اليه وارفع غطاء الموقد .

فقال : « ليس عندي هذا المبلغ . »

— « طيّب ، » قلت ، واسقطت احداهما في الموقد .

— « اسمع يا جاسن ، » قالت دلزي . « اما تستحي ؟ »

وقال لستر : « سيد جاسن ، ارجوك يا سيدي . سأركب لك الاطارات كل يوم لشهر كامل . »

قلت : « اني بحاجة الى النقود . خذها بخمسة سنتات . »

— « هس يا لستر ، » قالت دلزي ودفعته الى الخلف بعنف . وقالت : « هيا ، اسقطها ، هيا ، اسقطها وأنْه الأمر . »

قلت : « خذها بخمسة سنتات ، »

قالت دلزي : « هيا ، لا نقود لديه . هيا ، اسقطها . »

— « طيّب ، » قلت وأسقطتها في الموقد ، واغلقته دلزي .

وقالت : « رجل كبير مثلك ! اخرج من مطبخي . » وقالت للستر : « هس . لا تجعل بنجي يبدأ من جديد . سأحصل لك على ربع من فروني هذه الليلة ، فتستطيع الذهاب مساء غد . هس ، لا بكاء ، ارجوك . »

ذهبت الى غرفة الجلوس . ولم استطع ان اسمع شيئاً من الطابق العلوي . ففتحت الصحيفة . وبعد برهة جاءني بن ولستر ، فتوجه بن نحو المكان الداكن من الحائط حيث كانت تعلّق المرآة فيما مضى ، وجعل يفرك يديه عليه ويريل ويئن . اما لستر فأخذ يضرب النار بالمحراك .

فقلت : « ما الذي تفعله ؟ لسنا بحاجة الى النار هذه الليلة . »
قال : « اني احاول تهدئته . وموسم الفصح بارد دائماً . »
قلت : « ولكننا لسنا في موسم الفصح . دعها وشأنها . »
فوضع المحراك في مكانه واخذ الوسادة من كرسي امي واعطاها لبن ، فقبع امام الموقد وهجع .
رحت اقرأ الصحيفة ، ولم اسمع صوتاً من الطابق العلوي حين دخلت دلزي علينا وارسلت بن ولستر الى المطبخ وقالت ان العشاء مهيّأ .
قلتُ : « حسناً . » فخرجت دلزي ، في حين بقيت مكاني اقرأ الجريدة . وبعد قليل سمعت دلزي تطلّ من الباب وتقول :
« لماذا لا تأتي وتأكل ؟ »
قلت : « اني في انتظار العشاء . »
قالت : « انه على المائدة . الم أقل لك ذلك ؟ »
قلت : « صحيح ؟ العفو . ولكني لم اسمع أحداً نازلاً من فوق . »
قالت : « لن تنزلا . فتعال وكل ، لكي اتمكن من أخذ شيء من الطعام لهما . »
قلت : « هل هما مريضتان ؟ ما الذي قاله الطبيب : أجدري ، لا سمح الله ؟ »
قالت : « هيا يا جاسن ، لكي انتهي . »
— « طيّب ، » قلت وانا ارفع الصحيفة من جديد . « اني في انتظار العشاء الآن . »
وجعلت اشعر بها وهي ترقبني من الباب ، وانا مستمر في مطالعة الصحيفة .
وقالت : « ولمَ هذه الاسئلة ، وأنت اعلم بمنغّصاتي على كل حال ؟ »
فقلت : « ان كانت امي اشد مرضاً مما كانت عليه عندما نزلت

للغداء ، فلا بأس . ولكن ما دمت اشتري الطعام لمن هم اصغر مني سناً ، فعليهم ان ينزلوا الى المائدة ويأكلوه . اخبريني حين يتهيأ العشاء . »
قلت ذلك ، وعدت الى الجريدة . وسمعتها تصعد الدرج ، تجرجر قدميها وتشخر وتئن كأنهما منتصبتان الى الأعلى ومنفرجتان متراً الواحدة عن الاخرى . وسمعتها على باب امي ، ثم سمعتها تنادي كونتن ، كأن الباب مقفول ، ثم عادت الى غرفة امي فخرجت امي لتخاطب كونتن . وبعد ذلك نزلن الدرج . وانا اطالع الصحيفة .

عادت دلزي الى الباب وقالت : « هيّا ، لانك تستطيع ان تبتكر شيطانيات جديدة . وانت مصمّم عليها هذه الليلة . »

فذهبت الى غرفة الطعام ، ووجدت كونتن جالسة مطأطئة الرأس ، وقد صبغت وجهها مرة اخرى . وبدا انفها كعازل من الخزف الصيني .

قلت لامي : « يسعدني ان صحتكِ ساعدتك على النزول . »

فقالت : « نزولي الى المائدة اقلّ ما ينبغي عليّ فعله من اجلك مهما كانت صحتي . وأنا اعرف ان الرجل الذي يشتغل طوال نهاره يود ان يرى نفسه محاطاً بعائلته حول مائدة العشاء . اني اريد ان ارضيك . ولكن لشد ما اتمنى لو انك وكونتن تنسجمان . اذن لهانت الأمور عليّ . »

قلت : « اننا في اجمل انسجام . وانا لا اعارض في بقائها في غرفتها المقفولة طيلة النهار ان شاءت. ولكنني لن اتحمل كل هذا الحرد والغضب في مواعيد الطعام . اعرف ان مطلبي هذا منها عسير ، ولكن هذه طريقتي في بيتي . اعني في بيتك . »

قالت امي : « انه بيتك ، فأنت ربه الآن . »

لم ترفع كونتن رأسها . اما انا فأدرت الطعام في الاطباق ، فجعلت تأكل .

فقلت : « هل حصلتِ على قطعة لحم جيدة ؟ ان لم تحصلي ، سأحاول ان اجد لك قطعة افضل . »

فلم تجب .
قلت : « سألتك هل حصلت على قطعة لحم جيدة ؟ »
قالت : « ماذا ؟ نعم . لا بأس بها . »
قلت : « اتريدين مزيداً من الأرز ؟ »
قالت : « كلا . »
قلت : « لا ، اسمحي لي بأن اعطيك قليلاً منه بعد . »
قالت : « لا اريد مزيداً . »
قلت : « لا شكر على واجب . »
فقالت امي : « هل زال صداعك ؟ »
قلت : « صداعي ؟ »
قالت : « خشيت عليك من الصداع عندما جئت الى البيت بعد الظهر . »
قلت : « آ ، لا ، لم يصبني اي صداع . انشغلنا بعد الظهر فنسيت أمره . »

— « وهل هذا هو السبب في تأخرك اليوم ؟ » قالت امي ، فرأيت ان كونتن تصيخ بسمعها . فنظرت اليها ، والشوكة والسكين ما زالتا في يدها ، غير اني لقفتها وهي ترميني بنظرة ، ثم عادت وركّزت عينيها في طبقها . فقلت :

« كلا . انما اعرت سيارتي لأحدهم حوالي الساعة الثامنة واضطررت الى الانتظار الى ان عاد بها . » وانصرفتُ الى الأكل برهة .

قالت امي : « من كان ذلك ؟ »

قلت : « احد هؤلاء العاملين في السيرك ، يبدو ان زوج اخته خرج في سيارة بصحبة احدى نساء البلدة ، فراح يطارده . »

لم تأت كونتن بحركة ، وهي تمضغ .

قالت امي : « يجب الا تعير سيارتك لمثل هؤلاء الناس ، انك تبالغ

بالتكرم بها . ولهذا تراني لا اطلبها منك ان استطعت . »
فقلت : « هذا ما شعرت به انا ايضاً عندما تأخر . ولكنــه عاد اخيراً . وقال انه وجد ما كان يبتغيه . »
قالت امي : « ومن كانت المرأة ؟ »
قلت : « سأخبرك فيما بعد ، لا اود الخوض في مثل هذه المواضيع امام كونتن . »
كانت كونتن قد توقفت عن الأكل ، وجعلت بين الحين والآخر تجرع جرعــة من الماء ، جالسة في مكانها تفتّت قطعة من البسكوت ووجهها منكفىء على طبقها .
فقالت امي : « اجل . لا شك ان النساء اللواتي يبقين مثلي محتجبات في بيوتهن لا يعرفن شيئاً مما يجري في هذه البلدة . »
قلت : « بالضبط . »
قالت امي : « ما اشد ما تختلف حياتي عن كل ذلك ، واني لأحمد الله على انني لا اعرف شيئاً عن مثل هذه الشرور والموبقات . ولا اريد ان اعرف ، اني لست كمعظم الناس . »
لم اضف الى ما قلت شيئاً . اما كونتن فقد ظلت قابعة في مكانها تفتت قطعة البسكوت الى ان فرغت من الأكل . ثم قالت دون ان تنظر الى احد :
« أأذهب الآن ؟ »
فقلت : « ماذا ؟ لا شك . هل كنت في انتظارنا ؟ »
فنظرت اليّ ، وقد فتتت قطعة البسكوت كلها ، ولكن يديها في حركة مستمرة كأنهما ما زالتا تفتتان ، وبدت عيناها كأنهما في مأزق ، ثم بدأت تعضّ شفتها كأنها ستسممها بما عليها من رصاص احمر .
وقالت : « جدتي ، جدتي — »
فقالت : « اتريدين شيئاً آخر تأكلينه ؟ »

قالت : « لماذا يعاملني على هذا النحو ، يا جدتي ؟ انا ما اسأت إليه قط . »

قالت امي : « اريد من كليكما ان تنسجما معاً ، لم يبق غيركما الآن ، واريد منكما انسجاماً اكثر . »

قالت كونتن : « الذنب ذنبه . انه لا يدعني وشأني ، كما يجب . فاذا كان لا يريدني هنا ، فلم لا يسمح لي بالعودة الى — »

قلت : « كفى ! ولا كلمة اخرى ! »

قالت : « اذن لم لا يدعني وشأني ؟ انه — انه — »

قالت أمي : « انه لك اقرب ما يكون الى الأب ، خبزه نأكل انا وانت . فمن حقه ان يتوقع الطاعة منك . »

قالت : « الذنب ذنبه ، » وطفرت من مقعدها . « انه يدفعني الى العصيان . فلو انه — » والقت علينا نظرة ، وعيناها في مأزق ، وهي تنفض ذراعيها نفضاً على جنبيها .

فقلت : « لو اني ماذا ؟ »

قالت : « مهما فعلتُ فالذنب ذنبه . ان كنت فاسدة ، فما ذلك الا لانني اضطررت الى الفساد . انتَ الذي دفعتني اليه . ليتني اموت . ليتنا نموت جميعاً . » ثم ركضت . وسمعناها تصعد الدرج ركضاً ، ثم سمعنا باباً يُصفق .

فقلت : « ذلك أول كلام معقول تنطق به في حياتها . »

قالت امي : « لم تذهب الى المدرسة اليوم ، »

قلت : « كيف عرفت ؟ هل نزلت الى البلدة ؟ »

— « اني اعلم ، وكفى . ليتك كنت اكثر لطفاً معها . »

— « لو كنت كذلك لكان عليّ ان ارتّب امر رؤيتها اكثر من مرة في اليوم . وعليك ان تحضريها الى المائدة عند كل وجبة . وعندها اتمكن من اعطائها قطعة لحم اضافية مع كل اكلة . »

ــ « ثمة اشياء صغيرة بوسعك ان تفعلها . »

ــ « كأن اغضّ النظر عندما تطلبين اليّ ان اتأكد من ذهابها الى المدرسة مثلاً ؟ »

فقالت امي : « لم تذهب الى المدرسة اليوم . اني اعلم ذلك . وهي تقول انها خرجت في السيارة مع احد الشباب بعد ظهر اليوم فلحقتَ بها . »

قلت : « وكيف استطعتُ ذلك ، وسيارتي معارة لشخص آخر ؟ وسواء أذهبت إلى المدرسة ام لم تذهب ، فقد انقضى الأمر ، فاذا كان لا بد لك من القلق بهذا الصدد ، فوفري على نفسك القلق حتى يوم الاثنين القادم . »

قالت : « اردتكما ان تنسجما ، ولكنها ورثت خصال العناد كلها . وخصال كونتن ايضاً . وقد تساءلت في حينه عن الحكمة في تسميتها بذلك الاسم بعد ان ورثت ما ورثت عن امها . واني لأعتقد احياناً انها حكم كادي وكونتن عليّ . »

فقلت : « الله ! ما اروع تفكيرك . لا عجب انك امرضت نفسك هذه السنين كلها . »

فقالت : « ماذا ؟ لا افهم . »

قلت : « هذا ما ارجوه . هناك الكثير مما يغيب عن المرأة الفاضلة ، وغياب ذلك عنها خير لها . »

قالت : « كذلك كان كلاهما . وكلما حاولت تقويمها تضامنا مع ابيك ضدي . وكان هو يردد دائماً انهما في غنى عن السيطرة ، وانهما يعرفان معنى النقاوة والأمانة ، وهما كل ما يأمل الانسان في ان يُلقّنه. فأرجو ان يكون الآن راضياً عن كل ما حدث . »

فقلت : « لديك بن تعتمدين عليه . فأبشري . »

قالت : « لقد اخرجوني عن عمد وقصد خارج نطاق حياتهم . وفي

كل شيء كان كونتن وكادي هما الأهمّ. فكانوا في تآمر دائم عليّ وعليك انت ، وان كنت ايامئــذ اصغر من ان تدرك ذلك . فكانوا يعتبروننا انا وانت غرباء عنهم ، وكذلك خالك موري . ولطالما قلت لابيك انه من الخطــأ ان يسمح لها بتلك الحرية الزائدة ، وبالبقاء معاً اكثر مما ينبغي. فلما بدأ كونتن بالذهاب الى المدرسة اضطررنا الى ارسالها في السنة التالية هي ايضاً ، لتكون معه . ولم تطق يوماً ان ترى احدكم يفعل شيئاً تعجز هي عنه . غروراً منها ، غروراً وكبرياء زائفة . وبعد ذلك ، حين بدأت مشكلاتهـا ادركتُ ان كونتن سيشعر ان عليه ان يأتي بسوء يضاهي سوءها . ولكنني ما كنت لاعتقد انه سيكون من الانانية بحيث — لم يخطر ببالي انه — »

فقلت : « لعله عرف ان الوليد سيكون بنتاً ، وان ثالثة من ضربهما ستكون اكثر مما يطيق تحمّله . »

قالت : « كان بامكانه ان يسيطر عليها لو بقي حيّاً . فقد كان يبدو انه الشخص الوحيد الذي تكن له كادي اي اعتبار . ولكن من يدري ، لعل ذلك ايضاً جزء من الحكم عليّ . »

فقلت : « نعم . من المؤسف جداً انني لم أمت انا بدلاً منه . »

قالت : « تقول هذا لتؤلمني . ولكنني استحق ذلك . حين شرعوا في بيع الارض لكي نرسل كونتن الى هارفرد قلت لابيك انه يجب ان يضمن لمستقبلك ما يضمنه لاخيك . وبعد ذلك عندما عرض عليّ هربرت ان يعينك في المصرف قلت ، لقد ضمنّا مستقبلاً لجاسن ، فلما جعلت النفقات تتراكم واكرهت على بيع اثاثنا وما تبقى من المرعى ، كتبت اليها رسالة في الحال لانني قلت انها ستدرك انها هي وكونتن قد نالا سهمهما بل وجزءاً من سهم جاسن ، فخليق بها الآن ان تعوّض عليه . وظننت انها ستفعل ذلك احتراماً لابيها ، وكنت مطمئنة لذلك في حينها . ولكن ما انا الا عجوز مسكينة ، رُبيتُ على الاعتقاد بان الناس يحرمون

انفسهم من اجل من هم من لحمهم ودمهم . والذنب ذنبي . وقد كنت محقاً في لومك اياي . »

— « اتحسبين انني بحاجة الى معونة من احد لأقف على قدميّ ناهيك عن امرأة لا تستطيع ان تقول من هو ابو طفلتها ؟ »

فقالت : « جاسن . »

قلت : « لا بأس . لم اقصد ذلك . طبعاً لا . »

— « امكن ذلك ، بعد كل ما قاسيت . »

— « طبعاً لا . لم اقصد ذلك . »

— « ارجو ان تعفيني من مثل هذا القول على الأقل . »

قلت : « بالتأكيد ، انها شديدة الشبه بهما ، ولن تشك في ذلك . »

— « لن استطيع تحمل هذا . »

— « اذن كفاك تفكيراً به . هل ازعجتك مرة اخرى بشأن الخروج ليلاً ؟ »

— « كلا . فقد اقنعتها بأن ذلك لصالحها وانها يوماً ما ستشكرني عليه . وهي تأخذ كتبها معها وتنكبّ على الدراسة بعد ان اقفل الباب. وأرى نورها مضاءً حتى الحادية عشرة احياناً . »

فقلت : « وكيف تعرفين انها منكبة على الدراسة ؟ »

قالت : « وماذا تفعل غير ذلك وهي هناك وحدها ؟ هي في السابق ما كانت تطالع قط . »

قلت : « لن تعرفي . واشكري ربك لانك لن تعرفي . » وما نفع القول الصريح في ذلك ؟ لن تكون النتيجة الا بكاءها عليّ من جديد .

سمعتها تصعد الدرج . ثم نادت كونتن ، فقالت كونتن : ماذا ؟ من خلال الباب . فقالت امي : « تصبحين على خير . » ثم سمعت المفتاح يدار في القفل ، وعادت امي الى غرفتها .

عندما انتهيت من تدخين سيجاري وصعدت ، كان النور ما يزال

مضاءً . ورأيت ثقب المفتاح خالياً ، ولكن لم اسمع اي صوت. كانت تدرس في صمت . لعلها تعلمت ذلك في المدرسة . فقلت لأمي « تصبحين على خير » ومضيت الى غرفتي وأخرجت الصندوق وأحصيت ما فيه ثانية . وكنت اسمع « الخصيّ الامريكيّ الأعظم » (١) يشخر كآلة النجارة . وقد قرأت في مكان ما انهم يفعلون ذلك بالرجال لكي تصبح اصواتهم كأصوات النساء . ولكن لعله لم يدر ما الذي قد فعلوه به . ولا اظن انه كان يدري ما الذي يحاول ان يفعله ، ولا السبب في ان السيد برجس ضربه على رأسه باحدى خشبات السياج فأغمي عليه . ولو انهم ارسلوه الى جاكسن وهو تحت مفعول الأثير ، لما عرف الفرق . ولكن امراً كذاك اسهل من ان يخطر ببال احد من آل كمبسن . لا تعقيد فيه وهم يعشقون التعقيد . راحوا يتريثون الامر الى ان انطلق وحاول ان يطأ فتاة صغيرة في الشارع على مرأى من ابيها . اي والله ، لقد ابطأوا في الشروع بالبتر ، واستعجلوا الكفّ عنه . وانا اعرف على الاقل رجلين بحاجة الى الخصي مثله ، وأحدهما لا يبعد عن هنا بأكثر من ميل واحد . ولكن ، لا اظن ان خيراً يرجى حتى من ذلك . وكما اقول ، عاهرة يوماً عاهرة كل يوم . وكل ما اريده هو اربع وعشرون ساعة لا يشير فيها عليّ اي يهودي لعين من نيويورك بكيفية تصرفِ السوق . انا لا اريد صيداً سميناً ، فليوفروا ذلك للضحك على ذقون المغامرين الشاطرين . لا اريد الآ فرصة عادلة لاسترجاع نقودي . وحالما احقق ذلك فليأتوا بكل بغايا شارع بيل وكل مجاذيب الدنيا الى هذا البيت ولْيَنَم اثنان منهم في فراشي وليحتلّ واحد منهم مكاني ايضاً على المائدة .

---

(١) يقصد بنجي . (المترجم)

نيسان

٨
١٩٢٨

طلع الفجر قاحلاً قارس البرد ، جداراً متحركاً من الضياء الأشهب تدماً من الشمال الشرقي ، وقد بدا ، عوضاً عن الذوبان رطوبةً انـه يتفتت ذرات دقيقةً سامةً كالغبار ، فلما فتحت دلزي باب الكوخ وخرجت ، وخَزَ بشرتها وربأ ، مستعجلاً تكاثف مادة ليست رطوبة بقدر ما هي شيء يماثل الزيت الرقيق الذي قَصُر عن التخثّر . كانت تلبس قبعة من القش الاسود الصلب جثمت على لفافة رأسها ، وعباءة مخملية عنّابية اللون حفافيها من فرو ممروض مجهول الهويـة فوق فستان من الحريـر الارجواني ، ووقفت بالباب برهةً من الزمن وقد رفعت الى الريح وجهها الهضيم الغضين ويداً ضامرة حشفاء كبطن السمكة ، ثم دفعت العباءة جانباً وتفحصت صدر فستانها .

كان فستانها يسقط ضامراً من على كتفيها ، عبر نهديها المتهدلين ،

ثم يشتد على كرشها ويسقط ثانيةً منتفخاً بعض الشيء فوق ثيابها الداخلية التي ستبدأ تنضوها عنها طبقةً طبقة مع تماثل الربيع والايام الدافئة ، وكلها من ألوان مبهرجة محتضرة . كانت امرأة ضخمة فيما مضى ولكن هيكلها الآن ينتصب ، يكسوه إهاب واسع غير محشو يشتد ثانية عند بطن يشارف على الحَبَن ، كأن العضل ولفائف اللحم كانت يوماً ما شجاعة او جَلَداً أتت عليه الايام والسنون فلم يبق الا الهيكل العظمي الذي لا يقهر منتصباً كالخرائب او بعض المعالم فوق الاحشاء الوسنانة الصّماء ، ويعلو جميع ذلك وجه متداع يوحي للرائي بأن عظامه خارج اللحم ، يرتفع ازاء النهار المتون بتعبير في القسمات قدري يماثل في الوقت نفسه خيبة الطفل ودهشته ، الى ان استدارت ودخلت البيت ثانية وأغلقت الباب .

كانت الارض بجوار الباب جرداء ، تكسوها قشرة من القِدَم كأنما خلفتها بواطن الاقدام العارية لأجيال خلت ، أشبه بالفضة القديمة او جدران المنازل المكسيكية التي لُبخت باليد . وقرب البيت شمخت ثلاثٌ من أشجار التوت تظلّله ايام الصيف ، واوراقها التي هي الآن كالزغب ستنمو فيما بعد لتصبح عريضة وادعة كالأكفّ وتنساب مستوية الموج على الهواء الهَطِل . وقد جاء زُرَيْقان من مكان ما وحوّما في مهب الريح كمِزَقٍ من القماش او الورق المزوّق ، واستقرّا في الشجر ، حيث راحا يتأرجحان في ضجيج من الرفع والخفض ، ويزعقان في الريح التي تمزّق منها الصرخات دفعاً وثنائياً ، كمِزَقٍ من الورق او القماش ، على التوالي . ثم انضم اليهما ثلاثة أخرى من عصافير الزريق وراحت كلها تتأرجح وتعلو وتحط فترة في مهصور الأغصان ، وهي تزعق . وانفتح باب الكوخ وبرزت دلزي ثانية ، مرتديةً هذه المرة قبعَةً لبادٍ من قبعات الرجال ومعطفاً من معاطف الجيش ، يتساقط من تحت اطرافه المهترئة فستانها الأزرق الرخيص في فضفضة غير متساوقة منساباً حولها

وهي تعبر فناء الدار وتصعد الدرج الى باب المطبخ .

وبعد لحظات خرجت ، تحمل هذه المرة مظلة مفتوحة ، دفعت بها مائلة قُدُماً تطعن الريح ، وذهبت الى كومة الحطب وانزلت عنها المظلة وهي لما تزل مفتوحة . وسرعان ما مدت يدها اليها وأوقفتها وتشبثت بها برهة،وهي تتلفّت حولها . ثم اغلقتها ووضعتها على الأرض وكوّمت الحطب على ذراعها المعقوفة لصق صدرها ، والتقطت المظلة وفتحتها أخيراً وعادت الى الدرج وأمسكت بالحطب في توازن قلق بينما سعت في اغلاق المظلة الى أن اغلقتها واسندتها في الزاوية التي خلف الباب. والقت بالحطب في صندوق وراء الموقد . ثم نزعت المعطف والقبعة وتناولت وزرة ملوثة من على الحائط ولبستها وأشعلت النار في الموقد . وفيما راحت تفعل ذلك ، تضرب قضبان الأثافيّ وتطقطق على الغطاء ، جعلت المسز كمبسن تناديها من أعلى الدرج .

كانت ترتدي « روباً » من الساتان المضرّب،وقد أمسكت بياقته تحت ذقنها ، وفي يدها الأخرى قربة ماء حار من المطاط الأحمر ، ووقفت في اعلى الدرج الخلفي تنادي « دلزي » على فترات نظيمة رتيبة النبرة ، مرسلة نداءها نزولاً على السلّم الهاجع المنحدر إلى الظلام ، المنفتح ثانية حيث يقع عليه قبس من نافذة شهباء . وراحت تنادي «دلزي» ، دونما توكيدٍ او عجلة او اضطرابِ نبرةٍ ، كأنها لا تصيخ بسمعها لجواب أبداً . « دلزي . »

فأجابتها دلزي وكفت عن طقطقة الموقد ، ولكن قبل ان تنتهي من عبور المطبخ نادتها المسز كمبسن مرة اخرى ، وقبل ان تعبر غرفة الطعام وتبرز رأسها في وسط رشقة النور الشهباء من النافذة ، نادتها مرة اخرى .

قالت دلزي : « طيّب ، طيّب ، إني هنا . سأملأها حالما اسخن شيئاً من الماء . » وجمعت اطراف ثوبها وارتقت الدرج ، مغطّية النور

الأشهب كله . « ضعيها هناك وعودي الى فراشك . »

قالت المسز كمبسن : « لم أقدر ان افهم ما الأمر . فقد بقيت يقظة في فراشي لساعة على الأقل دون ان اسمع اي حسٍّ من المطبخ . »

قالت دلزي : « ضعيها عنك هناك وعودي الى فراشك ، » وهي تكد بألمٍ في صعودها الدرج، لاهثة ، عديمة الشكل . « سترتفع النار في دقيقة ، ويسخن الماء بعد ذلك بدقيقتين . »

قالت المسز كمبسن : « ساعة على الاقل مرت عليّ وانا يقظة في فراشي ، فقلت لعلك تنتظرين مني أنا ان انزل واشعل النار . »

بلغت دلزي أعلى الدرج وتناولت قربة الماء ، وقالت : « سأملأها في دقيقة . ظلّ لستر نائماً هذا الصباح على غير عادتـــه ، لأنه بقي حتّى منتصف الليل في ذلك السيرك . سأشعل النار بنفسي . فعودي ، لئلا توقظي الآخرين قبل أن اتهيّأ . »

قالت المسز كمبسن : « كلما أذنتِ للستر بأمور تتدخل بعمله ، كان عليك انتِ ان تتحملي العواقب ، ولن يروق ذلك لجاسن إن هو سمع به . وانت تعرفين ذلك . »

فقالت دلزي : « وهل ذهب الى السيرك بنقود جاسن ؟ لا والله ، ما ذهب بنقود جاسن . » واخذت تنزل الدرج ، وعادت المسز كمبسن الى غرفتها . وفيما هي تدخل بين طيات فراشها ثانية بقيت تسمع دلزي وهي تهبط الدرج بذلك البطء الهائل الأليم الذي يبعث السامع على الجنون لولا أنه انقطع بعد قليل على اثر الصفق المتلاشي من باب غرفة المؤن .

دخلتْ المطبخ وأحسنت وقد النار وبدأت تهيء الفطور . وفي وسط ذلك توقفت قليـــلاً وذهبت الى النافذة وتطلعت منها الى كوخها ، ثم عادت الى الباب وفتحته وصاحت بين ثنايا الريح العاصفة :

« لستر ! » ووقفت تسمع ، مشيحة بوجهها عن الريح . « أنت ، يا لستر ! » وتسمعت ، واوشكت ان تصيح من جديـــد غير ان لستر

ظهر قادماً من حول المطبخ .

وقال : « سيدتي ؟ » ببراءة ، بمزيد من البراءة جعل دلزي تتأمله لحظة بلا حراك منها وقد تملكها شيء اكثر من الدهشة المجردة .

وقالت : « اين كنت ؟ »

قال : « هنا . في السرداب . »

ــ « وماذا كنت تفعل في السرداب ؟ لا تظل واقفاً هناك في المطر يا غبي . »

ــ « لم اكن افعل شيئاً . » وصعد الدرج .

ــ « إياك ان تدخل هذا الباب دون كومة من الحطب بين ذراعيك. اترى كيف انني احضرت حطبك واشعلت نارك ؟ الم اقل لك ليلة البارحة الا تترك هذا المكان قبل ان تملأ صندوق الحطب الى حافته ؟ »

فقال لستر : « ولكنني ملأته . »

ــ « اين هو اذن ؟ »

ــ « لا أدري . لم أمسّه انا . »

ــ « حسناً اذن ، املأه الآن . ثم اصعد واعتنِ ببنجي . »

ثم اغلقت الباب.وذهب لستر الى كومة الحطب.وراحت طيور الزُّريق الخمسة تحوّم حول المنزل وهي تزعق ثم عادت الى اشجار التوت ، ولستر يرقبها . فالتقط حجراً ورماها به قائلاً : « هو وو ... عودي الى الجحيم ، مقرّك اللعين ! ليس اليوم الاثنين ، بعد . »

حمّل نفسه تلاً من الحطب ، حتى ما عاد يستطيع الرؤية من فوقه ، وراح يترنح في مشيته إلى الدرج ، وصعده ، وخبط الباب كالأعشى موقعاً بعض الأخشاب ، ففتحت دلزي الباب له وعبر المطبخ مترنحاً بحمله ، وصاحت به دلزي : « انت يا لستر ! » غير انه كان قد قذف بالحطب في الصندوق بخبطة مدوية . وقال « هه ! »

قالت دلزي : « أتحاول ان توقظ كل من في البيت ؟ » وصفعته

على قفاه . « هيا اصعد الى فوق وألبس بنجي ثيابه . »
فقال : « نعم يا سيدتي . » واتجه نحو الباب .
قالت دلزي : « الى اين ؟
— « فكرتُ ان الافضل ان اخرج وأدور حول البيت وادخل من الباب الامامي ، لكي لا اوقظ السيدة كارولاين والآخرين . »
— « اصعد من ذلك الدرج الخلفي كما قلت لك ، وألبس بنجي ثيابه . هيا ، اذهب . »
قال لستر : « أمرك ! » ورجع وغادر المكان عن طريق باب غرفة الطعام . بعد قليل كف الباب عن الصفق . واخذت دلزي تتهيأ لصنع بعض الفطائر . واذ راحت تدير المنخل على رسلها فوق خشبة الخبز ، طفقت تغني ، لنفسها باديء الأمر ، شيئاً بغير كلمات او نغم معين ، حزيناً مفعماً بالترداد والرثاء والشجن ، وهي تنخّل هَمْياً وئيداً من الطحين على خشبة الخبز . وكان الموقد قد بدأ يُدفيء الغرفة ويملأها بهمهمات النار الآسية ، واذا بصوتها يرتفع بالغناء كأنما الدفء المتزايد قد أذاب جموده ، وعند ذلك صاحت المسز كمبسن باسمها ثانية من داخل المنزل . فرفعت دلزي وجهها كأن عينيها تخترقان الجدران والسقف لتبصرا بالعجوز وقد تدثرت بروبها المضرّب عند اعلى الدرج ، وهي تناديها برتابة آلية .

فقالت دلزي : « يا إلهي . » ووضعت عنها المنخل ورفعت حاشية وزرتها لتمسح بها يديها وامسكت بالقربة من على الكرسي حيث كانت قد وضعتها وجمّعت وزرتها على مقبض الابريق الذي جعل ينفث القليل من البخار ، وصاحت قائلة : « دقيقة ! لم يسخن الماء الا هذه اللحظة ! »
ولكن ما تريده المسز كمبسن ليس قربة الماء ، فذهبت دلزي الى أسفل الدرج ممسكة بالقربة كمن يمسك بدجاجة ميتة ونظرت الى الأعلى.
وقالت : « أليس لستر فوق ، معه ؟ »

— « لم يدخل لستر البيت . كنت في فراشي اصغي متوقعة مجيئه . كنت اعرف انه سيتأخر ، ولكنني رجوت الا يتأخر اكثر مما ينبغي ، لكي يمنع بنجامين من اقلاق راحة جاسن في اليوم الوحيد الذي يتاح له ان ينام فيه في الصباح . »

قالت دلزي : « لست أدري كيف تتوقعين ان ينام احد ، وانت واقفة في البهو تصرخين على الناس من اول طاوع الفجر . » وبدأت تصعد الدرج في لأي ومشقة . « لقد أرسلت ذلك الولد الى فوق منذ نصف ساعة . »

وجعلت المسز كمبسن ترقبها وهي تمسك بياقة روبها تحت ذقنها ، وقالت : « ما الذي تريدين ان تفعليه ؟ »

— « اريد ان ألبس بنجي وانزله الى المطبخ ، فلا يوقظ جاسن وكونتن . »

— « الم تبدأي بتهيئة الفطور ؟ »

— « سأعنى بذلك أيضاً . فخير لك ان تعودي الى فراشك الى أن يوقد لستر لك ناراً . إنه صباح بارد . »

فقالت المسز كمبسن : « أعرف . قدماي كالثلج . وقد استيقظت علي بردهما . » وبقيت ترقب دلزي تصعد الدرج ، واستغرقها ذلك طويلاً . « أنت أدرى بعصبية جاسن عندما يتأخر الفطور . »

قالت دلزي : « لا أقدر ان افعل اكثر من شيء واحد في الوقت الواحد ، فاذهبي الى فراشك ، لأنني ارى انك مسؤولية أخرى القيت علي عاتقي هذا الصباح . »

— « ان كنت ستنصرفين عن كل شيء لتلبسي بنجي ثيابه ، فالأفضل ان انزل واهيء الفطور . فانت تعرفين كما أعرف أنا كيف يتصرف جاسن اذا تأخر الفطور . »

«أخبريني . » قالت دلزي : « ومن سيأكل ما تخربطين ؟ هيّا ، »

قالتها وهي تكدح في صعودها . والمسز كمبسن ترقبها وهي ترتقي الدرج، مسندة نفسها على الحائط بيد ، ورافعة أطراف فستانها بالاخرى .

وقالت : « اتريدين ايقاظه لمجرد إلباسه ثيابه ؟ »

فتوقفت دلزي ، ومكثت مكانها وقد رفعت قدماً الى الدرجة التالية، ويدها على الحائط ورشقة النور الشهباء من النافذة وراءها ، ووقفت لا حراك ولا شكل .

وقالت : « ألم يستيقظ اذن ؟ »

— « لم يكن استيقظ عندمـــا أطللت من الباب . ولكن موعده قد فات . فليس من عادته ابداً ان ينام الى ما بعد السابعة والنصف . وأنت تعرفين ذلك . »

لم تقل دلزي شيئاً ، ولم تأت بحركة أخرى ، غير ان المسز كمبسن أدركت ، وإن لم تستطع رؤيتها ، إلا شكلاً مكوّراً لا عمق له ، أنها خفضت وجهها بعض الشيء ووقفت أشبه ببقرة في المطر ، وقد أمسكت بقربة الماء الفارغة من عنقها .

قالت المسز كمبسن : « لم يفرض عليك أنت ان تتحملي كل هذا ، فالمسؤولية ليست مسؤوليتك . بامكانك ان ترحلي إن شئت . فلست انت التي عليك ان تتحملي العبء الثقيل يوماً بعد يوم . ولا أنت بمدينة بشيء لهم ، او لذكرى المرحوم زوجي . وأنا اعلم انك ما عطفت يوماً على جاسن ، ولم تحاولي قط ان تخفي ذلك عني . »

لم تقل دلزي شيئاً . استدارت ببطء ونزلت الدرج ، هابطة بجسمها من درجة الى درجة ، كما يفعل الطفل ، ويدها على الحائط . وقالت: « اذهبي واتركيه وشأنه . ولا تدخلي عليه ثانية . حالما أجد لستر سأرسله الى فوق . فاتركيه . »

ولما عادت الى المطبخ ، تأملت الموقد ، ثم نزعت وزرتها وارتدت المعطف وفتحت الباب الخارجي وارسلت بصرها في أرجاء الفناء . جعل

المطر يضرب جسدها ، دقيقاً عاتياً ، ولكن المشهد فيما عدا ذلك كان قفراً من كل ما يتحرك . فنزلت الدرج بما يشبه الحذر كأنها تبغي الحفاظ على الصمت ، وانعطفت حول المطبخ . وفي الحال برز لستر بسرعة وبراءة من باب السرداب .

فوقفت دلزي وقالت : « ماذا تفعل ؟ »

فقال لستر : « لا شيء . فقد طلب إليّ السيد جاسن أن اجد من اين يخرّ الماء في السرداب . »

— « ومتى طلب اليك ذلك ؟ يوم رأس السنة الأخير ، أليس كذلك ؟ »

قال لستر : « خطر لي أن القي نظرة وهم بعد نيام ، » وتقدمت دلزي من باب السرداب ، فوقف جانباً فيما راحت تتأمل في العتَمة الفواحة برطوبة الأرض والعفن والمطاط .

وقالت : « هه . » ونظرت الى لستر ثانية . فقابل تحديقها بعينين ملؤهما الدعة والبراءة والصراحة . « لست ادري ما الذي أنت فيه، ولكن عليك ان تمتنع عنه . يظهر أنك انت ايضاً تستنفد صبري هذا الصباح، لأن الآخرين يستنفدون صبري . فاصعد في الحال واعتنِ ببنجي ، أتسمع ؟ »

قال لستر : « أمرك » ، وأسرع الى درجات المطبخ .

فقالت دلزي : « اسمع ، ما دمت هنا فجئني بكمية اخرى من الحطب . »

فقال : « أمرك، » ومر بها على الدرج ومضى الى كومة الحطب . ولما عاد يتخبط بالباب بعد برهة ، وقد اختفى وعَشِي وراء وجوده الحطبي ، فتحت له دلزي الباب واقتادته عبر المطبخ بيد ثابتة .

وقالت : « اياك ان تهوي بها على ذلك الصندوق مرة اخرى . اياك . »

فقال لستر لاهثاً : « كيف اذن ؟ لا استطيع ان انزلها على اي نحو آخر . »

قالت دلزي : « قف مكانك وامسك بها . » وأخذت تنزل عنه الحِمل حطبة حطبة . « ماذا دهاك هذا الصباح ؟ كلما أرسلتك لاحضار الحطب لم تأتني بأكثر من ست قطع ، حتى هذا اليوم . فما الذي نويت ان تستأذنني به اليوم ؟ ألم يغادر ذلك السيرك البلدة ؟ »

— « بلى . لقد غادرها . »

ولما وضعت آخر حطبة في الصندوق ، قالت : « والآن ، اصعد الى بنجي ، كما قلت لك من قبل . ولا اريد ان يصيح بي أحد من أعلى الدرج حتى أدقّ الجرس . أتسمع ؟ »

قال لستر : « أمرك . » واختفى خلال الباب الرفراف . فألقمت دلزي الموقد مزيداً من الحطب ، وعادت الى خشبة الخبز . ثم طفقت تغني من جديد .

وازدادت الغرفة دفئاً . وسرعان ما اكتست بشرة دلزي التماعة غنية بعد ان بدت وكأنها وبشرة لستر قد اكتست بما يشبه ذروراً خفيفاً من رماد الحطب ، اذ راحت دلزي تجمع مواد الطعام الخام حولها وتنسّق وجبة الفطور . وقد عُلّقت على الحائط فوق احدى الخزائن ساعةٌ تدقدق لا ترى الا في الليل ، بضوء المصباح ، فتوحي عندها بعمق من الغوامض والاحاجي لأن ليس فيها الا عقرب واحد ، واذ ذاك مهدت لنفسها بصوت كأنما هي تتنحنح ، ودقّت خمس مرات .

قالت دلزي : « الساعة الثامنة . » وكفت عما هي فيه ورفعت رأسها ، وأصاخت السمع . ولكن لم يكن ثمة من صوت عدا صوت الساعة والنار . ففتحت الفرن ونظرت الى طبق الخبز ، واذ انحنت توقفت وهي تسمع أحدهم ينزل الدرج . وسمعت الاقدام تعبر غرفة الطعام ، ثم انفتح الباب الرفراف ودخل لستر يتبعه رجل ضخم الجثة

يبدو كأنه قد صيغ من مادة عجزت جزئياتها عن التماسك فيما بينها او بالهيكل الذي يحملها . بشرته من غير شعر وتبدو ميتة ، مَرَضيّ الحَبَن ، يمشي شحطاً كالدبّ المرّن . أما شعره فناعم فاقع اللون ، وقد مُشّط على جبهته مُسبلاً كشعر الاطفال في الصور الفوتوغرافية القديمة . وكانت عيناه صافيتين، بلون زهرة القمح الزرقاء الفاقعة العذبة، وشفتاه الصفيقتان منفرجتين ، تريلان قليلاً .

قالت دلزي : « أهو بردان ؟ » ومسحت يديها على وزرتها ومسّت يده .

قال لستر : « ان لم يكن هو بردان ، فأنا بردان . موسم الفصح بارد دائماً . لا أذكره جاءنا مرة والطقس دافيء . تقول الست كارولاين اذا لم تجدي الوقت لملء قربتها بالماء الحار ، فلا بأس . »

قالت دلزي : « يا إلهي . » وجرّت كرسياً الى الزاوية التي بين صندوق الحطب والموقد، فجلس الرجل عليه منصاعاً . وقالت : « انظر في غرفة الطعام وجِدْ اين تركت تلك القربة . » فجاء لستر بالقربة من غرفة الطعام ، فملأتها دلزي وناولته اياها، وقالت : « اصعد بسرعة . وانظر ان كان جاسن قد استيقظ . وقل لهم كل شيء جاهز . »

خرج لستر ، وقد جلس بن قرب الموقد جلسة رخوة ، دونما اي حركة سوى من رأسه الذي كان يهتز علواً بغير انقطاع وهو يرقب حركات دلزي بنظرات مبهمة عذبة .

ولما عاد لستر قال : « لقد نهض . وتقول الست كارولاين ضعيه على المائدة . » ودنا من الموقد وادار راحتيه المفتوحتين الى الاسفل فوق وعاء النار وقال : « لقد نهض ، وعدا ذلك فانه سيضرب بكلتا قدميه هذا الصباح . »

قالت دلزي : « ماذا دهاك الآن ؟ ابتعد عن الموقد . كيف استطيع ان افعل شيئاً وانت منحنٍ عليه ؟ »

— « إني بردان . »

— « كان الأجدر بك ان تفكر بذلك وانت في أعماق ذلك السرداب. وجاسن ، ما الذي دهاه ؟ »

— « يقول انني وبنجي قد كسرنا تلك النافذة التي في غرفته . »

— « وهل فيها نافذة مكسورة ؟ »

— « هذا ما يقوله هو . ويقول انني انا الذي كسرتها . »

— « وكيف يمكنك ان تكسرهـــا وهو يبقيها مقفلة في الليل وفي النهار ؟ »

— « يقول انني كسرتها بأن رميتها بالحجارة . »

— « وهل فعلت ذلك ؟ »

— « أبداً . »

قالت دلزي : « لا تكذب عليّ ، يا ولد . »

قال لستر : « لا والله ، اسألي بنجي . لم أقرب تلك النافذة . »

قالت دلزي : « اذن من يكسرها ؟ » ثم قالت « إنه يغيظ نفسه ، لا اكثر ، ليوقظ كونتن . » وأخرجت طبق البسكوت من الفرن .

قال لستر : « أكيد ، طباعهم غريبة ، هؤلاء القوم . أحمـــد الله انني لست واحداً منهم . »

— « انك لست واحداً ممن ! اسمح لي بأن اقول لك ، ايهـا الولد الأسود ، ان فيك من إبليسية آل كمبسن بقدر ما في اي واحد منهم. اواثق انت من انك لم تكسر تلك النافذة ؟ »

— « ولماذا اكسرها ؟ »

قالت دلزي : « كاحدى إبليسيّاتك ، تنبّه له الآن ، لئلا يحرق يده ثانية ريثما اهيىء المائدة . »

وذهبت الى غرفة الطعام حيث سمعاها تتنقل فيها ثم عادت ووضعت طبقاً على مائدة المطبخ وصبّت فيه طعاماً . وبن يرقبها ، مريّلاً ، وعـــلى

شفتيه همهمة خافتة من التلهف .

فقالت : « طيّب ، طيّب ، يا حبيبي . هـــاك فطورك . أحضر كرسيّه يا لستر . » فأدنى لستر الكرسي من المائدة وجلس بن عليه ، يئن ويريل . وربطت دلزي فوطةً حول عنقه ومسحت فمه بطرفهـــا . « وحاول أن تمنعه من توسيخ ثيابه ولو مرة في عمرك ، » قالت ذلك وناولت لستر ملعقة .

فكفَّ بن عن الأنين ، وراح يرنو الى الملعقة وهي تعلو الى فمه . فكأن التلهف ايضاً فيه مرتبط بالعضل ، والجوع نفسه عاجز عن النطق ، لا يعلم بأنه هو الجوع . ولستر يطعمه بمهارة وانفصال . وبين الحـــين والحين يعاوده الانتباه وقتاً يتيح له ان يعبث بالملعقة حين يرفعها نحو فم بن ليجعله يطبق شفتيه على الهواء ، ولكنه كان فيما يبدو شارد الذهن. وقد استقرت يده الاخرى على ظهر الكرسي وراحت تتحرك على السطح الأملس ، رهيفةً باحثة ، كأنه يستخرج من الفراغ الميت نغمـــاً غير مسموع ، ومرة نسي حتى معابثة بن بالملعقة بينما أغرت اصابعه الخشب الذبيح باتيان نغم رَكوض معقد لا صوت له الى ان استعـــاده بن الى وعيه بالولولة من جديد .

أما دلزي فقد كانت تروح وتجيء في غرفة الطعام ، وسرعان مـــا قرعت جرساً صغيراً صافي النـــبرة ، وعندئذ سمع لستر من مكانه في المطبخ المسز كمبسن وجاسن ينزلان ، وصوت جاسن ، فأدار عينيـــه بياضاً في محجريه وهو يتسمّع .

قال جاسن : « لا ريب . اني اعرف انهما لم يكسراها . اني اعرف ذلك . لعل تغير الطقس كسرها . »

فقـــالت المسز كمبسن : « وكيف يكسرها ؟ غرفتك تبقى مقفلة طيلة النهار ، كما تتركها عندما تذهب الى البلدة . وما من احد منا يدخلها سوى يوم الاحد لتنظيفها . لا اريدك ان تظن اني أرضى بأن

اذهب الى مكان لا يكون مرغوباً في ذهابي اليه ، او انني اسمح لأحد غيري بذلك . »

قال جاسن : « وهل قلت انك انت التي كسرتها ؟ »

قالت المسز كمبسن : «أنا لا اريد دخول غرفتك . انني أحترم شؤون المرء الخاصة . وما كنت لأطأ العتبة حتى ولو كان لدي مفتاح للباب .»

— « نعم . اعرف ان مفاتيحكم لا تصلح . وهذا هو السبب في انني بدّلت القفل . أما الذي أريد ان أعرفه ، فهو كيف انكسرت تلك النافذة . »

قالت دلزي : « يقول لستر انه لم يكسرها . »

قال جاسن : « أعرف ذلك دون ان أسأله . اين كونتن ؟ »

قالت دلزي : « حيث تكون صباح كل أحد . على كلٍ ،ما الذي أصابك هذه الايام الاخيرة ؟ »

قال جاسن : « سنغيّر ذلك كله . إصعدي واخبريها ان الفطور جاهز . »

قالت : « أرجوك ان تدعها وشأنها ،يا جاسن ، انها تنهض لفطورها صباح كل يوم من الاسبوع ، والسيدة كارولاين تسمح لها بالبقاء في فراشها كل يوم أحد . وأنت أعلم بذلك . »

قال جاسن : « لا أستطيع ان امول مطبخاً مليئاً بالزنوج لكي يكونوا في خدمة حضرتها . إذهبي واطلبي اليها ان تنزل للفطور . »

قالت دلزي : « لا أحد يخدمها . فأنا اترك لها فطورها في المسخّنة، فتأتي هي — »

— « أسمعتِ ما قلت ؟ »

— « سمعتك . ولا أحد غيرك ، عندما تكون في البيت . فاذا لم تكن كونتن او امك موضع شجارك، كان لستر او بنجي . لماذا تسمحين له بالاستمرار على ذلك ، يا ست كارولاين ؟ »

فقالت المسز كمبسن : « خير لك ان تصدعي بأمره . انه رب البيت الآن . ومن حقه ان يطالبنا باحترام رغباته . وأنا احاول ان احترمها، فكم بالحري انت . »

قالت دلزي : « أليس من السخف ان يضطرب مراجسه . بحيث يجبر كونتن على النهوض لمجرد ان ذلك يروق له ؟ لعلك تظن انها هي التي كسرت نافذتك ؟ »

قال جاسن : « لو خطر لها ذلك لما ترددت . فاذهبي وافعلي مثلما طلبت اليك . »

« ولو فعلت ذلك لما لمتُها قط ، لا والله . » قالت دلزي متجهة نحو الدرج . « وانت تنقّ برأسها كل لحظة من لحظات بقائك في البيت . »

قالت المسز كمبسن : « اسكتي يا دلزي . ليس من مقامك او مقامي ان نوصي جاسن بما يفعل . فأنا في بعض الأحايين اعتقد انه مخطىء ، ولكنني احاول ان امتثل لرغباته من اجلكم جميعاً . واذا كانت لي القدرة على النزول الى المائدة ، فان لكونتن القدرة على ذلك أيضاً . »

خرجت دلزي، وسمعوها تصعد الدرج ، وسمعوها تستغرق في صعودها وقتاً طويلاً .

فقال جاسن : « لديك طقم رائع من الخدم . » وصب طعاماً لأمه ثم لنفسه . « هل كان لديك يوماً خادم يستحق القتل ؟ لا ريب انه كان لديك ، ايام كنت طفلاً او قبلها ، فلا اذكره . »

قالت المسز كمبسن : « علي ان اسايرهم . لان علي ان اعتمد عليهم الاعتماد كله . لقد فقدت قوتي وعزمي ، ويا ليتني ما فقدتهما . ليتني استطيع ان اقوم بشؤون المنزل كلها بنفسي . لكنت على الاقل خففت الكثير عن عاتقك . »

قال جاسن: «ولتتحوّل البيت الى حظيرة للخنازير . » ثم صاح قائلاً: « اسرعي يا دلزي ! »

— « أنا اعلم انك تلومني لانني اسمح لهم بالذهـاب الى الكنيسة اليوم . »

قال جاسن: « بالذهاب الى أين ؟ ألم يرحل ذلك السيرك اللعين بعد ؟»

قالت المسز كمبسن: « الى الكنيسة ، فالملونون يقيمون صلاة للفصح خاصة . وقد وعدت دلزي منذ اسبوعين بالسماح لهم بالذهاب اليها .»

— « وذلك يعني أننا سنأكل البارد الناشف من الطعام او لا شيء مطلقاً . »

— « اعرف ان ذلك ذنبي ، وانك ستلومني . »

— « وفيم اللوم ؟ أأنت التي بعثت المسيح حيّاً ؟ »

وسمعا دلزي ترتقي الدرجة الأخيرة ، ثم خُطاها البطيئة فوق .

وسمعاها تقول : « كونتن . » وحالما نادتها لأول مرة وضع جاسن الشوكة والسكينة من يديه وبدا أنه وأمه ينتظران متقابلين عبر المائدة ، في وضعين متماثلين : الواحد منهما قاسٍ خبيث ، ينتهي شعره الكستنائي الملبّد بمعقوفين عنيدين عـلى طرفي جبينه أشبه بساقي البار في الصور الكاريكاتورية ، ولعينيه الكستنائيتين قُزَحيّتان كالدحاريج محلّقتان بالسواد، والأخرى قاسية شكسة ، شيباء الشعر ،وعيناها منتفختا الجفنين حـائرتان تبدوان لشدة سوادهما كأنهما كلها بؤبؤ أو قُزَحية .

وقالت دلزي : « كونتن . انهضي يا حبيبتي . انهم في انتظارك للفطور . »

قالت المسز كمبسن : « لست أفهم كيف كُسرت تلك النافذة ، اواثق أنت انها كُسرت أمس ؟ لعلها مكسورة منذ زمن طويل ، ولم تدر بها لدفء الطقس . العارضة العليا ، والستارة مسدلة عليها — »

قال جاسن : « قلت لك للمرة الأخيرة إنها كسرت أمس ،

ألا تعتقدين انني اعرف الغرفة التي أقيم فيها ؟ اتعتقدين انني كنت استطيع العيش فيها اسبوعاً وفي النافذة كسر يستطيع المرء أن يُنفذ فيه يده. — ». وكفَّ صوته فجأة ، وانحسر ، وتركه محملقاً بأمه بعينين ظلّتا برهةً خاليتين من كل شيء . كأن عينيه قد أمسكتا النَفَس . وامه تنظر اليه بوجه رَخو شكس ، لا مُحَدَّد ، يهجس بالغيب، ولكنه مثلوم الحِس . وفيما هما كذلك ، قالت دلزي :

« كونتن . كفاك لعباً معي ، يا حبيبتي . هيا انزلي للفطور ، يا حبيبتي . انهم في انتظارك . »

وقالت المسز كمبسن : « لست أفهم . كأن أحداً ما حاول ان يقتحم البيت — » ففزّ جاسن من كرسيّه ، وهـوى الكرسي الى الوراء . « ماذا — » قالتها المسز كمبسن وهي تحماق به إذ انطلق راكضاً ماراً بها وصاعداً الدرج قفزاً الى حيث التقى بدلزي ، ووجهه في الظل ، فقالت دلزي :

« لقد حردتْ . وأمك لم تفتح — » غير أن جاسن مرّ بها راكضاً في الرواق الى الباب . ولم يناد أحداً . بل أمسك بالمقبض وجرّبـه ، ثم وقف والمقبض في يده مطأطىء الرأس قليلاً ، كأنه يصغي الى شيء أنأى بكثير من الغرفة المحدودة الأبعاد خلف الباب ، شيء جعل يطرق سمعه . لقد كانت وقفة من يأتي بحركة الإصغاء لكي يخادع نفسه بشأن ما يسمع . وراحت أمـه وراءه تصعد الدرج وتناديه . وعندما رأت دلزي كفت عن مناداته وجعلت تنادي دلزي .

قالت دلزي : « قلت لك انها لم تفتح القفل من ذلك الباب بعد . »
وإذ نطقت التفت وجرى نحوها ، ولكنه قال بصوت هادىء لا تهدّج فيه: « هل تحمل المفتاح معها ؟ أعني أهو معها الآن ، أم انها سوف—»
قالت المسز كمبسن من على الدرج . « دلزي . »
فقالت دلزي : « ما هو ؟ لم لا تدعني — »

قال جاسن : « المفتاح ، مفتاح ذلك الباب . هل تحمله معها طيلة الوقت ؟ أمـــاه . » وعندها رأى امه فنزل الدرج ليلقاها ، وقال : « اعطني المفتاح. » وجعل يتحسس بفظاظة جيوب ثوبها الاسود الخَلِق، وهي تقاوم .

وقالت : « جاسن ، جاسن ! أتحاول ودلزي ان تأخذاني عنوة الى الفراش ثانية ؟ » قالتها وهي تحاول ان تدفع به عنها . « ألن تدعني أمضي حتى يوم الأحد بسلام ؟ »

فقال جاسن وهو يتحسسها بفظاظة : « المفتاح . علي به . »والتفت الى الباب كأنما يتوقع ان ينفجر وينفتح قبـــل ان يبلغه بالمفتاح الذي لم يحصل عليه بعد .

— « أنتِ يا دلزي ! » صاحت أمه وهي تمسك بثوبها حولها .

وفجأة صرخ جاسن : « اعطني المفتاح ، يا بلهاء ! » وانتشل من جيبها مجموعة ضخمة من المفاتيح الصدئة نظمت على حلقـــة من الحديد أشبه بما كان يحمله سجّانو القرون الوسطى وعاد يركض في البهو وكلتا المرأتين في إثره .

وقالت امه : « انت ، يا جاسن ! لن يجد المفتـــاح الذي يبغيه . دلزي ، أنت تعلمين انني لا أسمح لاحد قطعاً بأن يأخـذ مفاتيحي . » وانخرطت في العويل .

فقالت دلزي : « هس . لن يصيبها بأذى . لن أسمح له بذلك . »

— « ولكن في بيتي ، وصباح يوم الأحد ! وأنا التي بذلت جهدي لأنشئهم نشأة مسيحية فاضلة . دعني يا جاسن أجـــد لك المفتـاح الذي تريد . » ووضعت يدها على ذراعه ، ثم أخذت تكافحه ، غير انـه قذف بها جانباً بضربة من كوعه والتفت لينظر اليها لحظة ، وفي عينيه قسوة وعذاب ، ثم استدار الى الباب ثانية والمفاتيح الضخمة .

قالت دلزي : « هس . وانت ، يا جاسن ! »

قالت المسز كمبسن وهي تُعوِل من جديد : « أمر رهيب قد حدث . اني أعرف . اسمع يا جاسن . » قالتها وهي تحاول الامساك به مرة أخرى . « يمنعني حتى من ايجاد المفتاح لغرفة في بيتي ! »

قالت دلزي : « لا بأس ، لا بأس . اني هنا . ولن أدعه يصيبها بأي أذى . » ثم قالت، رافعة صوتها : « كونتن ! لا تخافي يا حبيبتي . اني هنا قربك ! »

وانفتح الباب جانحاً الى الداخل . فوقف فيه جاسن برهةً ، حاجباً الغرفة ، ثم خطا الى الداخل ، وقال بصوت غليظ خافت : «ادخلا .» فدخلتا . لم تكن تلك غرفة فتاة . بل لم تكن غرفة أحد، وعطر المساحيق الرخيصة الباهت والأشياء الانثوية القليلة والدلائل الاخرى على المحاولات المستميتة الفجّة لتأنيثها ، لم تزد الا في انعدام هويتها ، مضفيةً عليها ذلك الجو المكرور من سريع العبور والزوال الذي تتصف به الغرف في المنازل السرية . كان الفراش مرتّباً لم يمسس . وعلى الأرض لباس داخلي ملوث من الحرير الرخيص زهريّ اللون ، ومن دُرج خزانة نصف مفتوح تدلّى جورب نسائي واحد . وكانت النافذة مفتوحة ، ترى منها شجرة إجاص مزهرة نمت لصق البيت، تحتك أغصانها وتصرّ على حائطه ، والهواء الهَطِل المندفع برشاشه من النافذة يحمل الى الغرفة شذا من النوار يفوح بالهجران واليأس .

فقالت دلزي : « أترين ؟ ألم أقل انها بخير ؟ »

قالت المسز كمبسن : « بخير ؟ » ولحقت بها دلزي إلى داخل الغرفة ولمستها ، وقالت :

« تعالي واضطجعي في فراشك . سأجدها في عشر دقائق . »

فدفعتها المسز كمبسن عنها وقالت : « ابحثي عن الرسالة . لما فعلها كونتن ترك رسالة . »

— « لا بأس . سأبحث عنها . فتعالي إلى غرفتك . »

قالت المسز كمبسن : « لقـد علمت حالما سمّوها بكونتن ان هذا سيحدث . » واتجهت نحو خزانة الأدراج وأخذت تقلب الأشياء المتناثرة عليها – زجاجات عطر ، علبة بودرة ، قلم ممضوغ ، مقصّ إحدى شفرتيه مكسورة مستقر على لفاف مرفوّ اكتسى بالبودرة وتلوث بأحمر الشفاه . وقالت : « ابحثي عن الرسالة . »

قالت دلزي : « سأبحث . ولكن تعالي الآن . انا وجاسن سنجدها. فهيا إلى غرفتك . »

– « جاسن ؟ أين هو ؟ » وذهبت الى الباب ، تتبعها دلزي ، ثم الى البهو ، فإلى باب آخر وجدته مغلقاً ، فنادت من خلال البـاب : « جاسن . » فلم يأتها اي جواب . فجرّبت المقبض ، ونادت ثانية . ولكن لم يأتها اي جواب ، لأنه كان في الدولاب يقذف الى الـوراء بكل ما فيه من ثياب ، وأحذية ، وحقيبة . وبعـد ذلك خرج يحمل مقطعـاً منشوراً من لوح مُعشّق ووضعه على الأرض ودخل الدولاب ثانية ليخرج وبين يديـه صندوق معدني ، وضعه على الفراش ووقف ينظر إلى قفلـه المكسور ريثما أخرج من جيبه حلقة مفاتيح اختار منها مفتاحاً ، ووقف برهة اخرى والمفتاح المختار بيده ، وهو يتأمل القفل المكسور ، ثم اعاد المفاتيح الى جيبه وبحذر شديد أفرغ محتويات الصندوق على الفراش . وراح بنفس الحذر يفرز الاوراق ويلتقطها واحدة واحدة ويهزّها . ثم ادار الصندوق سافله عاليه وهزّه ايضاً وببطء اعاد الاوراق، ووقف ثانية يتأمل القفل المكسور منحني الرأس ، والصندوق بين يديه . وسمع من خارج النافذة عصافير الزريق تـدوّم وتنعق مروراً بالبيت ثم تنأى ونَعَقاتها تشطّ مع الريح ، وسيارةٌ تمرق في مكان ما ويتلاشى صوتها ايضاً . ونادته امه مرة اخرى من وراء الباب ، ولكنه لم يتحرك. ثم اعاد الصندوق الى الدولاب وقذف بالثياب فيـه . ونزل الدرج إلى التلفون . وفيما كان واقفاً هناك ينتظر والسماعة على أذنه ، نزلت دلزي

الدرج . ونظرت إليه دون ان تقف ، ومضت في سبيلها .

فُتح الخط ، فقال : « جاسن كمبسن يتكلم . » كان صوته غليظاً ناشزاً فاضطر إلى ان يعيد القول : « جاسن كمبسن ، » مسيطراً على صوته . وأردف : « هيء سيارة ، مع مفوض ، ان كنت لا تستطيع الذهاب ، في عشر دقائق . سآتي بنفسي — ماذا ؟ سرقة . في بيتي . أعرف من — سرقة ، اقول لك . هيء سيارة — ماذا ؟ أليست وظيفتك تنفيذ القانون ؟ — نعم ، سأكون عندك في خمس دقائق . وهيء السيارة للذهاب حالاً . وإن لم تفعل شكوتك لحاكم الولاية . »

صفق السماعة على موضعها ، وعبر غرفة الطعام ، والفطور الذي ما كاد يُمَس قد بَرد على المائدة ، ودخل المطبخ . كانت دلزي تملأ قربة الماء الحار ، وقد جلس بن ، وادعاً خالياً . وبقربه لستر ، قابعاً كالكلب اليقظ ، يأكل شيئاً ما . فمشى جاسن عبر المطبخ .

وقالت دلزي : « ألن تفطر ؟ » فلم يعرها بالاً ، « إذهب يا جاسن وتناول فطورك . » غير انه لم يلوِ على شيء . وصفق الباب الخارجي وراءه . ونهض لستر وأسرع الى النافذة ليتطلع منها .

وقال : « فظاعة ! ما الذي حدث فوق ؟ هل كان يضرب الآنسة كونتن ؟ »

قالت دلزي : « اقطع لسانك ، والله إن جعلت بنجي يعول الآن اشبعتك ضرباً على رأسك . أبقِه على هدوئه ما استطعت الى ان اعود . » واحكمت سدّ القربة وخرجت . وسمعاها تصعد الدرج ، ثم سمعا جاسن يمرّ بالبيت في سيارته . وبعد ذلك لم يكن في المطبخ من نأمة سوى نشيش الابريق ودقدقة الساعة .

قال لستر : « اتدري ما الذي اراهن عليه ؟ أراهن على انه ضربها. وانه خبطها على رأسها فذهب لاستدعاء الطبيب . هذا ما اراهن عليه. » وراحت الساعة تدق ، تك تك ، تك تك ، في وقار وعمق ، كأن

دلك نبض البيت المتداعي نفسه ؛ وبعد قليل ًورورت وتنحنحت ودقت ست مرات . فصعّد بن بصره اليهـا ، ثم نظر الى رأس لستر الشبيه بالرصاصة ، شبحي السواد في نور النافذة ، وأخذ يهزّ رأسه الى الأعلى ثانية وهو يريل . ثم جعل يئن .

فقال لستر دون ان يستدير : « اسكت يا معتوه . يظهـر انه لن يتاح لنا ان نذهب الى الكنيسة اليوم . » غـير ان بن ما انفك جالساً على الكرسي ، وقد تدلت يداه الكبيرتان الناعمتان بين ركبتيه،وهو يئن انيناً خافتاً . وفجأة انطلق منه صوتٌ بكاء ، عياطٌ وئيد مستمر عديم المعنى . فقال لستر : « صه . »والتفت اليه ورفع يده قائلاً : « أتريد لي ان اصفعك ؟ » الا ان بن بقي ينظر اليه ، وئيد الصراخ مع كل زفرة من تنفسه . فجاءه لستر وهزّه صارخاً به : « اسكت حالاً ! » ثم قال : « هاك . » وجرّه من على كرسيه ثم جر الكرسي ووضعه إزاء الموقد وفتح باب صندوق النار ودفع بن إلى الكرسي . فكانا أشبه بساحبة تنخز ناقلة ثقيلة الحركة في مرسى ضيّق . وجلس بن من جديد مواجهاً الباب الورديّ ، فهجع . ثم سمعا الساعة ثانية ، ودلزي بطيئة الخُطى على الدرج . وحالما دخلت أخذ يئنّ مرة أخرى . ثم رفـع عقيرته .

قالت دلزي : « ماذا فعلت به ؟ لم لا تتركه وشأنه هذا الصباح من دون كل ايام السنة ؟ »

قال لستر : « لم افعل له شيئاً . لقد أفزعه المستر جاسن . هذا هو السبب . هل قتل الآنسة كونتن ؟ »

قالت دلزي : « صه يا بنجي . »فسكت . وذهبت إلى النافذة وتطلعت منها إلى الخارج ، وقالت : « هل كفّ المطر ؟ »

— « نعم ، منذ مدة . »

— « اذن فاخرجا قليلاً . ما فرغت من تهدئة الست كارولاين الا

هذه اللحظة . »

ـ « أنذهب إلى الكنيسة اليوم ؟ »

ـ « سأعلمك بذلك في حينه . ابقه بعيداً عن الدار إلى ان اناديك.»

ـ « أنذهب إلى المرعى ؟ »

ـ « لا بأس . ما دمت تبقيه بعيداً عن الدار لقد تحملت اقصى ما استطيع تحمله . »

ـ « امرك . اين ذهب المستر جاسن ، يا أماه ؟ »

ـ « وهل هذا من شؤونك ؟ » قالت دلزي ذلك واخــذت تجاو المائدة . « هس يا بنجي . سيخرج بك لستر للعب . »

وقال لستر : «ماما ، ما الذي فعله بالآنسة كونتن ؟ »

ـ « لا شيء مطلقاً . هيا اخرجا من هنا . »

ـ « اراهن على انها ليست هنا . »

فحدجته دلزي بنظرة منها وقالت : « كيف تعلم انها ليست هنا ؟»

ـ « رأيناها انا وبنجي تنزلق خارجةً من النافذة ليلة البارحة . أليس كذلك يا بنجي ؟ »

قالت دلزي وهي تحدّق به : « صحيح ؟ »

ـ « رأيناها تفعل ذلك كل ليلة ، تتدلى الى شجرة الإجّاص وتنزل عليها . »

ـ « لا تكذب علي ، يا اسود . »

ـ « لست اكذب . اسألي بنجي . »

ـ « لم لم تذكر شيئاً عن ذلك اذن ؟ »

قال لستر : « ليس ذلك من شأني . انا لا اريـد ان أُقحم نفسي في شؤون القوم البيض . هلمّ يا بنجي . لنخرج . »

وخرجا . ومكثت دلزي واقفة عند المائدة ، ثم ذهبت وغسلت اطباق الافطار وتناولت فطورها ونظّفت المطبخ . ثم نزعت وزرتها وعلقتهـــا

واتجهت صوب اسفل الدرج وانصتت . فلم تسمع اي صوت . فارتدت معطفها وقبعتها ومضت إلى كوخها .

كان المطر قد انقطع . وطفق الهواء يهبّ الآن من الجنوب الشرقي ، ويتقطع في السماء رقعاً زرقاء . وعلى القمة من تـل يرى وراء الاشجار وأسطح البلدة وقبابها استقر ضياء الشمس كثوب شاحب ، ثم تلاشى . وحمل الهواء صوتَ جرس ، واذا اجراس اخــرى ، كأنها استجابت لتلك الاشارة ، تعيد ذلك الصوت وتكرره .

انفتح باب الكوخ وبرزت دلزي ، مرة اخرى في عباءتها العنابيــة وفستانها الارجواني ، مرتدية قفازين ابيضين ماوثين يمتدان حتى الكوع منها ، ودون لفافة رأسها هذه المرة . ذهبت الى فناء الدار ونادت لستر ، وانتظرت قليلاً ثم اتجهت نحو البيت ودارت حوله الى باب السرداب ، ماشية لصق الحائط ، واجالت نظرها في المدخل . فوجـدت بن جالساً على الدرجات ، وامامه لستر مقرفصاً على الأرض الرطبة وقد امسك في يسراه بمنشار ، احدودبت قليلاً بضغط من يده ، وهو يضرب جانبـه بمطرقة الخشب المهترئة التي كانت تطرق بها الفطائر لأكثر من ثلاثـين سنة خلت . فأطلق المنشار رنة رخوة وحيدة انقطعت بسرعـة لا حياة فيها ، تاركة المنشار على شكل منحن رقيق براق بين يد لستر والأرض . وبقي محدودباً مغلق السرّ ، ولستر يقول :

« هكذا كان يفعلها . وقد وجدت الشيء الصحيح لضربه به . »

فقالت دلزي : « أهذا ما تفعله اذن ؟ عليّ بتلك المطرقة حالاً . »

قال لستر : « لم أصبها بأذى . »

— « عليّ بها حالاً . وعد بذلك المنشار الى المكان الذي اخذته منه . »

فوضع المنشار عنه وأتاها بالمطرقة . واذا بن يعول ثانية ، عويلاً مديداً يائساً . لا شيء فيه . مجرد صوت . لعلــه الزمن والظلم والحزن كلها وقــد تحوّلت صوتاً لبرهة من الزمن باتفاق بين اجرام السماء في

افلاكها .

قال لستر : « اصغي إليه ، ما زال على هذه الحال منذ ان أخرجتنا من البيت . لست ادري ما الذي دهاه هذا الصباح . »

قالت دلزي : « احضره هنا . »

قال لستر : « بنجي ، تعال .» ونزل الدرج وأخذ بذراعه . فتبعه مطيعاً ، وهو في عويل كالجثير المتئد الذي تطلقه السفن ، الذي يخيّل للمرء انه يبــدأ قبل ان ينطلق الصوت نفسه ، ويكف قبل ان ينقطع الصوت نفسه .

قالت دلزي : « اركض وجيء بقبعته . لا تحدث اي صوت قـد تسمعه السيدة كارولاين . هيّا ، اسرع . لقد تأخرنا . »

— « ستسمعه على كل حال ، اذا لم توقفيه . »

— « سيكف حالمــا نغادر المكان . إنه يشمّها . هذا هو السر في عويله . »

— « يشمّ ماذا يا جدتي ؟ »

— « اذهب وجيء بقبعته . » فذهب لستر . ووقفا في مدخل السرداب ، وبن اخفض منها بدرجة . وقد انتثرت السماء برقع جارية تجر ظلالهــا السريعة من اعماق الحديقة الشعثاء ، على السياج المحطّم وعبر فناء الدار . فأخذت دلزي تمسّد شعر بن على رسلها ، وتسوي الغرة التي على جبينه ، وهو يعول هادئاً غير مستعجل . وقالت دلزي : « هس. هس. سنذهب بعد دقيقة . هس . » وراح يعول هادئاً على رسله .

وعاد لستر لابساً قبعة قش جديدة محاطة بشريط ملون وحاملاً قبعة من قماش . وبانت القبعة للعيان كأنها تعزل جمجمة لستر ، كما يعزلها ضوء ساطع ، بكل ما فيها من سطوح وزوايا متميزة وفي شكلها من التميز المستقل ما يجعل المرء يتوهم لأول وهلة ان القبعة تجثم على رأس شخص آخر وقف خلف لستر مبــاشرة . فنظرت دلزي الى القبعة ،

وقالت :

« لِمَ لم تلبس قبعتك القديمة ؟ »

— « لم استطع ان اجدها . »

— « لا ريب . ولا ريب انك تدبرت الامر ليلة البارحة لكي لا تجدها اليوم . يظهر انك انتويت اتلاف هذه القبعة . »

— « اوه ، جدتي ، لن ينزل المطر ثانية . »

— « وما أدراك بذلك ؟ هيا احضر قبعتك القديمة واترك هذه . »

— « اوه جدتي . »

— « اذن اذهب واحضر المظلة . »

— « اوه ، جدتي . »

— « اختر لك ما يحلو . إما القبعة القديمة ، او المظلة . ولا يهمني أيهما تختار . »

فعاد لستر الى الكوخ ، وبن مستمر في عويله .

وقالت دلزي : « هيّا يا بنجي . لهما ان يلحقا بنا : لنذهب ونسمع الترتيل . »ودارا حول البيت ، صوب البوابة . وراحت دلزي تكرر « هس » بين الحين والحين وهما يسيران الى ان بلغا البوابة . ففتحتها دلزي ، ولستر يسير وراءهما ،حاملاً المظلة ، وبرفقته امرأة. «لقد جاءا» قالت دلزي . واجتازا البوابة ، وقالت : « والآن — » فكف بن . ولحق بهما لستر وامه . وقد ارتدت فروني فستاناً من الحرير الازرق الزاهي وقبعة مثقلة بالزهور . وهي امرأة نحيلة ، ووجهها مفلطح رائق .

قالت دلزي : « تلتفين بما كلفك شغل ستة أسابيع . ما تفعلين لو أمطرت ؟ »

قالت فروني : « أتبلل ، ما استطعت يوماً ان اوقف المطر . »

قال لستر : « جدتي لا تتحدث إلا عن سقوط المطر . »

— « ان لم اقلق أنا عليكم ، فمن يقلق ؟ » قالت دلزي . « هيا بكم . لقد تأخرنا . »

قالت فروني : « القس شيغوغ سيعظ اليوم . »

— « صحيح ؟ ومن هو ؟ »

قالت فروني : « واعظ مشهور ، من مدينة سان لويس . »

— « هه . ان ما يحتاجون اليه هو رجل يستطيع ان يضع مخافة الله في قلوب هؤلاء العابثين من الزنوج الشباب . »

— « القس شيغوغ سيعظ اليوم . هكذا يقولون . »

وساروا في الشارع الهادىء ، وعلى طوله زرافات من القوم البيض يتمشون في ملابسهم الزاهية باتجاه الكنيسة ، في عصف من الاجراس ، تشرق عليهم بين الفينة والأخرى شمس واجفة متقطعة ، والريح تأتيهم في هبّات من الجنوب الشرقي ، نديةً قارسة بعد ايام الدفء .

فقالت فروني : « ليتك تقلعين عن المجيء به الى الكنيسة يا اماه . ان القوم ينتقدون . »

فقالت دلزي : « اي قوم ؟ »

— « لقد سمعتهم ينتقدون . »

فقالت دلزي : « اعرف القوم الذين تعنين . حُقَراء البيض . هؤلاء هم . انهم يعتقدون انه غير لائق بكنيسة البيض ، ولكن كنيسة السود لا تليق به . »

— « انهم ينتقدون ، مهما قلتِ . »

— « اذن حوّليهم الي . وقولي لهم ان الله سبحانه وتعالى لا يهمه ان كان راشداً ام لا . ولا يهم احداً ذلك الا الحُقَراء من البيض . »

كان يتفرع عن الشارع شارع آخر في زاوية قائمة، ينحدر ثم يصير الى طريق غير مرصوف . وعلى كلا الجانبين تهبط الأرض بانحدار اشدّ : فهي منبسط فسيح ترقّطه اكواخ صغيرة تستوي اسطحها الملوّحة

مع قمة الطريق . وكلها مغروزة في بقع لا عشب فيهـا تضجّ بضروب الحطام ، من قرميد ، وألواح خشب ، وصحون ، وكل ما كان يوماً ما مفيداً نافعاً . والنبت القليل الذي فيها ليس الا الخضرة المهملة، والاشجار كلها توت وجمّيز وخرنوب — وهـــي اشجار تساهم ايضاً في اليباب الدميم المحيط بالبيوت ، اشجار يبدو حتى إزهارها كأنه بقية حزينـــة عنيدة من بقايا ايلول ، كأنما الربيع مرّ بها مرّ الكلام،ليدعها تتغذّى على رائحة الزنوج القائمة فـــيما بينهم ، تلك الرائحة القوية التي لا رائحة مثلها .

ومن مداخل البيوت كان الزنوج يخاطبونهم اذ يمـــرون بهم ، ولا سيما دلزي :

— « اختي دلزي ، كيف حالك اليوم ؟ »

— « بخير . هل انت بخير ؟ »

— « بخير والحمد لله . »

كانوا يخرجون من اكواخهم ويجهدون في صعود السدّة الى الطريق— رجال تتراوح ألوانهم بين الاسود والبنيّ العميق، على صدورهم سلاسل ساعات ذهبية وفي ايديهم احياناً عصيّ للمشي ؛ وشباب تسربلوا بالأزرق العنيف الرخيص او الثياب المقلّمة والقبعات المتبخترة ؛ ونساء يهسهسن واطفال يلبسون ثياباً مستعملة ابتيعت من البيض، ينظرون الى بن بتخفي حيوانات الليل :

— « اراهن انك لن تدنو منه وتلمسه . »

— « ولم لا ؟ »

— « اراهن انك تخاف منه . »

— « ولكنه لا يؤذي الناس . مجرد معتوه . »

— « وكيف لا يؤذي المعتوه الناس ؟ »

— « هذا المعتوه لا يؤذيهم . وقد لمسته . »

– « اراهن انك لن تلمسه الآن . »

– « لأن دلزي تراني . »

– « لن تلمسه مهما كان . »

– « لا يؤذي الناس . مجرد معتوه . »

وكانت دلزي كلما خاطبها الكبار ، الا اذا كانوا طاعنين في السن، تسمح لفروني بالجواب عنها :

– « امي متوعكة هذا الصباح . »

– « شيء مؤسف . ولكن القس شيغوغ سيشفيها . لسوف يمنحها الراحة ويزيح عنها الأعباء . »

ثم جعل الطريق يرتفع ، مفضياً الى مشهد أشبه بمشهد مرسوم على خلفية مسرح . فالطريق هنا يشق رقعة من التراب الأحمر تتوجها اشجار السنديان ، ثم ينتهي فجأةً ، كشريط مقطوع . وعلى مقربة منه كنيسة لوحتها الأيام تشمخ بقبتها البلهاء اشبه بكنيسة مرسومة ، والمشهد برمته مسطّح بغير منظور ، لا يختلف عن لوحة مرسومة وضعت في الطرف الأقصى من الارض المنبسطة ، إزاء إشراق الفضاء العاصف وشهر نيسان والضحى العارم بالأجراس . وراحوا يتجمعون صوب الكنيسة في تؤدة الوافدين الى صلاة الأحد . فتدخل النساء والأطفال ، بينما يتريث الرجال في الخارج ويتحدثون في جموع مستكينة ، الى ان توقف الجرس عن القرع . واذ ذاك دخل الرجال ايضاً .

كانت الكنيسة قد زُيّنت بزهور شتيتة قطفت من شجيرات الأسيجة وحدائق المطابخ ، وبشرائط من ورق « الكريب » الملون . وقد عُلّق فوق المنبر جرس مطروق من اجراس عيد الميلاد ، يطوى كالأكورديون. وكان المنبر خالياً ، وان يكن المرتلون قد اخذوا أماكنهم ،وهم يروّحون بالمراوح بالرغم من ان الطقس لم يكن حاراً .

تجمعت الأغلبية من النساء علي جانب من الغرفة ، وهن يتحدثن .

ثم دق الجرس مرة واحدة فتفرقن الى مقاعدهن، وجلس جمهور المصلين، في توقّع وتطلّع . ودق الجرس ثانية مرة واحدة . فنهض جوق المرتلين وشرعوا في الترتيل وادار المصلون كلهم الرؤوس دفعة واحدة إذ دخل ستة أطفال — اربع بنات بضفائر مشدودة ضفرت فيها قطع صغيرة من القماش كالفراشات ، وولدان كسي رأساهما بالزغب — وساروا في وسط الكنيسة تَنْظُمهم معاً زهور وشرائط بيضاء ، يتبعهم رجلان الواحد خلف الآخر . وقد كان الثاني منهما رجلاً كبير الجثة ، بلون القهوة الفاقع ، يفعل في انفس مشاهديه بما يرتديه من معطف « فراك » ورباط أبيض . له رأس جليل مهيب ، ورقبة تتثنى على ياقته في ثنيات سخية. غير انه كان مألوفاً لديهم ، فبقيت الرؤوس ملوية حتى بعد مروره ، ولم يدركوا ان الكاهن الزائر قد دخل عليهم الى ان توقف الجوق عن الترتيل ، فلما رأوا الرجل الذي كان يتقدم كاهنهم يصعد المنبر وهو ما زال امامه ارتفع في ارجاء المكان صوت لا يوصف ، تنهدة، صوت يعبر عن الدهشة والخيبة .

كان الزائر قميئاً ، يلبس معطفاً رثاً اسود ، وقد تجعّد وجهه الأسود وتغضن كوجـه قرد صغير عجوز . وفيما راح المرتلون ينشدون مرة اخرى ونهض الاطفال الستة ليرتلوا في همسات رفيعة واجفة عديمة النغم، كان المصلّون يرقبون فيما يشبه الحرج هذا الرجل لا يملأ العين وقد جلس كالفلاح القزم إزاء ضخامة الكاهن الجليلة . وما برحوا ينظرون اليه في حرج وغير تصديق حتى نهض الكاهن وقدمه بنبرات عميقة جهورية زادت حلاوتها وبلاغتها في ضآلة الزائر .

— « ويأتون بهذا الرجل عبر المسافات الطويلة من سانت لويس! » همست فروني .

فقالت دلزي : « لقد وجدت ان الله يستخدم وسائط اصغر من ذلك ، جلّت قدرته . » ثم قالت لبن : « هس الآن . سيرتلون ثانية

بعد دقيقة . »

حين نهض الزائر ليخطب بدت لهجته اشبه بلهجة البيض . كان صوته مستوياً بارداً ، يبدو أضخم من ان يصدر عنه ، فأصغوا اليه استطلاعاً اول الامر ، كمن يصغي الى قرد يتكلم . واخذوا يرقبونه كأنهم يرقبون رجلاً يمشي على حبل . ونسوا ضآلة شكله لانهماكهم في براعته اذ راح يركض ويتوازن ويرفّ على سلك صوته القرير المتئد ، حتى اذا ما اتى اخيراً بحركة كانزلاقة الطير المسفّ ليحطّ قرب محمل القراءة وقد وضع عايه ذراعاً على مستوى كتفه وتجرد جسمه القرديّ من كل حركة كالمومياء او السفينة المفرّغة ، تنهد المصلّون كأنهم استيقظوا من حلم جماعي وتململوا قليلاً على مقاعدهم . وفيما وراء المنبر استمر المرتلون في الترويح .

ثم قال صوت : « ايها الاخوة . »

لم يكن الواعظ قد تحرّك . وذراعه ما زالت ممتدة على المحمل ، وبقي على ذلك الوضع وصوته يتلاشى في أصداء عميقة تتردد بين الجدران ، مختلفاً عن صوته السابق كما يختلف النهار عن الليل ، فيه رنة حزينة كرنة البوق الصادح ، تغوص في قلوبهم لتنطق فيها من جديد بعد ان تنتهي الى اصداء متراكمة متلاشية .

وقال مرة اخرى : « ايها الاخوة ايتها الاخوات . » وأزاح الواعظ ذراعه واخذ يمشي جيئة وذهاباً امام المحمل ، ويداه مضمومتان وراء ظهره ، قدّاً ضامراً ، محدودباً على نفسه كقد رجل اعتاد منذ امد بعيد ان يقارع الارض التي لا ترحم . « ان في نفسي دم الحَمَل* وذكراه ! » واستمر على جيئته وذهابه تحت شرائط الورق المضفور وجرس عيد الميلاد ، محدودباً ، ويداه مضمومتان وراء ظهره . لقد كان كصخرة

---

* يرمز به الى السيد المسيح ، « حمل الله الحامل خطايا العالم » .

(المترجم)

صغيرة متآكلة تفيض عليها امواج صوته المتعاقبة . وبدا كأنه يغـذو بجسده ذلك الصوت الذي غرز اسنانه في لحمه كشيء من عالم الجنّ .
كما بدا المصلون وكأنهم يرقبونه بأعينهم اذ راح صوته يفترسه ، الى ان غدا لا شيء وغـدوا هم لا شيء ولم يبق ثمة من شيء حتى الصوت بل بقيت عوضاً عنه قلوبهم يخاطب بعضها بعضاً انغاماً واهازيج تخطت الحاجة إلى الالفاظ ، فلما آل به الامر إلى الاتكاء على محمل القراءة ، وارتفع وجهه القرديّ وصار في وضع كالصليب الوادع المعـذب الذي يسمو على رثاثته وضآلته ويجعله غير ذي شأن ، انطلق منهم زفير انين طويل ، وصاحت امرأة بصوت شاهق رفيع : « رحماك،يا يسوع ! »

واذ راحت الغيوم تركض في السماء كانت النوافذ العتـِمة الهزيلة تتوهج وتخمد في تعاقب واجس . ومرت سيارة في الطريق خـارج الكنيسة ، تكدّ في الرمل ، ثم تلاشت . في حـين جلست دلزي جلسة منتصبة ، ويدها على ركبة بن . وتدحرجت دمعتان على خديها المهدّمين ، وهمـا تدخلان وتخرجان من ملايين التجاعيد ، تجاعيد التضحية ونكران الذات والزمن .

— « أيها الإخوة ! » قالها الواعظ بهمس اجش دون ان يتحرك :
فقالت المرأة بصوت خفيض : « رحماك ، يا يسوع ! »
وجلجل صوته من جديد كالنفير : « ايها الاخوة والاخوات ! »
وأزاح ذراعه وانتصب في وقفته ورفع يديه: « ان في نفسي دم الحمل وذكراه ! » ولم يلحظوا كيف ومتى تحولت نغمته ولهجتـه الى نغمة الزنوج ولهجتهم ، وظلوا جلوساً يترنحون قليلاً في مقاعـدهم والصوت يملك عليهم أنفسهم .

— « حين تمر السنون والحقب الباردة الطويلة اقول لـكم ، ايهـا الاخوة ، حين تمر السنون والحقب الباردة الطويلة — وإنيّ لأرى النور وأرى الكلمة ، أيها الخاطىء المسكين ! لقد انقرضت وزالت في مصر

العربات المتأرجحة ، والاجيال انقرضت أثراً بعد عين . كان فيما مضى رجل غنيّ : اين هو ، أيها الاخوة ؟ كان فيما مضى رجل فقير : اين هو ، أيتهـا الاخوات ؟ آه ، إني اقول لكم ، إن لم يكن في قلوبكم لَبَنُ الخلاص القديم وطَلّه ونداه حين تمر السنون والحقب الباردة الطويلة ! »

— « رحماك ، يا يسوع ! »

— « لكم أقول ايها الإخوة ، ولكنّ اقول ايتها الأخوات ، سيأتي زمن ، يقول فيه الخاطىء المسكين : لأضع عني ، مع الرب الإلـه ، لأضع عبثي عني . وما الذي سيقول يسوع عندئذ ، ايها الاخوة ؟ أيتها الاخوات ؟ أفي نفسك دم الحمل وذكراه ؟ لأنني لن أرهق السماء بالاعباء ! »

وبحث في سترته واخرج منديلاً جفّف به وجهه . ومن المصلين ارتفع صوت جماعي خفيض : « مممممممممممم ! »

وقال صوت المرأة : « رحماك ، يسوع ! يسوع ! »

— « ايها الاخوة ! انظروا الى اولئكم الاطفال الصغار الجالسين هناك. كان يسوع يوماً ما مثلهم . وقد عانت امه المجد والآلام . ولعلها كانت أحياناً تحتضنه اذا ما ارخى الليل سدوله ، والملائكة تهدهده بأناشيدها لينام . ولعلها نظرت خارج الباب فرأت شرطة الرومان تمر . » ومشى جيئة وذهاباً ، وهو يجفف وجهه . « اسمعوا ، أيها الاخوة ! اني لأرى ذلك اليوم . وقد جلست مريم بالباب وفي حضنها يسوع ، يسوع الصغير . كأولئك الاطفال ، يسوع الصغير . واني لاسمع الملائكة ترنم بتراتيل السلام والمجد . وأرى العينين المغمضتين ، وأرى مريم تقفز فزعة ، وأرى وجه الجندي وهو يقول : سنقتل ! سنقتل ! سنقتل طفلك الوليد يسوع ! وإني لأسمع نشيجَ الأمّ ونوْحَها بدون خلاص الله وكلمة الله ! »

— « مممممممممممممممم !.. يسوع ! ويسوع الوليد ! »
ويرتفع صوت آخر يقول :

« إني أرى ، يا يسوع ! رحماك ، إني أرى ! » وتلاه صوت آخر ، دونما كلمات ، كالفقاقيع تنطلق من الماء .

— « إني أراها ، ايها الأخوة ، اني أراهــا . إني لأرى المشهد المريع الذي يُفقـد الأبصار ! إني أرى الجلجلة ، واشجارها الثلاث المقدسة ، ارى اللص والقاتل وأقل الإثنين ؛ واسمع التفاخر والتباهي : « ان كنتَ انت المسيح ، ارفع شجرتك وامشِ ! » واسمع ندب النساء والنوح عشية ذلك اليوم ؛ اسمع البكاء والعويل والله مشيحاً بوجهه يقول : لقد قتلوا يسوع ، ابني الحبيب لقد قتلوه ! »

— « ممممممممممممم ... يا يسوع ،اني أرى ، يا يسوع ! »

— « ايها الخاطىء الأعمى ! إخوتي ، اقول لكم ، اخواتي اقول لكنّ ، حين يشيح الربّ القدير بوجهه ، ليقول : لن أرهق السماء بالأعباء ! بوسعي ان ارى الله المفجوع يُغلق بابه ؛ وأرى الفيض العظيم يتلاطم دونه ؛ وارى الظلام والموت الأبدي يحلاّن بالأجيال . وإذا ايها الأخوة ، اجل ايها الأخوة ، ما الذي أرى ؟ ما الذي اراه يا أيها الخاطىء المسكين ؟ اني ارى القيامة والنور ؛ ارى يسوع الوديع يقول : « لقد قتلوني لكي تحيا من جديد ؛ لقد متُّ لكي لا يموت ابداً كل من رأى وآمن . » وإني أيهــا الاخوة لأرى انبلاج يوم القيامة واسمع ابواق الذهب تصدح بالمجد ، والموتى يُبعثون ممن كان في أنفسهم دم الحمل وذكراه ! »

في خضمّ الأصوات والأيدي ظل بن جالساً ، في نشوة من نظراته العذبة الزرقاء . ودلزي منتصبة الجلسة قربه ، تبكي مستحثةً على رساها متحررة السريرة بدم الحمل وذكراه .

ولما خرجوا وساروا في وهج الظهيرة طوال الطريق الرملي والمصلّون

يتفرقون ويتحدثون متمهلّين ثانية جماعات جماعات ، استمرت دلزي في بكائها ، غير حافلة بما يقوله الناس .

ـ « واعظ رائع ،يا أماه ! ولكنه لم يملأ العين في البدء. أماه هس ! »

ـ « لقد رأى السلطان والمجد . »

ـ « اي نعم . لقد رآهما وجهاً لوجه رآهما . »

لم تنبس دلزي بحسّ ، ولم يرتعش وجهها والدموع تجري في مجاريها الهابطة الملتوية ، ومشت مرفوعة الرأس دون ان تحاول مسح دموعها .

فقالت فروني : « لماذا لا تكفين عن ذلك يا أماه ؟ وهؤلاء الناس يرقبوننا ؟ بعد لحظات سنمرّ بالقوم البيض . »

فقالت دلزي : « لقد رأيت البداية والنهاية . لا عليك . »

ـ « اية بداية واية نهاية ؟ »

فقالت دلزي : « لا عليك . لقد رأيت البداية ، وها أنا الآن ارى النهاية . »

بيد انها ، قبل بلوغهم الشارع ، وقفت ورفعت تنورتها ومسحت عينيها بحاشية أعلى تنوراتها الداخلية . ثم استأنفوا السير ، وبن يشحط قدميه بجانب دلزي ، وهو يرقب لستر يعبث قدّامهم ، والمظلّة في يده وقبعة القش على رأسه مائلة باستهتار في ضوء الشمس ، أشبه بكلب كبير غبي يراقب كلباً صغيراً ماهراً . وحالما وصلوا البوابة واجتازوها ، شرع بن بالأنين ثانية ، فتوقفوا جميعاً برهة وارسلوا أبصارهم الى اقصى الممشى ، الى البيت المربع الذي تقشر طلاؤه ومدخله المُعمّد المتهافت

وقالت فروني : « ما الذي حدث هناك اليوم ؟ أمرٌ ما قد حدث. »

قالت دلزي : « لم يحدث شيء ، اعتني بشؤونك ودعي البيض يعتنون بشؤونهم . »

قالت فروني : « امر ما قد حدث ، وقد سمعته اول ما سمعت هذا

الصباح . ولكن ما لي ولهم ؟ »
قال لستر : « انا اعرف ما حدث . »
قالت دلزي : « انك تعرف اكثر مما هو في صالحك ، ألم تسمع فروني الآن تقول ما لك ولهم ؟ هيّا خذ بنجي خلف البيت وحافظ على هدوئه الى ان اهيىء الغداء . »
قال لستر : « اني اعرف أين الآنسة كونتن . »
قالت دلزي : « اذن دع معرفتك لنفسك ، وحالما تحتاج كونتن الى نصيحة منك ، فسأدعك تعرف . هيا اذهبوا كلكم والعبوا خلف البيت . »
— « انت تدرين ما الذي سيفعله بنجي حالما يبدأون اللعب بالكرة هناك . »
— « لم يحن وقتهم بعد . وإلى ان يحين يكون تي بي قد جاء ليخرج به في العربة . والآن ، عليّ بتلك القبعة الجديدة . »
اعطاها لستر قبعته وذهب بصحبة بن عبر الفناء الخلفي ، وبن ما زال يئن ، ولكن دون ان يرفع صوته . ومضت دلزي وفروني الى الكوخ ، وبعد قليل ظهرت دلزي ثانية في فستانها الحائل الرخيص واتجهت نحو المطبخ . كانت النار قد خمدت ، وليس في البيت نأمة . فلبست وزرتها وصعدت الى فوق ، وما من نأمة قط . وغرفة كونتن ما تزال على وضعها كما تركوها . فدخلتها والتقطت اللباس الداخلي وزجّت بالجورب في الدّرج وأغلقته . وكان باب المسز كمبسن مغلقاً ايضاً ، فوقفت قربه ، وانصتت . ثم فتحته ودخلت ، مقتحمة فوحاً طاغياً من الكافور . وكانت الستائر مسدلة ، والغرفة شبه مضاءة ، وكذلك السرير ، فحسبت اول الأمر ان المسز كمبسن نائمة وأوشكت ان تغلق الباب ، واذا الاخرى تتكلم ، وتقول :
« ها ، ما الأمر ؟ »

قالت دلزي : « هذه انا ، أتريدين شيئاً ؟ »

فلم تجب المسز كمبسن، وبعد قليل قالت دون ان تحرك رأسها أبداً : « أين جاسن ؟ »

— « لم يعد بعد . ماذا تريدين ؟ »

لم تقل المسز كمبسن شيئاً . وكالكثيرين ممن يتصفون بالبرود والخَوَر، فانها ساعةَ جوبهت بالنكبة التي لا تُدحض ولا تُنقض انتبشت من مكان ما جلداً وقوة . وقد استقر في ذهنها اعتقاد راسخ بشأن الحدث الذي لمّا يُسبرْ غورُه . فقالت : « هل وجدتها ؟ »

— « وجدت ماذا ؟ ما الذي تتحدثين عنه ؟ »

— « الرسالة . ألم يكن لديها من الاعتبار ما يدفعها على الأقل الى ان تترك لنا رسالة ؟ حتى كونتن فعل ذلك . »

فقالت دلزي : « ما الذي تتحدثين عنه ؟ ألا تعلمين انها بخير ؟ أراهنك انها ستدخل من هذا الباب قبل حلول الظلام . »

— « كلام فارغ . انها في الدم . وفي البنت ما في خالها . او امها. ولست أدري أي الشرين أهون . ولا يهمني . »

— « ما الداعي الى اصرارك على هذا الكلام ؟ وما الذي يجعلها تفعل شيئاً من هذا القبيل ؟ »

— « لست أدري . ما الذي جعل كونتن يفعلها ؟ بربك، اي سبب في الدنيا حدا به الى ذلك ؟ ألعله أراد ان يتحدى مشيئتي ويسيء الي ؟ ليكن الله من يكون ، فانه لن يسمح بذلك . اني سيدة من كرام الناس . قد لا تصدقين ذلك حين تنظرين الى أولادي . ولكنني سيدة من كرام الناس . »

قالت دلزي : « انتظري تري . ستكون هنا قبل حلول الليل ، ولسوف تكون في فراشها ذاك . » لم تقل المسز كمبسن شيئاً ، والقماشة الخضلة بالكافور على جبينها . ورداؤها الاسود عند القدمين من فراشها .

ووقفت دلزي ويدها على مقبض الباب .

فقالت المسز كمبسن : « ماذا تريـــدين ؟ أتنـوين ان تهيئي بعض الغداء لجاسن وبنجامين ، ام لا ؟ »

— « لم يأت جاسن بعد . سأهيء شيئاً . أواثقـة أنت من انك لا تريدين شيئاً ؟ اما زالت قربتك حارة ؟ »

— « ناوليني توراتي . »

— « اعطيتك اياها هذا الصباح ، قبل خروجي . »

— « وضعتها على حافة الفراش . اتتوقعين ان تظل هناك طويلاً ؟»

فذهبت دلزي الى السرير وبحثت في الظلال التي تحت حافته وعثرت على التوراة منكفئة على وجهها . فسوّت الصفحات المثنية ووضعت الكتاب على الفراش ثانية . والمسز كمبسن ما زالت مغمضة العينين ، وشعرها والوسادة من لون واحد ، فبدت تحت الفوطة المشبعة بالدواء اشبه براهبة عجوز تصلي . فقالت ، دون ان تفتح عينيها : « لا تضعيها هنا ثانية، حيث وضعتها من قبل . اتريدين ان تكرهيـني على الخروج من فراشي لكي التقطها عن الأرض ؟ »

فأخذت دلزي الكتاب ومدت يدها فوقها ووضعته على طرف الفراش العريض . وقالت : « وكيف تقـرأين في هـذه العتمة ؟ أأرفـع لك الستارة قليلاً ؟ ».

— « لا . دعيها عنك . انزلي وهيئي شيئاً لجاسن يأكله . »

فخرجت دلزي ، مغلقة الباب وراءها ، وعادت إلى المطبخ . كان الموقد خامداً تقريباً . وإذ وقفت على مقربة منه دقت الساعة المعلقة فوق الخزانة عشر مرات ، فقالت بصوت مرتفع : « الساعة الواحدة ، لن يأتي جاسن . لقد رأيت البداية والنهاية . » قالت وهي تتأمل الموقـــد الخـــامد ، « رأيت البداية والنهاية . » ووضعت على مائـدة قربها بعض الاطعمة الباردة . وأخذت وهي تتنقل بين أرجـاء المطبـــخ تنشد احدى التراتيل . فأنشدت النغم كله بأن كررت واعادت البيتين الأولين.

ولما انتهت من مد الطعام ذهبت الى الباب ونادت لستر، وبعد برهة جاء لستر وبن ، وبن ما زال يئن بعض الشيء كأنه يئن لنفسه

قال لستر : « ما كفّ لحظة واحدة . »

قالت دلزي : « تعالوا كلوا . جاسن لن يأتي للغداء . » فجلس لستر وبن الى المائدة . اما بن فكان مستطيعاً ان يدبر امره اذا كان الطعام ناشفاً ، الا ان دلزي ، رغم كون الطعام بارداً ، ربطت فوطة حول عنقه . فراح هو ولستر يأكلان ، ودلزي تتنقل في المطبخ وتكرر البيتين اللذين تتذكرهما من الترتيلة . وقالت « لنأكل كلنا . لن يأتي جاسن الى البيت . »

لقد كان جاسن في تلك اللحظة على بعد عشرين ميلاً من البيت . فحالما غادره قاد سيارته بسرعة إلى البلدة،وأدرك جماعات الناس المتهادية في سبيلها إلى الصلاة والاجراس القارعة الآمرة تملأ الجو . فقطع الميدان الخالي وانعطف إلى شارع أضيق بدا فجأة أشد هدوءاً حتى في تلك الساعة ، وأوقف سيارته أمام منزل ذي هيكل خشبي وسار في الممشى المحفوف بالورد إلى سقيفة المدخل .

كان وراء الباب الشبكي أناس يتكلمون . ولما رفع يده ليقرع الباب سمع وقع خطى ، فسحب يده وتقدم رجل يلبس سروالاً قطنياً اسود وقميصاً ابيض مُنَشّاً الصدر بدون ياقة ، وفتح الباب . كان شعره الأشهب اشعث عنيف الحيوية وعيناه الرماديتان مدورتين براقتين كعيني ولد صغير . فأخذ يد جاسن وسحبه الى الداخل وهو ما زال يهزّها .

وقال : « تفضل ، تفضل وادخل . »

قال جاسن : « أمستعد انت للذهاب الآن ؟ »

— « تفضل وادخل ، » قال الآخر ، وهو يدفعه من كوعه الى غرفة جلس فيها رجل وامرأة . « انت تعرف زوج ميرتل ، اليس كذلك ؟ جاسن كمبسن ، فيرنُن . »

— « نعم ، » قالها جاسن دون أن ينظر الى الرجل ، ولما جرّ الشريف كرسياً عبر الغرفة ، قال الرجل :

« سنخرج لنترك لكما المجال للكلام . هيّا ، يا ميرتل . »

فقال الشريف : « لا ، لا . لا حاجة الى ذلك . لا احسب الأمر بهذه الخطورة يا جاسن ؟ تفضل واجلس . »

قال جاسن : « سأخبرك ونحن في طريقنا ، البس قبعتك وسترتك. »

قال الرجل ناهضاً على قدميه : « سنخرج نحن . »

قال الشريف : « إبق جالساً سنخرج انا وجاسن الى الشرفة . »

فقال جاسن : « البس قبعتك وسترتك يا هذا . لقد سبقونا باثنتي عشرة ساعة حتى الآن . » فاقتاده الشريف الى الشرفة ، ومرّ بهما رجل وامرأة وبادراه بالتحية ، فاستجاب لهما بايماءة بالغة البِشْر. وكانت الاجراس ما زالت تدق ، في اتجاه الحي المعروف بنُقرة الزنوج . وقال جاسن : « جيء بقبعتك ، يا شريف . » غير ان الشريف هيّأ لهما كرسيين ، وقال :

« اجلس وقل لي ما الذي حدث . »

فقال جاسن وهو واقف : « اخبرتك بالتلفون . وقد فعلت ذلك توفيراً للوقت . اتريد ان تضطرني الى اللجوء الى القانون لكي اجبرك على القيام بواجبك الذي أقسمت عليه ؟ »

— « تفضل بالجلوس ، واخبرني . وسأعنى بأمرك . »

— « ستعنى بأمري ! اهذا ما تسميه العناية بأمري ؟ »

— « انت الذي تؤخرنا . تفضل بالجاوس واخبرني . »

فقص عليه جاسن الأمر ، واحساسه بالأذى والعجز يتغذى بصوت ما يقول ، حتى نسي استعجاله بعد مدة في عنف ما تراكم في نفسه من الغضب وتبرير الذات . والشريف يرقبه دونما اضطراب بعينيه المتألقتين الباردتين .

وقـــال : « ولكنك لا تعرف انهما هما الفاعلان . انه ضرب من التخمين . »

فقال جاسن : « لا اعرف ؟ انا الذي امضيت يومـــين لعينين في ملاحقتها في الدروب ، محاولاً ابعادها عنه ، بعد ان هددتها بما قـــد افعله بها ان انا قبضت عليها برفقته ، اتقول لي ان هذه العا — »

قال الشريف : « ارجوك . كاف ، كفاني ما قلت . » وأرسل بصره الى الطرف الآخر من الشارع ويداه في جيبيه .

— « وعندما أجيء اليك ، وانت احد ضبّاط القانون — »

— « سيكون ذلك السيرك في موتسن هذا الاسبوع . »

— « نعم . ولو استطعت ان اجد ضابطاً من ضباط القانون يُبدي اقل الاكتراث بحماية النـــاس الذين انتخبوه لوظيفته ، لكنت هناك انا ايضاً هذه الساعة . » واعاد سرد القصة ، مكرراً القول بفظاظة ، كأنه يجد لذة حقيقيـــة في غضبه وعجزه . اما الشريف فبدا كأنه لا يصغي اليه مطلقاً .

وقال : « جاسن ، ما الذي كنت تفعله بثلاثة آلاف دولار مخبأه في البيت ؟ »

— « ماذا ؟ ليس من شأنك أين احفظ نقودي . امـــا شأنك فهو ان تعينني على استردادها . »

— « هل كانت امك تعلم بوجود هذا المبلغ كله لديك في البيت . »

— « اسمع . لقد نُهب بيتي . وانا أعرف الفاعليْن كما اعـــرف مكانهما . وقد جئتك بصفتك ضابطاً من ضباط القانون ، وها أنا أسألك مرة أخرى : أستحاول ان تسترد لي مالي ، ام لا ؟ »

— « ماذا تنوي ان تصنع بتلك الفتاة ، اذا أمسكت بهما ؟ »

قال جاسن : « لا شيء . لا شيء بالمرة . لن أدع يدي تمسها . هذه العاهرة التي افقدتني وظيفةً كانت فرصتي الوحيدة للتقدم في الحياة ،

والتي قتلت ابي وما زالت تقصّر أجل امي يوماً بعد يوم ، وجعلت اسمي اضحوكة الناس في البلدة . لن أصنع بها شيئاً . ابداً ، بالمرة .»

فقال الشريف : « جاسن انت الذي دفعت بها إلى الهرب يا.. »

— « ليس من شأنك كيف اصرّف امور عائلتي . اتريد ان تساعدني ام لا ؟ »

— « لقد دفعت بها الى الهرب من البيت . ولدي بعض الشكوك بشأن الصاحب الحقيقي لتلك النقود، الامر الذي لن أعرفه على وجه التأكيد ، لسوء الحظ . »

وقف جاسن مكانه وهو يعصر ببطء حافة قبعته بيديه . وقال بهدوء: « ألن تبدي اية محاولة للقبض عليهما ؟ »

— « ليس ذلك من شأني يا جاسن . لو كان لديك اي دليل ، لاضطررت الى اجراء اللازم . اما بدون دليل فلا اظن الامر من شأني . »

— « اهذا جوابك اذن ؟ فكّر جيداً . »

— « هذا جوابي . »

قال جاسن : « حسناً اذن . » ولبس قبعته . « ستندم والله على هذا . لن اكون عديم الحيلة . ليس هذا البلد بروسيا ، حيث يكون الرجل في حصانة من القانون لمجرد وضعه شارة معدنية صغيرة على صدره . » ونزل الدرج وركب سيارته وشغّل محرّكها . والشريف يرقبه يسوق ، ويستدير ، ويمرق هادراً بالبيت صوب البلدة .

جعلت الاجراس تقرع ثانية ، عالياً في ضياء الشمس المتراكض في مزق وهّاجة غير نظيمة من الصوت . وتوقف عند محطة بنزين لتفحص إطاراته وتعبئة خزان سيارته .

— « أذاهب في سفرة ؟ » سأله الزنجي ، فلم يجب . « يبدو ان الجو سيصحو اخيراً . »

فقال جاسن : « سيصحو ، هه ؟ قبل ان تحين الساعة الثانية عشرة ستمطر كما لم تمطر قط من قبل . » ورفع عينيه الى السماء وهو يفكر بالمطر ، والطرق الموحلة الزلقة ، وقد انحصر في مكان ما قصي عن البلدة . وقد حمل له هذا الخاطر ما يشبه نشوة الظفر ، قائلاً لنفسه انه لن يكون في البيت للغداء وانه اذا ما شرع في رحلته الآن مستجيباً لرغبته العنيفة في السرعة ، فإنه سيصبح عند الظهيرة على أبعد مسافة ممكنة من البلدتين . فبدا له ان القدر ، بهذا الصدد ، يحالفه ، فقال للزنجي :

« ما الذي تفعله ؟ هل نقدك احد شيئاً لتؤخر شغلك مع هذه السيارة أطول مدة ممكنة ؟ »

— « سيارتك هذه ليس فيها قطرة من الهواء . »

— « اذن ابتعد عنها وناولني ذلك الأنبوب . »

قال الزنجي ناهضاً : « امتلأت الآن . باستطاعتك ان تسوق الآن.»

فركب جاسن السيارة وشغّل المحرك وانطلق . تحوّل الى حركة الترس (Gear) الثانية ، والمحرك يلهث وينتفض ، ثم جعل يسرع جداً وهو يَصفُقُ الخانق وحشياً دخولاً وخروجاً . وقال : « ستمطر . دعني ابلغ منتصف الطريق ، ولتمطر كما تشاء . » وانطلق متنائياً عن البلدة ورنين اجراسها ، متخيلاً نفسه يكدّ سيراً في الأوحال ، باحثاً عن عربة بحصانين . « وما من أحد لعين منهم الا وهو في الكنيسة . » وتصوّر انه يلقى كنيسة آخر الامر ويأخذ احدى العربات عنوة واذا صاحبها يخرج ويصرخ به ،فيضربه ويوقعه ارضاً،ويقول : « انا جاسن كمبسن . اوقفني ان استطعت . وانتخب ان استطعت ضابطاً يستطيع ان يوقفني . » وتصور نفسه يدخل دار المحكمة ومعه ثلة من الجنود ويجرّ بالشريف الى الخارج . « يظن ان بوسعه ان يجلس مكتوف اليدين ويراني افقد وظيفتي ! سأريه ما معنى الوظيفة . » اما ابنة اخته فلم

يفكر بها قط ، كما لم يفكر بالقيمة الاعتباطية التي قُدرت للنقود . فلا النقود ولا كونتن كانت لها لديه اية هوية او فردية لعشر سنين طوال . انما الاثنتان معاً كانتا ترمزان الى الوظيفة التي حرم منها في المصرف ، قبل ان يحظى بها .

اشتد وهج النهار ، ولم تعد رُقع الظلال الجارية عبر الارض دليلاً على اكفهرار السماء ، فبدا له ان في انقشاع الغيوم ضربةً ماكرة من العدو ، في المعركة الجديدة التي كان في طريقه اليها يحمل جراحات قديمة . وكان بين الحين والحين يمرّ بكنائس ما هي الا مباني خشبية قبابها من صفائح حديدية ، تحيط بها خيول مربوطة وسيارات عتيقة ، فيخيل اليه ان كلاً منها موقع استحكام تترصده منه مؤخرة جيش القدر بنظرات خاطفة . فقال : « حاول انت أيضاً ان توقفني ان استطعت ! » وهو يتصور نفسه، وثلة جنوده مع الشريف المكبّل بالقيود في المؤخرة ، يجرّ القدرة الإلهية من على عرشها ، اذا اقتضى الأمر؛ ويتخيل جحافل السماء والجحيم تقتتل وهو يشق طريقه بينها ويضع يديه نهائياً على ابنة اخته الآبقة .

كانت الريح تهب من الجنوب الشرقي على خدّه باستمرار . وقد خيّل اليه انه يستشعر ضربتها المستديمة تنفذ خلال جمجمته ، وفجأة وقد خالجه هاتف قديم خبط على الفرامل واوقف السيارة وجلس في مكانه دونما حراك . ثم رفع يده الى رقبته وبدأ يسبّ ، وبقي جالساً وهو يسب في همس خشن . فقد كان من دأبه كلما اضطر الى السياقة مدة طويلة ان يجهز نفسه بمنديل مشبع بالكافور ، يعقده حول عنقه حالما يبتعد عن البلدة ، وبذلك ينشق بخاره . فخرج ورفع المقعد لعله يكون قد نسي هناك احد هذه المناديل . ونظر تحت المقعدين ووقف برهة وهو يشتم ويلعن ، وقد رأى نفسه موضع هزء من انتصاره . فاتكأ على الباب واغمض عينيه . ان بامكانه ان يعود ويجلب كافوره

المنسيّ ، او ان يستمر في انطلاقه . ورأسه في كلتا الحالتين يكاد ينفلق صداعاً ، الا انه واثق من وجود الكافور في البيت يوم الأحد ان هو عاد ، في حين انه قد لا يجد اي كافور اذا ما استمر في سيره . ولكن سيتأخر — لو هو عاد — ساعة ونصف الساعة في الوصول الى موتسن. فقال : « لعلني استطيع ان اسوق ببطء . لعلني استطيع ان اسوق ببطء شاغلاً فكري بشيء آخر — »

فركب السيارة ، وشغّلها . « سأفكر بشيء آخر ، » قال لنفسه ، واخذ يفكر بلورين . فتخيل نفسه في الفراش معها ، غير انه مضطجع قربها وحسب ، يتوسل اليها ان تساعده ، ثم فكّر بالنقود ثانية ، وكيف ان امرأة ، بل فتاةً ، غلبت حيلته بحيلتها . وكم تمنى لو يعتقد ان الرجل هو الذي سرق ماله ! اما ان يُسلب الشيء الذي كان يعتبره تعويضاً عن وظيفته المفقودة ، والذي لم يحصل عليه الا بأشق الجهد والمجازفة ، وان يكون الفاعل رمز وظيفته المفقودة بالذات ، بل وأسوأ من ذلك ان يكون الفاعل فتاة عاهرة ... واستمر يسوق ، ساتراً وجهه من الريح الهابة باستمرار بياقة معطفه .

لقد جعل يرى قوى مصيره وقوى ارادته المتعادية تزحف الآن سراعاً معاً ، نحو ملتقى لا مردّ له . فعزم على الحيلة والدهاء ، قائلاً لنفسه : لا مجال لي للخطأ . فليس ثمة الا شيء صحيح واحد : لا بديل له ؛ وعليه ان يفعله . وقد بدا له انهما سيعرفانه كلاهما حالما يريانه ، وهو يؤمل ان يراها هي اولاً ، الا اذا كان الرجل ما زال مرتدياً رباطه الأحمر . فخيّل اليه ان اضطراره الى الاعتماد على ذلك الرباط الأحمر انما هو خلاصة النكبة التي تتربّص به . انه يكاد يشمّها ، ويحسّها فوق النبض الذي في رأسه .

بلغ القمة من التل الأخير . وفي الوادي دخان ، واسطحة بيوت ، وقبّة او اثنتان تعلوان الشجر . فنزل التل ودخل البلدة ، متمهلاً ،

قائلاً لنفسه ان عليه بالحذر ، لكي يجد اولاً مكان خيمة السيرك . ولكنه ما عاد يحسن الرؤية الآن ، وادرك ان النكبة هي التي تستحثه دون انقطاع على الذهاب مباشرة للحصول على شيء يعالج به صداعه . وفي احدى محطات البنزين أخبروه ان الخيمة لم تُنصب بعد ، الا ان سيارات السيرك واقفة على أحد ارصفة المحطة . فساق سيارته الى هناك.

وهناك وجد سيارتي « بولمان » بألوانهما الصارخة واقفتين على الخط. فاستطلعهما قبل النزول من سيارته ، وهو يحاول الا يتنفس عميقاً ، لعل الدم لا ينبض عنيفاً في جمجمته . ثم ترجّل ومشى بمحاذاة جدار المحطة، وهو يرقب السيارتين ، وقد تدلى من نوافذهما بعض الملابس المتثنية الرخوة ، كأنها قد غُسلت لتوها . وعلى الأرض قرب الدرجات من احداهما كانت ثلاثة كراسي قماشية . غير انه لم ير ما يدل على اي حياة فيها الى ان ظهر بالباب رجل قذر الوزرة وافرغ قِدْراً من مائه القذر بإيماءة عريضة ، وقد تألق بطن القدر المعدني بشعاع الشمس، ثم عاد ثانية الى داخل السيارة .

فقال لنفسه ، علي الآن ان افاجئه قبل ان ينذرهما . ولم يخطر له ببال انهما قد لا يكونان في داخل السيارة . اما الا يكونا هناك ، والا تتعلق النتيجة برمتها على رؤيته اياهما او رؤيتهما اياه اولاً ، فأمر يناقض الطبيعة ويعاكس سير الأحداث وايقاعها ! والأكثر من ذلك : عليه ان يراهما هو اولاً ، ويسترد النقود، وعندئذ لن يكون لكل ما قد يفعلانه اي خطر لديه ،وإلا فإن العالم بأسره سيعلم ان جاسن كمبسن قد سلبت ماله عاهرة تدعى كونتن ، هي ابنة اخته .

واستطلع المكان من جديد ، ثم عاد إلى السيارة وصعد درجاتها ، بسرعة وهدوء ، وتريث عند الباب . كان مطبخ السيارة مظلماً يفوح بروائح الطعام البائت . وبدا الرجل اشبه بلطخة بيضاء ، وهو يغني بصوت « تينور » مهزوز مصدّع . ففكّر : كبير في السن ، واضأل

مني جسماً . ودخل السيارة ، ورفع الرجل نظره اليه .

— « هه ؟ » قال الرجل ، متوقفاً عن الغناء .

قال جاسن : « اين هما ؟ بسرعة ! أفي سيارة النوم ؟ »

— « من هما ؟ »

قال جاسن : « لا تكذب علي . » وتخبط في العتمة المزدحمة .

فقال الآخر : « ماذا قلت ؟ من الذي تسميه كاذباً ؟ » وحالما أمسك جاسن بكتفه ، هتف صائحاً : « حذار يا رجل ! »

— « لا تكذب . اين هما ؟ »

— « يا ابن الحرام ! » قالها الرجل،وذراعه في قبضة جاسن واهية ضامرة . وحاول ان يتخلص من قبضته ، ثم التفت واخذ يخبط بحثاً على الطاولة المكدّسة وراءه .

وقال جاسن : « هيا . اين هما ؟ »

فزعق الرجل قائلاً : « سأخبرك اين هما . دعني اجد ساطوري أولاً . »

— « اسمع ،» قال جاسن وهو يحاول ان يمنع الآخر عن الحركة . « انه مجرد سؤال اسألك اياه . »

فزعق الآخر وهو يخبط على الطاولة بحثاً : « يا ابن الحرام ! » وحاول جاسن الامساك به بكلتا ذراعيه ، وحصّر هياجه القميء . واحس بجسم الرجل بارداً ، ناحلاً ، غير انه مشدود بعزم واحد قتال جعل جاسن يرى لأول مرة دونما لبس او غموض النكبة التي سعى اليها بظلافه.

وقال : « كفى ! اسمع ! اسمع ! سأخرج . امهلني قليلاً ، فأخرج . »

والآخر يصيح : « أتدعوني كاذباً . خلّني . خلّني لحظة واحدة ، لأريك . »

فجعل جاسن يتلفت حوله مرتعباً ، وهو ممسك بالآخر . كان النهار

في الخارج الآن مشرقاً ساطعاً ، حثيثاً خالياً ، وفكّر بالناس الذين سيذهبون عما قريب وادعين إلى بيوتهم ليتناولوا غداء الأحد ، في أبهى زيناتهم وامرحها ، في حين راح هو يجهد للامساك بالشيخ القميء المتفجر هياجاً قاتلاً. ولا يجرؤ على اطلاقه برهةً تكفيه للادبار والهرب.

وقال : « هل تكفّ وتمهلني حتى اخرج من هنا ؟ تكلم . » غير ان الآخر ظل يكافح ، فأطلق جاسن احدى يديه وضربه على رأسه . ضربة عجلى غير مسددة ، ولا عاتية ، ولكن الآخر انكفأ فجأة وانهار مقرقعاً بين القدور والسطول الى الأرض . ووقف جاسن فوقه لاهثاً ، منصتاً . ثم استدار وهرب من السيارة ، غير انه ضبط نفسه عند الباب ونزل الدرجات في شيء من البطء ووقف هناك ايضاً . وجعل تنفسُه يحدث صوتاً هه هه هه ، فوقف مكانه محاولاً ان يكتمه ، ونظراته تطفر هنا وهناك ، حين سمع فحفحةً وراءه ، فالتفت ليرى الشيخ الصغير يقفز مترنحاً هائجاً من داخل السيارة ، وقد شهر ساطوراً صدئاً عالياً بيده .

فمد أصابعه نحو الساطور ، غير منصدمٍ ولكن مدركاً انه بدأ يقع ارضاً ، ومفكراً لنفسه : اهكذا اذن تأتي النهاية ، وظن انه على وشك الموت حين هوى شيء على مؤخّر رأسه وقال لنفسه : كيف اصابني هناك ؟ او لعله قد اصابني منذ زمن ، ولكن ما شعرت بالاصابة الاّ الآن ، وفكّر : هيا اسرع ، اسرع ، انته منها ، واذا هو يعاني رغبة جامحة في ألاّ يموت ، فكافح ، وهو يسمع الشيخ يولول ويشتم بصوته المصدّع .

وبقي يكافح حين رفعوه رفعاً ليقف على قدميه ، غير انهم أسندوه في وقفته ، فكفّ .

وقال : « أينزف دمي بكثرة ؟ مؤخر رأسي . أينزف دمي ؟ » وبقي يردد ذلك وهو يشعر ان ايدي قوية تدفع به على عجل ، ويسمع

صوت الشيخ الرفيع الهائج يتلاشى وراءه . وقال : « انظر الى رأسي . انتظر . اني — »

— « انتظر ! » قالها الرجل الممسك به . « ألا تعلم ان هذا الزنبور الصغير سيقتلك . اركض . لم تُصَب بأذى . »

فقال جاسن : « لقد ضربني . الست أنزف ؟ »

قال الآخر : « اركض ، » واقتاده حول منعطف المحطة ، الى الرصيف الخالي حيث وقفت شاحنة « اكسبريس » ، حيث نمت الأعشاب كالحراب في قطعة أرض محفوفة بزهور كالحراب ولافتة كتب عليها بأضواء كهربائية : عينك على موتسن ، والفجوة تملؤها عين كهربائية البؤبؤ . ثم أخلى الرجل سبيله .

وقال : « اسمع . خير لك أن تخرج من هنا ولا تعود . ما الذي كنت تحاول فعله ؟ الانتحار ؟ »

فقال جاسن : « كنت أبحث عن شخصين . وكل ما فعلته هو انني سألته اين هما . »

— « عمّن تبحث ؟ »

— « عن فتاة . ورجلْ . كان يلبس رباطاً أحمر امس في جفرسن. مع هذا السيرك . وقد سلباني . »

— « آ ، اذن انت هو — ولكنهما ليسا هنا . »

قال جاسن : « هذا ما يبدو ، » واتكأ على الجدار ووضع يده على مؤخّر رأسه ثم تفحص كفّه ، وقال : « ظننت انني انزف دماً. ظننت انه ضربني بذلك الساطور . »

فقال الرجل : « انت الذي صدمت رأسك بالسياج . فخير لك أن تغادر هذا المكان . فهما ليسا هنا . »

— « نعم . هذا ما قاله هو أيضاً . فظننته يكذب عليّ . »

— « اتظنني اكذب عليك ؟ »

— « كلا . اني اعلم انهما ليسا هنا . »

— « لقد أمرتهما ان يخرجا من هناك ، كلاهما . فأنا لن اسمح بمثل هذه الأمور في سيركي . انني ادير سيركاً محترماً ، وفرقة محترمة . »

— « نعم . ألا تعرف اين ذهبا ؟ »

— « كلا . ولا اريد ان اعرف . فليس في فرقتي من يستطيع أن يأتي فعلة كتلك . هل أنت — اخوها ؟ »

— « كلا . ولكن لا بأس . انا انما اردت ان اراهما . اواثق انت انه لم يصبني ؟ أعني انني لا انزف دماً ؟ »

— « والله لو لم أصل هناك في تلك اللحظة ، لكان ثمة دم كثير . فابقَ بعيداً عن هنا ، أتسمع ؟ والا فان ابن الحرام ذاك سيقتلك . هل تلك سيارتك ؟ »

— « نعم . »

— « اذن اركبها وعد الى جفرسن . وان وجدتهما ، فلن تجدهما في فرقتي . انني ادير سيركاً محترماً . أتقول انهما سلباك ؟ »

قال جاسن : « لا . لا بأس . غير مهم . » وذهب الى السيارة وركبها . وقال لنفسه : ما الذي يجب علي ان افعله ؟ وعندئذ تذكّر. فشغّل السيارة وساقها على مهل صعداً في الشارع إلى ان وجد حانوتاً . إلا انه كان مقفل الباب . فوقف مكانه برهة ويده على مقبض الباب محنيّ الرأس بعض الشيء . ثم انصرف ، ولما رأى رجلاً قادماً بعد قليل سأله هل في المنطقة حانوت مفتوح ، فجاءه الجواب بالنفي . ثم سأله عن موعد سير قطار الشمال ، فأجابه الرجل في الثانية والنصف . فقطع الرصيف وعاد ادراجه الى السيارة ودخلها وبقي جالساً فيها . وبعد قليل مر اثنان من فتيان الزنوج ، فناداهما .

— « هل يستطيع أحدكما ان يسوق سيارة ؟ »

— « نعم ، يا سيدي . »

— « ما الذي تتقاضاه لقاء أخذي بهذه السيارة الى جفرسن في الحال ؟ »

فنظر كلاهما الى الآخر ، مدمدمين .

قال جاسن : « أعطيك دولاراً . »

فدمدما ثانية ، ثم قال أحدهما : « قايل . »

— « كم تريد ؟ »

قال أحدهما : « أتقدر ان تذهب ؟ »

فأجاب الآخر : « لا والله . لماذا لا تأخذه أنت ؟ لا شغل لديك . »

— « لا والله مشغول . »

— « بماذا ؟ »

فدمدما مرة أخرى وهما يضحكان .

فقال جاسن : « أعطي أياً منكما دولارين . »

قال الأول : « لا أستطيع الذهاب . »

فقال جاسن : « لا بأس . انصرفا . »

وبقي جالساً مكانه مدة من الزمن . وسمع الساعة تدق النصف ، ثم أخذ الناس يمرّون ، بملابس يوم الأحد وعيد الفصح . وكان البعض يلتفتون اليه اذ يمرون — يلتفتون الى الرجل القابع ساكناً وراء سكّان سيارة صغيرة ، وحياته التي لا ترى قد انتكثت وانحلّت حوله أشبه بجورب عتيق . وبعد قليل جاءه زنجي يرتدي حلّة عامل .

وقال : « هل أنت الذي تريد الذهاب الى جفرسن ؟ »

قال جاسن : « نعم . كم تريد ؟ »

— « أربعة دولارات . »

— « اعطيك اثنين . »

— « لا أستطيع الذهاب بأقل من اربعة . » وبقي الرجل في السيارة

جالساً دون حراك ، ولم ينظر حتّى الى محدّثه . فقال الزنجي : « أتقبل أم لا ؟ »

— « طيب . اصعد . »

وتحول من مكانه ، وجاس الزنجي وراء السكّان . وأغمض جاسن عينيه وهو يقول لنفسه : سأجد له دواء في جفرسن ، لا بد ان أجد شيئاً هناك ، وكيّف نفسه لاهتزازات السيارة العنيفة . وسارت بهم السيارة في طرق يمشي الناس فيها الهوينا ويدخلون منها آمنين الى البيوت وغداء يوم الاحد — الى ان ابتعدت عن البلدة . وفكّر بذلك . لم يفكر بالبيت ، حيث كان بن ولستر يتناولان غداء بارداً على مائدة المطبخ . بل ان شيئاً ما — انعدام الكارثة أو انعدام الوعيد في شرٍ ما مستديم — سمح له بنسيان جفرسن أو أي مكان آخر رآه من قبل ، حيث لا محيد له عن استئناف حياته .

عندما انتهى بن ولستر ،أخرجتهما دلزي الى العراء وقالت: « وحاول ألا تثيره حتّى الساعة الرابعة . وعندها سيكون تي بي قد جاء . »

قال لستر : « حاضر . » وخرجا . وتناولت دلزي غداءها،ونظفت المطبخ . ثم ذهبت الى أسفل الدرج وأصاخت السمع ، ولكن لم يكن ثمة أي صوت . فعادت من خلال المطبخ وخرجت من الباب الخارجي وتريثت على الدرج . لم تر أثراً لبن ولستر ، غير انها اذ وقفت هناك سمعت رنةً رخوةً باتجاه باب السرداب ، فذهبت الى البـاب وشاهدت تكراراً لمشهد الصباح .

قال لستر : « هكذا بالضبط كان يفعلها . »وتأمل المنشار الساكن، فيما يشبه القنوط والرجاء معاً . وقال : « ليس عندي الشيء الصحيح لطرقه به . »

قالت دلزي : « ولن تجده في سردابك هذا . هيا اخرجه الى الشمس حالاً ، قبل ان تصابا بذات الرئة على تلك الأرض المبللة . »

وتريثت وهي ترقبهما يعبران فنـــاء الدار صوب مجموعة من أشجار الأرز قامت قرب السياج ، ثم يممت شطر كوخها .

قال لستر : « والآن ، إياك ان تبدأ ! لقد سببت لي كفايتي من المتاعب اليوم . » كانت هناك ارجوحـــة صنعت من اخشاب البراميل وقد نظمت كاللُّحمة في سُدى شبكة من الاسلاك ، اضطجع فيهـــا لستر ، بينما راح بن يحوم دونما وجهة او هدف . ثم طفق يئن ثانية ، فقال لستر من مضطجعه في الارجوحـــة : « هُس ، أتسمع . وإلاّ صفعتك . » فتوقف بن عن الحركة ، ولستر مـــا زال يسمعه يئن ، فقال : « أتسكت ام لا ؟ » ونهض من مكانه واقتفى اثر بن فألفاه جالساً القرفصاء إزاء مرتفع صغير من التراب ، على كلا الطرفين منه غُرزت في الارض زجاجـــة كانت تحتوي يوماً على سُمّ . كان في احداهما ساق ذابلة لزهرة « جمسن » ، وقد قبع امامها بن وهـو يئن بصوت وئيد عديم الإفصاح . وبقي يئن عندما بحث حوله دونما تعيين وعثر عـــلى عسلوج دسه في الزجاجة الاخرى . فقال لستر : « لم لا تسكت ، هه ؟ اتريدني ان اعطيك شيئاً يجعلك تئن عن حق ؟ طيب ، انظر . » وركع وانتزع الزجاجة فجأة وأخفاها وراءه . فكف بن عن الأنين ، وبقي جالساً القرفصاء يتأمل المنهبط الذي كانت الزجاجة مغروزة فيه ، وما كاد يسحب نفساً عميقاً يملأ به رئتيه حتى وضع لستر الزجاجة ثانية امام ناظريه ، وفحّ : «هس ! إياك ان تعيط ! إياك . ها هي ، أتراها ؟ ها هي . إن بقيتَ هنا ، فستبدأ بالعياط . هيا بنا ، لنذهب ونرَ إن كانوا قد بدأوا بضرب الكرة . » وأمسك بذراع بن وأنهضه وذهبا معاً الى السياج حيث وقفا جنباً الى جنب ، يرسلان النظر من بين اشجار زهر العسل المتواشجة التي لم تكن بعد قد نورت .

وقال لستر : « ها هم . ها قد جاء بعضهم . اتراهم ؟ »
وراحا يتفرجان على اربعة رجال يلعبون جيئة وذهاباً عـــلى الأرض

الخضراء واطرافها ، ويضعون الكرة مكانها ويضربونها . وجعل بن يتفرج وهو يئن ويريل . واذا ما ابتعد اللاعبون لحق بن بهم بمحاذاة السياج، يئن ورأسه في ارتفاع وانخفاض . وقال احدهم :

« تعال يا كادي . اعطني الكيس . »

قال لستر : «هس يا بنجي ، » بيد ان بن ثابر على جذبه وهو يخبّ ، متشبثاً بالسياج ، وينوح بصوته الأجش اليائس . فاذا ما لعب الرجل دوره ومضى ، سار بن ازاءه بمثل سرعته الى حيث ينعطف السياج في زاوية قائمة ، فتشبث بالسياج وهو يرنو الى الآخرين يتنقلون ويبتعدون .

قال لستر : « ألن تسكت الآن ؟ ألن تسكت ؟ » وهز ذراع بن، وبن متشبث بالسياج ، ينوح على رسله نواحه الأجش . « الن تكفّ؟ الن تكف ؟ » وبن يتطلع من خلال السياج . قال لستر « طيب ، اذن ، أتريد شيئاً تعيط وتصرخ بسببه ؟ » وألوى وجهه فوق كتفه ، في اتجاه البيت . ثم همس : « كادي ! اصرخ الآن . كادي ! كادي كادي ! »

وبعد برهة ، في ما يتخلل صراخ بن من فترات صمت متباعدة ، سمع لستر دلزي وهي تنادي . فأخذ بذراع بن وقفلا عائدين عبر فناء الدار صوب دلزي .

وقال لستر : « الم أقل لك انه لن يهدأ طويلاً . »

فقالت دلزي : « يا نذل ! ما الذي فعلت به ؟ »

— « لم افعل شيئاً . قلت لك انه ، حالما يبدأ هؤلاء الناس باللعب، يرفع عقيرته . »

— « تعال هنا . هس، يا بنجي ، هس . » غير انه لم يسكت . فعبروا الفناء مسرعين وذهبوا الى الكوخ ودخلوه . وقالت دلزي : « اركض واجلب ذلك الحذاء . احترس من ان تزعج الست كارولاين.

واذا قالت شيئاً فقل لها انه معي . هيا انصرف . ولعلك تفعل ذلك دونما خطأ هذه المرة . » وخرج لستر بينما اقتادت دلزي بن الى السرير واجلسته بجانبها واحتضنته وهي تهدهده، وتمسح لعاب فمه بحاشية تنورتها، وتقول وهي تمسّد شعره : « هس. هس. أنت عند دلزي . هس . » الا انه استمر في ولولته الوئيدة المضيمة دونما دمع — صوت يائس جهم هو صوت كل بؤس لا صوت له تحت الشمس . ثم عاد لستر يحمل خفاً ابيض من الساتان ، وقد اصفرّ لونه الآن ، وتشقق وتلوث ، فلما وضعه في يد بن ، هجع مدة من الزمن . غير انه ما انفك يئن ، وسرعان ما ارتفع صراخه من جديد .

فقالت دلزي : « أتعتقد انك تستطيع ان تجد تي بي ؟ »

— « قال أمس انه سيذهب اليوم الى سانت جون . وقال انه سيعود في الرابعة . »

وراحت دلزي تهدهد بن وتمسّد شعره .

وقالت : « طال بنا الوقت ، يا يسوع . طال بنا الوقت . »

فقال لستر : « بامكاني ان اسوق تلك العربة . »

— « ستقتل نفسك وبن ان فعلت . ولن تسوقها الا للشيطنة . أعرف ان لديك ما يكفي من العقل لذلك . ولكنني لا أستطيع ان اثق بك . صه ، صه . »

— « لا ، لن أفعل ذلك . وقد سقتها مع تي بي . » ودلزي تهز بن وهو في حضنها . « تقول الست كارولاين اذا عجزت عن تهدئته فانها ستنزل وتهدئه بنفسها . »

— « هس يا حبيبي ، » قالت دلزي ذلك وهي تمسد شعر بن . ثم قالت : « حبيبي لستر ، ان كنت تحب جدتك العجوز فهلا سقت تلك العربة بعناية وحذر ؟ »

— « أمرك يا جدتي . سأسوقها كتي بي بالضبط . »

وقالت دلزي ، وهي تمسد شعر بن وتهزه هز الطفل : « يعلم الله اني أفعل كل ما أستطيعه . » ثم نهضت واردفت : « إذهب واحضرها اذن . » فغاب لستر عن النظر . اما بن ، فبقي ممسكاً بالخف يبكي ، ودلزي تقول : « هس ، هس . ذهب لستر ليحضر العربة ويأخذك فيها الى المقبرة . ولن نجازف بجلب قبعتك . » وذهبت الى خزانة ليست الا ستارة من الخام عُلقت عبر احدى زوايا الغرفة ، وأحضرت قبعة اللبّاد التي كانت هي تلبسها . وقالت : « لقد أدركتنا حالة اسوأ من هذه ، لو ان الناس يعلمون . ولكنك ، على كل حال ، طفل الرب ، وانا سأكون ايضاً ملك يديه ، عما قريب ، تبارك سبحانه . هاك . » ووضعت القبعة على رأسه وزررت سترته . وهو ما انفك ينوح على رسله . ثم اخذت الخف منه ووضعته جانباً ، وخرجت به . وجاء لستر بفرس بيضاء عجوز تجرّ عربة مخلّعة معوجّة الجوانب .

قالت : « ستكون شديد الحذر والانتباه يا لستر ؟ »

فقال لستر : « نعم ، جدتي . » واعانت بن على الصعود الى المقعد الخلفي ، وكان قد كف عن البكاء ، غير انه بدأ الآن بالأنين ثانية.

قال لستر : « يريد زهرته . انتظري ، سأتيه بزهرته . »

قالت دلزي : « أما انت فابقَ مكانك . » ودنت وامكست بحبل اللجام . « هيا ، اسرع ، عليك بزهرة له . » فجرى لستر منعطفاً حول البيت صوب الحديقة . وعاد بنرجسة واحدة .

فقالت دلزي : « هذه مكسورة الساق . لم لم تأته بزهرة سليمة؟ »

فقال لستر : « انها الوحيدة في الحديقة . لقد اخذتم الزهور كلها يوم الجمعة لتزيين الكنيسة . انتظري سأتدبر امرها . » وهكذا ، فيما راحت دلزي تمسك بالحصان ، أضافَ لستر عوداً الى ساق النرجسة وربطهما معاً بخيط ، وأعطاها لبن . ثم امتطى العربة وأخذ الرسن. ودلزي

ما زالت ممسكة باللجام .

وقالت : « اتعرف الطريق ؟ اصعد الشارع ، ودر حول الميدان ، فإلى المقبرة ، ثم عد مباشرة الى البيت . »

— « حاضر . كويني ، تحركي ! »

— « ستكون شديد الحذر ، ها ؟ »

— « نعم ، جدتي . » فأفلتت دلزي اللجام .

وقال لستر : « كويني تحركي ! »

قالت دلزي : « لحظة ، ناولني ذلك السوط . »

— « اوه يا جدتي . »

— « ناولني اياه » قالت دلزي ودنت من العجلة . فناولها اياه لستر على مضض .

وقال : « وكيف اجعل كويني تتحرك الآن ؟ »

— « لا بأس عليك من ذلك . كويني تعلم اكثر منك اين هي ذاهبة . وما عليك الا ان تبقى في مكانك وتمسك بالرسن . أتعرف الطريق ؟ »

— « نعم . انه نفس الطريق الذي يذهب فيه تي بي كل احد . »

— « اذن فافعل ما يفعله هو هذا الأحد . »

— « طبعاً . ألم اسق بدلاً من تي بي اكثر من مئة مرة ؟ »

— « اذن ، سق هذه المرة ايضاً . هيا . ولكن ، والله ، ان آذيت بنجي ، ايها الغلام الاسود ، فلست ادري ما الذي سأفعله بك . انت مصيرك سلاسل السجن ، ولكنني سأرسلك اليها قبل ان تُهيأ لك السلاسل . »

— « نعم ، جدتي . هيا يا كويني ، تحركي ! »

ورفرف بالرسن على ظهر كويني العريض ، فجعلت العربة تتحرك في ترنح .

قالت دلزي : « اسمع يا لستر ! »

قال لستر : « تحركي يا هذه ! » ورفرف بالرسن ثانية ، فراحت كويني تقعقع ببطء في الطريق المؤدية الى الشارع والجوف ، يزمزم بها وفي الشارع استحثها لستر على مشية توحي للناظر بأنها دوماً على وشك الوقوع الى الامام دون ان تقع .

وكف بن عن الأنين ، وجلس في وسط المقعد ممسكاً في قبضته بالزهرة المجبرة ، وعيناه وادعتان مشرقتان يعجز النطق عنهما . وكان لستر الجالس أمامه مباشرة يدير رأسه الشبيه بالرصاصة الى الخلف باستمرار ، الى ان غاب البيت عن العيان ، فحاد الى جانب الشارع واوقف العربة ونزل منها وبن يرقبه وكسر غصناً من احدى اشجار السياج ، وبينما خفضت كويني رأسها وراحت تقضم الحشائش الى ان صعد لستر وجذب رأسها الى الاعلى وساطها لتتحرك من جديد ، ثم رفع كوعيه في زاويتين وأمسك بالغصن والزمام عالياً متخذاً وضعاً من التباهي لا يتناسب في شيء مع قعقعة حوافر كويني المسترخية وقرقرة احشائها التي تضاهي الخفيض من اصوات الأرغن . كانت السيارات تمر بهم ، وكذلك السابلة ، ومرت بهم مرة فئة من احداث الزنوج :

— « ذاك لستر . الى اين يا لستر ؟ ألى المقبرة ؟ »

فقال لستر : «مرحباً . أليست المقبرة مصيركم كلكم؟تحركي،يا فيل!»

ثم اقتربوا من الميدان ، حيث كان الجندي الاتحادي يتطلع بمحجرين خاليين من تحت يده المرمرية الى الريح وتقلبات السماء . وهنا زاد لستر من خيلائه واهوى على كويني الصمّاء بغصنه مرة اخرى ، وهو يجيل البصر في الميدان . وقال : « تلك سيارة السيد جاسن ، » ثم رأى فئة اخرى من الزنوج . فقال : « لنُرِ هؤلاء الزنوج كيف يتصرف اولاد الذوات ، ما رأيك ؟ » ونظر الى الخلف ، حيث كان بن جالساً

ممسكاً بزهرته في قبضته ، فارغ النظرة رخيّها . وضرب لستر كويني مرة اخرى وانعطف بها الى اليسار صوب نَصَب الجندي .

ولبرهة جلس بن مكانه في فراغ مطلق . ثم عاط وارتفع صوته صراخاً على صراخ يكاد لا تتخلله فترة للتنفس . وفيه ما يربو على الدهشة بكثير : انه الرعب ؛ الصدمة ؛ التمزّق لا عينٌ ولا لسان ؛ صوتٌ صِرْف . فدارت عينا لستر في محجريه هنيهةً بيضاء ، وقال : « يا الله ! هس ! هس ! يا الله ! » ودار عنيفاً مرة اخرى واهوى على كويني بالغصن ، فانكسر ، فرمى به عنه ، واذ راح صراخ بن يعلو نحو ذروته العجيبة امسك لستر بأطراف الزمام وانحنى الى امام ، وجاسن قادم نحوه يقفز عبر الميدان الى ان ارتقى درجة العربة .

وبضربة من قفا يده قذف بلستر جانباً وامسك بالزمام واستدار بكويني في الحال وشد بالزمام حتّى كان نصفه في يده وساطها به على ردفيها . واستمر بسوطها مرة بعد مرة الى ان انطلقت حِضاراً ، وقد ضج الجو حولهم بتمزّق بن الأجش ، وانعطف بها الى يمين النَّصَب . ثم اهوى بقبضته على يافوخ لستر .

وقال : « كيف يخطر لك ان تأخذه الى اليسار ؟ » ومد يده الى الوراء ولطم بن ، كاسراً ساق الزهرة من جديد . وقال : « إخرس ! إخرس ! » ثم سحب لجام كويني بعنف واوقفها، وقفز الى الارض . « عد به إلى البيت ، لعنك الله . وان انت يوماً عبرت به تلك البوابة ثانية ، قتلتُك والله ! »

قال لستر : « نعم ، يا سيدي ! » وامسك بالزمام وضرب كويني بأطرافه . « هيا ، هيا ، تحركي ! بنجي ، ارجوك ، لخاطر الله ! »

ظل صوت بن في زئير وهدير . ولما تحركت كويني ثانية جعلت حوافرها تقعقع على هينتها مرة أخرى ، وفجأة كف بن عن صراخه

وسكت . فنظر لستر بسرعة الى الوراء فوق كتفه ، ثم انصرف الى سياقته . وتهدلت الزهرة المكسورة فوق قبضة بن وعادت عيناه الى الفراغ والزرقة والسكينة من جديد اذ راحت الشرفات والواجهات تنساب انسياباً ناعماً مرة اخرى من اليسار الى اليمين ،وكذا الاشجار والأعمدة، والنوافذ والمداخل ، واللافتات ، كلٌ في مكانها النظيم .

الصخب والعنف

«الصخب والعنف» هي في رأي النقاد «رواية الروائيين»، وتركيبها الفني، على صعوبته، معجزة من معجزات الخيال.

وغاية فوكنر في هذه الرواية هي أن يصور انحلال اسرة آل كمبسن، ضمن الانحلال العام في «الجنوب» الذي يتألف من الولايات المتحدة التي انتعشت على زراعة القطن واستخدمت الزنوج رقيقاً إلى أن اندلعت نيران الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب، فخسر الجنوب الحرب، وألغي الرق، وغزا الشمال الجنوب بوسائل شتى وتغيرت معالم الحياة فيه.

وهذا التغير، بما فيه من انحطاط أو سمو، من شهامة أو حقارة، وبما سبقه أو تلاه من جرائم وصراع وهتك أعراض، هو موضوع فوكنر. و«الشرف والإباء» كلمتان ترددان في أكثر كتبه، الشرف والإباء والحب والشجاعة، وقد أحاطت بها قوى الفساد والجريمة والمادية والجشع والخسة. إن فوكنر يرى في قصة «الجنوب» مصغراً لما حل بالعالم من فوضى خلقية وانحلال اجتماعي، ويرى في ذلك مأساة كونية.

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون، ساقية الجنزير، ت ٨٠٧٩٠٠
برقياً موكيالي بيروت، ص. ب. ١١/٥٤٦٠ بيروت

الثمن ٢٤ ل. ل.